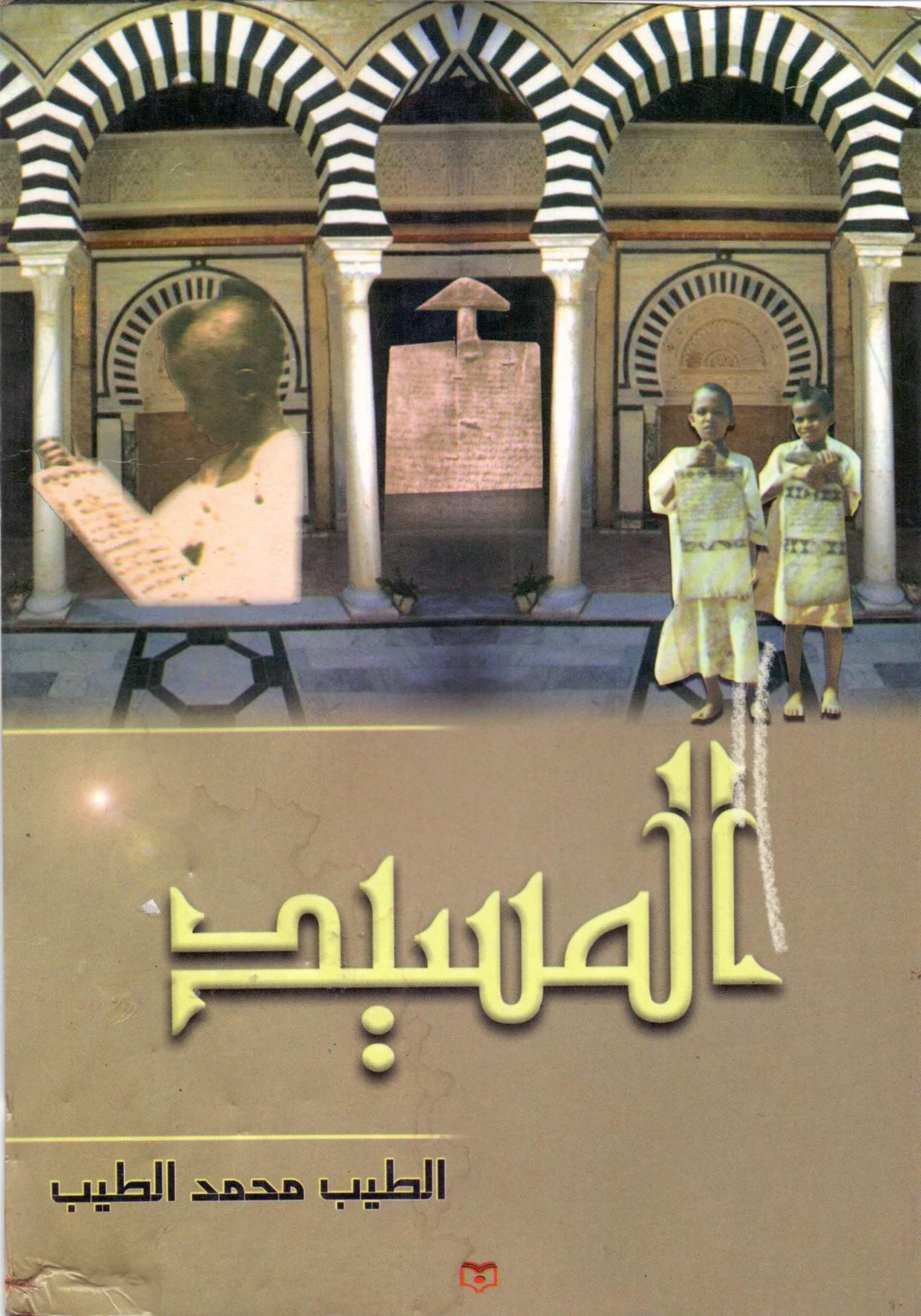
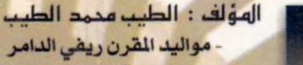


المسيد

الطيب محمد الطيب





المؤلف : الطيب محمد الطيب

- مواليد المقرن ريفي الدامر
- حفظ القرآن بخلوة المقرن .
- الكتاب اتبرا .
- الوسطي اتبرا .
- دارسات خاصة وقراءات خاصة .
- عمل بجامعة الخرطوم وحدة أبحاث السودان . ثم وزارة الثقافة كمدير مركز الفولكلور.

تكريم :

- وسام العلم الفضي عام ١٩٧٠م
- وسام العلم الذهبي من المكتبة القبطية .
- وسام المجلس القومي للبحوث .
- ماجستير فخري من جامعة الخرطوم ١٩٨٢م
- وسام العلم الذهبي في الدراسات الشعبية . جامعة الخرطوم .
- وسام السلام ١٩٨٩م
- وسام معهد الدراسات الأسيوية والأفريقية .

النشاط الإعلامي :

- مقدم برنامج تلفزيوني (صور شعبية) ٢٧ عام متواصلة .
- مقدم برامج إذاعية لأكثر من ١٥عام .
- كاتب صحفي منذ ١٩٦٨م .

مؤلفات :

- تاريخ قبيلة المناصير من أدبهم الشعبي بالاشتراك مع الأستاذ / عبد السلام سليمان سعد وعلي سعد علي مدير تنفيذي جنوب دافور.
- تاريخ قبيلة البطاحين من أدبهم الشعبي .
- المرشد لجمع الفلكلور بالاشتراك مع د.مصطفي معبار مصطفي ومحمد عمر بشارة .
- الأنداية دارسة المجتمع السوداني من خلال الحانات الشعبية .
- الدوباي دارسة عن بحور العناء الشعبي .
- الشيخ فرح ودتكتوك دراسة لعصره وأشعاره علي عهد السلطنة الزرقاء ١٥٠٤م ٩١٠هـ .

النشاط الفكري:

- عضو اتحاد الأدباء السودانيين .
- عضو المجمع اللغوى .
- عضو اتحاد الكتاب السودانيين .
- شارك في مؤتمرات في أوربا ومصر والكويت . الإمارات و الصومال وغيرها .
- شارك في عشرات المحاضرات بالجمعيات والأندية .



الغلاف : جمال

المسيد

المسيد

الطيب محمد الطيب



دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان

الكتاب : المسيد

المؤلف : الطيب محمد الطيب

رقم الإيداع : ١٤٧٣٠ / ٢٠٠٥

تاريخ النشر : ٢٠٠٥

ردمك : ٩٩٩٤٢ - ٥٤ - ٠٠٤٩

الناشر : دار عزة للنشر والتوزيع

الإدارة : شارع الجامعة - الخرطوم - جنوب وزارة الصحة .

ت : ٨٣٧٨٧٢٠٠ فاكس : ٨٣٧٩٧٠٨٤ (١ - ٢٤٩ +)

التوزيع : دارعزة للنشر والتوزيع ت : ٨٣٧٨٧٢٠١

السودان - الخرطوم . ص.ب : ١٢٩٠٩

بريد إلكترونى azza ph @ yahoo.com

قال رسول الله ﷺ:

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»

حديث شريف

مقدمة نقدية

المسيد

متعة ذهنية ورياضة فكرية

بقلم الأستاذ عبد الوهاب موسى[1]

كثيراً ما يبدو الإنجاز الإبداعي سهلاً وبسيطاً لمن يرمقه بنظرة عابرة. ولكن النظرة الفاحصة هي التي تكشف أنه «السهل الممتنع» وكتاب المسيد للأخ الصديق الطيب محمد الطيب هو النموذج الحي لكل هذا فهو يتيح للقارىء فرصة الإقبال على قراءته من مختلف المنطلقات ويتحمل تقييمه له على مختلف المستويات إن قراءته متعة ذهنية ورياضة عقلية.. ولعل مما يساعد القارىء على الاستمتاع والإفادة من هذا الكتاب أن مؤلفه معروف لمعظم الناس منذ عشرات السنين عن طريق التلفزيون والإذاعة والمحاضرات العديدة التي ظل يقدمها استجابة لرجاء الكثيرين ممن يتولون إدارة النشاط الثقافي في مختلف الهيئات والتجمعات الفئوية والأندية الاجتماعية..

الجراءة.. سمة المؤلف:

وكان النتاج الأول للأستاذ الطيب هو كتاب الانداية الذي تلقفه القراء بمختلف مستوياتهم العلمية ومواقعهم الاجتماعية ووجد كل منهم ما كان يرجوه فيه من متعة ذهنية وطرائف تراثية.. على أن الذي كان جديداً على القراء هو أن

(١) الأستاذ «الدكتور» عبد الوهاب موسى من أهل الفكر والثقافة وصاحب ملكة نقدية عالية.

يتجرأ كاتب على تأليف كتاب عن «الانداية» التي يتحرج معظم الناس لمجرد ذكر اسمها لاسيما على المستوى الاجتماعي المستنير..

ـ ولكن الطيب لا ينزعج لمثل هذا التحرج الاجتماعي طالما كان الموضوع الذي يطرقه في كتاب أو جريدة أو ندوة أو حلقة في التلفزيون أو الإذاعة موضوعاً حيوياً في نظره أو في نظر المجتمع المتأثر به ولا عجب أن رأيناه يتطرق إلى موضوعات كثيرة في التراث الشعبي في مختلف مناطق وقبائل السودان ويزيل الحرج عن الباحثين الأكاديميين الذين يترفعون أحياناً عن التصدي لدراسة مثل تلك الموضوعات الشعبية وانطلاقاً مع رؤيته العفوية هذه تناول الأستاذ الطيب موضوعاً شعبياً آخر هو سيرة الشيخ فرح ود تكتوك فأتحف القراء بكتاب ود تكتوك حلال المشبوك الذي جاء نقيضاً «للانداية» وتضمن دراسة لمجتمع صوفي مخالف تماماً لمجتمع الانداية فأدرك الناس أنه باحث متجرد ضالته الحقيقة أنى وجدها وهدفه التبصير كيفما اتفق..

عصارة جهاد وأسفار:

وهو إذ يضع الآن بين يدي القراء كتاب «المسيد» إنما يذكرهم بمنهجه العفوي في جمع الحقائق وعرضها ويبهرهم بقدرته المتفردة على معايشة تلك الحقائق في مواقعها مهما انزوت أو توارت عن أنظار الناس ويكفي أن يعرف القارىء أن جمع مادة هذا الكتاب استغرق أكثر من ربع قرن وأنه استوجب سفراً طويلاً إلى شتى مناطق السودان، وأسفاراً أطول إلى كل بلاد المغرب وموريتانيا والنيجر ونيجيريا وشاد والصومال واليمن والسعودية ودول الخليج ليجزم أنه أمام باحث عشق الموضوع الذي ينقب عنه وأمام كتاب هو تجسيد لشخصية كاتبه..

ـ وحين يدرك القارىء هذه العلاقة الحميمة بين الكاتب وموضوع كتابه فإن تساؤله الأول يصبح «كيف استطاع الكاتب أن يلتزم الحياد والموضوعية وهو يتناول موضوعاً حبيباً إلى نفسه مترسباً في وجدانه؟» والإجابة المعقولة على هذا

التساؤل هي إيمان الكاتب بأهمية وقيمة موضوعه الذي جعله يفترض اشتراك القارىء معه في نفس الإيمان ومن ثم زوال الحاجة لأي دفاع أو تحيز للحقائق المقدمة في الكتاب ورصد مؤشراته فإنه سيقبل على قراءته بعقل متحرر من قيود الترتيب والتبويب والتسلسل والترقيم وغير ذلك مما تعارف عليه أهل الخبرة في تأليف الكتب وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه من الضوابط والنظم التحريرية وسيجد نفسه في حل من الإصرار على أي تفسير محدد أو الالتزام بأي منحى خاص في تقييم أو تحليل ما يجد فيه من حقائق أو مفاهيم أو تصورات خلافاً لما يلزم به النقاد أنفسهم من مناهج وقواعد للتقييم..

- والواقع أن أسلوب الأخ الطيب في الكتابة يذكرك بأسلوب ود ضيف الله في كتاب الطبقات وأسلوب الشيخ بابكر بدري في كتابه «تاريخ حياتي» وأسلوب الرحالة العرب فهو يبدأ الموضوع من أي نقطة تروقه وتشد انتباهه كحقيقة أو ملاحظة هامة تستحق التسجيل مادامت له صلة قريبة أو بعيدة بالموضوع الذي يكتب فيه، وقد تضعف الصلة أحياناً بسبب الاستطراد الذي يقع فيه من وقت لآخر فيحس القارىء أن الكلام خرج عن الموضوع لكن الذين يستلمحون هذا الاستطراد يجدون فيه ترويحاً عن النفس من عناء الالتزام بالترابط الوثيق والتتابع المنطقي في عرض الجوانب التي ينطوي عليها موضوع الكتاب..

قارئان.. وقراءتان:

والذي يقبل على قراءة كتاب «المسيد» بهذه الروح والإدراك سيجد نفسه أمام حقائق وطرائف منثورة هنا وهناك وعليه أن يشحذ ذهنه ليجد الرابطة بينها وبين أصل الموضوع كلما عرضت عليه ويستشف شخصية الكاتب واهتمامه بكل ما يتصل بموضوعه من قريب أو بعيد، وقد يبتسم من وقت لآخر وهو يتأمل هذا الحرص على جمع كل شاردة وواردة حول الموضوع وتفريعاته أما إذا أقبل القارىء على الكتاب بروح الباحث المدقق فإن عليه أن يغوص بأعماق متفاوتة

في تحليل وتقييم ما يجده من مادة غزيرة قابلة لمختلف أنواع ودرجات الدلالة وهذا ما يجعل النوع الأول من القراءة متعة ذهنية والنوع الثانية رياضة عقلية والأخ الطيب يدرك هذه الاحتمالات ولهذا قال في نهاية المقدمة:ـ

ـ «ها أنا أضع بين يدي القارىء الكريم حصيلة جهد سار بي عدة سنوات ولو علم القارىء مقدار ما بذلته في جمع مادته وما قمت به من جهود مليئة بالأسفار واللقاءات والاطلاعات والمقارنات وولوج مناطق يعتبر الحاضر فيها جزءاً من الماضي والمشاهد فيها جزءاً من الآثار أقول لو عرف القارىء كل ذلك لتقبل مني هذا الكتاب بصدر رحب وتغاضى عما يشوبه من نقص وحسبه أن يكون نبعاً للمتعطشين لأحاديث التراث، ومعيناً للباحثين عن تاريخ الثقافة الإسلامية في السودان ونسأله تعالى الرشاد والتوفيق والسداد».

المسيد.. لماذا؟

وتوقع الطيب أن يتساءل القارىء عن دوافع الكاتب لتأليف هذا الكتاب فقال في المقدمة: «ولعل أول سؤال ينبغي أن أطرحه أو أجيب عليه قبل الشروع في العمل الذي أنا بصدده هو لماذا اخترت البحث في هذا الميدان؟ وحينما طرحت هذا السؤال على نفسي وجدت أن لذلك ثلاثة أسباب:ـ

ـ الأول ذاتي.. ـ الثاني الاهتمام الكبير من خلال هذه الصحوة الإسلامية التي انتظمت معظم الأقطار الإسلامية وبلادنا خاصة دعوة الرجوع إلى الأصول والجذور الثقافية وعلى قمتها الخلوة والمسيد باعتبارهما أوعية المعرفة الحقيقية التي صاغت المفرد المثالي في سالف السنين وقد رأى كثير من المثقفين والمتعلمين أن الانعتاق والاستقلال الثقافي الحقيقي لا يتحقق إلا بالرجوع للأصول المتمثلة في المدرسة القرآنية.

ـ الثالث قبل دخول المدرسة الأولية تفتحت عيناي على الخلوة في مسيد

جدي الفكي أحمد أبو القاسم ودارنا كانت جزءاً من ذلك المسيد الـذي بـدأه جدنا الفكي مدني بن الفكي أحمد قبل قرنيـن فـي قريـة المقـرن التابعـة لريفـي الدامر هكذا وجدت نفسي بين طلبة القرآن..

ـ كان ذلك على عهد شيخنا تاج المولـى محمـد عيسى الشـايقي مـن أهـالي الحامداب ثم عقبه شيخنا الفكي الحسن سعد علي سورج مـن أهـالي قريـة الأراك مركز مروى وكان أول ما عرفت الحياة من خلال خلوة المسـيد وكنـت أظـن أن العالم كله هو الخلوة والمسيد لأني تمرغت في ترابهما وعرفت طعم الحياة حلـوة ومرة في أفيائهما ولم أدرك قيمة المسيد والخلوة إلا بعد أن فارقتهما بزمن أدركت خلاله قيمة المدرسة القرآنية في تأصيل العقيدة والثقافة والذات والكيان ومن خلال هذا الفهم أحاول في هذا الكتاب رد بعض الجميل للمسيد..

ـ وحين يقول الطيب أن السبب الأول لإقدامه على تـأليف الكتـاب هـو سـبب ذاتي فإن ذلك يعني أن الشغف بالمعرفة جمعاً ونشـراً وتلـك الموهبـة الذاتيـة التـي تعين على تسخير ذلك الشغف لخدمة المعرفة بمختلف إشـكالها وبهـذا الاستقراء يصبح السبب الثاني نتيجة منطقية للسبب الأول حيـث نجـد المؤلـف يضـع شـغفه لذاتي بالمعرفة في خدمة الصحوة الإسلامية التي انتظمت العالم الإسـلامي ويتولـى التنقيب عــن الأصـول والجـذور ويركـز علـى الخلـوة والمسـيد باعتبارهمـا أوعيـة المعرفة الحقيقية التي صاغت الفرد المثالي في سـالف السـنين وقـد رأى كثـير مـن المثقفيـن والمتعلميـن إن الانعتـاق والاسـتقلال الحقيقـي لا يتحقــق إلا بــالرجوع للأصول المتمثلة في المدرسة القرآنية أما السبب الثالث فهو انعكاس للسبب الثـاني في نفس المؤلف فقد تأثر بتلك الصحـوة الإسـلامية وعـبر عـن ذلـك التـأثر بقولـه أدركت خلاله قيمة هــذه المدرسـة القرآنيـة فـي تـأصيل العقيـدة والثقافـة والـذات والكيان ومن خلال هذا الفهم أحاول في هذا الكتاب رد بعض الجميل للمسيد.

شاهد من أهلها:

وبعد أن وضح المؤلف الأسباب التي دعته لاختيار المسيد كموضوع يستحق الدراسة نجده يعبر عن إيمانه بأهمية وإمكانية وضرورة العودة إلى الخلوة والمسيد كمنطلق للتخلص والانعتاق من قبضة الفلسفة التربوية الغربية تدريجياً دون التفريط في الجوانب الصالحة من تلك الفلسفة ودعماً لإيمانه هذا يشير إلى ما جاء في كتاب اليونسكو لسنة ١٩٥٣ من أن فلسفة التربية الإسلامية لا تضارعها فلسفة وأن جوهر الخلاف بين التربية الغربية والشرقية هو أن الأولى مادية والثانية روحانية ثم يقول ومن هذا المنظور سيحاول هذا البحث أن يطلعنا على المسيد والخلوة وأهميتهما العلمية والاجتماعية والتربوية..

- وذلك بمنهج وصفي تحليلي كما تفرضه طبيعة هذه الدراسة بينما يعتمد الجانب الثاني على التجربة والملاحظة الخاصة التي خضتها في البلدان التي زرتها داخلياً وخارجياً..

هكذا حدد المؤلف أسبابه لاختيار موضوع الكتاب، ووضح أهدافه من تأليف الكتاب وبين منهجه في عرض مادته وأتاح للقارىء فرصة التأمل والتمعن في ما يقرأ بهذه المعايير ويفرز ما إذا كان المؤلف قد التزم بها مباشرة أو غير مباشرة وإلى أي مدى أعتمد على جهد القارىء في استخراج المؤشرات والشواهد التي حواها الكتاب ليثبت بها نجاح المؤلف في عرض تصوراته وأفكاره وقناعاته بالوضوح والمنطق المطلوب.

- سيجد القارىء نزراً يسيراً من الطرائف في الكتاب وترويحاً عرضياً عن النفس عندماي عرض عليه المؤلف جوانب من حياة الطلبة والخيران وما يتبادلونه من ألغاز ومصطلحات للتخاطب السري «ص٦٠-٦١» أو يشير إلى أنواع العقاب البدني والمعنوي والكلمات المستخدمة في كل ذلك «ص٦٤-٦٥».

- ولكن ذلك هو كل ما سمح به موضوع الكتاب وعلى القارىء أن يوطن

نفسه على رياضة عقلية شاقة ليستخرج مما يقرأ شواهده على صحة وتصورات وقناعات المؤلف حول الخلوة والمسيد واتخاذهما مرتكزاً ومنطلقاً للاعتداد بالتراث والثقافة والقومية الإسلامية والانعتاق من الثقافة الغربية التي ادعت لنفسها السمو والسيادة على مختلف الثقافات لمجرد أنها غزت تلك الثقافات بالقوة ووسائل الإعلام المتعددة والشاهد الهام على سمو مكانة الخلوة والمسيد في النسيج الاجتماعي الثقافي والديني في البلاد العربية والإسلامية عامة وفي السودان خاصة هو هذه القدرة الباهرة على إزالة الحواجز العرقية والقبلية والجهوية بين طالبي العلم والمؤسسة التي تحقق هذا القدر من الاتصال والتواصل والاندماج والانسجام بين شتات الناس جديرة بالإحياء والرعاية والتطوير وإنه لمن دواعي الارتياح والاغتباط لأي حادب على دعم الأصالة الثقافية أن يرى «المسيد» قد تطور مؤخراً إلى ما سمي بمجمع القرآن في كثير من القرى والمناطق..

- والنماذج الحية للمسيد في ود الفادني وهمشكوريب والدامر وغيرها تقف دليلاً قاطعاً على مدى عراقة هذه المؤسسة التعليمية ومكانها السامي في وجدان المجتمع وهي تزداد تمكناً رغم ما يجري حولها من توسع في التعليم المدني بكل مستوياته..

- والذين لم يرتادوا الخلوة أو يتعرفوا عليها في مستوياتها العليا داخل المسيد يستخفون عادة بدورها في تخريج أشخاص مؤهلين للقيام بأي عمل يحتاج له المجتمع ولكن الواقع أن الخلوة والمسيد كانا يعدان للمجتمع رجالاً قياديين في شتى مجالات الحياة وقد تحدث المؤلف عن هذا الدور الأساسي وأورد قوائم الأفذاذ من خريجي مسيد ود الفادني، والدامر، والغريبة.

وشهادات أخرى:

وإذا كان معيار الرقي الثقافي والتواصل فإن الخلوة والمسيد كانا نقطة

الاتصال بين السودان والأقطار الأخرى، وها هو المؤرخ «هولت» يتحدث عن مملكة الفونج فيقول: كان أشهر مركز تدريس بها مدينة الدامر حيث أسس بها المجاذيب خلال القرن الثالث عشر ما يمكن أن يسمى «جامعة إسلامية» كانت خلالها على اتصال دائم بمركز الثقافة والعلم في الحجاز والقاهرة.

كذلك تحدث الرحالة الألماني «بيركهارت» عن الدامر حيث زارها سنة ١٨١٤م فوصفها بأنها مدينة كبيرة وأشار إلى المجاذيب فقال: كانت لهم مكتبة كبيرة كما كانت حلقات العلم فيها تضارع حلقات الأزهر وأوضح من هذا أن السودان كان على صلة مبكرة بالعالم الإسلامي حوله وكان فقهاؤه يتبادلون الزيارات والإقامة الطويلة بل إن هناك من فقهاء السودان من وصل إلى اندونيسيا كالشيخ سوركتي ومن وصل أمريكا كالشيخ ساتي ماجد ولم يكن ذلك ممكناً لاسيما في تلك العهود البعيدة والمواصلات الصعبة لولا الشجاعة التي اكتسبها أولئك الرجال من دراساتهم في الخلوة والمسيد أما الآن وقد سهلت المواصلات فإن خلاوي السودان تعج بالآلاف من الطلاب الوافدين من مختلف الأقطار الإفريقية والعربية.

ويقول المؤلف في ص٢١ من الكتاب: ثم إن المسيد وكما هو معلوم يقوم مقام المدرسة العصرية ومن المعروف أن التعليم العصري لم ينتشر أولاً إلا في المناطق التي عرفت المسيد لأن المجتمع جرب التعليم واقتنع بجدواه وما زالت هنالك أصوات وجماعات تدعو لبث الروح في الخلوة القرآنية والمسيد.

وقد التزم المؤلف بهذا المخطط وصدق وعده حين عرض نماذج للعلاقة النمطية الحميمة بين الخلوة والمسيد والمجتمع المحيط بهما ثم ركّز على تجربة همشكوريب وود الفادني فأبدع في إبراز المسيد كقلب نابض في جسم المجتمع يتبادل معه العطاء ويمده بأسباب البقاء.. إن المتمعن في هاتين التجربتين لا يسعه إلا ان يرى فيهما مجتمعاً مثالياً متكافلاً تحركه توجهات إسلامية مبسطة وقيم

شعبية متأصلة. وليس غريباً في ضوء هذا أن يقول المؤلف في «ص٢١»: «ولا بأس من أخذ تجارب الأمم الأخرى غربية أو شرقية أو إفريقية في مجال التربية وفي نفس الوقت يمكننا أن نعود لتراثنا الثقافي لنجد فيه ما يلي: - رغباتنا وحاجاتنا إذا أحسنا استغلاله والاستفادة منه».

هويتنا.. هويتنا:

إن الهجمة الغربية الكاسحة التي أشعرت شعوب العالم الثالث أن ثقافاتها زائلة لا محالة، قدمت لتلك الشعوب بدائل قلما وجدت قبولاً عندها لهذا بدأت المناهضة والبحث عن الذات وبلورة «الهوية» واتخاذ الإسلام والتراث أساساً لكل ذلك وما يحدث الآن ومنذ سنين في مسيدين ود الفادني وهمشكوريب من تنظيم دقيق وكامل لحياة المجتمع المحيط بهما هو الرد المفحم على من يكابرون ويتشككون في إمكانية الانفلات من قبضة الثقافة الغربية ونظمها التربوية والاجتماعية.. ففي هذين المسيدين وأمثالهما في مختلف بقاع السودان يطلع القارىء على مستوى من الجهود الطوعية الخيرة المتضافرة، لا يتحقق بالوسائل الرسمية الالتزامية ويورد المؤلف أسماء عدد من الخيرين الذين أسهموا بقسط وافر في بناء الخلاوي والمساكن القائمة في مسيد ود الفادني أما في مسيد الغربية فقد تكفل سكان القرية بإيواء وإطعام الطلبة الوافدين في منازلهم مباشرة ويواصل المؤلف عرض شواهده على مكانة الخلوة والمسيد في نسيج المجتمع السوداني ويكشف الأدوار المتعددة التي يقوم بها المسيد في توجيه ورعاية حياة هذا المجتمع ليثبت بكل ذلك سلامة قناعته بجدوى إحياء وتطوير هذه المؤسسة الدينية والاجتماعية في بلاد الإسلام عامة والسودان خاصة.

والمجال لا يتسع هنا للإسهاب في كشف تلك الشواهد ويكفي ذكر بعض العناوين ليرى القارىء كيف دعم المؤلف قناعاته وتصوراته عن الخلوة والمسيد

ودورهما وجدارتهما بالبقاء والتطوير.. فهو تحدث «عن الأمر بالمعروف» في مسيد المجاذيب «ص١٤٣» وعن نظام التعليم عند المجاذيب «ص١٤٧» وعن الأدوار التي تقوم بها الخلوة في المجتمع التقليدي ويبرز الدور السياسي والاجتماعي منها «ص١٦٤» وعن المسجد والتعليم «ص١٧٥» وعن وظيفة المسجد التعليمية «ص١٧٦» وعن الخلوة والمهدية «ص١٩٧» ويفصّل النشاط اليومي لمسيد أم ضبان «ص٢١٠-٢١١» ويتحدث عن العلاقة الوثيقة التي قامت بين أطباء الأمراض العصبية والنفسية ومسيد أم ضبان «ص٢١٧» تحت عنوان العلاج التقليدي ويبرز دور المسيد في استقرار العرب الرُحل حول الآبار والحفائر التي تقوم بالقرب من المسيد ويتحدث عن دور المرأة في إنشاء وتعمير وإدارة الخلاوي والقيام بالتدريس فيها «ص٢٤٧».. إلخ.

وقد يرى بعض القراء أن المؤلف أفرد لتاريخ القبائل وأنسابها حيزاً كبيراً في الكتاب ولكن العلاقة الوثيقة بين القبائل وما ينشأ فيها من خلاوي هي التي تبرر ذلك الاستطراد المستملح، وانظر إلى ما أورده المؤلف في «ص١١١ـ١١٤» عن قبيلة المحس وكيف اتخذ من كل ذلك مدخلاً بارعاً للحديث عن الشيخ أرباب العقائد ودوره في تأسيس خلاوي القرآن وهكذا لم يخرج عن موضوع الكتاب هنا أو في المواضع الأخرى التي استطرد فيها بسرد تاريخ بعض القبائل ليذكر مفاخرها في إنشاء ورعاية المسيد.

والحديث عن القبائل بهذا التوسع والاستطراد هو مفتاح شخصية المؤلف فقد نشأ في بيئة معيارها القبلية وعمادها الأنساب وهذا ما يجعل قراءة الكتاب تأملاً في تلك الشخصية واندهاشاً لما اختارت وإعجاباً بما أنجزت وانبهاراً بما حققت.

نقد لكتاب المسيد

مع الطيب محمد الطيب في كتابه المسيد

بقلم د. محمد خير عثمان وزير التعليم العام السابق

صدر أخيراً من دار جامعة الخرطوم للنشر كتاب «المسيد» لمؤلفه الباحث الأديب الأستاذ الطيب محمد الطيب. والكتاب يعتبر تعبيراً آخر عن الاهتمام الذي ينتظم جميع أعمال الطيب محمد الطيب القائمة على تأصيل الموروث الثقافي الشعبي لبلادنا. ولا أحسب من الإنصاف أن يوصف الكتاب بأنه مجرد إضافة جديدة للمكتبة التربوية السودانية، فهو وبكل المعايير يعتبر رائداً وغير مسبوق في مجاله. إنه يخطو بنا خطوة متطورة في معالجة التعليم الإسلامي في طبيعته ونشأته وانتشاره في ربوع السودان بصورة متكاملة وموثقة، ويقترب بنا من تأطير التجربة السودانية في التعليم السوداني وطرحها كمنظومة تتوفر لها كل المقومات التي تجعل منها «نظاماً تعليمياً» متكامل العناصر.

لقد تمت هذه التجربة الفريدة للتعليم في بيئة بدائية بالمقاييس الحديثة.. بيئة عربية ـ افريقية زراعية وشبه صحراوية تقوم على اقتصاد الكفاف، وتغطي فترة زمنية سابقة بقرون وأجيال للاقتصاد التقني المتطور والمتغيرات المتسارعة التي يتصف بها العالم المعاصر، إلا أنها كانت مع كل ذلك تحمل الخصائص والبذور التي تجعل منها نظاماً قابلاً لمجابهة المتطلبات المعاصرة لأن التجربة كانت تحمل في جوفها خصوصية «التربية الإسلامية» المؤسسة على هدي القرآن الكريم والشريعة

المحمدية واجتهادات العلماء والفقهاء المسلمين في عصورهم المختلفة. وعلى الرغم من أن التربية الإسلامية بهذا المفهوم ـ كانت ـ وما زالت ـ في مجملها مجرد تصور نظري لمجموعة من المبادىء والإرشادات ولاستخلاصات علمائها من القرآن والسنّة ولم تجد التطبيق العملي في أرض الواقع إلا في وحدتها الأساسية ـ الخلوة القرآنية ـ والمراحل غير المبرمجة التي تتلوها، إلا أنها في نموذجها السوداني وفي الظروف التي أحاطت بنشأتها وتطورها في البيئة السودانية استطاعت أن تجود بأروع ما فيها من مبادىء وقيم تجسدت فيها خصائص ما زالت تفتقر إليها النظم التربوية الحديثة، كالمرونة والانفتاح والقدرة على التأقلم مع الاستجابة لحاجات البيئات المحلية وخصوصياتها، ومع الاحتفاظ بركائز الهوية الوطنية وثوابتها.

ونحن في كتاب «المسيد» نرى هذه التجربة الرائدة في تكاملها وعمقها وانتشارها والتي بدأت في ديارنا منذ أوائل القرن الثامن الميلادي وكأنها تخاطب مجتمعات القرن الواحد والعشرين. إنها تحمل كثيراً من الرؤى والطموحات التي ظلت تنادي بها المجتمعات العصرية ولا تكاد تحققها إلا فيما ندر.. مجانية التعليم.. تعميم التعليم.. تكافؤ الفرص في تناوله.. ارتباطه بالبيئة.. قيامه على المنظومة الأخلاقية.. بل إنها وفي كثير من جوانبها وتطبيقاتها العملية تتجاوز الواقع العصري إلى مخاطبة المستقبل.. حرية الحركة العلمية بإلغاء الحدود الجغرافية بين طلاب العلم ومؤسساته وأساتذته.. إشاعة التعليم بلا شروط مقيدة ولاَ التزامات عصية إلخ.. كما أنها في سعيها لتحقيق مبدأ «المجتمع المتعلم» و«التربية المستمرة» ـ وهما من أحلام المتفائلين من دعاة التجديد التربوي ـ نقلت مفهوم «الأعمال الخيرية» في التعليم إلى واجب والتزام أدبي يكاد في كثير من الأحيان يكون هو الحد الأدنى لإعانة التعليم من الرعاة والحكام والقادرين من المواطنين. وبفضل هذه الرعاية التي أسبغها المجتمع السوداني على التعليم أصبح

السودان أول «سوق حرة» للعلم لا قيد علـى أحـد فـي تناولـه إلا قيـد الرغبـة فيـه والقدرة عليه.

هذه هي الصورة الأساسية التي يحاول كتاب «النمسيد» أن يطرحها للقـارىء. وهي صورة سودانية أصيلة إلى حد كبير. نعلم ذلـك مـن تعرفنـا علـى المؤسسـات المشابهة للخلوة والمسيد من أقطار عربية وأفريقية أخرى وفي الأجزاء التـي تنـاول فيها المؤلف بالوصف المقارن هاتين المؤسستين.

وقد سلك المؤلف إلى وصف هذه الصورة مسالك عدة وركب إليها مراكـب مختلفة.. معظمها صعب وأقلها يسير، بعضها حالفه التوفيق وبعضها كان أقل حظاً من النجاح. فقد تبنـى المؤلـف فـي كتابـه نفـس المنهـج الـذي أخـرج بـه أعمالـه الأخرى. وهو منهج يجمع بين طريقة ابـن بطوطـة فـي رحلاتـه وذلـك مـن حيـث تحري الحقائق في مظانها المكانيـة وبوجـوده المباشـر علـى مسـرح الأحـداث أو بالاعتماد على المصادر الحية أو المخطوطة خلال طوافه ولقاءاته بأصحاب الشأن. وقد حملت هذه الرحلات المؤلف داخل وخارج حدود البلاد وإلـى أقطـار عربيـة وإفريقية إسلامية عدة. كما نجد في الكتاب ظـلالاً مـن ود ضيـف اللـه فـي شـغفه بالتفاصيل وشعبيته واستطراداته. وقد التزم المؤلف بأسلوب سهل ومسترسل، تزينـه أحياناً عربية مشرقة الديباجة.

ومن الصعب على القارىء أن يضـع يـده علـى منهجيـة واضحـة فـي الكتـاب. ويـبدو أن المؤلـف قـد أخـذ بعـدة مداخـل وكـاد المنهـج أن يجمـع مـن شـتات المعلومات الغنية والمفيدة والتـي تشـتمل علـى حقـائق توثـق لأول مـرة. والمنهـج التاريخي ذو أهمية أساسية في مثـل هـذه الدراسـات والتـي يعتـبر الزمـن مـن أهـم عناصرها لإكسابها منطق التتابع والترابط المطلوب. ويمكن حصـر المداخـل التـي تجمع عناصر الكتـاب فـي المنطـق المؤسـس ومدخـل المشـايخ والمدخـل القبلـي والمدخل الجغرافي والمدخل المقارن. وهي مداخل متداخلة ومتشابكة في بعضهـا

البعض وإن غلب واحد منها على الأخرى. فهو في المدخل المؤسس مثلا. يركز على الخلوة أو المسيد كوحدة محورية يختارها إما لشهرتها أو لعراقتها أو لحجمها ولكنه لا ينسى الوقوف عند مشائخها لاسيما صاحب الفضل الأول في إنشائها ومن جاء بعده من ورثته. هكذا فعل مثلاً عند وصفه لمسيد ود الفادني ومسيد أم ضبان ومسيد همشكوريب وكما فعل بخلوة الغريبة من دار الشايقية وهي من أعرق وأشهر الخلاوي في تلك المنطقة.

وعندما يختار القبيلة محوراً فإنه يتناول بالوصف المناطق الجغرافية التي حملت إليها العلم ويعدد مشايخها من الذين ذاع صيتهم في البلاد. وفي هذه الحال فإنه يحرص دائماً على التمييز بين القبيلة كصاحبة الأصل في إنشاء المؤسسة والقبيلة أو المنطقة التي اتفق أن قامت فيها المؤسسة. فهو مثلاً يشير إلى خلاوي «الغبش» من بربر وخلاوي «المجاذيب» في الدامر دون أن ينسبها إلى الجعليين وكذلك الحال عندما يصف خلاوي البديرية فإنه لا ينسبها إلى الشايقية بل إلى «دار الشايقية» ومع ذلك فإنه يشير إلى الدور الذي قدمته المنطقة «المضيفة» إلى المؤسسات ذات الأصل «الوافد» من رعاية وكرم وفادة مما سهل على الأخيرة قدراً كافياً من التفرغ لأداء رسالتها العلمية في مقابل ما حصلت عليه المنطقة من خدمات علمية.

وقد وقف المؤلف وقفات طويلة ومفيدة عند بعض المجموعات القبلية والتي لعبت دوراً رائداً وبارزاً في نشر القرآن وعلومه في ربوع البلاد وهي قبائل ومجموعات توارثت هذه الرسالة وعرفت بها على مدى أجيال طويلة فهو يبدأ بالمجموعة الدنقلاوية والتي شهدت ديارها إقامة المسجد الأول في السودان ومنه انبثقت المؤسسات الرائدة وعم نورها أطراف البلاد وانتشر علماؤها المنحدرون من غلام الله بن عائد وذريته، يتوارثون العلم، قرآناً وفقهاً وقضاء إلى يومنا هذا. ومنهم أولاد حاج بلول الذين يتشرفون باحتضان أول مصحف في نسخته الخطية

الأصلية وقد اعتبره المؤلف من أقدم المصاحف من نوعه والمعروفة حتى اليوم وقد تم الانتهاء من كتابته في يوم الأحد ١٠ شوال عام ٨٧٠هـ.

ووقف وقفات أطول عند مجموعة القبائل المحسية ووصفَ دورها التاريخي العريض والعميق في التعليم القرآني ونشره في البلاد واحتفاظها بقراءة «ورش» أقدم القراءات القرآنية بالسودان كما عدد بعض أكابر علمائها الذين تألقوا في سماء العلم وتعليمه وحفظه. وكذلك فعل مع الغبش والمجاذيب كما أسلفنا ومع الركابية والصواردة والكتياب الذين اشتهروا دون غيرهم في السودان أو بلاد الإسلام الأخرى بتخصيص مقبرة لحفظة القرآن «لا يفصل بينها أي قبر لم يعرف صاحبه بحفظ القرآن».

وقد يفرد المؤلف أحياناً فقرات مكثفة للحديث عن علم واحد ومن مشائخ القرآن يجعله محوراً لحال القرآن في منطقة أو قبيلة أو علم بعينه «ومن هؤلاء مثلاً الشيخ «أرباب العقائد» والذي يرجح المؤلف أن مسجده الأصلي كان في المكان الذي أقيم فيه المسجد العتيق حالياً أو «مسجد فاروق» بالخرطوم. وقد يأتي الحديث عن أحد هؤلاء الأعلام في سياق الحديث عن المؤسسة وبذلك يجمع عنصرين في جزء واحد من الكتاب كما فعل عندما خصص في الفصل السادس جزءاً لمسيد «أم ضبان» ولكنه يتعجل في وصف «المؤسسة» ليسرع الخطى إلى «الشيخ» فيفصل القول فيه ؟؟ أخلاقاً وحكمة شعبية وجهاداً ضد المستعمر. وهكذا ينقل الصورة متكاملة للشيخ العبيد ود بدر .

وهو قد يعطي كلاً من المؤسسة وشيخها وبيئتها نصيباً عادلاً من الوصف وذلك عندما أفرد الباب الخامس للمسيد في شرق السودان فجعله قسمة بين مسيد همشكوريب الذائع الصيت في الشرق وبين سيدنا علي بيتاي ربين البيئة القبلية والاجتماعية التي تم فيها إنشاء المسيد.

وقد يبدي المؤلف اهتماماً خاصاً بالأنساب ومتابعتها ـ وهذا الاهتمام جزء من

ثقافته وتخصصه - فيترك لنفسه العنان في تتبع أصـول المشـائخ وعلاقـاتهم بغيرهم من أفذاذ وأنداد آخرين وبذلك يضيف للقارىء معرفة عرضية بجانب آخر ليس من صلب الموضوع ولكنه لا يخلو من الفائدة في حد ذاته.

والكتاب يلفت الاهتمام إلى حقيقة طريفة وهامة ويطرحها بطريقة غير مباشـرة كقضية علمية تنتظر التحقيق والمتابعة والاستقصاء ألا وهي وجود «أشجار نسب» أخرى غير أشـجار النسـب الرحميـة المعروفـة وهـي تلـك المتعلقـة بالعلاقـات المتسلسلة «بالقرابة» العلمية وتشابكها وتفرعها رأسياً وأفقياً فـي حلقـات متصلـة كالعلاقة التي تقوم بين الشيخ وحيرانه ومن أخذ عنهم في أجيال متتابعة. ومثل هذه «النسبة» لا تخضع بالضرورة للتوريث أو لعلاقة الرحم أو النشأة فـي قبيلـة واحـدة ولكنها في أحيان كثيرة تنمو بمعزل عـن العلاقـات العائليـة أو القبليـة. ولعـل هـذه ظاهرة فريدة تميز صورة التعليم الإسلامي في السودان.

ويقـف التعليـم القرآنـي فـي دارفـور ثقافـة علميـة واجتماعيـة بذاتـه ونموذجـاً للمدخل الجغرافي في الكتاب وشاهداً على مدى التغيير الجذري الذي تتعـرض لـه المجموعات التي تستقبله وتقبل عليه بالشوق واللهفة كما فعلت دارفور ـ وعندمـا تذكر الهجرات القرآنية من أدبيات التعليم الإسلامي فـي السـودان ينصـرف الذهـن إلى المهاجرين من طلاب القـرآن مـن أبنـاء دارفـور إلـى منـاطق أواسـط السـودان وحوض النيل، كأنها الهجـرة الدارفوريـة هـي ذات اتجـاه واحـد مـن الغـرب إلـى الشرق، و كأنما لا توجد منافذ أخرى لهجرة أبناء دارفـور غـير منـافذ الهجـرة إلـى الشمال ولكن الدراسة تصحح هذا المفهوم من وجهين الأول أن الهجرات القرآنيـة بين دارفور وغيرها من مناطق السودان الأخرى كانت حركة متبادلـةً فكمـا هـاجر أبناء دارفور إلى الشمال كانت دارفور تستقبل مهـاجرين إليهـا مـن الشـمال لنفـس الهدف العلمي. والوجه الآخر هو أن هناك حركة هجرة متبادلة قديمة بيـن دارفـور من جانب وغيرها من أقطار المغرب العربي وقد تكون هجرات دارفـور إلـى مصـر

والحجاز ولا يكون شمال ووسط السـودان إلا استراحة مؤقتة لاستئناف الرحلة شمالاً أو شرقاً.

ومن أهم إسهامات الكتاب عقـده فصـلاً كـاملاً عـن دور المـرأة فـي تدريـس القرآن والفقه وتوثيقه لهذا الدور في حركة التعليم الإسلامي بعامة في بلادنا. ودور المرأة المسلمة في العـالم ــ تناولاً وعطـاءً ــ ظـاهرة شـائعة فـي كثير مـن البلـدان الإسلامية ولا أحسب أن المـرأة السـودانية كـانت بـأقل تـأثيراً مـن تطويـر التعليـم الإسلامي بين النساء خاصة وفي المجتمع بصورة عامـة وقـد بـذل المؤلـف جهـداً طيباً في جمعه وتحقيقه لتراجم بعض شـهيرات النسـاء ودورهـن المتميز فـي هـذا المجال.

هذه شذرات قصدت بها تقديم هذا العمل المفيـد والأصيـل للقـارىء ولكنهـا شذرات لا تغني عن قراءة الكتاب في أصله فهو وثيقـة علميـة وسـياحة ثقافيـة فـي واحد من أهم موروثاتنا الشعبية وأخطرها تأثيراً على ثقافتنا وهويتنا. ولكني وبصفـة خاصة أرشح لقراءته المتخصصين في التربية من القراء وأخص بالذكر منهـم الذيـن تناولوا في دراستهم وبحوثهم أو تأليفهم تاريخ التعليم في السـودان. فلـم أعـثر فـي قراءاتي لمن ساهم منهم في هذا المجال علـى تحقيـق جـاد ومقنـع لخلفيـة تـاريخ التعليم في بلادنا في صورة تنصف التعليم الإسلامي وتشكلٍ «شـخصيته» وتحـدد كيانه وإنما هي شذرات متفرقة مكرورة ومـرددة لا يتجـاوز مصدرهـا طبقـات ود ضيف الله أو الدكتور عبد العزيـز عبـد المجيـد الـذي أعـاد صياغـة أجزاء مـن ود ضيف الله واستكملها بما استطاع الحصول عليه من دار الكتب المصرية من وثائق تتعلق بالحكم الـتركي فـي السـودان وفرماناتـه. وقـد كـان فـي وقتـه جهـداً رائـداً ومشكوراً.

فقد دأب المؤرخون من التربويين السـودانيين علـى اعتبـار مـيلاد التعليـم فـي السودان هو «ثلاثية» جيمس كري المشهورة في أهداف التعليـم ومـن هنـا فـإنهم

قلما أنصفوا التعليم الإسلامي السابق للعهد الاستعماري والتعامل معه كثقافة تقليدية وطنية ومتكاملة ثقافة كما أهدافها ومراميها وفلسفتها وتقنياتها التي تختلف جذرياً عن طبيعة التعليم الحديد الوافد. ودون إبراز هذه الخلفية كقوة ثقافية موازية للقوة الحديدة، ودون وضع احتمالات الصراع السياسي والثقافي بين القوتين في الحسبان وفي إطار جدلي حتمي كما برهنت الأحداث من واقع التطورات المتلاحقة في السودان خلال نصف القرن الأول للحكم الحديد فإن الجهد الذي انصرف وما زال ينصرف من قبل مؤرخي التعليم الحديث في السودان لا يتجاوز كونه تدريباً أكاديمياً على منهجية البحث.. وليس مرشحاً بحال من الأحوال لتقديم مرافعة مقنعة ومؤثرة يمكن أن تحمل واضعي القرار التعليمي لوضع البديل الإسلامي موضع النظر الجاد مهما انطوى هذا البديل ـ وبالنظرة العلمية المجردة ـ على كل الخصائص والمقومات التي تجعل منه الحل المنتظر لإشكالية التعليم في بلادنا على أقل تقدير.

ويبدو أن مثل هذه المرافعة في حق ثقافتنا وتعليمنا الوطني العريق صارت أمراً غير وارد بالنسبة للخبراء والمتخصصين.. ولعل في الكتاب الذي نحن بصدده بشائر جديدة تأتي من خارج الساحة... فلننتظر المزيد.

شكر وتقدير

يسرني أن أتقدم بشكري وامتناني لكل من أعان في هذا الكتاب وهم كثر لاأستطيع لهم حصراً وعلى رأسهم السيد رئيس الجمهورية الذي أعانني بمبلغ كبير دفع بهذا الكتاب إلى المطبعة ولولاه ولولا جهود السيد وزير شؤون الرئاسة لما وجد هذا الكتاب طريقاً ميسراً للمطبعة ثم يمتد الشكر للأستاذ المربي إبراهيم ضو البيت الذي تفضل علي بفتح مكتبته وراجع معي مسودات الكتاب ونقد ووجه والشكر للدكتور أحمد عبد الرحيم نصر الذي عمل في المملكة العربية السعودية والخليج وأمدني بالدوريات والمخطوطات التي تعرضت للمدرسة القرآنية «الكتاب».

وشكري موصولاً للدكتور عبد الله علي إبراهيم الذي ساهم معي في ترتيب أبواب الكتاب. وأذكر بالفخر الأستاذ اللغوي العالم والشاعر الكبير محمد عبد القادر كرف الذي شجعني ورفع من روحي رحمه الله.

وشكري أيضاً للدكتور العالم عبد الوهاب سر الختم أحمد. والشكر للدكتور محمد إبراهيم أبو سليم الذي أتاح لي فرصة الاطلاع على مخطوطات دار الوثائق كما أمدني ببعض الروايات الشفهية وشكري للصديق الأستاذ يحيى محمد إبراهيم من دار الوثائق وشكري يمتد بالتقدير للأخ الفنان حسن خضر دلوك وجمال عبد الله الزبير مصمما هذا الكتاب.

وامتناني للأستاذ عثمان بابكر «العمدة» وللأخ عبد الرازق محمد أحمد الحسين الإداري والفني بشركة أرقو للطباعة الذي وقف بجانب هذه المادة حتى

جمعت.. والسيدة زينب زرقة ولأسـرة دار جامعة الخرطـوم للنشـر إدارة ومطبعة وفنيين وعمالاً الذين أولوا هذا الكتاب عناية خاصة في الطبعة الأولـى جزاهـم ربي خير الجزاء، كما أشكر مؤسسة الصالحاني التي قامت مشكورة بالطبعة الثانية من هـذا الكتـاب خاصـة الفنانين محمـد الصـيرفي ـ خـالد الحجـار وعبـد الرحمـن زند الحديد الذين عكفوا على إخراج هذا الكتاب بهـذه الصـورة الممتـازة جزاهـم الله الخير كله. وليعذرني من لم أستطع إيراد اسمه ممن تفضلوا علي بـأدنى كلمـة تشجيع.

مقدمة

هو ذا كتاب المسيد أضعه بين يدي القارىء الكريم ولأن الموضوع يتعلق بالمدرسة القرآنية «المسيد» لذا يقتضي الأمر أن أجعل له مقدمة تتفق والموضوع.

السودان هو رأس الرمح للعروبة والإسلام في أفريقيا السوداء وذلك منذ أقدم العصور وإلى يومنا هذا واهتمام الفرد من أهليه يتركز في انتمائه القبلي العربي وارتباطه الإسلامي وكثيراً ما يزعم فرد بأن قبيلته تنحدر من صحابي جليل وبذلك يجمع بين الانتماء العربي والإسلامي. ولإثبات ذلك تدور روايات تختلط فيها الحقائق بالأماني.

الأمر الذي يجعل مهمة الباحث عسيرة وشاقة. هذا والزمن يمضي وثقاة الرواة يتساقطون، وموكب الحياة الصاخب لا يهدأ ولا يتوقف.

وحسبنا من عروبة العقيدة الإسلامية والثقافة العربية وفوق هذا فعروبتنا السودانية لا يأتيها الباطل ولا الشك عندنا فأغلب أهل السودان يعيشون العربية لغة وسلوكاً وذوقاً وعليها أقاموا عمد حياتهم في الماضي والحاضر والمستقبل وهي عروبة افريقية لا نبدلها بأي انتماء قاري أو إقليمي.

وأسلافنا هم من الزعيل الأول ذي الشوكة والمروءة والحمية الذين خرج بعضهم من بلاد الإسلام فاتحين ومبشرين، إذن فاتصالنا بالعرب الأقدمين حقيقة لا مرية فيها عند كافة عرب السودان ولكثير منهم وثائق نسب تثبت ذلك وكما جاء في الأثر «الناس أمناء على أنسابهم»، وعروبة أهل السودان نابعة من بلدهم هذا.

وعروبتنا لاريب محل شك عند الغالبية العظمى من العرب المعاصرين واستثنى قلة من العلماء الذين لهم باع في المعرفة. أما الغالبية العظمى فمهما فعلنا وأفصحنا

فما زلنا في رأيهم زنجاً وأفارقة وما درى هذا النفر أن غالبية العرب اليوم تقطن أفريقيا وقد ذكرت آخر إحصائيات جامعة الدول العربية «كما علمت» أن نسبة العرب في أفريقيا توازي ٧٠% من مجموع العرب كلهم في شبه الجزيرة العربية كما أفادت دوريات المنظمة العربية.

ونحن عرب أفارقة لا ننفصل من عروبتنا وأفريقيتنا وفينا زنجٌ عرّبهم الإسلام وهم كثر ولنا أن نفخر بالإفريقية ونحرص عليها من غير تعصب، واللون الأسود والأخضر والأسمر لا ينتقص من قدر العربي المسلم وقديماً قال الشاعر العربي الفضل بن عباس ابن أبي لهب عندما فاخره شباب من العرب السمر:

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة من بيت العرب

متى دخل العرب السودان... ومن أي مرفأ

متى دخل الإسلام السودان.. ومن أي جهة

هذان هما السؤالان اللذان يتبادران إلى الذهن عند الحديث عن الإسلام والعروبة في السودان. وللإجابة على ذلك ينبغي أن أشير إلى موقع السودان الذي هو أقرب المواقع إلى شبه جزيرة العرب إذ لا يفصله عنها إلا البحر الأحمر، وكان عبوره ميسوراً وقتذآك رغم قلة السفن مما حدا بالرواة أن يقولوا لم يكن البحر الأحمر في الماضي هذا «الاتساع». وقد عبر بعض العرب البحر الأحمر من أربعة مرافىء أولها «ينبع» وهي ميناء قديم يقع غرب يثرب، والمرفأ الثاني «جدة» والثالث «فَرَسان» موضعه جنوبي جدة وتمتد جزيرة فرسان بضعة «كيلومترات» داخل البحر وحدثني أحد المعمرين من سكان فرسان ويدعى «جابر بن حمدان» قائلاً أن أسلافنا كانوا يشاهدون في أماسي الصيف وحينما يكون البحر هادئاً النار في ساحل الحبوش[1]. والعرب في هذا البلد كانوا

---

(١) الحبوش هو الاسم المتعارف عليه بين قدامى أهل الحجاز ويعنون به أهل السودان وعند ظهور السلطنة السنارية صاروا ينادون أهل السودان بالسناريّين (جائزة على بعد).

قبل الإسلام بلا ريب. والمرفأ الرابع هو مضيق باب المندب المشهور وسمعت من أحد الجيلوجيين أن البحر الأحمر كان ضيقاً عند باب المندب وأن من يقف لدى ساحله الشرقي عندما تكون السماء صافية يشاهد شواطىء الساحل الغربي وقد عرف البحارة والتجار العرب من بلادنا عيذاب وسواكن المشهورتين وذلك منذ زمان بعيد كما عرفوا بعض الجزر المفضية إلى البر السوداني كجزر باضع. هذا وقد ذكروا أن بعض الهجرات العربية كانت تتفادى البحر الأحمر وتعبر بشرقي مصر وتواصل السير حتى تستقر في السّودان وكان هؤلاء النفر أهل بداوة ولا يميلون للحياة المستقرة المتوفرة في مصر التي تسودها قوانين الحضر. ولذلك تجاوزوا مصر والتحقوا بأبناء عمومتهم الذين هبطوا المهجر الجديد قبلهم بقرون عديدة.

الأسباب:

ذكر المؤرخ ابن حوقل أن بلاد السودان عرفت العرب والعروبة قبل عام الفيل بثلاثة قرون[1] وأول القبائل العربية التي دخلت السودان هي قبيلة «بلى» الحجازية اليمانية التي تنتشر بطونها وأفخاذها على ساحل البحر الأحمر وتهامتي اليمن والحجاز فوجدوا عرباً مثلهم في الساحل الغربي لبحر القلزم.

وانتشرت تلك القبيلة في المهجر الجديد وخالطت البجاة فسمتها البجاة باسمها الأصلي «بلى» وسموا لغتهم «بلويه» والفرد منهم بتخريج لغة البجاة يسمى «بلوي» ولغته «بلويت».

أصالة السودان[2]:

السودان كغيره من بلاد العالم ذو تاريخ طويل إن لم نقل أطول من غيره

---

(١) تاريخ الثقافة الإسلامية في شرق السودان مخطوط تأليف الأستاذ الشيخ محمد الأمين شريف مؤرخ شرق السودان المعروف.

(٢) تاريخ السودان - بروفسير منثور المهدي ص١٧-٤٠.

وأقدم. كما ذكر ذلك ديودورس[1] "Diodorur" الذي وصف سكان السودان بأنهم أول الخلق على ظهر الأرض.

تاريخ التعليم:

ويقول البروفسير مندور المهدي[2]: المتعرض لتاريخ التعليم في السودان لابد له من أن يرجع إلى عهود بعيدة جداً يتعرض فيها للمحاولات الأولى لنشر المعرفة في السودان. ويجزم على أن وراء الثقافة السودانية تاريخاً طويلاً وإن التعليم في السودان قد ظهر قبل ثلاثة آلاف سنة من ميلاد المسيح وأشهر العهود وأبعدها صيتاً وأثراً العهد المروي الذي نشأت فيه المملكة المروية وشمخت في وقت كانت فيه أغلب أقطار العالم تغط في بدائية وجهل وتخلف وفي عهدها بلغ التعليم شأواً بعيداً. حتى أن رجالها ابتكروا حروفاً جديدة للكتابة خاصة بمملكتهم. منفصلين بذلك عن الكتابة الهيروغليفية المصرية وقد عرفت بالكتابة المروية وقد حاول دارسو علوم الآثار فك رموزها ويقال أن العالم الانجليزي الشاب «هيكوك» الذي كان يحاضر بجامعة الخرطوم قد أوشك على ذلك ولكن المنية عاجلته وبصبر العلماء وإصرارهم على بلوغ الهدف ستحل عاجلاً أو آجلاً رموز الكتابة المروية وسيقف العالم على كنز يضم الكثير من أخبار وأسرار تلك الحقب العتيدة إن شاء الله.

---

(١) ديودوروس ـ مؤرخ إغريقي عاش وكتب في القرن الأول قبل الميلاد.

(٢) التعليم في القرون الماضية ـ بحث كتبه العالم الكبير بروفسير مندور المهدي عليه رحمة الله وكان من كبار رجال التعليم والتربية.



نموذج للخط المروي

التعليم قديماً:

إن لهذا البلد «السودان» أصولاً بعيدة من حيث الأصالة والبعد التاريخي فقد عمر ت هذا الجزء شعوب كثيرة وقد عُرفت بأسماء شتى مثل «الكوشيين» وتلاهم عهد «كرمة» وهي دولة ذات حضارة باسقة وقد أثبت البحث الأثري الذي قام به بروفسير أن تاريخ دولة كرمة يبدأ بـ ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد وتلا العهد «الكَرْمي» دولة ـ نبتة ـ ثم نشأت دولة مروى بين ٧٥٠ قبل الميلاد إلى ٣٥٠ بعد الميلاد.

وفي الدولة المروية استنبط أهلها الحرف ثم الكتابة التي عرفت فيما بعد باسم الخط المروي والدليل ماثل حتى اليوم إذ يوجد الخط في حاضرة مملكة مروى «البجراوية» شمال الخرطوم عند «كبوشية».

والخط المروي موجود ههنا ومنه نماذج يراها الزائر إن حرص. فالحجارة التي تحمل الخط «مدفونة» بين القصر الملكي ومعبد آمون الإله الكبير في تلك الدولة.

وقد حاول العلماء فك هذا الخط وطلاسمه مراراً وتكراراً وأغلب من حاولوا الأثريين الأجانب كالمستر هولت والمستر شبيني وكان أوفرهم حظاً الباحث الانجليزي الذي عمل أستاذاً في جامعة الخرطوم فقد أجهد المستر «هيكوك» نفسه حتى أمسك برأس خيط هذا الخط المروي وبدأ يقرأ ويفك بعضاً من حروفه ولكن المنية عاجلته في نهاية ١٩٦٧. الشاهد ههنا أن دولة مروى بلغت درجة من التحضر إذ صنعت الحرف وبلادنا «السودان» واحد من ثلاثة أقطار عرفت الحرف والخط ـ «الهيروغليفية» في مصر، «الأمهرية» في أثيوبيا، «المروية» في السودان.

المسيحية:

بعد انهيار مروى دخلت المسيحية إلى مملكة «نوباتيا» و«علوة» كما ذكر

لنا المؤرخ «يوحنا الافسوسي» أما مملكة المقرة الواقعة بين نوباتيا وعلوة لم يذكر المؤرخ شيئاً عنها ربما سكت خشية من أهل دنقلا الذين كانوا يعبدون الأوثان.

غير أن مؤرخاً آخر هو «يوحنا القُوطي» الذي كان شاهد عيان لهذه الأحداث وروايته تدل على قبول مملكة «المقرة» أيضاً للدين المسيحي كان ذلك سنة ٥٦٨ م. ويقول القوطي أنه من سنة ٥٧٤ وصل القسطنطينية وفد من سكاّن مملكة المقرة يحمل هدايا إلى ملك الروم وطلبوا منه عقد مُعاهدة معه وقد تم لهم ما أرادوه.

وذهب وفد آخر إلى ملك الروم وطلبوا إلى الامبراطور عقد معاهدة سائلين أن «يتعملوا» عبادة الدين المسيحي فوافق الملك ويضيف يوحنا القوطي أن شعب المقرة أقبل على الإيمان بالدين المسيحي. من هذه الوقائع يتضح أن تعاليم المسيحية انتشرت بواسطة القراءة والكتابة بالخصوص في الكنيسة.

وكان المتدينون يكتبون بالقلم القبطي واليوناني ثم أخضعوا الكتابة إلى اللغة النوبية لغة البلاد.

شاهد القبر:

ولفت نظر فازار فانتيني أن الأثريين وجدوا في قرية «ميناري» من أرض دنقلة شاهداً على قبر سيدة مسلمة[1].

---

(١) مكتوب عليه اسمها وتاريخ وفاتها: من بعد. بسم الله الرحمن الرحيم «الكتابة على الشاهد غير واضحة» ـ الله أنت خلقتها وأنت أحييتها وأنت على... فاطمة بنت إبراهيم بن إسحاق بن عيسى توفيت يوم الأحد أول يوم من شهر «بؤنة» «٤٥٣» والتاريخ هذا على الرصد القبطي، من عهد الشهداء الموافق ٧٣٣م.

دخول الإسلام:

دخل الإسلام بلادنا في العام الحادي والثلاثين من الهجرة بقيادة سيدنا عبد الله بن سعد بن أبي السرح وأبرم مع عظيم النوبة المعاهدة المعروفة باسم «البقت» وهو النطق الصحيح ولكنها ربما تحرفت عند الكاتب «عمرو بن شرحبيل» وهو من الجماعة الإسلامية التي حضرت إبرام الاتفاقية.

ولكن الإسلام تسرب ودخل وانتشر بين الناس حتى عم أكثر الجهات الشمالية والشرقية والغربية فضلاً عن وسط البلاد. والأغلب في هذه الحالات أن يتعلم من يعتنقون الإسلام الكتابة والقراءة وهذا أمر بديهي.

ولكن لم يحدثنا مؤرخ متخصص عن البدايات الأولى وافترض أن الكتابة بدأت منذ القرن الأول وأخذت تتوسع وتنتشر. وقد برز في القرن الأول والثاني من الهجرة بعض رجال أعلام وتقديري أنهم بدأوا الدراسة هنا في بلدهم ثم هاجروا إلى مصر وغيرها وعلى رأسهم التابعي الجليل يزيد بن أبي حبيب «الدنقلاوي» وسيأتي الحديث عنه لاحقاً.

ومن الأسماء التي خرجت من حاضرة البلاد دنقلا عصرئذ «البِشْر المرِيسي» وقد ارتفع ذكره في بلاد العراق ولا ندري عنه كبير شيء وفي عصره أيضاً برز الشيخ ـ كُحَيْل الشام ـ المشهور بكحيل «فقيه الشام». ولا نعلم عنه خبراً شافياً ولكنهم جميعاً أبناء النوبة.

ومعلوم أن الإسلام صَحِبَ معه الكتابة والقراءة ومنذ ذلك العهد صار المسلمون يتكلمون فكتبوا وقرأوا وبلادنا كما ذكرنا آنفاً عرفت الخط المروي وبعد الإسلام عرف الناس الحرف العربي وذكر المؤرخ المسيحي يوحنا القوطي أن الحرف العربي كان شائعاً في القرن السادس للميلاد وقد حدثنا عن الشاهد الذي وجدوه في مقبرة «مِيناي» في دنقلا.

وأنا أبدأ دراستي هذه من القرن التاسع الهجري. الخامس عشر الميلادي.

عرف هذا البلد العرب والعروبة قبل عام الفيل كما ذكر «ابن حوقل» وهو علامة ومؤرخ معروف[1] وتبين لي من طريق جهدي الخاص وما لقفته من أقوال العلماء وأهل المعرفة التاريخية أن الجنس العربي عمر هذه البلاد منذ قرون سحيقة. وكان بحر القلزم «الأحمر» ضيقاً جداً وكان واصلاً لا فاصلاً فالعرب خلقوا هنا في هذه البلاد وقد أشار الكاتب الانجليزي المعروف مستر هارولد ماك مايكل إلى أن الجزيرة العربية لا يفصلها عن هذا البلد شيءٌ قبل انصداع الأخدود الأعظم وذلك قبل وجود البحر الأحمر وأقول من غير تجاسر أن العرب خلقوا في هذه البلاد كما خلقوا في بلاد اليمن والحجاز ونجد. والأوطان العربية الأخرى فهذا الجنس العربي الذي يقطن هذه البلاد يقطن فيها أصلاً ولم يأت من شبه جزيرة العرب كما يزعمون.

إذن فقد عرف بلدنا نشوء الجنس العربي كما أسلفت منذ قرون بعيدة ولكن بعد انتشار الإسلام هاجرت جماعات وبطون كثيرة من بلاد الحجاز واليمن ونجد وقد وجد المهاجرون المسلمون قبائل وبطون وأفخاذ بذات الأسماء التي في بلاد الحجاز وكان أقدمهم قبيلة «بَلِي» ولهم أصول في تهامة اليمن والحجاز. كما وجدوا قريش وخزاعة ولحيان والحمران والمحانين والصحاف وبشر وزبيد وصبح والحوازم والهلبة والمطارحة والأحامدة وقد أشار إلى هذه القبائل المنشور الذي أرسله خليفة المهدي إلى أهل الحجاز ونجد. راجع نعوم شقير[2].

وتقديري أننا نتماثل لغة وثقافة وعقيدة وربما دماءً كما نتماثل في الأسماء «فقط» فكثير من القبائل في الحجاز ونجد وبعض أنحاء اليمن تحمل ذات الأسماء المنتشرة في بلادنا.

---

(١) توفي ٣٦٧ هجرية ٩٦٦ ميلادية ذكر هذا في كتابة «كروية الأرض».

(٢) المنشور بتاريخ ٢١ شوال ١٣٠٣هـ الموافق ١٨٨٦/٧/٢٣. صفحة ١٠٢٢ ـ تاريخ وجغرافية السودان نعوم شقير ـ بيروت دار الثقافة.

مثلاً قريش في الحجاز وتماثلها المجموعة العباسية الجعلية وهم يفخرون بأنهم من قريش[1] الحمران بذات الاسم في السودان ويسكنون على ضفاف نهري «سيتيت وباسلام» وبادية «القرقف» و«لحيان» يماثلهم عندنا «اللحويون» ـ يقيمون على ضفاف سيتيت واتبرا «المجانين» قبيلة هنالك وهنا موطنهم كردفان. «زبيد» ولعلهم الزبيدية وهم أحدث هجرة دخلت البلاد في أول القرن التاسع عشر الميلادي ـ صبح ـ يقابلهم في بلادنا «الصبحة» على النيل الأبيض «زنك» والجزيرة مصران وغيرها. الحوازم ـ هنا اسمهم الحوازمة يقطنون بين جبال النوبة والأبيض وأغلبهم يميلون إلى الترحال مع البقر ـ الهلبة ـ هنا قبيلة تقابلهم في دارفور يعرفون باسم بنوهلبة ـ الأحامدة كما هي في البلدين وهنالك قبائل أخرى من الشايقية والقريات بذات الاسم وفي اليمن قبيلة بني عامر وهنا بني عامر شرق السودان كسلا وخور بركة.

وسار الزمن طويلاً وانطوت قرون ودخلت من شمالي البلاد ديانة جديدة تحمل معها معارف جديدة، ألا وهي النصرانية فاعتنقها النوبة وقامت عليها المملكتان النصرانيتان المقرة في الشمال وعلوة في الجنوب، ولم يحفظ لنا التاريخ شيئاً كثيراً من أخبارها غير ما هو معروف عند عامة القراء.

دخول الإسلام:

دخل المسلمون أرض النوبة في عهد باكر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح سنة ٣١ هـ الموافق ٦٥٢م وتمت بينه وبين ملوك النوبة بدنقلا مصالحة عرفت باسم البقط وهذا نصها[2]:

---

(١) ولهم وثائق نسب تشهد بذلك راجع النسب الذي أثبته الشاعر المفوه الأستاذ محمد المهدي المجذوب في الفصل الخاص بمسيد الدامر.

(٢) البقط عند المقريزي ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار ـ صفحة ١٩٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

عهد بين الأمير عبد الله بن سعد بن أبي السرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة.. إن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وصدقة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة انكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي ﷺ.. أن لا نحاربكم ولا نّنصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو بطرفه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم وإنه عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه، وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصلياً.. وعليكم كنسه وإسراجه وتكريمه، وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلدكم غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث.. ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفعون ذلك إلى والي أسوان.. وليس على مسلم دفع عدد عرض لكم ولا منعه عندكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان. فإن أنتم آويتم «عبد» المسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم من الثلاثمائة رأس والستين رأساً فقد برأت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.. بذلك عهد الله وميثاقه وذمته ورسوله محمد ﷺ ولنا عليكم بذلك ما تدينون له من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم ـ الله شاهد بيننا وبينكم على ذلك كتبه عمرو بن شرحبيل ٣١هـ..

البقط في لسان العرب

قال ابن منظور[1] في الأرض «بقـط» مـن بقـل وعشـب أي نبـذ مرعـى يقـال أمسينا في بقط معشبة أي في رقعة من كلأٍ وقيل البقط جمعه «بقـوط» وهـو مـا ليس بمجتمع فى موضع ولا منه ضيعة كاملة وإنما هو شيء متفرق.

وحكى ثعلب أن في بني تميم بقطان ربيعة أي فرقة أو قطعة وهم بقط في الأرض.

والبقط أن تعطى الحبة على الثلث أو الربع والبقط أيضاً ما سقط مـن التمـر إذا قطِع فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة. وأول ما تقرر هذا البقط علـى النوبة في إمارة عمرو بن العاص.

البقط عند أهل السودان النوبة

أولاً: ينطق أهل دنقلا كلمة بقـط مـن غيـر طـاء فيقولـون بَقِـتْ ـ BUGIT ـ ومعنى الكلمة عند النوبة «الدناقلة» يعني النصيـب أو القسـمة مـن زرع السـاقية أو الجزيرة. وما زال يستعملها حتى اليوم من يعملون في الزراعة التقليدية وغيرها.

وظني أن العرب المسلمين أو كاتب المعاهدة عمرو بـن شـرحبيل هـو الـذي حور الكلمة من بقت لتصير بقط من غير قصد للتحوير، والنوبة كانوا أهل حضـارة وعزة وكبرياء وكيان تليد لذلك فقد وقعوا الاتفاق وهـم أعزاء وسمعت مـن بعـض المتعلمين أن أصل الكلمة روماني أو يوناني وفي تقديري أن أصل الكلمة «بقـت» أو «بقيت» بمعنـى النصيـب الـذي يخـرج مـن الـزرع. بـلاد النوبـة كـان معاشـها عصرئذ من الزراعة وأنا أرجح كلمة «بقت» على كلمة بقط وبالمناسبة فإن قدامى المؤرخين العرب كانوا يقولون دمقلا بدل دنقـلا إذن فـالقلب جـائز هنـا. والخطـأ جائز في ذلك الوقت البعيد.

---

(١) ابن منظور المصري الإفريقي صاحب لسان العرب.

ويشير البروفسور يوسف فضل حسن[1] إلى أنه وبعد سقوط دولة المقرة عم البلاد شيء من الفوضى وانقطعت صلتها بمصر ومن ثم لم يعرف عن تاريخها شيء وكان ذلك بداية لعهد مظلم لم تنقشع ظلمته إلا بعد قيام مملكة الفونج في أوائل القرن السادس عشر حيث بدأت الروايات الشفهية تؤرخ لسودان وادي النيل ونتيجة لسقوط مملكة المقرة تصدع الحاجز الذي كان يحول دون دخول البدو عن طريق وادي النيل وكان ذلك ما بين سنة ١٣١٤م و١٣٢٧م. انتهى.

غلام الله:

وفي نهاية القرن التاسع الهجري هبط أرض دنقلا الشيخ المعلم الداعية غلام الله بن عايد فوجد أهلها يكتنفهم على حد قوله «التيه والضلال» وتتفق روايته هذه مع ما ذكره «يوحنا السوري» عند وصفه لنهاية المسيحية وتأكيده لما كانت تعانيه البلاد من تعطش ديني وجدب روحي بعد تدهور الكنيسة الأمر الذي جعل الكثيرين من أهل البلاد يتجهون نحو الإسلام الذي ساعد على انتشاره حماس مشايخ القرآن الذين أقاموا الخلاوي لتدريس القرآن الكريم.

وفي هذه الفترة أسلم حاكم دنقلا النوبي المعروف باسم «عبد الله برشمبو» وتبعه عِليةُ قومه من وزراء وكبراء ثم تلاهم جمع غفير من العامة وقديماً قيل «الناس على دين ملوكهم» وكان ذلك في سنة ٧١٧ كما هو مثبت في اللوحة بالمسجد المذكور وبعد سقوط المقرة بقرنين، سقطت مملكة علوة وعاصمتها «سوبا».

وهكذا اضمحلت شيئاً فشيئاً دولتا المقرة وعلوة وتلاشتا في غياهب التاريخ وساد السودان سكون مظلم.. إلا من بعض نيران الخلاوي التي تدرس القرآن هنا وهناك.

---

(١) طبقات ود ضيف الله. لمؤلفه ـ محمد النور ضيف الله تحقيق بروفسير يوسف فضل حسن.

وبقيام دولة الفونج[1] ٩١٠هـ ١٥٠٤م نشط التعليم الديني وبدأت طلائع الدعاة الإسلاميين تفد إلى مملكة سنار من الأندلس والحجاز والمغرب ومصر والعراق وازدهرت الخلاوي التي كان بعضها قائماً منذ عهد مملكتي المقرة وعلوة، وكانت مهمتها الأولى تحفيظ القرآن الكريم، ومع ازدهارها برزت حلقات العلم في «المساجد» لتدريس الفقه والتفسير واللغة لمعرفة الميراث وغيره من ضرورات المعرفة وقصد الطموحون من الحفاظ الحجاز وعادوا منه بعلم وفكر وروح جديد وقصد قلة آخرون الأزهر بعد زمن طويل لنيل المزيد من العلم وأغلبهم اتصل بالأزهر بعد سنة ١٠٠٠هـ فأغلب أهل السودان القديم كانوا يقصدون الحجاز.

وغزت جيوش محمد علي باشا السودان في سنة ١٨٢١م وأدخلت المدارس الحديثة التي تدرس مواد ذات طابع خاص وظلت خلاوي القرآن الكريم في سيرها التقليدي إلى أن اندلعت الثورة المهدية التي أعلنت الجهاد بالقلم والسيف لتحرير البلاد من المستعمر والعودة بالدين إلى ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ «وقد أبقت المهدية على الخلاوي لكي تقوم بعبء التعليم الذي صار محصوراً في حفظ القرآن[2] وتقديراً للقائمين بها فقد أعفى شيخ الخلوة من الخروج إلى الجهاد وقد برزت في البلاد حركة ثقافية مركزها «أم درمان» عاصمة الدولة الإسلامية وقامت المطبعة الحجرية بدور بارز ونشطت به حركة التدوين والتصنيف والتأليف والنشر التي قامت على أكتاف الكتاب والعلماء والأدباء[3]..

ولعل أول سؤال ينبغي أن أطرحه أو أجيب عليه قبل الشروع في العمل الذي

---

(١) ويقول المؤرخون العارفون أن أول دولة إسلامية قامت في بلادنا هي دولة «الكنوز» أبناء كنز الدولة بين ١٠٧٣ إلى ١٤١٢م.

(٢) الحركة الفكرية في المهدية - بروفسير محمد إبراهيم أبو سليم ص٥٢ - دار جامعة الخرطوم للنشر.

(٣) ما زال شرف القرآن في بيتنا خاصة أخي سليمان محمد الطيب الحافظ التالي المجود يقوم بالتدريس في مدينة أتبرا ويشرف على أماكن أخرى مثل العكد وكدباس وغيرهما من القرى المجاورة.

أنا بصدده. لماذا اخترت للبحث في هذا الميدان وحينما طرحت هذا السؤال على نفسي وجدت أن لذلك ثلاثة أسباب:-

الأول: ذاتي.

الثاني: الاهتمام الكبير من خلال هذه الصحوة الإسلامية التي انتظمت معظم الأقطار الإسلامية وبلادنا خاصة. دعوة الرجوع إلى الأصول والجذور الثقافية وعلى قمتها الخلوة والمسيد باعتبارهما أوعية المعرفة الحقيقية التي صاغت المفرد المثالي في سالفُ السنين وقد رأى كثير من المثقفين والمتعلمين أن الانعتاق والاستغلال الثقافي الحقيقي لا يتحقق إلا بالرجوع إلى الأصول المتمثلة في المدرسة القرآنية.

الثالث: قبل دخول المدرسة الأولية تفتحت عيناي على الخلوة في مسيد جدي الفكي أحمد أبو القاسم ودارنا كانت جزءاً من ذلك المسيد الذي بدأه جدنا الفكي مدني بن الفكي أحمد قبل قرنين في قرية «المقرن» التابعة لريفي الدامر هكذا وجدت نفسي بين طلبة القرآن.

كان ذلك على عهد شيخنا تاج المولى محمد عيسى الشايقي من أهالي الحامداب ثم عقبه شيخنا الفكي الحسن سعد علي سورج من أهالي قرية الاراك مركز مروي وكان أول ما عرفت الحياة من خلال خلوة المسيد وكنت أظن أن العالم كله هو الخلوة والمسيد لأني تمرغت في ترابهما وعرفت طعم الحياة حلوه ومره في أفيائهما ولم أدرك قيمة المسيد والخلوة إلا بعد أن فارقتهما بزمن. أدركت خلاله قيمة هذه المدرسة القرآنية في تأصيل العقيدة والثقافة والذات والكيان ومن خلال هذا الفهم أحاول في هذا الكتاب رد بعض الجميل للمسيد وستشمل دراستي ثلاث مناطق الوسط والغرب والشرق مع التركيز على منطقة حوض النيل التي تحسب أول منطقة عرفت العلم فقد استنبط أسلافنا المرويون الخط الذي عرف بالخط المروي «عند الدارسين» وما زال قيد الحل والتفسير عند علماء الآثار كما نوهت سابقاً.

ثم عرف حوض النيل المسيحية وهي دين اهتم بالمعرفة وقد أثر هذا المذهب في الحركة التعليمية ووسم بعض العادات بميسمه «الكنسي» ثم إن أول مسجد عرفته بلادنا كان في حوض النيل وهو المسجد الذي بناه المسلمون بفناء مدينة دنقلا حوالي سنة ٣١هـ هجرية ثم بسط الإسلام رواقه على أطراف البلاد، فإن ركزت على هذا الإقليم فإني أغلبه لهذا السبب، ثم إن المنطقة التي أعنيها يسهل الانتقال فيها أضف إلى ذلك معرفتي الخاصة بهذا الإقليم الذي يركز عليه البحث للأسباب الآنفة الذكر. وينبغي أن أنبه إلى أن الإقليمين الشرقي والغربي أحرص اليوم على دراسة القرآن من غيرهما ونلاحظ أن مشايخ وطلبة المسايد العامرة إما من أبناء الغرب أو الشرق. وأظن أن معرفة المنطقة مدار البحث أمر هام لأن المرء يخطىء كثيراً إذا عمم بعض الأحكام وتركيزي سيجعلني ملتزماً نسبياً. علماً بأن مدارس القرآن وأساليبها وبرامجها متشابهة جداً في كل أصقاع السودان بل في عموم بلاد المسلمين عربية وأفريقية وآسيوية مع مراعاة افتراض بعض الخلافات الإقليمية التي يحتمها نمط الحياة وحركة الاقتصاد. ثم إن المسيد وكما هو معلوم يقوم مقام المدرسة العصرية ومن المعروف أن التعليم العَصْري لم ينتشر أولاً. إلا في المناطق التي عرفت المسيد لأن المجتمع جرب التعليم واقتنع بجدواه وما زالت هنالك أصوات وجماعات تدعو لبث الروح في الخلوة القرآنية والمسيد وإن تم هذا وأحسبه سيتم إن شاء الله فإنه ينبغي أن يقوم على أسس حديثة مع احتفاظه بالمنهج الذي قام عليه كما في بعض المعاهد التي أخذت بطرف من حياة المسيد وحياة المدرسة الحديثة وهكذا ستكون دراسة المسيد دراسة لجانب كبير من سلوك المجتمع نحو هذا النوع من التعليم.

وهناك أمر من الأهمية بمكان ذلك أننا في مجال التربية الحديثة ما زلنا نركن للدول الغربية لنأخذ قبساً من تربيتها ونحاول أن نطبقه على واقعنا السوداني. مع أنه من الممكن أن نرجع لتراثنا الإسلامي والوطني لنجد فيه ما قد يلبي بعض رغباتنا وحاجاتنا..

ولا بأس من أخذ تجارب الأمم الأخرى غربية أو شرقية أو أفريقية في مجال التربية وفي الوقت نفسه يمكننا أن نعود لتراثنا الثقافي لنجد فيه ما يلبي رغباتنا وحاجاتنا إذا أحسنا استغلاله والاستفادة منه.

وفلسفة التربية الإسلامية لا تضارعها فلسفة تربوية وجوهر الخلاف بين التربية الشرقية والغربية أن الأولى روحانية والثانية مادية كما جاء في كتاب اليونسكو[1] لعام ١٩٥٣م.

الإنسان في نظر الشرق من الألوهية وفي الغرب حيوان قادر على التقدم ص١٠٢ وقد جمع الإسلام بين النظريتين حينما قرر أن الإنسان مخلوق من ماء وطين وأن به نفحة إلهية.

ومن هذا المنظور سيحاول هذا البحث أن يطلعنا على المسيد والخلوة وأهميتهما العلمية والاجتماعية والتربوية.

وذلك بمنهج وصفي تحليلي كما تفرضه طبيعة هذه الدراسة بينما يعتمد الجانب الثاني على التجربة والملاحظة الخاصة التي خضتها في البلدان التي زرتها داخلياً وخارجياً..

كما أرجو أن أشير إلى أنني التزمت التاريخ الهجري الذي قام عليه أمر المسيد وبه يؤرخون ويكتبون كل أحوالهم وفي بعض الحالات التي لا أجد فيها تاريخاً شافياً أعود للتاريخ الميلادي.

أ ـ ويلاحظ القارىء أني استعملت كلمات مترادفات مثل طالب حوار، تلميذ وكلها بمعنى واحد كما يلاحظ أن كلمات مسجد ـ مسيد ـ مدرسة قرآن ـ خلوة ـ معناها مترادف في أغلب الحالات.

وها أنا أضع بين يدي القارىء الكريم حصيلة جهد. سار بي عدة سنوات، ولو

---

(١) كتاب اليونسكو الذي تنشره المنظمة بين الحين والآخر.

علم القارىء مقدار ما بذلته في جمع مادته وما قمت به من جهود مليئة بالأسفار واللقاءات والاطلاعات والمقارنات وولوج مناطق يعتبر الحاضر فيها جزءاً من الماضي والمشاهد فيها جزءاً من الآثار أقول لو عرف القارىء كل ذلك لتقبل مني هذا الكتاب بصدر رحب، وتغاضى عما يشوبه من نقص، وحسبه أن يكون نبعاً للمتعطشين لأحاديث التراث. ومعيناً للباحثين عن تاريخ الثقافة الإسلامية في السودان، ونسأله تعالى الرشاد والتوفيق والسداد.

الطيب محمد الطيب

أمدرمان

غرة محرم ١٤١١هـ

٢٣ يوليو ١٩٩٠م

القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كتاب الله العزيز الذي أنزله على النبي الأمي محمد ﷺ انزله عليه بطريق الوحي منجماً على حسب الوقائع والأحداث، والتدرج في التكاليف والفرائض وتم نزوله على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة كان في ثلاث عشرة منها بمكة والبقية بالمدينة المنورة وتسمى السور التي نزلت بمكة مكية والتي نزلت بالمدينة مدنية[1].

وأول سورة نزلت على رسول الله ﷺ وهو يتعبد بغار حراء بمكة ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم﴾[2] وكان ذلك على المرجح في ليلة القدر في السابع والعشرين من رمضان.

وأول ما نزل عليه ﷺ بالمدينة المنورة ﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[3] وآخر آية نزلت على أشهر الأقوال ﴿اليوم أكملت لكم دينكم[4] وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ نزلت عليه في حجة الوداع.

---

(١) صفحة ١٦٦ من تاريخ الأدب العربي تأليف الأساتذة أحمد الاسكندري وأحمد أمين وعلي الجارم وعبد العزيز البشري والدكتور أحمد ضيف الناشر مكتبة عالم الكتب أم درمان.

(٢) سورة العلق الآيات ١/٢/٣/٤/٥.

(٣) سورة المطففين الآيات ١/٢/٣/٤/٥/٦.

(٤) سورة المائدة آية ٣.

موضوعات القرآن ومقاصدها

كانت موضوعات الآيات والسور التي نزلت بمكة الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وتنزيهه من مشابهة خلقه ونبذ عبادة الأوثان، وإلى الإيمان بحياة أخرى بعد الحياة الدنيا. في يوم يبعث فيه الناس ويحاسبون على ما قدموا في دار الدنيا. يجازى المؤمنين بنعيم الجنة ويعاقب الكافرين بجحيم جهنم، يقرر كل ذلك في سور شتى وأساليب مختلفة، فمن موعظة حسنة وحكمة بالغة وحث على التمسك بفضيلة أو مكرمة ومن عبر تقص قصة طاغية أو عاقبة أمم باغية، وسيرة رسول مع قومه ومن استدلال بخلق السموات والأرض على قدرة موجدها، وعلى وجوب توحيده بالربوبية.

ومن إنذار للمعاندين وتقريع للمستهزئين ونَعْي على الجاهلين وذم للكافرين فكل أولئك بعبارات بليغة وقصار مفصلة وسور كان في أول الإسلام قصيرة ثم طالت بحسب الأحوال[1].

ولما قوي الإسلام بالهجرة إلى المدينة صار أغلب موضوعات الآيات يشمل فوق ما تقدم أموراً أخرى نظام العبادة وفرض الفرائض والتحليل والتحريم، ونظام الأسرة من تقرير أحكام الزواج والطلاق والميراث والوصية والاسترقاق والعتق وحماية العرض والمال وتقرير العدالة في القضاء والأحكام وتحديد للمعاملة في البيع والشراء والمداينة والرهن ومعاملة المسلمين لغيرهم من الأمم في الحرب والسلم وتقسيم الغنائم ومعاملة الأسرى وعقد الهدنات والمعاهدات وكل ما تقتضيه مصالح البشر في الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان[2].

كان ﷺ بعد نزول الوحي إليه وحفظه الآية أو السورة التي نزلت يبلغها الناس، ويقرىء ويستحفظ من كان حوله من الصحابة تلك الآية. وكان الصحابة إذا تلقوا

---

(١) تاريخ الأدب العربي لأحمد الاسكندري وآخرين ص١٦٧.

(٢) تاريخ الأدب العربي ص١٦٧.

آية من رسول الله ﷺ او سورة يترددون عليه غير مرة ويتلونها أمامه حتى يتثبتوا من حفظها ويسألونه هل حفظناها كما نزلت فيقرهم عليها[1].

وبعد الحفظ والإتقان كان كل حافظ ينشر ما حفظه ويعلمه للأولاد والصبيان الذين لم يحضروا ساعة الوحي، فلا يمضي يوم أو يومان إلا وما نزل محفوظ في صدور كثيرين من الصحابة وكان الحفظة والقراء يعرضون على النبي ﷺ القرآن ويختمونه عنده[2] وقد أرسل الرسول ﷺ عندما كان بمكة جماعة من القراء إلى المدينة لتعليم القرآن.. قال البراء رضي الله عنه أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرآن القرآن. ثم جاء عمار وبلال وكان الرجل إذا هاجر إلى المدينة دفعه النبي ﷺ إلى رجل من الحفظة ليعلمه القرآن[3].

ومن أشهر حفاظ القرآن الكريم الخلفاء الأربعة وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وأبو هريرة وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عباس وعائشة وحفصة وأم سلمة[4].

كتابة القرآن حين نزوله

روى البخاري عن البراء قال: لما نزلت الآية ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدين في سبيل الله﴾ آية ٩٥ النساء قال النبي ﷺ: «ادع لي زيداً وليجيء باللوح والدواة والكتف» ثم قال: «اكتب ﴿لا يستوي القاعدون﴾»[5].

---

(١) نفس المصدر ص١٦٨.

(٢) ص٣٥ من تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني ـ الطبقة الثالثة ١٩٦٩ الناشر دار الإعلامي للمطبوعات.

(٣) نفس المصدر ص٣٩.

(٤) نفس المصدر ص٤٠.

(٥) نفس المصدر ص٤٢.

«وكان للنبي ﷺ كُتّاب يكتبون الوحي وهم ثلاثـة وأربعـون أشـهرهم الخلفـاء الأربعة وأبو سفيان وابناه معاوية ويزيد وزيد بن ثـابت والزبـير بـن العـوام وأُبـيْ بن كعب وسعد بن أبي وقاص وخـالد بـن الوليـد[1] والمـواد التـي كـان يكتـب عليهـا العرب في بادىء الأمر من بيئتهـم فقـد كتبـوا فـي الجاهليـة وصـدر الإسـلام علـى المواد التالية:

١/ العسب وهو جريد النخل.

٢/ الأكتاف والأضلاع من عظام الإبل والأغنام.

٣/ اللخاف وهي الحجارة الرقيقة البيضاء.

٤/ الجلود المدبوغة.

٥/ المهارق وهي أنواع من القماش[2].

وروى البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال تتبعـت القـرآن أجمعـه مـن اللخـاف والعسب وصدور الرجال[3].

الأحرف السبعة

قال ابن مسعود رضي الله عنه كنـا مـع النبـي ﷺ فـي غـار حـراء فـنزلت عليـه ﴿والمرسلات عرفاً﴾ فأخذناها من «فيه» وكانوا حريصين على حفظ السورة كما سمعوها من رسول الله ﷺ وقال سيدنا عمر رضي الله عنه سمعت هشام بن حكيـم يقرأ «سورة الفرقان» في حياة الرسـول ﷺ فاستمعت لقراءتـه فـإذا هـو يقـرأ علـى حروف كثيرة لم يقرئنا بها رسول الله ﷺ فكدت أساوره «أثب عليه» فـي الصـلاة

---

(١) صفحة ٦٩ عن كتاب تدوين القرآن الكريم للدكـتور محمـد قبيسـي الطبعـة الأولـى. الناشـر دار الآفـاق الجديدة بيروت.

(٢) صفحة «٤٤» عن كتاب تاريخ القرآن للزنجاني.

(٣) تاريخ القرآن للزنجاني ص٤٢.

فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه وقلت من أقرأك هـذه السـورة التي سـمعتك تقـرأ بها. قال أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت: كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيهـا علـى غير ما قرأت فانطلقت به أقوده إلى رسـول اللـه ﷺ فقلـت إنـي سـمعت هـذا يقـرأ بسورة الفرقان حروف لم تقرئنيها فقال: «أرسله اقرأ يا هشـام» فقـرأ عليـه القـراءة التي سمعتها يقرأ فقال ﷺ «كذلك أنزلت» ثم قال: «اقرأ يا عمر» فقـرأت القـراءة التي أقرأني فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت إن هـذا القـرآن أنـزل علـى سبعة أحرفٌ فاقرأوا ما تيسر منــه» والمـراد بـالأحرف السـبعة سبعة أوجـه مـن المعـاني المتفقة بالألفاظ المختلفة. نحــو أقبـل، وهلـم، وتعـال، وعجـل، وأسـرع، وآخـر، وأمهل، وامضي، وسر، هذا هو ما اختاره الإمام الطبري».

القرآن في عهد سيدنا أبي بكر وفي عهد سيدنا عمر:

لما توفي رسول الله ﷺ وتولى الأمر سيدنا أبو بكر ظهر مسيلمة الكـذاب فـي السنة الأولى من خلافته وجهز سـيدنا أبـو بكـر جيشـاً يضـم أكـثر القـراء وحفظـة القرآن من الصحابة واشتد القتل على المسلمين وكتب الله لهم النصر أخيراً فقتلـوا مسيلمة الكذاب ولكنهم فقدوا عدداً ضخماً من حملة القرآن وأحـس سـيدنا عمر بخطر ذلك فتكلم مع سيدنا أبي بكر قائلاً: «إن القتل قد اشـتد يـوم اليمامـة بقـراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء فيذهب كثير مـن القـرآن وإنـي أرى أن تأمر بجمع القرآن» وبعد تردد من سيدنا أبي بكر خوفاً أن يكون ذلك من البـدع، قبل الفكرة وأقبل الناس بما عندهم حتى جُمع كله في «الورق» فكـان سـيدنا أبـو بكر أول من جمع القرآن في المصحف، ثم أعلن سيدنا عمر في المدينة بـأن يـأتي كل من تلقى شيئاً من رسول الله ﷺ وقال سيدنا أبو بكر لسيدنا عمر ولزيـد اقعـداً على باب المسجد فمن جاءكمـا بشـاهدين علـى كتـاب الله فاكتباه وكـان هـذا الجمع عبارة عن جمع الآيات المكتوبة على العظـام والجلـد وعسـب النخـل وتـم نسخها في الأديم وهو الجلد المدبوغ وكانت هذه الصحف عند سيدنا أبـو بكـر

حتى وفاته ثم عند سيدنا عمر حتى وفاته ثم عند السيدة حفصة بنت عمر رضي الله عنها[1].

القرآن في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه

بدأ اختلاف القراء في قراءة بعض كلمات القرآن بألفاظ مختلفة كانت تدل على معنى واحد ولم يكن هذا الاختلاف في نظرهم مغيراً لمعنى القرآن ولذلك أقر النبي ﷺ قراءاتهم على اختلاف ألفاظها. وبعد عهد النبي ﷺ أخذ الاختلاف يزيد في عهد سيدنا أبي بكر ويشتد في عهد سيدنا عثمان حتى اقتتل المعلمون والعلماء وتفرق القراء والحفاظ في العراق والشام واليمن وغيرها من البلدان التي دخلها الإسلام حديثاً. وأحس الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بسوء الحال إن استمر فقال لسيدنا عثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل سيدنا عثمان إلى السيدة حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ثم نردها إليك فأرسلت حفصة الصحف إليه فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال لهم سيدنا عثمان إذا اختلفتم في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما أنزل بلسانهم[2].

كان الاعتماد في نقل القرآن ولا يزال في التلقي من صدور الرجال ثقة من ثقة وإماماً من إمام إلى النبي ﷺ لذلك اختار سيدنا عثمان حفاظاً يثق بهم وأرسلهم إلى الأقطار الإسلامية واعتبر هذه المصاحف أصولاً ثواني مبالغة في الأمر وتوثيقاً للقرآن لجمع كلمة المسلمين فكان يرسل إلى كل إقليم مصحفه مع مع يوافق قراءته في الأكثر الأغلب وقد روي أنه رضي الله عنه أمر زيد بن ثابت أن يقرىء

---

(١) راجع كتاب منظور الخط العربي تأليف ناجي زين العابدين ـ مكتبة النهضة بغداد الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م بيروت.

(٢) نفس المصدر ص٣٥.

بالمدني، وبعث عبد الله بن السائب مع المكي والمغيرة بن شهاب مع الشامي، وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي وعامر بن عبد القيس مع البصري، ثم نقل التابعون من الصحابة فقرأ أهل كل إقليم عما في مصحفهم تلقياً عن الصحابة الذين تلقوه من فم الرسول ﷺ ثم تفرغ قوم للقراءة والأخذ والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم وأجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم واعتماد رؤيتهم ومن هنا نسبت القراءة إليهم[1].

وهكذا أصبح مصحف سيدنا عثمان رضي الله عنه «هو المصحف الوحيد المتداول في العالم الإسلامي ـ سنية وشيعية ـ منذ ١٤ قرناً وحتى اليوم»[2].

جاء في المأثور:

أن المصحف العثماني كان خالياً من النقط والحركات لأن الحاجة إليها حينئذ لم تكن ملحة ولا ضرورية. نظراً لأن العرب كانوا يميزون ويقرؤون الأحرف بالسليقة ومعرفة السابق على اللاحق، لذا ظل الناس في مختلف الأمصار الإسلامية يقرؤون القرآن في مصحف عثمان إلى ما يقرب من أربعين سنة بدون نقط وبدون حركات. ولكن عندما امتدت الفتوحات الإسلامية ودخلت في الإسلام أمم غير عربية اختلط هؤلاء المسلمون الجدد بإخوانهم العرب فأدى ذلك إلى ظهور اللحن والتصحيف والقراءة المغلوطة. الأمر الذي أوجب وضع نظام الحركات (النقط الإعرابي) أو (الشكل) التي قام بها أبو الأسود الدؤلي ومن ثم تبعها نقط حرف القرآن بالنقط الإعجامي وهي النقطة المميزة (ب ت ث ج ح خ إلخ... التي وضعها تلاميذ أبي الأسود الدؤلي وهم يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم الليثي وابن سيرين ٦٥-٦٦هـ) وقد لاقى نظامهم هذا معارضة شديدة، منهم

(١) نفس المصدر ص٦٤.

(٢) نفس المصدر ص٦٦.

أنس بن مالك وعبد الله بن مسعود الذي قال: «لا تخلطوا في كتاب الله ما ليس منه» انظر المحكم لأبي عمرو الداني.

عدد آيات القرآن وكلماته وسوره

يبلغ عدد آيات القرآن الكريم كما اتفق العادون المكيون على أنها ٦٢٢٠ آية.

وذكروا بأن عدد كلمات القرآن ٧٧٩٣٤.

وأن عدد سوره ١١٤ وقد قسمها العلماء إلى أربعة أقسام:

١/ الطوال سبع سور ـ البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، واختلفوا في السابعة أهي الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة. أم هي سورة يونس.

٢/ المئون وهي السور التي تزيد آياتها على ١٠٠ آية أو تقاربها.

٣/ والمثاني وهي التي تلي المئين في عدد الآيات.

٤/ والمفصل هو أواخر القرآن وسمي المفصل لكثرة الفصل بينه.

والقرآن لا ريب «توقيفي» ولكن العلماء المجتهدون الصالحون الصادقون هم الذين توصلوا لهذا التقسيم وأهل المسيد في السودان تابعوا هذا التقسيم. ولكن المعتمد عندهم أن القرآن.

٣٠ جزءاً.

٦٠ حزباً.

١٨٠ مقرة أو «مقرأ».

٤٨٠ ثمناً والثمن يعرف كذلك باللوح.

ثم يلي هذا التقسيم «الخروبة» وهي بضع آيات مثالهما ـ من أول سورة البقرة:

﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.

هذه هي الخروبة.

هذا الكلام من باب التخمين وأملي أن يصححه الجيل القادم أو من يفتح الله عليه بمعرفة.

الباب الأول

مدخل

خرجت في منتصف صفر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة وألف هجرية أبحث عن أماكن دراسة القرآن المشهورة في شرق النيل الأزرق زرت خلالها مسيد أبو دليق، والشيخ مصطفى الفادني ومسيد أم ضبان والهلالية وأبو حراز.. الخ.

وسبب زيارتي لهذه الأماكن يرجع لاقتراح من مشائخنا بالدامر فهم يظنون أن خيوط المعرفة وأسبابها تلتقط من محلات البركة المسيد والخلوة فأكثر الأهالي يستودعون كثيراً من أشيائهم الثمينة والمهمة خزانة المسيد ثقة منهم في هذه الأماكن الطاهرة التي يضمخ ساحتها أريج التلاوة ويظللها الأمن وبالفعل وجدت عند المشائخ وثائق نادرة أهمها وثائق تمليك الأرض والهبة والصدقة والميراث والمهر والبيع والشراء وسير الحرب ووثائق النسب التي يحرصون على حفظها كثيراً. وعند بعض المشائخ وجدت مخطوطات كاملة عن الفقه وتجويد القرآن والتوحيد وعلم العقائد إلى آخره.. أذكر منها خزانة مسيد شيخنا الفكي يوسف الأمين بشندى والشيخ محمد بن عوض الله حفيد الشيخ برير ود الحسين بشبشة ومسيد الفكي العربي بالسلمة «بربر» و«محمد» بن الفكي آدم الحلاوى وخزانة مسيد الغبش «بربر» التي يقوم عليها الشيخ الخليفة خوجلي.. وخزانة شيخ المسيد لا تخلو من أثر مهم وقد تكدست هذه الأوراق في زمن الأزمات التي تعرض لها الأهالي في أواسط عهد الفونج وفي عهد الحكم التركي، وبالأخص أيام حملة «الدفتردار» وأثناء الثورة المهدية، وفي الفتح الإنجليزي المصري أيضاً تعرض الناس للهجرة والارتحال وكلما تعرضوا لزعزعة أودعوا وثائقهم المشايخ وذهبوا

حيث يشاء القدر، وكثير من الناس أهمل تلك الوثائق وفيما بعد، صارت مع مرور الزمن من ضمن المحفوظات التي يهتم بحفظها المسيد وفي طي هذه الأوراق معلومات كثيرة عن حياة أهل السودان وتأريخهم، كان هدفي الاطلاع على هذه المكتوبات وبالفعل أفدت منها فائدة كبيرة..

وفي المسايد التي زرتها في شرق النيل كانوا يسألونني هل زرت مسيد ود الفادني فأجيب بالنفي وتكرر اسم مسيد ود الفادني في كل محل زرته كان هذا أول عهدي بسماع اسم مسيد ود الفادني المشهور ثم زرت أماكن تدريس القرآن في قلب الجزيرة وجنوبها.

ود نعمان ـ سنار ـ اليعقوباب ـ تباخة ـ الحجاج ـ العمارة ـ ما يرنو ـ الصابونابي.

وعدت إلى الخرطوم من غير أن أعرج على ود الفادني وفي أوائل ربيع الآخر زرت بعض المسايد في النيل الأبيض وأغلب المشائخ يسألونك عن هويتك والغرض من زيارة المسيد وحينما يطمئنون إليك يتمهلون وتنشرح صدورهم وما من شيخ تحدثت إليه في تلك الأماكن إلا وسألني هل زرت مسيد ود الفادني وهو سؤال اعتدته وكنت أتوقعه كل لحظة وهذا يدل على عراقة مسيد ود الفادني وسمعته الكبيرة. وخرجت من النيل الأبيض عبر مشروع المناقل وأسلمني الطريق إلى مدينة ود مدني ومنها ذهبت رأساً إلى قرية ود الفادني وكانت تزحم خاطري أفكار شتى وتغمرني نشوة فرح والسيارة تنهب ذلك الطريق الجميل.

ثم مالت بنا السيارة يساراً ونحن قادمون من ود مدني وفارقنا الطريق «المعبد» واتجهنا غرباً وتتبعنا أثر السيارات في طريق لا يخلو من المطبات والمستنقعات وعيوننا مشدودة نحو المئذنة التي تتدثر بالأشجار الخضر من على البعد.

ولما دنونا انحسرت الأشجار وبانت القرية وأذكر جيداً أننا دخلنا من جهة الجنوب والقرية في يميننا ولا تفصلنا عنها غير عشرات الأمتار ومع ذلك كان الدخول عسيراً. فقد انكسرت إحدى «الترع» المارة في صدر قرية ود الفادني

وانساح الماء وطوق القرية ومداخلها من كل الجهات إلا معبراً صغيراً لا يعرفه إلا أبناء القرية ودرنا حول القرية إلى أن وجدنا مدخلاً لا يصلح إلا لمن يمشي على رجليه، وصحبت فتى من أهل القرية وأخبرته بأني أقصد المسيد فرحب بي وصحبني إلى المسيد عبر دروب القرية المتعرجة. ود الفادني قرية آمنة وادعة مجتمعها متكافل وهواؤها حسن وتسكنها حوالي ثلاثمائة أسرة.

دخلت فيما أذكر من البوابة الغربية وهي المدخل الرئيسي لأغلب سكان القرية.

خلعت نعلي تأدباً ودخلت المسيد ووجدت نفسي بين حلقتين كبيرتين يتوسطهما معلمان الحلقة الأولى يتوسطها الشيخ محمد ود القراعة والحلقة الثانية فيها الشيخ أحمد، والحلقتان تدويان بتلاوة القرآن أصوات تؤزك أزيزاً وتهزك هزيزاً. أصوات متداخلة في بعضها، فيها صوت الكهل وصوت الفتى وصوت الغلام والصبي وكل واحد مكب على لوحه.

وبين الدائرتين وحول أطراف المسيد وداخل المسجد وخارجه كبار الطلاب الذين شارفوا الحفظ وهم في سن المسؤولية لا يحتاجون معها لرقابة الشيخ أو وكيل الشيخ. فهؤلاء منكفئون على الألواح المركوزة على جدار المسيد أو الخلوة وبعضهم يركز لوحه على لوح زميله بطريقة خاصة ووجهاهما متقابلان ومنهم من


طريقة خاصة للحفظ « ركز الالواح على بعضها »

يضطرب ساعة القراءة ومنهم من يهتز جسمه ومنهم الساكن الأوصال «وهؤلاء قلة» فأغلب من يدرسون القرآن تتحرك أطرافهم وحواسهم. وهذه الحركات تعينهم على طرد الوسن والكسل.

وفي ركن قصي من المسيد رأيت رجلاً حوله بعض الطلاب وبعضاً من الأهالي وهو دائب الحركة يتحدث إلى هذا ويهمس في أذن ذاك يعطي هذا ويوجه هذا وحسبته شيخاً من شيوخ التدريس وهو رجل بين الكهولة والشباب ربع القامة جمّ النشاط مستدير الوجه وعلمت أن الرجل هو شيخ المسيد وخليفة الشيخ علي ود الفادني اسمه الشيخ الريح بن الشيخ حمد النيل وسألت أقرب شخص مني وأنا أشير نحوه من الرجل.

قال والدهشة تكسو وجهه: هذا هو الخليفة.

قلت: من الخليفة.

قال: من أنت الذي لا تعرف الخليفة الريح.

قلت: أنا زائر وتلك أول مرة أدخل فيها هذا المسيد.

قال: حسناً هذا الخليفة الريح. خليفة الشيخ ود الفادني.

ثم تقدمت نحو الخليفة الريح وهو في مجلسه المشار إليه وقد أحاطه الطلبة وأصحاب الحاجات. فلما رآني مقبلاً عليه هب مندفعاً نحوي وطوقني بكلتا يديه وكأنه يعرفني منذ أمد بعيد فقابلت تحيته بمثلها ثم قادني إلى بيت الضيافة المجاور للمسيد وأمضى معي برهة من الوقت.

شرحت له أسباب زيارتي لهذا المسيد واستأذنته في الدخول إلى المسيد فرحب وأخذني إلى المسيد قال: هذا المسيد ينسب لمؤسسه الشيخ علي ود الفادني والشيخ علي يرجع نسبه «للفادنية» وهم قبيلة كبيرة من قبائل «الجعليين» ويرجع نسبهم إلى محمد «بافادن» جد القبيلة التي إليها ينتسبون وينتهي نسب

محمد بافادن إلى محمد بن الحنفية[1] وعرف الفادنية بين الناس بأنهم أهـل قـرآن، وتعلموا القرآن وعلموه لأبناء المسلمين واشتهر منهم رجال أعلام في هذا المجـال كالشيخ نعيم الفادني والشيخ البشير والشيخ مصطفـى الفـادني ومـن ضمـن هـؤلاء الرجال الشيخ علي بن فضل الله الفـادني مؤسـس هـذا المسيد المبـارك وقبـل أن يؤسسه كان يدرس في شرق النيل الأزرق في منطقة «ود عُشّـيب» ثـم انتقـل إلـى غرب النيل الأزرق وأسس مسيداً صغيراً في قرية «أم جلود» ثـم انتقـل إلـى مكـان آخر يعرف باسم «كدباس» وانتقل من كدباس للمكان الحالي الذي نحن فيه وهو يعرف بود الفادني نسبه للشيخ علي بن الفادني.

الشيخ علي ود الفادني

ولد الشيخ علي بن فضل الله بن حسن بن خير السيد بن عـدلان فـي قريـة ود عشيب شرق النيل الأزرق.

ووالدته هي مريم بنت عبد الرحمن بن علي ود عشيب، بدأ القرآن عند والـده ثم انتقـل للشـيخ الكبـير ود مضـوي الشـمباتي ثـم انتقـل علـى اثنـي عشـر شـيخاً. والانتقال في ذلك الزمان أمر مقبول ومتبع ثم تزوج ثلاث زوجات هن منـارة بنـت البشير وتفوتي بنت علي السميح وستنا بنت عطية.

ثم تنقل في أماكن عدة ـ ود عشيب ـ أم جلود ـ كدبـاس ـ ود الفـادني ومـن المتفق عليه عند الرواة كلهم أنه أنشأ مسيده هذا في غضون السلطنة الزرقاء حوالي ١١٠٥[2] ومما يؤسف له أننى لم أجد من أرخ لهذا المسـيد وأملـي كبـير فـي أن أعثر حتى طباعة هـذا الكتـاب علـى مـن يملـك وثيقـة تـؤرخ لـه وظنـي كبـير فـي المصاحف التي خطهـا الطلبـة المتخرجـون فـي هـذا المسـيد إذ جـرى العـرف أن

---

(١) محمد بن الإمام علي بن أبي طالب وشهرته محمد بن الحنفية وهي أمه.

(٢) الراوية ـ الوالدة عائشة بنت النذير بن الفكي محمد بن الشيخ علي ود الفادني رحمها الله.

يكتب الطالب المحود بعد تخرجه ـ مصحفاً للمسيد ويمهره باسمه وبالتاريخ واليوم الذي تم فيه الفراغ من كتابته..»[1].

ود الفادني ـ المكان

تقع قرية ود الفادني على الخط العرض ١٢ وتبعد عن الخرطوم مائة وخمسين كيلومتراً والمدينة التي تجاورها هي «اربجي» وهي المدينة التاريخية الأولى في منطقة الجزيرة وذكر الشيخ ود ضيف الله أن مؤسسها هو الشيخ حجازي بن معين وقد بناها قبل سنار عاصمة «الفونج» بثلاثين سنة والمعلوم إن سنار تأسست بعد قيام السلطنة الزرقاء وغدت أربجي قرية صغيرة زماناً طويلاً كاد يضيع فيها اسمها إلى أن سخر الله أحد أبنائها البررة ذلكم هو المعلم المربي الأستاذ عبد الرحمن علي طه فألف بين فرقانها ذات الأسماء المختلفة ووحدها من جديد تحت اسم «اربجي» وبعد التوحيد تجدد شبابها واندفعت في شرايينها الحياة، رحمه الله وأجزل ثوابه. أما المدينة الثانية المجاورة لود الفادني فهي مدينة الحصاحيصا ثاني أكبر مدن الجزيرة وهي مدينة ذات حركة تجارية كبيرة وسوق هام.

المسيد الكيان

شيد المسيد القديم على مساحة تبلغ عشرين وثلاثمائة وأربعة آلاف متراً اثنان وسبعون متراً في ستين وعلى ثلاثة من جدرانه تقوم الخلاوي وهي غرف متوسطة الحجم بين ٤×٤ و٤×٣ متراً مبنية بالطوب الأخضر ومسقوفة بالمواد المحلية كالحطب ثم استغلوا الزنك والاسمنت في السقف فيما بعد هذه الخلاوي تخصص سكناً للطلبة وفي كل خلوة طالبان إلى أربعة. الكبار مع الكبار والصغار مع الصغار ويراعي المسيد الحالة الاجتماعية للطلبة فبعضهم يقدم من مناطق رعوية وآخرون من مناطق زراعية وبعضهم من خارج السودان ولكل جماعة متشاكلة

(١) الراوية ـ الشيخة ودية بنت الحسن بن محمد ابن الشيخ علي ود الفادني رحمها الله.

ومتجانسة سكن يناسب حالهم. وكل جماعة تسمى خلوتها باسم الجهة التي انحدرت منها أو اسم القبيلة. وخلوات السكن غير خلوات الدراسة والخلاوي السكنية الموجودة الآن عددها يقرب من خمسين توزيعها كالآتي:-

الرقم	الاسم	القبيلة	الجهة
١	خلوة	الحسانية	النيل الأبيض والجزيرة
٢	خلوة	الفادنية	شرق النيل والجزيرة
٣	خلوة	السلامات	دارفور
٤	خلوة	اربجي	الجزيرة
٥	خلوة	السدارنة	البطانة بين النيل الأزرق ونهر اتبرا
٦	خلوة	طلبة	الجامعات
٧	خلوة	طلبة	المدارس العليا
٨	خلوة	التاما	دارفور
٩	خلوة	الهوسا	نيجيريا
١٠	خلوة	ارتريا	ارتريا
١١	خلوة	مساليت	دارفور
١٢	خلوة	أولاد الفاو	جبال الفاو وشرق الرهد
١٣	خلوة	فلاتة	غرب السودان ونيجيريا
١٤	خلوة	التنجر	دارفور
١٥	خلوة	بني عمران	كردفان
١٦	خلوة	هوسا	السودان ونيجيريا
١٧	خلوة	الرزيقات	دارفور
١٨	خلوة	الشويحات	كردفان
١٩	خلوة	المعالية	دارفور
٢٠	خلوة	أم بررو	عرب فلاتا رحالة

القوت:

هذا وأصبح ادخار القوت للمسيد تقليداً ثم فطن الحاكم لاحترام الناس للمدرسة القرآنية «المسيد» فخصص لها الأراضي الزراعية والحواكير، ومبالغة في احترامه للعلم والعلماء أعفى تلك الأراضي من الضرائب وصار إعفاء أرض المسيد تقليداً يلتزمه جميع الحكام في السودان حتى وقتنا هذا.

وينسب الرواة إلى الشيخ عجيب المانجلك أنه أول من اقتطع الأرض للمسيد وخصص راتباً للشيخ المعلم(١).

وتخصيص الأراضي الزراعية مطرية كانت أو نيلية لا يخفى مغزاها فهي دعوة صريحة للاستقرار، فالعلم لا ينتشر ولا تقوم له قائمة إلا في مجتمع آمن مستقر فواحدة من أسباب استقرار «المسيد» هي الأراضي الزراعية التي تضمن له الأمن الغذائي والاستقرار النفسي.

المسيد والإعاشة

للمسيد أرض يفلحها الشيخ وتلاميذه وأحياناً يتكفل بها المجتمع فيزرعها مثلما يزرع أرضه إذا كانت قطناً أو ذرة أو بطيخاً. إلخ وبعد الزراعة ينظفونها ويعزقونها ويحصدونها وينقلونها إلى مخزن المسيد هذا كان أسلوب ممارسة العمل اليدوي ثم دخلت ضمن مشروع الجزيرة الأرض المخصص للمسيد وصارت تزرع بوسائل الري الحديث وأصبح الطلبة يعملون تحت رقابة الخبراء الزراعيين.

فالطالب يأتي في الزمان الماضي «مهاجراً» من غرب أفريقيا حتى يصل السودان ثم يسأل عن أفضل المسايد ويقصدها فيجد الأمن والغذاء والكساء والتعليم، والخلاوي تساوي بينهم وبين أبنائه من غير مَن ولا أذى، وهي تودي

---

(١) عجيب المانجلك بن عبد الله جماع ثاني حكام العبدلاب حكم بعد والده ٩٥٠ هـ إلى أن توفي بكركوج الحريف.

هذه الرسالة والصلة العلمية أبقى وأرسخ من كل الصلات ولو كان أهل المسايد يرصدون عدد الطلبة الأفريقيين منذ أن قامت خلاويهم ومسايدهم لرأينا عدداً ضخماً تخرج من هذه المدارس الأهلية التي لا تفرض على الطالب إبراز البطاقة الشخصية ولا تسأله عن الجواز، ولا عن قوميته فهو مثلهم إنسان سوي يستأهل الإكرام والتقدير.. كما أنها لا تسألهم أجراً على التعليم فالدراسة «مجاناً» والمسيد قطعاً يحتاج لنفقات تناسب حجم الطلبة وفي الماضي كان المجتمع هو الكفيل بالإنفاق على المسيد ولم تكن متطلبات الحيران تتجاوز «العصيدة» أو الكسرة وإن صحبها «إدام» فبها ونعمت، وإلا فالماء هو إدام طلبة القرآن لأن المشايخ الكبار كان إدامهم الماء. والأكل بالماء يعين على صفاء الذهن كما يقولون والذهن الصافي أكثر قابلية للحفظ من غيره.. كما حدثنا شيوخ القراءة - إذن - فكل متطلبات المسيد كمية من الذرة وشيء من العشب البري[1] يكون إداماً وهي لا تكلف المجتمع كبير جهد هكذا كانت البداية وكانت شاقة جداً على الشيخ وطلبته فالشيخ اختار مكاناً نائياً عن القرى ولكن سكان القرى ملزمون أخلاقياً واجتماعياً بمد يد العون إلى المسيد وبفضل الأهل والمجتمع عمر هذا المسيد حتى طبقت شهرته أركان السودان كلها ثم شرع الطلبة بعد تكاثرهم في نظافة الأرض الوعرة فزرعوا الذرة وخزنوها فكانت دعماً «لتكية» المسيد.

وهذا مثال للأجناس التي تقرأ وتسكن هذه الخلاوي ويبدو أن لمسيد ود الفادني سمعة حسنة خارج السودان وقد لاحظت في مطلع السبعين عدداً من أبناء أفريقيا أذكر منهم: -

٦ طلاب من الكاميرون.

١١ نيجيريا.

---

(١) قصب الذرة وبعد حرقه يسمى الوبكاب. وهو من جيد الإدام كذلك البامية الناشفة (الويكة والملوخية الناشفة) التي تسمى أم تكشو.

٢ النيجر.

٣ السنغال.

٩ شاد.

٥ زائير.

٢ غينيا بيساو.

وقد رأيت ابنَيْ سفير نيجيريا بالخرطوم «سعادة الحاج نوح» يدرسان في خلوة ود الفادني والرحل قطعاً ملم بأخبار الخلاوي إذ ظل يقصدها جماعات من سكان غرب أفريقيا فينقلون أخبارها لأهليهم ومعارفهم. فعلا صيتها ومن ير المسيد وأسماء الخلاوي تذكره بأسلوب الجامع الأزهر فقد خصص الأزهر لكل جنس رواقاً باسمهم.

رواق المغاربة.

رواق الشامية.

رواق السناريين.

رواق الفور.

والمسيد يقوم بالإشراف على سكن الطلبة وغذائهم وصحتهم وكل أمورهم ويصرف خازن المسيد لكل خلوة لوازم العيش، والجراية تتكون من دقيق وسكر وخضار ولحم إلخ.. فلكل خلوة من خلاوي الطلبة الكبار مندوب يستلم نصيبها من الشيخ أو وكيله أما صغار الطلبة فيصنع لهم المسيد الطعام في كل الوجبات وفوق ما يخصصه المسيد تأتي وجبات كاملة من أهل القرية ومن ذوي اليسار وتوزع تلك الوجبات على الطلبة بالسوية فوق راتبهم اليومي..

والمسيد بجانب الطلبة ينفق على خلاوي الضيفان وعابري السبيل وأصحاب الحاجات الذين يقصدونه.. وقد تطول إقامة هؤلاء فيتولى المسيد أمرهم..

ومن يرى حال الطلبة في هذا المسيد والمسايد الأخرى تتأكد عنده وتتجسد معاني الوحدة الإسلامية والأفريقية وهذا تقليد أخذت به بلادنا منذ عهد بعيد.

أوقاف المسيد

١/ حواشتان بمشروع الجزيرة «عشرة أفدنة» فقط.

٢/ مشروعان زراعيان مطريان بجهة الدالي والمزموم.

٣/ سبعة دكاكين مربع ٤٠ سوق الحصاحيصا.

وهذه كل أوقاف المسيد الذي يتجاوز طلابه «ألف» طالب يزيدون ولا ينقصون والمسيد يطحن كل ليلة من خمسة إلى ستة شوالات ذرة بالإضافة للإدام والسكر والشاي وملحقات الطعام الأخرى كل هذا العبء يقوم به الخليفة ويعاونه أهالي قرية ود الفادني المشار إليهم.

وفوق عبء الطلبة أعباء أخرى كالضيوف الذين يتوافدون لزيارة أبنائهم الطلبة وبعضهم أغراهم المسيد فسكن في القرية سكناً دائماً وفيهم المعدم ومحدود الدخل فمثل هؤلاء يأكلون من المسيد حيث يصرفون كل صباح الدقيق والسكر واللحم وأدوات الطعام الأخرى من مخزون «الميرة» فيأكلون ويخرجون ما يفيض عن حاجاتهم للمسيد على رأس كل وجبة.

وبعض أهل القرية محدودو الدخل.. مثل هؤلاء يسدون النقص من المسيد ويدفعون ما زاد عن حاجتهم للطلبة.

وللمسيد قطيع من البقر يحلب مساء كل يوم ويوزع على المسيد وأسرة الشيخ ومن يحتاج من أهل القرية يأخذ من غير حرج.

وأهالي قرية ود الفادني متفانون في خدمة مسيدهم وأغلبهم ينحدر من الفادنية والجعليين والحلاويين وغيرهم وفضل هذه الجماعات ظل يتنامى كلما ازداد عدد

الطلبة فكل يصل طعامه وعونه للمسيد حتى أصبح إنفاقهم على المسيد عادة.

ولا سيما من بسط الله لهم في الرزق كالحاج إبراهيم شمو وأولاده والأستاذ علي محمد شمو الذي يحمل الأعباء الكبرى التي تهم المسيد معنوياً وأدبياً... وذلك ثبت بمن شيدوا خلاوي المسيد ابتغاء الثواب

المحسنون

الرقم	الاسم	عدد الخلاوي
١	ابراهيم طلب	٢
٢	التيجاني هلال	٢ بملحقاتها فرندات
٣	عباس كرم	٢
٤	البروفسير عبد العال عبد الله	٢
٥	الياس كمبال	١
٦	أحمد عبد اللطيف	٤
٧	عبد الرحيم	٢
٨	سيد عيسى «المسرة»	٣٢
٩	عوض البلولة	١ مظلة حديثة ١٧×٩

١٠ زار المسيد أحد المواطنين «القطريين» هو الشيخ عبد الله الدباغ فأعجب بنظام المسيد وتبرع ببناء مسيد حديث، واختار طالبين مجودين من خريجي المسيد وأخذهما لقطر للتدريس وهما: الشيخ علي الجنيد والشيخ عبد الكريم علي من الشباب الحفظة المجودين.

وهو بصدد أخذ دفعة كبيرة عددها عشرون خريجاً ليقوموا بتدريس القرآن في الدولة القطرية.

ونعود للخلاوي فهي بالرغم من كثرتها مضاف إليها خلاوي المسيد العتيقة

لا تسع هذا العدد الكبير حيث يتوافد الطلبة الراغبون في حفظ القـرآن الكريـم مـن الجامعات والمدارس العليا فيضطر بعض المواطنين من أهالي ود الفادني إلى إخـلاء بيوتهم لسكنى الطلبة خلال فترة إجازة المدارس..

برنامج الخليفة

ويبدأ يوم خليفة المسيد الشيخ الريح بن الشيخ حمد النيل قبيـل الفجـر بسـاعة أو ساعتين يقرأ في تلك الفترة أوراده القرآنية ثم يصلي الصبح ومن ثـم يقبـل علـى تصريف شئون المسيد الإدارية.. فهو يتابع الغذاء منذ خروجه من المخـزن إلـى أن يؤكل.. ويقف على الشاي الصباحي بل ويوزعه بيده وعندما يتم ذلـك يـأتي زمـن الفطور وبعد الفطور يذهب لتدبير داره وأسرته الصغيرة ثـم يقبـل علـى أصحـاب الحاجات والضيوف إلى أن يدخل عليهم وقت الظهر فيشرف الخليفة علـى وجبـة الغذاء ثم ينطلق لتدبـير شـئون أخرى فيدخـل عليهـم المغـرب والعشـاء فيناقشـون حركة المسيد وما جد من أمور ثم ينصرفون لهجعة قصيرة وفي الثلث الأخـير مـن الليل يبدأ يومه. القراءة والتهجد وصلاة الصبح فشئون الطلبة والمسيد إلخ..

ويحمل خليفة المسيد فوق هذا هموم المجتمـع الكبـير كالمواسـاة ومشـاركة الناس أتراحهم وأفراحهم ولأنه موضوع احترام فهو على رأس «الأجاويد» وهـم فئة معروفة في المجتمع يناط بهم فض الخصومة وعقد الصلـح بيـن الأفـراد والجماعـة وبين الرجل وزوجه ـ وجماعة الأجاويد تحل تسـعة مـن عشـرة مـن القضايـا التـي تشجر بين الناس والناس أميل للفطرة والصلح الأهلي وهم يذعنـون لهـذه الأحكـام العرفية أكثر من إذعانهم للمحاكم المدنية أو التي تشرف عليها الدولة عموماً..

وبالعموم فإن شيخ المسيد لا يملك من زمنه شيئاً فهو فـي يـد المجتمـع يقلبه كيف شاء ويقلبهم حيث أراد. وعدت وفي نفسي شيء من مسيد ود الفادني وظل هذا الشعور يكبر كلما زرت هذا المسيد وأصبحت علاقتي بالمسيد علاقة حميمة.

وكنت أزوره في المناسبات والمواسم الدينية وأدعو بعض الأصدقاء لزيارته.

ثم سألت وحدثت نفسي ألا يصلح هذا المسيد ليكون مشروع دراسة؟ ولما اطمأنت نفسي عرضت الأمر على الأصدقاء الأستاذ عبد الوهاب موسى والمرحوم الدكتور حسن عبد اللطيف وفي وقت لاحق الدكتور محمد خير عثمان وطفت أجمع المعلومات من هنا وهناك إلى أن أصبحت عندي حصيلة اطمأنت لها نفسي وكان القصد في بادىء الأمر أن يكون هذا البحث عن «الخلوة» وذهبت في هذا الاتجاه شوطاً ما.

ودفع بي الحماس لهذا الموضوع أن أخرج من السودان لإفريقيا غرباً وشمالاً وشرقاً متتبعاً أثر المدارس القرآنية وبدأت الرحلة في اليوم الثامن من شهر رمضان سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة وألف. وكانت أول محطة مدينة انجمينا «جمهورية شاد» ثم منها إلى الكاميرون ومن الكاميرون دلفت لبلاد البرنو حيث أمضيت أسابيع بمدينة «ماي دوغري» وهي عاصمة البرنو ولها سمعة علمية كبيرة في مجال «بحثي» هذا، ومنها ذهبت لمدينة «كانو» وخرجت رأساً لجمهورية النيجر وأمضيت بها وقتاً طيباً، ومن النيجر ذهبت رأساً لمدينة العلم والتاريخ «تمبكتو» من أعمال جمهورية «مالي» وعبرت فولتا وغينيا وغانا إلى مدينة داكار وذهبت منها إلى الجمهورية الموريتانية التي تعرف عندنا ببلاد «الشنقيط» وبعد أسبوعين دخلت المملكة المغربية ومنها للجزائر وتونس فمصر ثم أتاحت لي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أن أزور جمهورية الصومال للاشتراك في دراسة ميدانية لمدارس القرآن التي تعرف عندهم باسم «الدكسيّ» وفيما بعد زرت المملكة العربية السعودية مرتين وكذلك الجمهورية العربية اليمنية ودول الخليج ولما عدت وجدت في حقيبتي معلومات لا بأس عليها.. وأخذت في تفريغها من حالتها الصوتية مدة طويلة، إذ كنت أعمل على جمع المعلومات بطريقة «الكاسيت» وهو أيسر وسيلة للجمع وتَفْضل الكتابة كثيراً وتقتصد الزمن. وفوق هذا تحفظ

المعلومات بصوت راويها. ثم أفرغتها على الكراس وبدأت أناقشها جزءاً جزءاً مع الإخوان الذين لهم إلمام بالمعرفة التربوية ثم أخضعت المعلومات مرة ثانية لغربة وتصنيف واستقر الرأي أن يكون اسم الكتاب «المسيد» وهو أوسع نسبياً من الخلوة واستخرت الله وبدأت متوكلاً عليه وكان انطلاقي من مسيد ود الفادني لذلك كانت البداية به، لاعتبارين الأول ثقة فيه وفي مشايخه بحسبانه مسيداً «نموذجياً» ويحسب من أهم مدارس القرآن في السودان.

الاعتبار الثاني: والذي أيضاً لفت نظري هو عدد الخريجين الذين درسوا وحفظوا في هذا المسيد وهو عدد ضخم إذ ظل هذا المسيد ومنذ تشييده خلال السلطنة الزرقاء يُخرِّج الحفظة. ولما بسط الأتراك يدهم على بلادنا كان أغلب المشايخ الذين يديرون دفة التعليم والكتابة من تلاميذ ود الفادني وكذلك في المهدية جل العلماء والمشايخ الذين أثّروا في الحياة العامة منهم وهذه طائفة بأسماء بعض الأعلام الذين تخرجوا في ود الفادني منذ مدة طويلة.

١	الشيخ إبراهيم الكباشي	شمال الخرطوم
٢	الشيخ محمد ود كنان	الجزيرة
٣	الشيخ القرشي ود الزين	الحلاويين
٤	الشيخ الأستاذ الحسين ابراهيم ود الزهراء عالم وقاضي المهدية الشهير	
٥	الشيخ محمد ود البصير	الحلاويين
٦	الشيخ محمد ود عويضة	الجزيرة
٧	الشيخ حمد النيل بن الشيخ الريح	صاحب مقبرة حمد النيل بأمدرمان
٨	الشيخ طه الأبيض البطحاني	الجزيرة
٩	محمد ود حماد	الجزيرة
	وغيرهم	

المعلمون المعاصرون

وهـذه قائمـة بأسـماء المشـايخ الذيـن يقومـون بـالتدريس اليوم ربيـع الأخـير ١٤٠٤هـ.

١	الفكي الشيخ محمد حسن[1]	ود القراعة	شرق النيل
٢	الفكي الشيخ أحمد عبد المطلب	الشقيلاب	بحر أبيض
٣	الفكي الشيخ النور أحمد ادريس	السلامات	رهيد البردي
٤	الفكي الشيخ حسن الفكي محمد	القراعة	شرق النيل
٥	الفكي الشيخ محمد ابكر ابراهيم	مساليت	دارفور
٦	الفكي الشيخ الأمير الطيب	وداي شعير	الجزيرة
٧	الفكي الشيخ العوض أحمد طيفور	ود الفادني	الجزيرة
٨	الفكي الشيخ موسى أبي صالح		
٩	الفكي الشيخ عبد الرحمن الحسين		

الصناعة

في الماضي القريب كانت قرية ود الفادني مركزاً لصناعة الفخار أباريق القهوة «الجَبَنْ» وأباريق الوضوء المعروفة والدواة وغيره ولعل حركة المسيد ونشاطه هـو الذي شجع هذه الصنعة مع وجـود الخامـة الجيـدة وهـي تـراب خـاص بالمنطقـة، والفقراء والطلبة يهتمون بالإبريق والدواة والجبنة وكلاهـا مرتبطـة بنشـاطهم اليومـي والطلبة عندما يذهبون في العطلات يحملون معهم قطعة أو قطعتين مـن صناعـة ود الفادني فضلاً عن أنّ الإبريق والدواة ملازمان للطالب فـي المسيد وخارجه. ولفتـت صناعة الفخار نظر المجتمـع فصاروا يقتنونها لسـببين الأول لأنهـا صناعـة جيـدة.

---

(١) الفكي ـ أصلها الفقيه.

والثاني بقصد البركة لأنها صنعت من طينة مباركة تغمرها أصوات تـــلاوة القـــرآن الليل والنهار.

وهذان العاملان مهدا لرواج صناعة الفخار فازدهرت وصـــــار تجـــار الفخـــار يقصدون قرية ود الفادني فيشترون كميات مناسبة وينتشرون لتوزيعها في الأســـواق، وإقبال التجار على هذه الصنعة شجع الطلبة وحفزهم على تعلمها فكثير منهم أصبح من حذاق هذه الصنعة التي تدر عليهم عائداً مادياً يسد حاجاتهم الصغيرة بالإضافة إلى هذا. فإن المسيد يشجع هذه الحرف والصناعات بل يشجع الطلبة على تعلمها..

الزراعة

وما دمنا بصدد الحرف فالمسيد يهتم بالزراعة بجانب الدراسة فيأذن ـــ للطلبـــة أن يعملوا في أوقات فراغهم فيتعلمون صنعة الزراعة فيتأثر الطلاب بـــالمجتمع مـــن حولهم وهو مجتمع زراعي، ويتعلم سريعاً، وتعلم العمل الزراعي لا يحتـــاج لمـــهارة كبيرة فهو عند الجمهور علم عين.

وقد رأيت الطلبة يخرجون للعمل وفي يد كل واحد حشاشة «ملـــود» وفـــأس وأكثر الطلبة يتعلم الصنعة في الأرض المخصصة للمسيد وهي «حواشات» يزرعـــها الطلبة بتوجيه شيخ القرآن أو وكيله وتحت إشراف خبراء الزراعة الرسميين وبعد أن يحذق الطالب صنعة الزراعة يحصل بوسائله الخاصة على أدوات الزراعة ـــ الحشاشة والجراية والفأس والفرار والمنجل إلخ..

هذا ومهما يكن الجهد الذي قمت به فلا أعتبره بحثـــاً متكـــاملاً وعســـى أن يتصدى لتوسيع هذه المادة باحث آخر تكون ظروفه أوفر حظاً من ظـــروفي الـــتي اعتمدت فيها على جهدي الخاص والعون الأدبي والمادي الذي لقيته مـــن بعـــض الإخوان الأساتذة عبد الوهاب موسى ـــ علي محمد شمو ـــ الرائد معـــاش زيـــن العابدين محمد أحمد عبد القادر.

ثم زرت مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف والرياض والمنطقة الشرقية وبعض المدن الأخرى. متابعاً فيها تاريخ المدارس القرآنية وتسمى عندهم كما هو معلوم الكتاتيب وعدت بحصيلة متواضعة من مطبوعات ومخطوطات وروايات شفهية..

وبعد أوبتي من المملكة السعودية شددت الرحال لأفريقيا الغربية والشمالية زرت خلال هذه الرحلة.

١/ شاد.
٢/ الكاميرون.
٣/ نيجيريا.
٤/ مالي.
٥/ النيجر.
٦/ موريتانيا.
٧/ المغرب.
٨/ الجزائر.
٩/ تونس.
١٠/ مصر.

ثم أتاحت لي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. أن أزور الصومال سنة ثمان وتسعين بعد الثلاثمائة والألف ثم زرت كينيا.

وأحسب أني حصلت على معلومات ظننتها تفي بالغرض. وبدأت في إعدادها وترتيبها تحت عنوان «الخلوة» وهي مدارس القرآن في بلادنا.

وتبين لي أن بعضاً من الدارسين كتبوا عن مدارس القرآن الكتاتيب فاستخرت الله على تغيير الاسم من الخلوة إلى المسيد وفي تقديري أن المسيد أرحب وأشمل، والخلوة جزء من المسيد.

المسيد

ولما كنا بصدد المسيد ينبغي أن ينتحدث عن كلمة مسيد وهـي معروفـة عنـد الجمهور، فقط لحقها الإبدال. والإبدال معروف في لهجات العرب وإبدال الجيـم (يأ) معروف ومألوف في الماضي والحـاضر، وكذلـك يغلـب بعضهـم اليـاء جيمـاً كقولهم ـ يمل بدل جمل وشير بدل شجر.

وسكان الخليـج صـار جميعهـم فـي عهدنـا هـذا يقلبـون الجيـم «يـاء» إلا إذا أفصحوا، رجال تنطق ريال «جبل ـ يل ـ جمل ـ يمل» وكذلك المصريون يقلبـون الجيم قافاً «صعيدياً» جاء. قاء. رجل رقل إلخ والشام يعطشون الجيم حتى يكـادوا يهلكونها فتصير شيناً وعمومـاً فـإن حـرف «الجيـم» يحسـب مـن حـروف الثقـل فتحويره وقلبه سهل وجائز عند العامة وربما الخاصة.

هذا البيت من الشعر «القلب» فيه واضح في كلمتي «ينـا وشـيرات» وأصلهـا «جنا وشجرات» فقلبت الجيم ياء قالت الشاعر الخثعمية:

إذا لـم يكـــن فيكــن ظــلا ولا ينــا فقبحكـــن اللــــه مـــن شــــيرات

وذكر الدكتور عون فى كتابه «قاموس اللهـجة العامية فى السودان» فى مادة مسيد.

قال وقد ذكر ابن مكي أن عامة أهل صقلية يقولون «مسيد» وذكر أن المسـيد قد حكاه غير واحد فهو مسموع من العرب وقد نسب لكتاب «لحن العامة» قـول الخثعمية ونحن في بلدنـا السـودان لا نقلـب الجيـم ولا نحورهـا فهـي عنـد العـام والخاص جيم قرشية حرة.

وهذا يدل على أن كلمة مسيد تلقفهـا أهـل السـودان مـن أفـواه المشـايخ الذيـن توافدوا على السودان في وقت مبكر وأغلبهـم قـدم مـن الحجـاز والمغـرب وأسسـوا

المسيد وقد أشرت آنفاً أن كلمة مسيد لا تطلق في بلادنا على المسجد ولا على الجامع ولا على الزاوية إنما تنصرف إلى المكان الذي يجمع مدرسة القرآن والمصلى والسكن. فإذا اجتمعت هذه المناشط «الاستخدامات» الثلاثة كان المسيد أما إذا كانت مدرسة قرآن فحسب فهي خلوة وربما جاء بها أهل السودان أنفسهم.

وعند البدو الرحل في شمال «كردفان» كلمة مسيد ولكنها تعني الرمل في بطن الوادي مسطحاً أو مبسوطاً وإذا كان الوادي ضيقاً ورمله قليل قالوا مسيد وأحياناً يطلقون كلمة مسيد على الشجرة الظليلة التي يستظلون بها والمراد كما علمت أنهم يعنون بكلمة مسيد المكان النظيف الطاهر كمسيد القرآن.

وأهل إقليم دارفور يعرفون المسيد اسماً ومعنى ولكنهم ينطقون الكلمة «مسيك» يبدلون الدال كافاً حسب لهجتهم المحلية.

فالقبائل التي تتحدث لهجات غير العربية تقول «مسيك وبعضهم يقول مسيج» وأشهر الأماكن وأقدمها في مجال تدريس القرآن دنقلا وأهلها يتحدثون اللهجة النوبية ولهم مدرسة قرآن قديمة تعرف بـ«كلو مسيد» معنى «كلو» حجر فيكون المعنى «مسيد الحجر» واشتهر في بلادنا قرى كثيرة باسم المسيد. مسيد ود الفادني مسيد «بربر» وهي قرية شهيرة وقديمة جداً ولا تعرف إلا «بالمسيد» وكذلك قرية المسيد بالجزيرة غرب بلدة «كترانج[1] وهي بلدة سميت بهذا الاسم منذ عهد بعيد.

ولما زرت المملكة العربية السعودية أول مرة وأنا بصدد دراسة أحوال كتاتيب القرآن مررت عل مدينة الطائف الشهيرة وزرت هنالك مسجد سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ولفت نظري غرفة مربعة ومغلقة من كل الجهات وسألت حارس المسجد عن

---

(١) كترانج بلدة قديمة لها شهرة عظيمة في مجال تدريس القرآن وعموم علوم الآلة.

هذه الغرفة[1] قال: «هذا قبر ابن عباس رضي الله عنهما» وقبل بناء هذا المسجد كانت الغرفة التي تضم القبر من ضمن (المسيد) وانتبهت لكلمة مسيد منذ تلك اللحظة إذ كنت أحسب أن أهل السودان هم الذين يستعملون كلمة مسيد وبدأت أسأل عامة أهل المملكة العربية السعودية وتبين لي أن العامة يقولون «مسيد» وبالأخص قبائل الجنوب كقبائل عسير وغيرها ثم زرت المملكة المغربية متابعاً كتاتيب القرآن فوجدتهم مثل أهل السودان يقولون مسيد وينطقونها بلهجتهم ذات التعطيش البين ويميلون بالياء نحو الجيم وسألت جماعة من أساتذة كلية اللغة العربية بمراكش عن أصل كلمة مسيد واشتقاقها قالوا أصلها مسجد ثم صغرها العامة فصارت «مسيجد» ثم أدغمت الياء في الجيم فصارت «مسيد» وهو ما عليه أهل المغرب.

وزرت مسيد سيدي الزوين ويقع جنوبي مراكش في ذي الحجة ١٣٩٨ ومكثت فيه وقتاً طويلاً..

وطيلة إقامتي كنت أتخيل أنني في مسيد «أم ضبان» فكل شيء يذكرك بأم ضبان ـ الضيوف ـ خلاوي القرآن ـ مساكن الطلبة ـ هيئتهم وأزياؤهم المتقشفة «التكية» والتكية تسمى بيت «الطياب» وهي حجرة كبيرة «كبيت النار» في مسايد السودان. السواد يكسو حياطها وتغطي السقف طبقة رمادية أقرب إلى السواد من فعل النار التي تضرم للطعام فالدخان والقتار يصعد حتى يرتطم بالسقف ثم يعود فيجد فتحات في أعلى الحجرة هي نفس «الطاقات» التي نجعلها في خلاوي المسيد، وفي حجرة الطعام مجموعة من النسوة المتفاوتات الأعمار وهن منهمكات في صنع الطعام للطلبة بعزيمة وصدق يفعلن هذا احتساباً للأجر وتقرباً إلى الله.

وفي المسيد جماعة من العمال لجلب الحطب والدقيق والطعام وشهدت ثلاثة من العمال «يرمُّون» خلاوي المسيد «بالزبالة» الاسطى «مندرج من وسطه ورابط

---

(١) الحارس ـ اسمه جابر بن الحبيب (٧٥ سنة).

قميصه بحبل وفي يده «المحارة» وصعد على السلم وبدأ في بلط الحائط ومساعده يمده «بالزبالة» عن طريق «القذف» كما يحدع مساعد الاسطى في بلدنا الطين أو المادة التي تطلى بها الحيطان.

فالمسيد عموماً يمور بالحركة نهيق الحمر وثغاء الشاة وأصوات القراءة إلخ.. الليحان مركوزة على حدار المسيد مكان المحاية.

أقلام البوص دواة الحبر الأسود كل شيء يذكرك بمسيد أم ضبان أو أي مسيد آخر في السودان. وتأكد عندي أن المسايد التي رأيتها في المغرب هي نفس المسايد الموجودة في بلادنا فكل شيء متطابق تماماً.

الخلوة

الحديث عن المسيد بالضرورة يفضي بنا إلى الخلوة والمسيد ذاته لا يسمى مسيداً إلا إذا كانت الخلوة هي محور نشاطه فالمسيد بلا خلوة لا يساوي شيئاً إذن فالحديث حتماً يسوقنا إلى الخلوة. وكما عَرّفتُ المسيد ينبغي أن أتعرض للخلوة. معناها وظيفتها ـ مناهجها ومكانتها في المجتمع.

جاء في لسان العرب[1] عن ابن إسحق خلوا وخلاء وخلوة الأخيرة عن اللحياني اجتمع معه في خلوة وقيل الخلاء والخلو ـ المصدر.

والخلوة في بلادنا لها ثلاثة معاني:

الأول

الخلوة المكان يقصده المرء ليخلو فيه وينقطع عن الناس للذكر والعبادة وقد تكون الخلوة مبنى أو كهفاً أو جذع شجرة وقد رأيتهم في منطقة «القلعة»[2]

(١) لسان العرب ـ لابن منظور الجزء الثامن عشر من صفحة ٢٦١.

(٢) القلعة منطقة في جبال الفاو، مشروع الرهد.

يحفرون أشجار التبلدى من عل حتى قاعها وينزل المختلي بالدرج ويمكث عدة أيام مختلياً في هذا المكان الوعر.

المعنى الثاني

الخلوة التي يدرس فيها القرآن ويكون بناؤها مما يتخذونه من الطوب اللبن أو الأحمر أو بيت الشعر ونحوه.

وخلوة تدريس القرآن أكثر شهرة من الخلوة الأولى والثالثة ولا تنصرف كلمة خلوة بداهة إلا على خلوة تدريس القرآن.

المعنى الثالث

الأهالي في السودان يطلقون كلمة خلوة على الحجرة المخصصة نزلاً للضيوف فهي كالديوان أو الصالون في البيوت الحضرية.. ففي كل القرى نجد الخلوة حتى أهل البادية يخصصون خيمة مما يسكنون ويطلقوا عليها اسم الخلوة وهي هنا بالمعنى اللغوي. من الخلو، والرجال الذين اشتهروا بالكرم في القبائل تكون في ساحتهم خلوة أو عدة خلاوي..

والخلوة في الحي أو الفريق أو القرية عنوان مجد وشارة كرم فالذين يخصصون الخلوة أو الخلاوي في بيوتهم وقراهم يجلبون الحمد والثناء لقومهم وعشيرتهم إلخ... ولم أعثر على كتابة شافية عن الخلوة وتاريخ نشوئها.. ومن المعلومات التي توفرت عندي فإني أرجح أن كلمة خلوة اصطلاح صحب الدعاة الأول فأشاعوه في بلادنا وهم رواد العلم عندنا فالخلوة إذن تنسب إليهم واستعمالهم للكلمة يدل أن الخلوة من قاموسهم، فسكن الشيخ يسمى الخلوة ومكان عبادته الخلوة، والغرفة التي يخصصها لتعليم الصبيان خلوة..

الخلوة خارج السودان

وقد لاحظت أن بعض الشعوب العربية تعرفها فهي عند أهل اليمن حجرة في أعلى الدار تسمى «الخلوة» وهي غرفة صغيرة يجعلونها نزلاً للضيوف وغيرهم من العابرين والطارقين وفي المملكة العربية السعودية منطقة «نجد» وما حولها يعرفون الخلوة ولها ثلاث وظائف عندهم. وهي:-

الأولى: يجعلونها تحت بناء المسجد على نسق «البدرون» ويتخذونها مصلى في زمن الشتاء..

الثانية: يجعلونها غرفة في الدار يستعملونها للقيلولة في نهار الصيف..

الثالثة: في بعض الدور يتخذونها مجلس أنس في زمان الشتاء..

وتحدث الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي[1] عن ذكرياته الدراسية في الحرم قال: وقد أدركنا «الحلقات» في المسجد الحرام ـ كما كانت في المدينة المنورة بالمسجد النبوي الشريف. تغص بالطلاب الكبار والصغار ليلاً ونهاراً وفي جميع الأوقات حتى منتصف الليل وفي تباكير الصباح وبعد كل فرض يؤدى، ولا أبالغ إن قلت أن عددها أكثر من مائة بيت ـ الأروقة ـ و«الحصاوي» وفي المدارس المجاورة والخلاوي[19].

الخلوة في مكة

وفي مكة المكرمة داخل الحرم مئات الخلاوي وقد أحصيتها فوجدتها تسع وثلاثمئة «خلوة» مكتوب على كل غرفة عبارة «خلوة» رقم كذا إلى ٣٠٩[2] وهي غرفة عندما رأيتها مخصصة للمجموعات التي تعمل داخل الحرم كالأغوات والمؤذنين والسقائين وعمال النظافة وما شاكلهم فلكل غرفة ومكانها أسفل الحرم ينزلون لها بالدرج.

---

(١) «شذرات الذهب ـ أحمد بن إبراهيم الغزاوي إصدارات المنهل ـ جدة»

(٢) رأيتها ١٣٩٥ هـ المؤلف.

ولا أستبعد أن تلك الخلاوي كانت مكاناً لحلقات التدريس كما أشار الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي[1] وأن بعض المشائخ يدرسون فيها القرآن ولبعض الفقهاء رأي في تدريس الأطفال في الحرم. خوفاً عليه من عبث الأطفال لأنهم لا يتحرون الطهارة ويخشى أن ينقلوا النجاسة والقاذورات لهذه الأماكن[21].

سنوك والخلوة

وقد زار مكة المكرمة المستشرق الهولندي «سنوك» هرجرونجة متنكراً ومدعياً الإسلام ومكث بها سنة كاملة[2]..

وقد لفت نظره الخلاوي الكثيرة فكتب يقول: وعندي أن هذا النظام مقتبس من نظام مدرسة «قايتباي» التي بناها عندما حج عام ٨٨٤هـ والتي شيدها لصق الحرم من الجهة الشرقية ويصف لنا سنوك هذه المدرسة بقوله.

وفي سنة ١٤٧٧م بنى السلطان قايتباي بالقرب من باب السلام مدرسة بها قاعة جميلة للمحاضرات واثنين وسبعين خلوة «حجرة صغيرة» للسكن ومكتبة للمذاهب الأربعة ومعنى هذا أن المدرسة كانت تحتوي على عدد من الخلوات في داخلها. وأزيلت هذه الخلاوي بعد حادث الحرم.

المشهور والذي وقع في ١٣٩٩ الموافق ١٩٧٩ في الأيام الأخيرة للحج وذلك عندما احتمى جماعة من الرجال كان يقودهم المدعو «جهيمان» ببعض الخلاوي بالحرم وأطلقوا النار على الساعين والطائفين والمصلين، وسرعان ما طوقتهم القوات السعودية وأخمدت حركتهم وأعادت الدولة صيانة الحرم الشريف

---

(١) «أيام الاصرافة والاقلابة جريدة قريش عدد ٢٠٥ - ١٣٨٣/٧/١٠هـ - ١٩٦٣/١١/٢٧م تأليف الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي راجع التعليم في مكة والمدينة تأليف محمد عبد الرحمن الشامخ دار العلوم الرياض الطبعة الثانية.

(٢) التعليم في مكة - المستشرق الهولندي - سنوك هرجرونجة.

وأدخلت المزيد والجديد من الخدمات التي تهدف إلى خدمة ورعاية الأماكن المقدسة وحجاج البيت العتيق وبعد التعديل والتوسعة ألفيت الخلاوي وصارت توسعة للحرم المكي..

الخلوة في مصر[1]

ذكر الشيخ عبد السلام النابلسي أنه زار زاوية الدمرداش فرأى خارج ضريحه خمسين أو ستين «خلوة» ذات أسوار وأنوار وتسمى مساجد «الأنوار». ونظام الخلوة يشبه نظام الزاوية والتكية والرباط وهو معروف في أنحاء العالم الإسلامي بأنها مكان للذكر والعبادة والدراسة وإقامة للعابرين والمقيمين من أبناء السبيل والحجاج ونحوهم فالخلوة تقوم جزئياً مقام الزاوية ولا تزال في السودان تؤدي مهامها كما كانت في الماضي البعيد يقصدها أبناء السبيل و المسافرون والفقراء والحجاج للدراسة أو الإقامة القصيرة ويتخذون منها مكاناً للدراسة والاستجمام إلخ.. وسلوكهم هذا صار عرفاً معروفاً في مساجد العالم الإسلامي ولا سيما الأفريقي وكثير من جمهور المسلمين يصلون هذه الأماكن بصدقاتهم وهباتهم وطعامهم ويندر أن يمر يوم ولم تصل هذه الأمكنة صدقة أو رفداً.

ولكن المسيد هو الأكبر والأشمل وما زال المسيد والخلوة والزاوية وحتى المسجد والجامع مقصداً للمحتاجين من عامة المسلمين.

الخلوة في تونس[2]

ذكر الأستاذ المرزوقي في معرض حديثه عن التعليم في البادية التونسية الخلوة إذ قال: -

---

(١)نقلاً عن مخطوط النابلسي دار الكتب القاهرة تحت رقم ٣٤٤ التربية في السودان د. عبد العزيز أمين عبد المجيد المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٤٩م.

(٢) مع البدو في حلهم وترحالهم - محمد المرزوقي تونس ١٩٨٤م - الدار العربية.

إذا بلغ الطفل الخامسة من عمـره أو السادسة على الأكثر يدفعه والده إلى مؤدب الصبيان بالكتاب القرآني فيستقبل هنالك بالفرح من زملائه إذا كان معروف الأب وبالصمت والتكشير أحياناً إن كان غير معروف إلى أن يقول المرزوقي والزوايا منتشرة في القرى الريفية وهي عبارة عن مكان يقام بجانبه جامع القرية وكتاب لتعليم القرآن ويسمى عندهم «الخلوة».. والخلوة معروفة جداً في ليبيا.

الخلوة في المغرب

المغرب العربي عرف الخلوة. وكثير من المساجد بها غرفة تسمى الخلوة وتكون بالقرب من المحراب من الجهة اليسرى للمصلي.

ورأيت خلوة في مسجد القرويين بمدينة فاس وأفادني عالم جليل[1] أن الخلوة موجودة في مساجد المشائخ ـ يوسف بن تاشفين والمولى إبراهيم والقاضي عياض ومحمد بن الجزولي وهؤلاء بمدينة مراكش كمركز، إن ـ الخلوة أيضاً في مساجد كثيرة.

وفي تقديري أن الخلوة عرفتها بلادنا ثم عززها المشايخ الذين قدموا من الحجاز ثم من المغرب فيما بعد..

وأثر هؤلاء واضح في كل وجه من وجوه المعرفة ومن الشواهد على ذلك رواية أبي عمر الدوري[2] التي قرأ بها أهل السودان وقد جاءت من الحجاز يدلنا على ذلك المصاحف المخطوطة بهذه الرواية وأقدم ما وقفت عليه مصحف مكتوب بخط الناسخ المعروف الشريف «أبو نُمَيٍّ» وهو حجازي من مكة

---

(١) رواية الأستاذ عبد السلام بن جبران عميد كلية اللغة العربية بمدينة مراكش.

(٢) هو حفص بن عمر بن عبد العزيز الأزدي الدوري أبو عمر إمام القراءة في عصره وقد تلقى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء البصري، مات بالكوفة سنة ٢٤٦ هـ.

راجع المجتبى في تخريج رواية أبي عمر الدوري تأليف محمد محمد محمد سالم محيسن وزارة الشئون الدينية الخرطوم.

المكرمة وهي الرواية التي تقرأ بها الخلاوي الآن ـ «وهنالك رواية أخرى هي رواية ورش[1] والأخيرة منتشرة في منطقتين دنقلا ودارفور، وأجزم أن هنالك مصاحف لم أقف عليها.

دخول الخلوة

الخلوة نظامها حر يقبل كل الأعمار. تجد فيها الغلام ابن الخمسة والصبي ابن العاشرة والشاب ابن العشرين والكهل الذي تجاوز الأربعين ويصنفون في قسمين حوار وطالب.

الحوار: أب القرية.

الطالب: الذي يأتي من خارج القرية أو المدينة.

والحوار في السودان يطلق على التلميذ الذي يتعلم القرآن والرأي عندي أن السبب في تسميته بهذا الاسم أن الحوار في الأصل ولد الناقة. ولا يزال حواراً حتى يفصل فإذا فصل عن أمه فهو «فصيل» وقد شبه التلميذ الذي يتبع أستاذه ويتلقى عنه العلم والإرشاد بالحوار لأنه لم يفصل عنه بعد، ويؤيد هذا الرأي عندي ما كان يقوله ود ضيف الله فهو يستعمل كلمة «فطام الحوار» ويعني بذلك تمام دراسته وانفصاله عن شيخه فهو يقول أن فطام محمد بن الريدة كان في نوري على يد الفقيه مدني ابن محمد بن مدني «صفحة ١٦٥» وفي هذا أخالف رأي مؤلف العربية في السودان ـ إذ يقول «ص٣٦» أن الحوار أصله «حواري» الناصر والتلميذ ينصر أستاذه[2] وكذلك في صفحة «١٢٨» الطبقات نجد أن فطام الشيخ

---

(١) ورش هو أبو سعيد عثمان بن سعيد المصري ـ الملقب بورش ولد بمصر ورحل إلى نافع فقرأ عليه بالمدينة ومات بمصر ١٩٧هـ.

(٢) الحوار وقد يخلطون بين الحوار والطالب في زماننا هذا. فالحوار بالضم ابن الناقة وبالكسر النقاش بين شخصين.

عبد الرحمن بن صالح بن بانقا في دراسته «خليل» كان على الشيخ ضيف الله والفطام يكون للطفل ولابن الناقة «الحوار» أيضاً فهو حوار.

وقد عرف بعضهم الحوار ونسبه للحواريين أصحاب عيسى بن مريم عليه السلام[1].

في يوم الدخول للخلوة يأتي ولي أمر الحوار أبوه أو أمه فيجلس أمام سيدنا ويقدم ابنه ويشفع تقديمه بكلمات تقليدية ـ لِيك اللحم ولينا العضم.

فيرد الشيخ ربنا يعلمه ويحفظه وإن شاء الله يكون ابن حلال ويدعو له فيرد ولي أمر الحوار بعبارات محفوظة ومسجوعة..

دُقّه إن كضب

وعلمه الأدب.

والمشايخ متفقون على سن القبول «خمسة سنين» والمجتمع في الحقب الماضية ما كان يعرف شهادة الميلاد ولا سجل الوفيات.. والمتعلمون يكتبون تأريخ ميلاد الأولاد «دون البنات» على صفحات المصاحف وهذا نموذج لكتابتهم.

ولد ابننا أحمد صباح الثلاثاء الخامس عشر من شهر رجب سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف من هجرة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وللمشايخ طريقة يقدرون فيها عمر الحوار يأمره سيّدنا برفع يده اليمنى على رأسه حتى يمسك بها أذنه اليسرى فإن مسكت يده أذنه قبل بلغ الخامسة أو تجاوزها أما دون الخامسة فلا تصل يده الأذن.

ولبلوغ الحلم عندهم طريقة أخرى يُثني سيدنا خيطاً على رقبة الحوار ثم

---

(١) العربية في السودان. الشيخ عبد الله عبد الرحمن ـ منشورات دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٦٧م.

يفردها «دائرة» وينزلها في رأس الحوار فإن نزلت فقد بلغ الحلم وإن لم تتسع لإدخال رأسه فهو دون بلوغ الحلم وهي طريقة مجربة عندهم..

وفي يوم قبول الحوار يقدم له ولي أمره هدية من نقود أو شاة أو ثور حسب طاقته. ويترك ابنه وديعة في يد سيدنا، وجرى العرف أن قبول الطلبة «الحيران» الجدد يوم الأربعاء من كل أسبوع والدخول بالأربعاء تطبقه كل المدارس القرآنية في أفريقيا، وفي بعض البلدان العربية والإسلامية ولهم أثر متفقون عليه وقد يجعله بعضهم حديثاً وهو قولهم «ما بدىء أمر بيوم الأربعاء إلا كان حقاً على الله أن يتمه» وعند بعضهم أن الأربعاء هو اليوم الذي خلق الله فيه النور، ثم يوكل أمر الحوار لطالب كبير متمكن فيبدأ معه.. بسم الله الرحمن الرحيم كتابة الحروف على الأرض ويظل يكررها في كل يوم إلى أن يستقر رسمها في ذهنه وهذه ـ المرحلة تكون الكتابة فيها على الأرض ويكتب الطالب ويمسح ثم يكرر فإن أجادها الغلام استحق مسك اللوح ويعطى لوحاً صغيراً فينتقل الطالب للكتابة عليه، على مرحلتين، الأولى يكتب له سيدنا «تبركاً» بنواة التمر على اللوح ثم يمرر الحوار القلم عليها إلى أن يثبت القلم في يده ثم يوالي الكتابة كل يوم وبذات الطريقة يرسمون له الحروف بالنواة..

ثم ينقلونه إلى المرحلة الثانية وهي كتابة حروف الهجاء.

أ ـ ب ـ ت ـ ث ـ ج ـ ح ـ خ ـ ...

يكتبها على طريقة الإملاء أ ـ ب ـ ث، يصار به إلى التمييز بين الحروف المهملة والمعجمة[1] والحوار يجد مشقة في مخارجها وبمرور الأيام يستقيم لسانه ولهم أسلوب خاص، توخت فيه الخلاوي النغمة والسجعة وهو أسلوب محبب للأطفال فيكررونه من غير ضجر..

---

(١) المهملة الحروف من غير نقط والمعجمة الحروف ـ ذات النقط.

الِيفْ لا شيء عليه.

الباء واحدة من تحتى.

التاء اثنين من فوق لى.

الثاء ثلاثة من فوق لى.

الجيم واحدة من تحتى.

الحاء لا شيء عليه.

الخاء واحدة من فوق لى.

الدال لا شيء عليه.

الذال واحدة من فوق لى.

الراء لا شيء عليه.

الزين واحدة من فوق لى.

السين لا شيء عليه.

الشين ثلاثة من فوق لى.

الصاد لا شيء عليه.

الضاد واحدة من فوق لى.

الطاء لا شيء عليه.

الظاء واحدة من فوق لى.

العين لا شيء عليه.

الغين واحدة من فوق لى.

الفاء واحدة من فوق لى.

القاف اثنين من فوق لى.

الكاف لا شيء عليه.

اللام لا شيء عليه.

الميم لا شيء عليه.

النون واحدة من فوق لى.

والكلمات ـ عليه وتحتَى وليَ ـ تنطق بإمالة اللسان الدارج.

ويفصحها سيدنا وهو الشيخ المعلم فيقول.

الباء نقطة واحدة من تحتها.

التاء نقطتين من فوقها.

الثاء ثلاثة نقاط من فوقها.

الجيم نقطة واحدة من تحتها.

الحاء لا شيء عليها. إلخ..

ومن بعد أن يميز الحوار الحروف المنقوطة وغير المنقوطة يدخل مرحلة أخرى: الشكل ـ النصب ـ الخفض ـ الرفع ـ والجزم[1] ـ ويتعلم هكذا:ـ

بَ نصب ـ ب خفِض ـ بُ رُفع ـ أبْ جزم.

ت نَصب ـ تِ خِفض ـ تُ رُفع ـ أتْ جزم.

وإلى آخر الحركات التي تعرف بالشكل.

ولما يحذقها الحوار ينتقل إلى الجر.

ب ـ جاب الف ـ بى جاب ياء ـ بو جاب واو ـ والف ـ أ ب جزم.

ت ـ جاب الف ـ تى جاب ياء ـ تو جاب واو ـ والف ـ أ ت جزم.

وهكذا إلى نهاية الحروف الهجائية.

وبعد أن يحذق الحوار الحروف وحركاتها جيداً ينتقل للجمل ذات الحرفين

(١) والنصب والخفض والرفع والجزم أسلوب المدارس القرآنية في السودان وكذلك في المغرب العربي. أما الفتح والكسر والضمة والسكون فقد ظهرت مع المدارس الحديثة.

والثلاثة إلى أن يستطيع «تقرين» الحروف. وبعد تقرينها «ربطها» بعضها مع بعض ينتقل لسورة الحمد لله رب العالمين ثم سورة الناس والفلق إلخ..

اللوح

نحن في بلادنا نذكر كلمة اللوح مطلقاً وبعض إخواننا في البلدان العربية يؤنثونها ويذكرونها فيقولون اللوحة واللوح.

وتصنع الألواح من أشجار خاصة تمتاز باللدانة والقوة إذ تكون لدنة في حالة جفافها وخضرتها، وتكون قوية المكسر في حالة جفافها وأفضلها.

١/ شجر العشر في شمال وشرق السودان.

٢/ شجر الهجليج في الغرب والوسط.

٣/ شجر السِّرِيْ شرق السودان.

٤/ شجر الاندِراب وسط السودان.

٥/ شجر الحراز في وسط السودان.

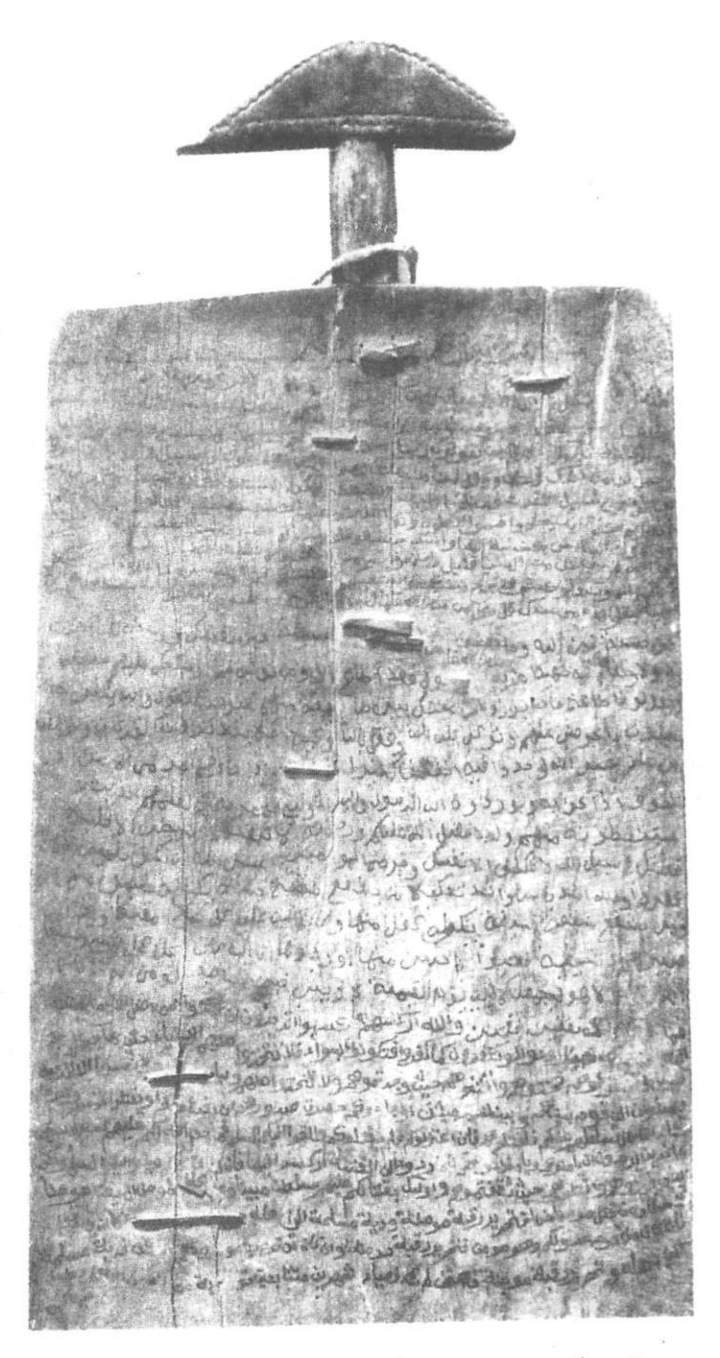
وللوح صناع «ينجرونه» ويهدونه للخلوة وبعضهم يصنعه ويعرضه للبيع وفي الخلاوي الكبيرة ألواح مشهورة، اكتسبت شهرتها من كثرة عدد الطلبة الذين حفظوا عليها فيتنافس الطلبة في الحصول عليها ويتفاءلون بالقراءة عليها وفي حوزتي لوح بلغ المائة سنة وقد حفظ عليه مئات الطلبة وصار مشكلة في الخلوة بسبب التنافس عليه لأن كل طالب يسعى للقراءة فيه وأحياناً يسرقه الحوار ويذهب به إلى خلوة أخرى فتتبعه العيون وتترصده إلى أن يردوه لمكانه. واللوح بطول الزمن وتعرضه للماء يتشقق ويترضرض ولكنهم يصونونه ويربطونه بالمسامير وأمتن وأجمل الألواح هي ألواح غرب السودان التي تصنع من شجر الهجليج «اللالوب» وهذا رسم لنموذجين من الألواح.



لوح الهجليج



لوح العشر



لوح أثري من خلوة ود نعمان قرأ عليه أربعة أجيال

وقد أعجب هذا اللوح شاعرنا الكبير الأستاذ محمد عبد القادر كرف فقال شعراً:

وإذا به في كــل ركــن	فيـه يزخـر بـالعجيب
بنفـائس الكتـب التـي	حبـت إلـى كـل القلـوب
بمـآثر للسـلم حـظ	بينهـن وللحـروب
وكأنمـا هـو متحـف	فـذ بـراء مـن ضريـب
وشـهدت (لوحـاً) عنـده	قَدْ قُدَّ من خشـب صليـب
وكانـه لأبـي الأعـاجم	آدم وأبـي العريـب
لـم أدر مـاذا فيـه مـن	خـط ومـن كلـم غريـب

القلم

القلم أو الأقلام يتخذونها من مواد محلية متوفرة في كل منطقة وأشهرها:

١/ سيقان قصب الذرة.

٢/ البوص ـ أشجار رقيقة مجوفة.

٣/ التمام «الثمام» وهو صلب المكسر وينبت في أكثر أنحاء السودان لاسيما في حزام السافنا وشبه المناطق الصحراوية.

وبعض أشجار ونباتات أخرى تصلح قلماً ـ فيجمع كل طالب ما تيسر لـه من الأقلام الخام ثم «يبريها» بحنكة ويجعل للأقلام «كنانـة» ويسـميها ــ الحيران ــ قلامة «مقلمة» وربما كان القلم عزيزاً على الطالب فيربطه بخيط طويـل فـي عنـق الدواة. وساعة الكتابة والتصحيـح يقـدم كـل طـالب يريـد التصحيـح قلمـه ودواتـه فيصحح سيدنا اللوح وكلما «ترع»[1] القلم نظفه سيدنا على رأس الطالب ونظافـة

---

(١) ترّع ـ سال مداده.

القلم على رأس «الطالب» يعدونها بركة وخيراً ويترك الحوار أثر القلم علـى رأسـه بضعة أيام من باب التفاؤل والبركة.

الجير

وقبل أن يكتبوا على اللوح يغسلونه في حجر «المحاية» وهو مكان معد لمثـل هذا الغرض لا يطؤه أحد ولا تصله سائمة، يتوخون له الطهارة بقدر الإمكان.

فيأتي الطالب ويمحي لوحه ثـم يمسـحه بـالجير «البلـدي» الـذي يعـرف فـي الخلاوي باسم «الطَّفَل».

ويوجد في أماكن كثيرة من المناطق التي يكون فيها ترسب جيري. فمن هــذه الأمكنة يستخرج الحيران الطَّفَل المناسب فيمسحون به الألواح ويحفظون ما تبقـى ليوم غدٍ.

ويتحامون الجير «الافرنجي» المعروف «بالطباشير» فجيرهم الطَّفَل أبرك مـن أي مادة بيضاء لا يثقون في طهارتها.

صناعة العمار

درجت الخلاوي على توزيع المهام على بعض أيام الأسبوع فكل يوم يخصص لإنجاز مهمة. بجانب الدراسة اليومية.

وقد نظم الحيران أيام الأسبوع في قالبهم التعبيري المعروف بـ«الربـق» قـالوا السبت سبّوتْ.

والخلاوي متفقة بأن يوم الثلاثاء مخصص للعمار ويسمى أيضاً المدار ويتكون العمار من العناصر التالية:ـ

١/ السُّكَن. ٢/ الصمغ. ٣/ السبيب «الشعر».

السكَن واللون الأسود

السكن يتجمع في الآنية التي تتعرض للهب نار الحطب كالقدر والحلة والدوكة[1] وهي مادة سوداء ناعمة تتجمع على الآنية فيجمعها الحيران بطريقة ماهرة «يخرطونها» بالسكين ويضعونها في إناء ثم يضيفون إليه الصمغ المسحوق ويخلطونـه بالمـاء خلطاً جيداً وعندما يقوى يجعلونه دوائر صغيرة في حجم «القرش».

ويعرضون العمار للهواء والشمس فيجف، ثم يحفظونه، وكلما احتـاج الحـوار تناول قطعة وجعلها في الدواة فتذوب قليلاً، ومع الصمغ والسكن يجعلون السـبيب وأفضله سبيب البقر والمعز والسبيب يجعل المداد ليناً لا يتجمد ويساعد القلم على الارتواء والانسياب.

وفي حالة الألوان يستغلون ثلاثة مواد أخرى.

١/ المغر. هو تراب جيري أقرب للحمرة ويوجد في أماكن كثـيرة مـن بلادنـا ولونه يصلح لِلّوح ونقش المصاحف وزخْرَفتها.

٢/ الكركـم وهـو نبـات أصفـر شـديد الاصفـرار يسـتجلب مـن آسـيا وبعـض الشعوب تجعله على الطعام فيعطيه اللون الأصفر. وفـي بلادنـا نجعـل الكركـم فـي صناعة الأحذية البلدية فيزينها.

٣/ الزهرة وهي لون أزرق معروف وبعضهم يكتب بمـاء البصـل[2] «العـادي» فيعطي لوناً أقرب للحمرة.

---

(١) الدوكة ـ أداة من الفخار أو الساج تصنع عليها الكسـرة وكلمة دوكـة ـ مـأخوذة مـن كلمـة «دونكـا» النوبية وهي محل صنع الطعام.

(٢) ماء البصل تكتب به بعض الوثائق والتمائم إذ يخرمون البصلة من جنبهـا ويشـكون البصلـة حتى يتكـون ماؤها فيغمسون فيه القلم ويكتب الكاتب ثم يلـوح الورقـة على النـار فتصـير الورقـة فـي الحيـن قديمـة والحبر كذلك. وبذات الطريقة يزور الأهالي الوثائق في ماضي السنين.

ولكل لون دواة خاصة وقلم خاص وبعض المتخصصين يضعون ماء «الزعفران» عندما يريدون كتابة المصحف.

الدواة

وهي ثلاثة أنواع:ـ

الأول: يصنعونها من الخامة المتوفرة في كل ناحية ولكنهم يفضلون دواة الطين «الفخار» ينونها بأيديهم ثم يحرقونها فتصير حمراء كصناعة «ود الفادني» بالجزيرة وسنكات وكسلا في شرق السودان وبعض الأماكن تربتها سوداء فتصير الدواة كذلك.

ثانياً: دواة القرع وهو ما يعرف في السودان بالقرع «المر» الذي يستخدم كآنية منزلية واستعمالاته كثيرة جداً وفيه نوع جميل «مكور» وعليه ندوب طبيعية تزيده جمالاً ويسميه الأهالي القرع «المحدّر» وهو أصلح أنواع القرع للدواة ـ وفوق جماله يكسونه بجلد فيزداد متانة ورونقاً.

ثالثاً: دواة الزجاج بكل أشكاله كزجاج «الأورنيش» وهو مربع الحجم صغير لطيف الشكل عليه غطاء جميل من الفلين وعلى الغطاء صورة ثعبان «الكوبرا».

رأينا هذه العلب الزجاجية في خلاوينا نهاية الأربعينيات وغطاؤها محكم وعندما يفتحها الحوار تفوح منها رائحة حسنة وللعمار طعم لا يخلو من حلاوة باهتة والحيران الشرهين «يلحسون» غطاء الفلين وبعضهم يقرضه.

خصائص الأيام

خصصت الخلاوي لكل يوم عملاً من أعمالها المتصلة بالإضافة للقراءة اليومية:ـ

السبت: للقراءة والمراجعة وتفقد أحوال الطلبة والحيران.

الأحد: دراسة جادة.

الاثنين : فزعة «احتطاب».

الثلاثاء: يصنع فيها العمار «الجير».

الأربعاء: القبول ـ الكرامة ـ الامتحان.

الخميس: للنظافة ـ ونصفه عطلة.

الجمعة: عطلة.

وقد ضمَّن الحيران هذا التقسيم في «رِبقيّاتهم المشهورة» فقالوا:

السبت سبُّوت.

الأحد نبُّوت.

الاثنين بابين.

الثلاثاء عَمَارة.

الأربعاء كَرامة.

الخميس أبونا

الجمعة أخونا.

وأصبح هذا التقسيم بتقادم الزمن برنامجاً ثابتاً في جميع الخلاوي السبت سبوت والأحد نبوت ـ كل الطلبة الذين يتحدثون العربية يقولون السبت سبوت الأحد نبوت يكنون به للضرب وفي المغرب وموريتانيا يقولون:

السبت سِبوت.

الأحد نِبُوت.

الاثنين الشارة.

الثلاثاء العمارة.

الأربعاء تفرحوا.

الخميس تسرحوا.

الجمعة «تدرسوا» دراسة الحمير على القرار.

الأربعاء

أسعد أيام الخلوة وأحفلها بالحركة هو هذا اليوم وتتم في نهاره وشطراً من ليله عدة أشياء.

١/ قبول الحيران الجدد صباحاً.

٢/ كرامة الأربعاء نهاراً.

٣/ المراماة امتحان أسبوعي مساء.

٤/ امتحان الحفظة بعد صلاة العشاء.

وفي يوم الأربعاء يهش وجه سيدنا على غير العادة فهو طيلة أيام الأسبوع مقطب الجبين ويتطاير من عينه الشرر أو هكذا يتصوره الطلاب والحزم والشدة من ضمن الفضائل التي يمدح بها سيدنا.

وسعادته تتكامل بدخول الحيران الجدد فكل واحد يأتي مع ولي أمره تصحبه الهدية، وكثير من المشايخ يقبلون على الهدايا ويستحثون الناس عليها بطرق غير مباشرة.

وقبول الحيران الجدد يكون في الفترة الصباحية ضمن النشاط اليومي.

الكرامة

كلمة كرامة تعني عند كافة الناس «صدقة» وعند بدء القراءة «الضهرية» أو قبلها يأتي كل حوار بقليل من «الحبوب» أو التمر أو السكر مساهمة منه في الكرامة.

ثم يخرج بعض الحيران الكبار للقرية التي بها الخلوة أو القرى المحاورة ويطوفون على البيوت يسألون الناس «الكرامة» فيعطونهم ما تيسر. حبوب - تمر — نقود إلخ.

يجمعون هذه الأشياء ويعودون للخلوة ويضعون ما جمعوه — النقود تذهب لسيدنا فيصرفها في أغراض تتعلق به وبالخلوة - أما الحبوب فيضعونها في قدر كبير أو حَلّة ضخمة ويجعلونها على النار إلى أن تستوي ثم يوزعونها مع التمر على الحيران. وبعض الأهالي المجاورون للخلوة لهم نصيب في هذه البركة.

كذلك يحمل الحيران حفنة من الحبوب إلى ذويهم فيأكلونها تبركاً وفي رأي مجتمع القرية «كرامة الأربعاء» أكلها يشفي داء البطن. إلخ. ويتبع جمع الكرامة أناشيد يؤديها الطلاب أمام الحوانيت والبيوت.

وتستمر الكرامة حتى آذان المغرب ويدخلون من بعد في قراءة العشاء.

أدونا الكرامة.... كرامة نَبِينا

نبينا محمد. الساكن المدينا

ويقولونها بطريقة جماعية «كورالية» وبأصوات غاية في الحسن والرخامة، وإن تقاعس أحد ممن يقفون أمامهم أو تهرب صاحوا فيه بكلمات قارصة فيثوب إلى رشده ويعطيهم حق الشرافة وهي ضريبة اجتماعية تشجيعية يتكفل بها المجتمع. وبين الكرامة والشرافة فاصل دقيق.

المــــا بدينـــا الشــــرافة   بـــــالعقرب النتافـــــة[1]

تطقـــــه فــــي نديـــــو   تعجـــــل عنقريـــــو

ويؤدونها بطريقة جماعية فيها رنين وتحدي -

---

(١) النتافة من النتف اللسع. النديب عظم الساق.

ويظل الطالب يتنقل بين السور إلى أن يصل «عم» وهي من السور التي تكون فيها الشرافة[1] ثم هنالك شرافات أخرى. أهمها شرافة يسن والكهف، والبقرة تسمى شرافة «الختمة» وهي شرافة كبيرة ـ تشترك فيها القرية كلها ويولم والد الحوار وليمة ضخمة ويطوف الحوار وزملاؤه على الحي والسوق فيجمعون النقود والهدايا فيأخذ الشيخ منها نصيب الأسد وما تبقى يوزع على الحيران.

وبعض الخلاوي تجعل الشرافة في سورة «لم يكن» وإقرأ وعم وتبارك وقد سمع والواقعة وعلى رأس كل جزء تكون شرافة، وأغلب الذين يفعلون هذا المشايخ الذين تكون خلاويهم في مناطق ميسورة الحال.. وعندما يختتم الحوار القرآن يقولون «شَقّه» وتسمى الختمة الأولى «الشَقّة» ثم يبدأ بالعودة وتسمى «العودة المرة» فينزل من البقرة إلى ـ «الصافات» ثم يرجع إلى البقرة ومن البقرة ينزل وكلما مرّ على سورة حفظها. ومن أهم مهرجانات الخلوة ختمة القرآن فبجانب الولائم ـ الموكب الذي يخرج من الخلوة إلى دار الحوار «الخاَتِم» وهذا مشهد يهز الوجدان إذ يلبس الطلاب أجمل ما عندهم من الثياب وهم يحملون ألواحهم ويرددون التهليل الداوي فيصطف الناس في الطرقات يبادلونهم الفرحة وزغاريد النساء تشق أجواء السماء وأغلب تهليلهم.

لا إلــــــه إلا اللــــــه

لا إلــــــه إلا اللــــــه

محمــــد رســــول اللــــه

لا إلــــــه إلا اللــــــه

الفقــــراء عبيــــد اللــــه

لا إلــــــه إلا اللــــــه

---

(١) الشرافة تزويق اللوح عندما يصل الطالب بعض السور وأوائل الأجزاء.

في ماضي السنين كانوا يزفون المحتفى به على جواد مزين أو حمار..

وتتوالى التهاني على سيدنا ووالده وعلى الحوار ذاته ويعطي سيدنا بقية اليــــوم عطلة لجميع الحيران والعطلة في قاموس الخلاوي تسمى «المسامحة»[1] أو البطالة.

الخلوة ومحتوياتها:

تبنى الخلوة من المادة التي تبنى منها منازل الجماعة ــ الطين ــ الطوب الأخضر ــ الطوب الأحمر ــ الحجر ــ الصوف ــ البرش وأهل البوادي تكون خلاويهم في الخيام وظلال الأشجار.

والخلوة في الغالب غرفة مستطيلة ٨×٥ متر مفروشة بالحصير غير الجيد وتحتوي على سرير صغير «عنقريب» أو فروة وفي ركنها يجعلون مكاناً لوضع الألواح أشبه بالسرير ولكنه طويل القوائم طوله ١/١٢×١ متراً وقد ينقص ويزيد حسب وضــع الخلوة.. ويعرف هذا الموضع بعدة أسماء.

١ــ الكتو في وسط السودان

٢ــ الروشان في وسط وشمال[2]

٣ــ الكبس في شمال السودان

٤ــ السيداب في شرق السودان[3]

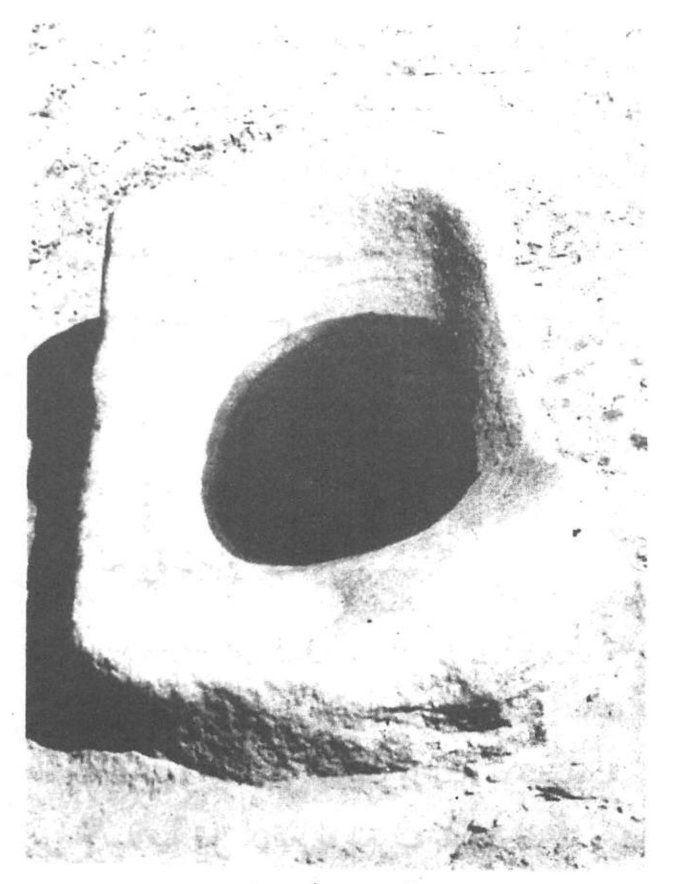
---

(١) المسامحة ــ اصطلاح عرفته الخلاوي وهي الإجازة.

(٢) الروشان ــ روشن فارسيته ــ عون الشريف قاسم قاموس اللهجة العامية في السودان.

(٣) السيداب ــ السرير بلغة البجاة.

وفي ركن حوش الخلوة يضعون حجر المحاية وهو المكان الـذي تمحى فيـه الألواح كل صباح، ويصونونه من القذارة ويعتنون به عناية كبـيرة وحجـر المحايـة يتخذونه من حجر القرانيت أو جرة الفخار وأخيراً صارت صناعته من الاسمنت.



صورة حجر المحاية

الفزعة:

وفي وسط سُور الخلوة موضع «النار» التي يقرأون على ضوئها.. والنار معلـم مهم عند أهل الخلاوي.. وفي ظني أن أكبر نار عرفتها الخلاوي في بلادنا هي نار «أم ضبان» ولعلها أكبر نـار موجـودة الآن فـي البـلاد الإفريقيـة. وخـارج حـوش الخلوة مكان يجمع فيه الحطب يسمى «الشـونة» والحطـب يجمعـه الحـيران مـن

الغابات والأشجار فيحتطبون كل أسبوع.. ويخرجون جماعات ويسمى خروجهم للاحتطاب «الفزعة» فيفزعون في يوم معلوم وكل حوار يحمل فراراً أو فأساً فيقطعون الشجر شبه الجاف ويحملونه إلى لخلوة ويسلمونه لوكيل الفزعة..

والفزعة أمر ضروري فهي بجانب إيقاد النار تعلم الصبيان حرفة قطع الشجر كما تعلمهم الصبر.. على مشقة جمع الحطب فغالباً ما يكون الحطب في مكان وعر يهابه الحيران إذ هو مكمن للزواحف والعقارب وربما الحيوانات المخيفة.

وخير دليل على مشقة جلب الحطب حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه»..

الوكلاء

سار التعليم في الخلوة بنظام العرفاء

هذا النظام الذي لم يعرف في أوروبا إلا منذ أوائل القرن التاسع عشر وكان كشفه ابتكاراً رائعاً في طريق التدريس إذا أمكن به تعلم مئات من التلاميذ في المدرسة الواحدة وبمدرس واحد. إلى جانب مزاياه الاقتصادية كان هذا النظام متبعاً في المدارس الإسلامية قبل أن يعرفه الغرب بقرون طويلة وكان نظام العرفاء موفقاً لأنه نظام اقتصادي ولأن فيه إعداد الريفي لتحمل المسئولية وتنشئته على الإدارة والإشراف ولأنه يخفف عبء العمل على الفقيه أو الشيخ فيتفرغ لعمل تعليمي آخر وبهذا النظام أمكن أيضاً مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ إذ كان يجعل الفقيه لكل مجموعة متناسبة القوى عريفاً.

ولكل «منشط» في الخلوة وكيل.. الفزعة وكيل الحبوب وكيل الطعام وكيل المحاية وكيل الألواح.. إلخ.

وأكبر الوكلاء من ينوب عن سيدنا في غيابه.. وغالباً ما يكون حواراً راشداً وحافظاً..

الحصص:ـ

الخلاوي أكثرها يلتزم فترات معلومة للدراسة وجرى العرف أن يبدأ اليوم قبيل الفجر بساعة وهذه الفترة لا يطيقها إلا الحيران الكبار. وتستمر إلى شروق الشمس وتسمى الحصص.

١ـ الدغشية قبيل الفجر إلى شروق الشمس.

٢ـ الضحوية من شروق الشمس إلى زوال ظل الصباح.

٣ـ الضهرية من صلاة الظهر إلى العصر.

٤ـ العشوية من صلاة المغرب إلى العشاء.

وفي كل حصة ضرب من الدراسة.

الدغشية قراءة الألواح ومحوها.

الضحوية كتابة الألواح وتصحيحها.

الضهرية قراءة حفظ.

العصرية قراءة حفظ.

المغربة «للتسميع» ويسمع «سيدنا» حفظ حيرانه وتعرف «بالعرضة» أو التسميع فالحوار يمسك لوحه خلف ظهره أو يمسكه بالجنب، ويقرأ من الذاكرة فإذا لم يحفظ لا يمحو لوحه في الصباح، وحينئذ يسمونه «مَقيّم»[1] وبعد العرضة ينصرف صغار الحيران ويبقى أهل الدراسة.. وهم كبار الحيران فيقرأ هؤلاء السبع وهو سبع القرآن والغالب أنهم يقرأون ستة أجزاء أو خمسة وكلها تسمى «السبع»

---

(١) مقيّم ـ بايت من عدم الحفظ (مقيّم).

وسيدنا حريص على مراقبة حيرانه ــ فيجعل عليهم وكيلاً يسمى وكيل «السُّبع» ويتخيرون وكيل السبع لعدة أسباب أن يكون أميناً في خلقه، أن يكون بطيئاً في تلاوته لأن بعض الحيران يدركهم النعاس والكسل فيقطعون القراءة.. أو يسرعون إسراعاً مخلاً.. فالقياس الزمني قراءة الوكيل.

الساعة:

الحصص في الماضي يوقتونها بالظل والشمس فيصلّون على الظل وضوء الشمس والنجم ليلاً، ولما عرفوا الساعة جعلوها على الميقات العربي ميقات ساعة «مكة المكرمة» وهي ما تعرف بالساعة العربية أو التوقيت العربي، وتبدأ الساعة مع شروق الشمس «الساعة ١٢» وتغرب الساعة ١٢[1].

وهذا التوقيت معمول به في أغلب أماكن القرآن ــ كأم ضبان وكدباس ــ وود الفادني.. إلخ.

السبع:

درج السلف الصالح على قراءة السبع كل يوم ثم اهتدى بهديهم قراء القرآن وصار تقليداً في كل الخلاوي.

وفي بعض الخلاوي تيسيراً للقارىء يجزئون القرآن إلى ستة أيام كل يوم خمسة أجزاء يقرؤنها بعد صلاة العشاء بقليل إلى الثلث الأخير من الليل.

وتقسيمها على النحو التالي:

١/ من سورة «البقرة» إلى سورة المائدة.

٢/ من سورة المائدة إلى سورة يونس.

---

(١) الشك في صدق الساعة كان في الماضي ولهم أرجوزة فيها، أما الآن فهم مصدقوها. وما زالت المساجد الكبيرة في السودان توقت بالساعة العربية مثلاً أم ضبان ــ كدباس..... إلخ..

٣/ من سورة يونس إلى سورة مريم.

٤/ من سورة مريم إلى سورة الروم.

٥/ من سورة الروم إلى سورة الأحقاف.

٦/ من سورة الأحقاف إلى سورة الناس.

والسبع يعرفه الدارسون في كل مكان، والتقسيم حد متقارب في أنحاء العالم الإسلامي وأنا هنا أورد ثلاثة نماذج أحسبها كافية لتبيان السبع وما بينها من اختلاف يسير.

السبع:-

جاء في الأثر أن الصحابة كانوا يقسمون القرآن سبعة أقسام في كل يوم يقرأون سبعاً والتابعين ومن تلاهم كذلك كانوا يفعلون.. والمدارس القرآنية كلها تعرف قراءة السبع ولكن كثيراً منهم يقسمونه إلى ستة أيام في كل يوم «خمسة» أجزاء ولكنهم يسمونه السبع، والمسايد الكبرى والخلاوي تقسم القرآن لستة أيام ويأتي تقسيمهم على هذا النحو:[1]

١/ من أول البقرة إلى ﴿فما لكم في المنافقين﴾ من سورة النساء الآية «٨٨».

٢/ السبع الثاني من سورة النساء إلى ﴿كما أخرجك ربك﴾ الآية «٥» من سورة الأنفال.

٣/ من الأنفال إلى ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ من سورة الحجر الآية «٢».

٤/ من سورة الحجر إلى ﴿قل من يرزقكم من السموات﴾ من سورة سبأ الآية «٢٤».

(١) هذا ما عليه أغلب المسايد التي زرتها.

٥/ من سورة سبأ إلى ﴿قالت الأعراب آمنا﴾ من سورة الحجرات الآية «١٤».

٦/ من الحجرات إلى سورة الناس.

السبع الكامل:ـ

قال الشيخ الفكي أحمد أخذنا هذه الأسباع بالسند المتواتر.

١ـ السبع الأول من سورة البقرة إلى ﴿فمالكم في المنافقين﴾ من سورة النساء الآية «٥».

٢ـ من ﴿فما لكم في المنافقين﴾ إلى ﴿كما أخرجك ربك﴾ من سورة الأنفال الآية «٥».

٣ـ من ﴿كما أخرجك ربك﴾ إلى آخر ﴿تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ من سورة الحجر «أول السورة».

٤ـ من أول سورة الحجر إلى ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم﴾ من سورة المؤمنون الآية «١١٥».

٥ـ السبع الخامس: من ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم﴾ إلى ﴿قل من يرزقكم من السماء﴾ سورة سبأ الآية «٢٤».

٦ـ السبع السادس من ﴿قل من يرزقكم من السماء﴾ إلى ﴿قالت الأعراب آمنا﴾. من سورة الحجرات الآية «١٤».

٧ـ السبع الأخير: من ﴿قالت الأعراب آمنا﴾ إلى سورة الناس وهو آخر أسباع القرآن.

قيد السبع:ـ

القيد أسلوب معروف عند أهل القرآن فهم يقيدون الآي المتشابهة وغيره

بأراجيز ومنظومات كما أن للتحويد قيوداً وأراجيز معروفة على نطاق كبير في العالم الإسلامي وهذا قيد تصالح عليه غالبية القراء في السودان قيدوا فيه الحروف التي تشير لأسباع القرآن.

فمَيَسَ شوَق

وهذه الأحرف السبعة يرمز كل حرف منها لسبع من أسباع القـــرآن وتبـــدأ بحرف الفاء وهو يرمز لسورة الفاتحة والميم سورة المائدة ــ وهكذا كل حرف يعني بداية أول سبع..

فَمَيَسَ شوَق..

١ــ الفاء سورة الفاتحة.

٢ــ الميم سورة المائدة.

٣ــ الياء سورة يونس.

٤ــ السين سورة سبحان.

٥ــ الشين سورة الشعراء.

٦ــ الواو سورة والصافات.

٧ــ القاف سورة ق.

الرّبق واللغز:

لحيران الخلاوي مسجوعات يسمونها «الربق»[1] وألغازهم في غاية الطرافة فقد طوع الحيران الحروف الهجائية لأغراضهم الدراسية والمعيشية وعبارتـــا «دقـــه إن كضب» ــ و«علمه الأدب».

تدخل ضمن الربق وكذلك بعض الآيات الصعبة والمتشابهة يضعونها للتعجـــيز

(١) الربق ــ عرى تنقلت من حبل طويل تربط فيه صغار البهم استخدمه الطلاب مجازاً فالشعر عندهم يسمى «ربق» لأنه متدان ومترابط.

ومن حملهم المشهورة «فَنَدَحَشْ».

وهذا اللغز أطلقه ظريف في ماضي السنين إذ أتتهم قطعة خبز كِسْرة فلمسها الطالب وقال لصاحبه «فندحش» فعرفوا اللغز واعتذروا عن تناولها وتفسير اللغز ف ن د ح ش إلخ.

الفاء فطيرة.

النون نيَّة.

الدال دُرَاشَة.

الحاء حَافَة.

الشين شِوية.

لغز الحروف:

«ورَبَقَ» الحيران القدامى حروف الهجاء بطريقة لا يدركها إلا من تعلمها فإذا تخاطبوا أو لغزوا عجز السامع عن فهمهم، وهذه صيغة اللغز أو الربق ـ حسب ترتيب الحروف الهجائية.

أ آيات الله.

ب باب المجالس.

ت توبة العباد.

ث ثائرين.

جـ جاك رحل.

خـ حرملك.

د دليل القوم.

ذ.........

ر ريب المنون.

ز زين المرضى.

س سايرين.

ش شامشيت.

ص صال المصالي.

ض ضيفك فكر

ط طائر طار

ظ ظهر الشجاعة

ع عين البر.

غ غاب قوسين.

ف فافهمك.

ق...........

ك كاف التشبيك.

ل لم ننج.

م ميم... الجمع.

ن نور الله.

هـ هاء الضمير.

و واو العطف.

ي ياء النداء[1].

---

(١) غابت عني مسميات بعض الحروف ـ كالذال والقاف.

ويأخذ المُلَغِّز «له» الحرف الأول من كل جملة يقولها زميله فإذا أراد أن يقول أنا مسرور «تأتي الجمل على النحو التالي:

آيات الله - نور الله - ميم الجمع - سايرين - ريب المنون، وقد حفظنا هذا الترتيب من شيخنا الفكي مكي محمد حاج النور رحمه الله وهو من أهالي «الجابرية» جهة الدبة وكل من يحفظها في تلك السن الصغيرة يحسب نفسه من أهل البراعة.. وكنا نتداولها في المناسبات التي تجمعنا مع الحيران الذين يأتوننا من الخلاوي المجاورة خاصة حيران خلوة شيخ القراء الفكي الحسين ود عبد الماجد «بالدامر» وحيران الفكي الحسين هم نموذج فريد بين الحيران.. وكنا نحاول أن نتفوق عليهم بهذا «التلغيز» التعجيزي في نظرنا.. وكم تغلبوا علينا ولا أنسى ذلك الحرج الذي أدخلونا فيه في إحدى المناسبات وكان ضمن الحيران ـ الشاذلي محمد العيدروس رحمه الله وأحمد محمد الشيخ الأمين وغيرهم..

وكان الشاذلي يحفظ أراجيز شيخنا الفكي الحسين الخاصة بقلقلة القاف فرمانا بواحدة فوجمنا قال:

شجرة القحقح والقحيقحان

ولا يقحقحها إلا فصيح اللسان

والخلاوي في جهات السودان المختلفة كل واحدة تبتكر أسلوباً يحبب الدرس للدارس فتصنع لهم جملاً مما هو قريب من بيئتهم مثلاً في شرق السودان وهم كما نعرف..

يتكلمون اللغة «البجاوية» فيضع لهم المشايخ صوراً وأصواتاً قريبة من نطقهم مثال ذلك: باتو - تاتو - ثاتو - جيمو - حاتو - خاتو - واتو - راتو - زيتو - إلخ..

وفي كردفان يضع المشايخ الجمل الهجائية حسب لهجة الدارسين وفهمهم لأدوات البيئة.

كما تفعل المدارس اليوم أ ـ أسد ـ ب بقـرة ـ ت تمسـاح ـ ث ثـور وأحيانـاً كما في حلقات تعليم الكبار يضعون صورة الحيوان على وجه صفحة البطاقة وعلى الوجه الآخر يكون الحرف فإذا صعب على الدارس معرفـة الحـرف قلـب الصفحـة التي عليها صورة الحيوان.

وهذه نماذج لأحرف أهل غرب السودان من البدو.

أ ألف، عود حربة.

ب نقطتها في نايطها ـ النايط عندهم الجنب.

ت نقطتان في لبها لب التاء.

ث ثلاثة في لبها للثاء.

ج نقطة في قرقورة ـ المكان الخالي شبه المستدير يعرف عندهم بالقرقور.

وهكذا لكل حرف مما يعرفه الصغار رمزاً من البيئة والقرقور للفاء والقاف والجيم.

وفي وسط السودان إذا أرادوا تقريب المعنى «للحوار» قالوا له:

١/ ألف ـ عكاز أبوك.

٢/ باء طبق أمك.

٣/ دال درب حمار أبوك.

٤/ ذال درب حمار أبوك منقوط.

٥/ راء عصاة جدك.

٦/ زاء عصاة جدك منقوطة.

أما البجا فلهم أسلوب ومخارج خاصة لأداء الحروف لأنهم يتحدثـون بلهجـة غير العربية فتأتي لغتهم بأصوات وحركات فيها رنين متساوق وهذه طريقة قراءتهم لحروف الهجاء.

بانا بينا بونا

تانا تينا تونا

ثانا ثينا ثونا

والرائع والشجي حقاً حينما يؤديها الطلبة بصوت جماعي غاية في الحسن.

حفظ القرآن:

ليس حفظ القرآن بالأمر اليسير فلا يحفظه إلا أصحاب العزم، والغالب أن يحفظ الطالب منهم خلال ثلاثة عودات أو أربع والعاجز قد يعود خمس أو ست مرات هؤلاء يحسبون من ضعاف الملكات الحافظة أما المبرزون فيحفظونه من عودتين - فإكمال القرآن يسمى ختمة وعندما يعيد الطالب القراءة مرة أخرى يقال لها «عودة» أما المبرزون جداً فيحفظون من مرة واحدة.

الجامعة:-

والحيران الذين يختمون كتاب الله العزيز يتجمعون في خلوة كبرى تسمى «الجامعة»[1] وفي كل المسايد الكبيرة توجد مثل هذه الجامعة وقد يسمونها «القرآنية» فلا يؤمها إلا من ختم القرآن وفيها يتدارسون — ويتحاورون ويسمع بعضهم لبعض إلى أن يحين وقت الامتحان.

ويجري لهم الشيخ امتحاناً أسبوعياً وعندما يطمئن لحفظهم يدعو كبار الحفظة ممن يعملون معه في المسيد لسماع الطلبة المرشحين للتخريج.

أما الامتحان الكبير فيجتمع له المشايخ من الخلاوي المجاورة ويحددون يوم الامتحان الذي غالباً يكون يوم الأربعاء.. فيقف الحوار أمامهم، فيطلبون منهم أن

---

(١) الجامعة - أهل السودان عرفوا جامعتين جامعة الخلوة والثانية جامعة الرعي فراعي غنم القرية يسمى (راعي الجامعة).

يقرأ السور الطوال ــ وبعض القصار ثم يحددون له الآيات المتشابهات وهي كثيرة في القرآن ثم يمتحن في العلل والطالع والمتصل والمنفصل... إلخ.

وعندما يطمئنون لصحة حفظه يجيزونه بحضور المشايخ المهرة وفي الماضي كانوا يحررون له الإجازة ولكنها تركت منذ عهد بعيد واكتفوا بالإجازة الشفهية وهذا ما عليه الخلاوي إلى يومنا هذا، وبعد إجازته من المشايخ الكبار يدعون له بالتوفيق وحسن العاقبة وهذا الدعاء بمثابة الإجازة.

العطلات:-

أما العطلات فقد عرفتها الخلاوي في السودان يومين في الأسبوع الخميس ويوم الجمعة.

ولهم في عيد رمضان عشرون يوماً ــ عشر قبل العيد وعشرة بعده.

في عيد الأضحى كذلك عشرون يوماً عشرة قبل العيد وعشرة بعده وفي المولد ثلاثة أيام.

ثم إجازات عرضية كالاحتفال بالختمة وما شاكلها.

فيكون جملة الإجازة في العام على النحو التالي:-

في كل أسبوع يومان ــ في الشهر ثمانية أيام.

في السنة ستة وتسعون يوماً.

مضاف إليها أربعون العيدين.

ثلاثة أيام في المولد.

فجملة العطلات في السنة حوالي أربعين يوماً ومائة كذلك تعطل الدراسة في الخلوة إذا وقع أمر يهم المجتمع ــ إذا فاض النيل وأصبح خطراً يستنفر له المجتمع فإن الطلبة دائماً في طليعة من يقفون في وجه النيل الطاغي يسدون الثغرات

«ويردمون» المسالك التي ينفذ منها الماء وقد يستمرون أسبوعاً أو أسبوعين ولا ينامون الليل إلا قليلاً وأصوات تهليلهم تشق سكون الليل.

وإذا دهى الجراد الزرع كذلك يستفيد الناس من قوة الحيران وفي موسم الزراعة النيلية أو المطرية إذا حصل عجز في الأيادي العاملة·فقوة الحيران لا تبخل بجهدها ولأن المجتمع هو السند للخلوة وهو المتكفل بها فالحيران يبادلونهم الود والعطف.

العقاب:-

العقاب شيء معروف في كل مدارس الدنيا إلا أن بعض الدول في عصرنا هذا رفعته خاصة العقاب البدني.

ولمشايخ الخلاوي طريقة في استعمال الضرب أو الجلد ولهم أراجيز تقليدية محفوظة مثال:

الضرب ينفعهم.

والعلم يرفعهم.

لولا مخافتهم لم يحفظوا الكتبا.

أو القول المتداول بين المشايخ

«أذان الصبيان على ظهورهم» وأيضاً قول الراجز، ووقت ضربهم على الألواح هو أوان الضرب للفلاح.

والضرب أنواع أشهرها في بلادنا.. الفلقة وأهل اليمن يقولون «الفلكه» وكل البلدان تعرف الفلقة وبنفس الاسم. فقلب القاف كافاً وبالعكس.

والفلقة هي الضرب على الرجلين يرفع الحوار رجليه واحدة بعد الأخرى فيضربه سيدنا حسب مخالفته أو جرمه.

ومن أنماط العقاب وضع نواة التمر بين أصابع يد الحوار ويضغطها سيدنا «وما أمرها في زمن الشتاء» وأشد وأقسى العقوبات «أم سعد الله» وصفتها عود طويل يبلغ متراً ونصف المتر أو مترين ويربط عليه حبل متين.

وتربط رجلا الحوار المراد عقابه بالحبل المربوط في العود ويلف العود على الحبل فيشد الرجلين، ويمسك عود أم سعد الله طالبان شديدان أو أربعة ويرفعون العود فتكون الأرجل في وضع بارز فيضرب سيدنا الحوار ـ ضرباً شديداً ثم يحلون وثاقه فيحبو على ركبتيه ويديه إلى أن يصل محله.

لأن الأرجل تكون في حالة «خدر» وألم شديد، هذه «أم سعد الله» ونوع آخر من العقاب لا هو بالضرب ولا هو بالزجر.

يأمر سيدنا الحوار أن يقف على رجل واحدة ويقرأ لوحه حتى يحفظه على هذه الحالة وبعض الحيران الأذكياء ينتهزون غفلة سيدنا فيغيرون الرجل بالأخرى فإذا كشف سيدنا هذه المخالفة كان عقابه مضاعفاً وربما أدى العقاب لمسك اللوح وهي عقوبة أدبية كبيرة، فيصادر اللوح منه عدة أيام. أما أقسى وأشد العقاب فهو مصادرة اللوح «كلية» هذه تطبق عادة في المسائل«اللاأخلاقية»فإذا ارتكب الطالب أو الحوار مخالفة مثل هذه «مسكوا» منه اللوح فلا يملك إلا أن يخرج متخفياً ويظل هائماً على وجهه لأن أي خلوة يتقدم للالتحاق بها تسأله عن لوحه وليس الأمر سهلاً كما نتصور فيندر أن يفلت من هذا العقاب أي حوار مهما بلغ من الذكاء.. إلا إذا خرج من الإقليم كلية وربما طار خبر «مسك لوح» لتلك الأماكن البعيدة إلخ.. أما التوبيخ والزجر فلا حد له ولبعض المشايخ قاموس عريض يردعون به الحيران ومن أقوالهم.

يا ود البُقَسْ

يا مطموس يا إبليس

يا حمار يا شيطان.

يا ظربون يا عفريت[1]

يا ملعون يا جان

يا كلب يا ود الكلب

يا بليد يا حمار يا ود الحمار

وإذا كان سيدنا غضوباً ـ تجاوز توبيخه وشمل اللعن أبو الحوار وأمه والعقاب الأشد على الحيران الذين «يتشردون» من الخلوة وكذلك يقع على الطلبة المراوغين والكذابين والبليد لا يسلم من التقريع والضرب كل يوم.

القيد

هو من وسائل العقاب في كل الخلاوي وهي على ثلاثة مراحل أولاً: القيد الفردي فإذا ارتكب الحوار مخالفة توجب القيد وقع عليه وأغلب المقيدين بسبب الهروب من الدراسة فيأتي ولي أمر الحوار ويطلب من سيدنا تقييده فيقيده من رجليه بجنزير حديد خاص بالخلوة.

وفي معظم المسايد الكبيرة « حدّادٌ » يعمل لأهل المنطقة ويضرب القيود للخلوة «بالمجان» تقرباً لله ولشيخ القرآن.

والقيد الثقيل القوي لا يستطيع الحوار كسره ولا الهرب به.

ثانياً: القيد على «الشعبة» والشعبة عمود خشبي يكون في خلوة «لحبس الجانحين» وأساساً يستعمل العمود وقاية للسقف ويعرف هذا العمود «بالأمينة» لأنه يؤمن «المِرِق»[2] وعرش الغرفة من السقوط. فيأتون بالطالب ويجلسونه على

---

(١) ظربون ـ أحسبها تركية.

(٢) المرق العامود الذي يحمل سقف البيت.

الأرض عند الشعبة ويفردون رجليه حول الشعبة ويضرب له القيد وقيد الشعبة أو قيد العود صعب جداً.

ولا يلبث فيه الحوار إلا يوم أو يومين والقصد منه إرهاب الطالب.

القيد الزوجي: يربط الحوار مع آخر يكون مخالفاً له في كل شيء فتزداد مشاكلهما ومشاكستهما.

وإذا أراد أن يشرب يجر زميله وإذا أراد الدخول في «الخلاء» صحبة زميله وأغلبهم يتصالحون مع بعضهم لأن ظروفهم تقتضي أن يتفقا فينومان سوياً ويأكلان سوياً ويشربان. ومدة القيد الزوجي قد تستمر أسبوعاً أو نحوه.

وأغلب أهل القيد ممن تعودوا الهرب يردعونهم بهذه الوسيلة القاسية والذي يلفت النظر أن أهل القيد كلهم أذكياء فيندر أن يقع الحوار البليد في أسر القيد.

الزي

لخلاوي القرآن زي تقليدي في ماضي الأيام وهو زي يتوافق مع نهجهم في الحياة «التقشف» والتقشف عندهم مخبر ومظهر ومأكل وملبس فهو سمة بارزة فيهم فكانوا يلبسون الثوب العادي وهو شقة من الدمور ويلبسون تحتها قميصاً وسروالاً كلها من الدمور وهو غزل بلدي تعرفه كل الجهات السودانية وحتى الفتح الأخير ١٨٩٨م وبعده كان هذا لباس المشايخ والطلبة. ولثوبهم لبسة خاصة يدرعونه فوق الركبة ويتمنطقون به في شكل الحزام وللصغار من الحيران شقة خاصة من الدمور تسمى «الفتقة» يلبسها الصبي مثل الثوب ـ وتعقد طرفها خلف عنقه ويلبس الفتقة من غير سروال ولا قميص.

أما النعل فلا يتجاوز الشبط المعروف «بالشقيانة» والثوب والنعل خامتهما من البيئة ولما عرف الناس القماش الخشن «الدمورية» صاروا يلبسونه بدل الدمور

والخلاوي التي تنهج نهج السلف ما زال شعار مشايخها وطلابها الكبار هذا الزي. وهو ملاحظ عند المشايخ المعلمين وإن هجره الحيران في هذا الزمان.

المصحف

وإذا كان المتخرج ممن يجيدون الخط يكلفه سيدنا بكتابة مصحف هدية للخلوة والذي لا يجيد الخط «يدلي» القرآن مائة مرة ويهدي ثوابها لمؤسسي الخلوة وكلا الأمرين ليس شرطاً ولكن أغلب الخلاوي تأخذ به.

ويبدأ الطالب المعني كتابة المصحف بعد الكرامة الكبرى «حفل التخرج» وتكون غالباً في دار الحوار المتخرج. فإذا كان من أبناء المكان أو القرى المجاورة خرجوا للاحتفاء به في موكب يتقدمه الشيخ راكباً وحوله الحيران الكبار وخلفه الصغار. وإذا كان أهل المحتفى به بعيدين عن الخلوة يصحبه جماعة من زملائه فيمضون معه أياماً ثم يعودون. وأغلب الحفظة حتى مطلع الخمسينات يفتحون خلوة على نسق الخلوة التي تخرجوا بها ثم يقلدون الشيخ الذي تخرجوا على يديه في أسلوبهم ونظامهم ومن هنا نشأ التشابه الذي نراه في كل الخلاوي.

المصحف الفحل

أما المصاحف التي كان أهل السودان حريصين على اقتنائها فهى المصاحف المخطوطة وكلها على رواية الدورى عن أبى عمرو بن العلاء وهى قراءة أهل السودان باستثناء نواحي دارفور والجزء الشمالي من بلاد دنقلا والمحس فهؤلاء يقرأون على رواية ورش.

وفي كل مسيد كبير مصحف «عمدة» يسمى بلغة الخلاوي المصحف «الفحل» وهو الذي يعتمدون عليه في ضبط المصحف الجديد وكل المصاحف.

والتطور الهائل في مجال الطباعة جعل الحصول على المصاحف المطبوعة

ميسوراً فأخذت المدارس النظامية وغيرها تقرأ برواية حفص ولكن الخلاوي ما زالت قراءتها على نهج الدوري.

والمصحف الذي طبع على رواية الدوري منذ سنوات هو أول مصحف يطبع على رواية الدوري في العالم الإسلامي[1] وقد لاقت اللجنة المنوط بها طبع هذه الرواية اعتراضاً وتلكؤاً من علماء مصر ولم يجيزوه إلا بعد مشقة عظيمة ورغم هذا لم يخرجوا رواية الدوري كما ينبغي وكما يعرفها أهل السودان، وكان لغياب الأستاذ الشيخ يوسف إبراهيم النور أثر كبير إذْ كان على رأس المعترضين، وهو ذو باع طويل في التجويد وعلم القراءات، والقراءة التي نقرؤها من القراءات الصحيحة عند أئمة المسلمين ولا يظن أحد أن السودان وحدهم الذين يقرأون برواية الدوري فهي رواية يقرأ بها خلق كثير من سكان أفريقيا وسطاً وشرقاً وغيرهم..

١/ السودان.

٢/ شاد [الجزء الشرقي]

٣/ أرتريا

٤/ أثيوبيا

٥/ كينيا

٦/ يوغندا

٧/ تنزانيا

٨/ الصومال - رواندا بورندي.. إلخ.

وغير ذلك من بلدان الساحل الأفريقي الشرقي. وعلمت من مولانا القاضي

---

(١) بأمر الرئيس السابق جعفر محمد نميري وكان على رأس الشئون الدينية الجهة الطابعة صديقنا صاحب العزمات بروفسير عون الشريف قاسم.

يحيى الكبسي شيخ القراءات في اليمن أن أهله كانوا يقرأون بها ثم صاروا يقرأون برواية نافع.

إن في الحفاظ على هذه الرواية حفاظٌ على أثر كريم قرأ به الصحابة الأجلاء ولسنا أحرص منهم في المحافظة على القرآن.

وهنالك مسعى لتوحيد القراءات على رواية واحدة ظناً منهم أن رواية الدوري تقرأ بها مجموعات صغيرة أو كادت أن تندرس هذه الرواية وهذا ـ الرأي تسنده بعض الجهات «الإسلامية» وأخشى أن يكون قد غاب عنهم أن ـ عشرات الملايين ظلت حفيظة أمينة على هذه الرواية. وليست هنالك مدعاة لتبديلها أو تغييرها فالقرآن نزل على سبعة «أحرف» وأول دولة إسلامية طبعت رواية الدوري هي جمهورية السودان «مرتين».

المعلم الواحد

بدأت المدرسة القرآنية الخلوة أول عهدها بمعلم واحد ثم سار الخلف على هدي السلف في كل العهود حتى استقر الأمر على المعلم الواحد.

ويبدو أن القرى التي نشأت فيها هذه الخلاوي كانت صغير حيث لم يعرف المواطنون في تلك الحقب الماضية المدن الكبيرة التي تجيش بالسكان ثم نمت تلك القرى واتسعت بفضل «الخلوة» حيث قصدها الناس من الجهات فصارت مدناً كبيرة ورغم هذه الكثرة فلم يزل المعلم. هو المعلم الواحد «أساساً».

وكان المجتمع عصرئذ يثق في المعلم ثقة كبيرة فهو المعلم والمشير والمستشار في كل أمر ديني. أو دنيوي وبتطاول العهود صار شيخ الخلوة الرجل الأول ـ في القرية لما يؤديه من واجبات شتى وأعمال نافعة.

وفيما يلي بعض المهام التي يقوم بأدائها شيخ الخلوة.

١/ معلم.

٢/ إمام جمعة وجماعة.

٣/ صلاة العيدين.

٤/ صلاة القيام والتهجد.

٥/ صلاة الجنازة.

٦/ صلاة الخسوف والكسوف.

٧/ صلاة الاستسقاء.

٨/ عقد النكاح.

٩/ تحنيك الأطفال.

١٠/ علاج المرضى.

١١/ ويقوم بدور المصلح الاجتماعي ووسيط لما يقع بين المرء وزوجه وبين الناس جميعاً.

١٢/ كما أنه فارس مصادم يدخل المعارك في ماضي السنين قبل غيره.

كما يتخذونه مستشاراً في المسائل الزراعية والرعوية وينبغي للشيخ أن يلم بمعرفة المواسم الزراعية دخولها وخروجها كما يعرف «الأنواء» وتقلبالها والأمور والمسائل التي لا يعرفها. يوجههم لمن هو أدرى بها فيقصدونه لمشورته وأداء هذه المهام جميعاً جعلت معلم القرآن بطلاً في رهطه وجماعته.

وقائداً وموجهاً واحتراماً لمكانته صار الناس يسمون أبناءهم على اسم الشيخ من باب البركة والتيمن.

الأسماء

درج المجتمع في بلادنا أن تجري الأسماء فيه على نهج «السنة» فعند الجميع خير الأسماء ما عبد وحمد.

وكل مولود في وسط السودان «الذكر» اسمه. محمد ثم يكون عبد الله أو ـ عبد الواحد ـ أو عبد اللطيف أو عبد القادر ـ واسم محمد يضيفون له صفة من صفات الرسول الكريم مثل البشير ـ الهادي ـ الأمين إلخ..

فيصير اسم ـ محمد البشير.

محمد الهادي.

محمد المهدي.

محمد الأمين.

محمد الصادق.

أما البنت في وسط البلاد «مطلقاً» اسمها. «فاطمة» ويقولون عند ذبح شاة السماية «العقيقة» عبارات تقليدية بسم الله والله أكبر ثلاثاً اسم المولودة فاطمة والاسم الساير رقية ـ زينب ـ علوية إلخ...

ثم ينادى عليها باسم التميز أو الكنية أم أحمد أم ظعينة أم زين إلخ...

وقد يكون الاسم الأصلي معاً وقد ينادى أيضاً على الولد بالاسم الذي يميزه وأغلب القرى التي نشأت فيها «خلاوي» القرآن يسمي أهلها أولادهم على اسم الشيخ معلم القرآن وهذا أمر واضح في كل الأماكن التي درست وتدرس القرآن فأغلب أهل القرى أسماؤهم على أسماء مشائخهم وفي الماضي غير البعيد يسمون الولد الأول على اسم الشيخ ويعنى أن اسم الشيخ في كل بيت وعند كل أسرة.

اسم حمد

شاء الله أن كثيراً من معلمي القرآن ممن اسمه «حمد» وأصل الاسم «حَمْد» بفتح الحاء وسكون الميم والدال ولكن العامة يصيرونها «استعمالاً» حَمَد بفتح الحاء والميم.

وكثير من مشائخ القرآن الأبكار الذين قاموا بتدريس القرآن في البدء كانوا ممن اسمهم «حمد» فكان السبب في انتشار اسم حمد.

ومن ذلك برزت طائفة من المشايخ «الحمديين» وصار لهم شأن حتى اقتدى بهم الناس.

وتلك طائفة ممن سمي حمداً.

١	حمداب دنانة	المحمية مديرية النيل
٢	حمد أبو شميلة المحسي	المحمية مديرية النيل
٣	حمد بن عبد الله	مؤسس الدامر مديرية النيل
٤	حمد بن عبد الله الأغبش	«بربر» مديرية النيل
٥	حمد بن محمد المشيخي	المعروف بكنية «أم مريوم» مديرية الخرطوم
٦	حمد بن حسن وكنيته	«أبو حليمة» مديرية الخرطوم
٧	حمد بن زروق الحضري	«الصبابي» مديرية الخرطوم
٨	حمد بن حمدان الجعلي	الحلفايا
٩	حمد بن الفكي عبد الماجد الأغبش	«بربر مديرية النيل»
١٠	حمد بن محمد الملقب بابن الترابي	«مديرية الجزيرة»
١١	حمد بن الشيخ إدريس الأرباب	شرق الجزيرة
١٢	حمد العوضابي وشهرته «النحيض»	اسلانج مديرية الخرطوم
١٣	حمد بن دفع الله المشهور «بالأصدأ»	مديرية الجزيرة

ونباهة ذكر هؤلاء المشائخ هو سبب انتشار اسم حمد كما ذكرت وجميع

الأسر التي أرادت تعليم القرآن كانت وما زالت تتمسك بأسماء المشائخ «التقليدية» وهذه نماذج من تلك الأسماء في دنقلا نجد من الأسماء.

دنقلا

غلام الله.

جميل الله.

خير الله.

سوار الذهب.

قيلي.

زياده.

ساتى.

عووضة.

الدامر

حمد.

المجذوب.

الشيخ.

الفكي.

النقر.

عيسى.

عبد الله، واشتهر به الشيخ عبد الله «النقر» وكل من يسمى عبد الله فهو «النقر» وكل نقر هو عبد الله.

حلال الدين.

قمر الدين.

الطيب.

الطاهر.

أم ضبان

١/ العبيد.

٢/ بدر.

٢/ أحمد.

٤/ حسب الرسول.

٥/ الطاهر.

٦/ الطيب.

٧/ عمر.

بربر

الجعلي.

عبد الله.

الأغبش.

عبد الماجد.

ابشر «أبا البشر».

حاج حمد.

سنار

يعقوب.

موسى.

بانقا.

التوم.

فرح.

هجو.

المحمية

نعيم.

الفادني.

سلمان.

سرور.

حمدوبة.

طابت الجزيرة

أحمد الطيب.

نور الدائم.

عبد المحمود.

محمد شريف.

الجيلي.

العيلفون

الشيخ ادريس.

مضوي.

حمد.

الحبر.

بركات.

عركي.

أبو حراز مدني.

عبد الله.

الطريفي.

أبو عاقلة.

حمد النيل.

دفع الله.

الريح.

وهكذا في كل إقليم نجد التمسك بهذه الأسماء وهذا يؤكد حب الناس للخير والفلاح ويؤكد تقدير الناس لمعلم القرآن فالكل يأمل أن يصير ابنه مثل هذا الشيخ.

والذين يقيمون في القرية التي بها الشيخ حينما «يسموا» الابن يأتوا بالمولود للشيخ «فيحنكه» ويدعو له بالخير والفلاح.

ولما اتسعت الخلاوي وصار يؤمها الطلبة من الأماكن البعيدة ظل نظام الخلوة كما هو معتمداً على المعلم الواحد رغم أن الخلوة قد يكون بها أكثر من معلم.

وكل معلم له نفوذه وسيطرته على جانب من الطلبة والحيران ويعاونه الوكلاء ونظام المعلم الواحد أقره المجتمع وارتضاه وسار عليه مقتنعاً بجدواه.

وظني أن التمسك بنظام المعلم الواحد يعود لسببين الأول ـ أن المجتمع جربه واقتنع به وبالقطع أن المعلم هو المسؤول عن كل أمر يتصل بطلبته، ونجاحهم وإخفاقهم يعود عليه.

الثاني ـ أن التعليم في «الخلوة» وقف على تدريس القرآن وحسب، فالخلوة إذاً ليست بحاجة لمعلم الحساب أو الجغرافية إلخ ولهذا السبب وغيره اكتفى المجتمع بالمعلم الواحد وهذا الأسلوب المعلم «الفرد» منتشر في كل الأقاليم الإسلامية بالأخص في القارة الأفريقية.

السلطان المعلم

الاهتمام بالقرآن الكريم وعلوم الشريعة وكل علوم الآلة قديم جداً في بلادنا وكان المعلم على قائمة المجاهدين والفرسان، يتضح لنا ذلك إذا تصفحنا سيرة الرجال الذين أقاموا السلطنة الزرقاء وسلطنة دارفور ومن هؤلاء نذكر..

١/ عمارة دونقس.

كان يعمل قبل تقليده السلطنة معلماً للقرآن الكريم وقد وصفته وثيقة آل الشيخ عيساوي فقالت: «رجل مكتمل الخَلق والخُلُق، قوي البنية زكي الفؤاد شجاع مقدام»[1] وكان قبل أن يصبح السلطان الأول للدولة السنارية يقوم بتدريس القرآن وعلوم الفقه المتيسرة في ذلك الزمان. وكانت خلوته عند مصب «خور العلكو» في النيل الأزرق جهة سنار.

٢/ عبد الله جماع.

(١) وثيقة آل عيساوي.. راجع كتاب «حلال المشبوك» للمؤلف.. الناشر الطابع العربي ١٤٠٠/١٩٧٩.

علمت من الرواة، وخاصة الراوية الفقيه الشيخ عثمان اونسة رحمه الله، أن جدهم عبد الله جماع بدأ حياته معلماً وكانت خلوته في نواحي سواكن.

٣/ السلطان الشيخ عجيب بن عبد الله المشهور بعجيب المانجلك.

زعموا أنه مارس التدريس، ولما تولى السلطنة بعد أبيه عبد الله جماع كانت أبرز أعماله. أنصاف المعلم ورفعة شأنه، وهو أول من رتب لهم الرواتب وأقطعهم الأرض، وقد أشرت لهذه الواقعة من قبل. ويبدو أن أسلافنا جعلوا الجهاد أولاً بالعلم ثم بالسلطة.

٤/ السلطان عبد الرحمن الرشيد ١٢٠١/١٢١٥ هـ - ١٧٨٧/١٨٠١م

كان طالباً يدرس العلم ببلدة كَرْيُو التي تقع شرق مدينة الفاشر والتي كانت أشبه بكلية للقرآن الكريم بدارفور. سمع بمرض أخيه السلطان تيراب، فذهب ليعوده. ومات السلطان تيراب، وتقدم أبناء السلاطين ورشح كل منهم نفسه ليكون سلطاناً، إلاّ عبد الرحمن الذي صمت ولم يقل شيئاً، وعقد الأعيان ورؤساء الجيش مجلساً يحضره العلماء، وحلّفوا أبناء السلاطين بأن يقبلوا بالشخص الذي يختاره المجلس، فقبلوا ذلك. واختار المجلس عبد الرحمن باتفاق الآراء، وهكذا انتقل من حلقة القرآن إلى كرسي السلطنة وعندما استتب له ملك دارفور نقل مقر السلطنة من جبل مرة إلى مكان جديد وأسماه الفاشر وهو المدينة الحالية.

وقد نال السلطان عبد الرحمن الرشيد شهرة عظيمة فقد كان عالماً وعادلاً وصالحاً ومحبوباً من الرعية ومحباً للعلم والعلماء، وفي أيامه انتشر العلم في دارفور وقويت شوكة الديانة الإسلامية[1].

(١) جغرافية وتاريخ السودان - نعوم شقير - دار الثقافة بيروت ١٩٦٧.

الباب الثاني

القرآن في دنقلا

ما كتب حتى الآن بالإضافة للروايات الشفهية يكاد يجمع على أن بداية دراسة القرآن المنتظمة كانت في أرض دنقلا العجوز[1] على يد الشيخ غلام الله بن عايد الذي قدم إليها من اليمن أو من بلدة «زيلع» الواقعة على الشط الغربي للبحر الأحمر وقيل أن رجلاً شريفاً اسمه «عايد»[2] خرج من الحجاز مجاهداً ومحتسباً ومعه ابنه أحمد لبلاد اليمن ثم عبرا بحر القلزم[3] لبلدة زيلع ومنها سافرا لسواكن ومكثا فيها فترة ما. وقيل أن والده توفي في جزيرة سواكن وقبره ظاهر فيها ثم انحدر أحمد من سواكن لعاصمة البلاد «دنقلا العجوز» كان ذلك في أخريات مملكة المقرة النوبية النصرانية في حوالي ٧٨٠هـ والروايات الشفهية المتواترة تفيد أن الحاج عيسى بن قنديل جد السادة «المجاذيب» أسس الخلوة وبدأ تدريس القرآن الكريم على عهد علوي «النوبة العليا» في نفس الفترة وفي رواية أخرى أن العبابسة بمنطقة الرباطاب بدأوا التدريس على أيام النوبة في الفترة المشار إليها أو بعدها بقليل وكذلك الحال في كردفان ودارفور، وتفيد إحدى الروايات أن الشيخ حمد أبو شميلة المحسي كان سابقاً لهؤلاء إذ أنشأ في حوالي سنة ٨٠٠ خلوته بقرية سقادي «قوز النقارة» في منطقة المحمية المشهورة.

وقد نوه به العالم المجاهد الشريف حمد اب دنانة في مخطوطه ومما يوسف

---

(١) دنقلا: منطقة في شمال السودان اشتهرت بتدريس القرآن.

(٢) عايذ ربما ثقلت على اللسان العامي في دنقلا فصارت عايد بعض العرب يقولون ـ عايض ـ عايظ.

(٣) البحر الأحمر.

له أن الشيخ حمد لم يجد الاهتمام اللائق بمكانته عند المؤرخين والكتاب المحليين.

ومما لا ريب فيه أن بداية دراسة القرآن المنظمة والمؤسسة بدأت في وقت متقارب مع مطلع القرن الثامن الهجري وتكاد الأخبار تجمع على أن البداية المنظمة كانت على أخريات أيام حكم النوبة النصارى ولكن هنالك بلا ريب بدايات قديمة جداً ربما ترجع للقرن الهجري الأول وما تلاه من قرون.. ولكن المؤرخين والكتاب لم ينتبهوا لتلك الفترة البعيدة وأحسبهم لم يجدوا دليلاً موثقاً لبداية واضحة المعالم يطمئنون إليها.

والناس في ذلك العهد الباكر كانوا على دين الإسلام وكانوا يؤدون الشعائر وكانوا بلا شك يقرأون القرآن ورويداً قويت شوكة الإسلام والمسلمين وبلغت القوة أوجها عندما تحول الحاكم النوبي «عبد الله برشمبو» من المسيحية إلى الإسلام فتبعته الخاصة والعامة وينبغي أن أنبه أن دخول الإسلام في دنقلا كان في مطلع القرن الأول الهجري سنة ٣١هـ ودخول النوبة «حكام البلاد» في الإسلام في مطلع القرن التاسع الهجري ٧١٧هـ ودليلنا على ذلك الشاهد التاريخي المثبت في قصر النوبة المنيف بعاصمتهم «دنقلا العجوز» وكان قصراً مخصصاً لتنصيب الحاكم وبه غرف كثيرة كل غرفة مخصصة لأمر من أمور الحاكم وبعد دخول الحاكم «الإسلام» حوَّل غرفة في الطابق الأعلى متوسطة الحجم ١٢×٦ متراً إلى مسجد ملحق بالقصر وعند محرابه وضع حجر رخامي مكتوب عليه فتح هذا الباب المبارك للذكر على يد سيف الدين عبد الله الناصر بتاريخ ١٦ ربيع الأول ٧١٧هـ.

إذاً ستكون بداية الدراسة النظامية هذه مبنية على هذا الشاهد التاريخي من ٧١٧هـ إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري ١٤٠٠هـ.

وهي حوالي سبعة قرون ازدهرت فيها دراسة القرآن وبلغت أوجها في مطلع

القرن العاشر على عهد الدولة الإسلامية المعروفة بالسلطنة الزرقاء[1] والتي دام سلطانها حوالي ٣١٦ سنة واهتم حكامها بدراسة القرآن وكافة علوم «الآلة» ولاسيما سلطان العبدلاب الذائع الصيت الشيخ «عجيب المانجلك» والمثبت حتى الآن أنه أول من رتب الرواتب للمشايخ وأقطعهم الأراضي وجعل لهم مكانة اجتماعية محترمة كما أسلفت.

الجهاد:

لا ريب أن العالم الإسلامي في ماضي السنين كان جل علمائه أهل جهاد ونضال فحيثما تسامع رهط منهم ببزوغ فجر دولة إسلامية جديدة اتجهوا نحوها مخلصين. فلما علموا بالدولة النوبية في دنقلا أن حكامها قبلوا الإسلام تنادوا واتجهوا نحوها مجاهدين مرابطين وقد استقر أكثرهم وصار جزءاً من أهل البلاد وأذكر بعض أسماء هؤلاء المجاهدين الذين أرسوا دعائم هذا البلد رحمهم الله وأجزل ثوابهم.

١/ غلام الله بن عايد:

٢/ عيسى ودكنو الحضرمي، والذي ينسب إليه إدخال رواية ورش التي يقرأ بها أهل شمال دنقلا وبلاد المحس إلى أرض الحجر، وله ذرية في الجابرية ومشو وزعموا أن الشيخ عيسى الحضرمي قدم من بلاد اليمن وذهب إلى كنو ثم عاد ودخل دنقلا. والمشارقة لهم رحلة في ذلك الزمان تعرف برحلة الأسرار يزورون فيها المغرب ـ فاس ـ القيروان ـ تمبكتو ـ مراكش وغيرها.

٣/ الشيخ حاج بلول في منطقة الغابة «عرب نارتي» وقد أثر الشيخ حاج بلول تأثيراً عظيماً في تلك الجهات وما زال أبناؤه على نفس المنهج ولهم شهرة عظيمة في خط المصاحف.

---

(١) السلطنة الزرقاء ـ ٩١٠ هـ ـ ١٥٠٤م وهي ثاني مملكة إسلامية بعد دولة الكنوز الإسلامية.

ويعتبر مصحف الشيخ حاج بلـول أقدم مصحـف وقفت عليه وربمـا تكـون **هنالك مصاحف أقدم منه ولكنى أشرت إلى إننى لم أعثر عليها وعسى بعد خروج هذا** الكتاب أن يمدني مشكورين مـن بيدهـم هـذه المصـاحف النـادرة هـذا وجـاء فـي خاتمة مصحف الحاج بلول ما يأتي:ـ

تم الفراغ منه يوم الأحد عاشر شوال سنة سبعين وثمانمائة وكان الابتـداء فيـه يوم «الأربعاء» مستهل رمضان من السنة المذكورة وفرغ من تبييضـه يـوم الأربعـاء سادس صفر سنة إحدى وسبعين وثمانمائة.

كاتبه ومالكه الفقير إليه. «حاج بلُول» بن الفقيه أحمد غفر له ولوالديه جميـع المساوي آمين.



هذا التاريخ مثبت على جامع حاج بلول «بمسيد» عرب نارتي ـ دنقلا

وخليفته اليوم الشيخ محمد سعيد بن حاج بلول

ونسبهم يرجع لبني هلال وقدم جدهم من الحجاز..

٤/ الشيخ مصطفى الحجازي أتى مهاجراً وأقام في منطقة الغابة وقد أطلق عليه الدناقلة بعض الأسماء المحلية ـ حجازي تود ـ وتعني ابن الحجاز..

٥/ نقد الله سولي.

٦/ الشيخ التلمساني المغربي.

٧/ تاج الدين البهاري حجازي عراقي وسط السودان.

٨/ الشيخ عبد الكافي المغربي ـ وسط السودان.

٩/ الشيخ محمد بن قرم ـ مصري.

١٠/ حمد ود زروق المغربي ـ بالصبابي ـ الحلفايا.

١١/ الشيخ محمد بن بحر الفاسي المغربي ـ وسط السودان.

١٢/ غانم الأحمدي الذي قدم من «كَرَنْ» إلى النيل الأبيض اريتيريا.

١٣/ الشيخ الشريف حمداب دنانة ـ الحجازي ـ دار الأبواب.

١٤/ الشيخ الحافظ الناسخ محمد أبو نمي وهو من أشراف مكة اشتهر بحذاقة الخط وكتب عدة مصاحف على رواية الدوري أشهرها المصحف المعروف باسمه «بونمي» كتبه للسرورراب الكتياب حوالي أربعة قرون كما كتب لأحفاد الشريف حمداب دنانة مصحفاً آخر موجود عندهم بناحية أبو دليق.

١٥/ سيدي المغيرة والشيخ السيد عكاشة قدما سوياً من الحجاز وأقاما في منطقة صوارده ببلاد المحس وعكاشه صاحب الحمام المعروف بحمام عكاشه أما السيد المغيرة فقبره في قرية «عمارة».

١٦/ الشيخ إدريس بن محمود شهرته الشيخ بندق قدم من الحجاز بأرض صوارده.

١٧/ الشيخ عامرت ـ أو محمد عامر قدم من مكة المكرمة ـ صوارده.

هذه نماذج فقط أردت التنويه بأن الرحال الذين قدموا مبشرين ومجاهدين في سبيل نشر الدعوة الإسلامية عن طريق تعليم القرآن هم الذين ضيقوا الخناق على الدولتين المسيحيتين المقره في دنقلا وعلوة في وسط السودان وزحف نيران القرآن هو الذي أضعف الدولتين لأن خلاوي القرآن ومن خلفها الفقهاء المجاهدين زحفوا زحفاً منظماً ومن كل الجبهات حتى أطبقوا على سوبا والمقرة ولم تلبثا أن سقطتا.

وانتشار خلاوي القرآن بهذه السرعة أمر مدروس ومنظم والروايات المتواترة أن المشايخ الكبار كانوا يشترطون على الحفظة والخريجين الجدد ألا تتلاقى نيران خلاويهم وأن لا ينزل أحدهم مكاناً فيه خلوة وبهذه الوسيلة انتشرت خلاوي القرآن حتى عمت جميع بقاع السودان المأهولة.

وبعد أن سقطت المقرة وعلوة صار الأمر في يد العرب المسلمين وشهدت البلاد وبعدئذ الخلوة والخلوتين والثالثة في القرية الواحدة... إلخ.

رباط وركاب:

قال ود ضيف الله «أما رباط فكان رجلاً مجذوباً زوجه الصوارده «أمة» غروه بها فولدت له سليمان ثم اعترفوا له بالغرور وقالوا له هي أمة فشكاهم إلى القاضي فحكم له بحرية ولده وألزمه قيمة أمّه وهذه الواقعة في زمن الفونج ثم أن سليمان خطب ابنة عمه «ركاب» واسمها «جنيبَة» فأبته لأجل العبودية وأن قنديلاً العوني عنده ابنة مرضانة عزم لها سليمان فعوفيت فزوجه أبوها إياها فولدت عوناً وولد عون جابر أبو المشايخ الأربعة».

وأيضاً ملك «الكنيسة» عنده بنت مرضانه فشفيت على يده فزوجوه إياها فولدت له «ذُهلولاً» ثم أن جنية بنت ركاب ندمت على امتناعها مع أنه رجل

صالح والناس رغبوا فيه فتزوجها فولدت له أربع عيال رزين ـ عبد الرازق ـ دهمش ـ صبح فولد «رزين» ناس حبيب نسي، وولد عبد الرازق ناس حسن ولد بليل وولد دهمش الرويداب ناس أبيض ديري وولد صبح ركابية العفاض.

مثل هذه الرواية وردت كثيرا فجد المجاذيب الأعلى كان يعالج أبناء ملوك النوبة النصارى أيام مجدهم كما زعموا أن له عهدا مع ملوكهم وكذلك جد العمراب والإشارة لملك الكنيسة تدل على أن القس كانوا يؤدون واجبهم الكنسي بعد أن بسط الإسلام تسامحه مع الأديان السماوية الأخرى.. كذلك الشيخ حامد أبو عصا كان يعالج أبناء ملوك النوبة وكثير من الأهالي كانوا إذا مرضت لهم بنت مرضا نفسيا وشفيت على يد فقيه عرضوا عليه زواجها وتمت زيجات كثيرة بهذه الطريقة.

ركاب:

ركاب بن غلام الله خمسة أبناء ـ عبد الله ـ عبد النبي ـ وهما شقيقان ـ وزيد الفريد ثم حبيب وعجيب هؤلاء أشقاء أما عبد الله فولد حاج وحجاج فحاج ولد الدواليب وحجاج ولد ناس ولد أكحل أما عبد النبي فولد الصادقاب وزيد الفريد ولدالعكا زاب والتمراب والشبواب وعجيب ولد السدراب ولد أبو حليمة ـ أما حبيب فأولاده بحلة الصبابي بالبحر الأزرق شرق، قبالة جزيرة توتي.

ثم تفرق الركابية في أغلب أنحاء السودان بدءاً بمناطق البديرية والشايقية إذ يرجع لهم الفضل في تأسيس مدرسة القرآن في مملكة «الدفار» وبلاد الشايقية كما سيأتي.. وانتشروا في وادي النيل وخرجت فرقة لكردفان ودارفور والنيل الأزرق والحلفاية ورفاعة والهلالية والقلعة رانج[1] وتبدى نفر منهم فصاروا أهل رعى وترحال ويعرفون في شرق النيل الأزرق والدندر والرهد وسائر منطقة البطانة

---

(١) القلعة منطقة بالقرب من جبال الفاو.

باسم «الركابيين» ومن أعلامهم في تلك الجهات الشيخ محمد بن عبد الصادق الذي عاش معلماً ومرشداً في تلك الجهات وتوفي ودفن في «المُنْدرة» وبسطوا سلطانهم على أرض البطانة الخصبة سنين عديدة ثم آلت سيادة البطانة لقبيلة الشكرية بعد حرب ضروس امتدت سنين بين الركابيين والفونج من جهة والشكرية ومن والاهم من الجهة الأخرى.

والمشهور أن الشيخ غلام الله أنجب ولدين أسماهما ـ رباط وركاب وإطلاق اسم رباط وركاب يدلنا على جذوة الجهاد المشتعلة في صدر الرجل فكلمة «الرباط» افترعها المسلمون المجاهدون بداية بالمرابطين على الثغور وكذلك اسم «ركاب» يدل على روح الجهاد إذا فالرجل هبط دنقلا داعياً ومجاهداً ومرابطاً وأول أعماله أنه علم الناس كتاب الله وهذه بداية الجهاد والاحتساب ومن أشهر تلاميذه الشيخ الجليل محمد عيسى سوار الذهب ويعتبر الشيخ محمد عيسى أول من حفظ القرآن على الشيخ غلام الله وأنجب محمد عيسى عشرة من البنين وأنجب كل ولد من أبنائه عشرة أولاد كما تقطع الروايات بذلك وكلهم من حفظة القرآن وأثارهم بدنقلا العجوز شامخة حتى اليوم.. خاصة خلوة الشيخ محمد عيسى سوار الذهب وكانوا يلقبونه ـ أبو العشرة جد الميه ـ كما يُعرَفُ بـ «ساتي محمد»[١]

عبد الله الأغبش:

وأول من حفظ على الشيخ محمد عيسى سوار الذهب الشيخ عبد الله الأغبش جد البديرية «الغبش» ثم توالى الحفظة وكلما حفظ رهط في عهد غلام الله ومحمد عيسى سوار الذهب وجههم المشايخ لجهة ما فانتشروا في أنحاء البلاد ووقع الأمر على الشيخ عبد الله الأغبش أن يسكن بربر وهو إقليم عظيم وعريق وقر

---

(١) ساتي لقب يرد كثيراً قبل الاسم وهي كلمة دنقلاوية ومعناها سيدي أو شيخي.

قراره في بربر الغربية المعروفة بمنطقة الغبش وأشعل نار القرآن فيها.

نسب غلام الله بن عايد:

الشيخ أحمد غلام الله بن الشيخ عائد بن الشيخ إبراهيم المقبول ابن الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي بن الشيخ سيدي محمود بن سيدي هاشم ابن سيدي مختار بن سيدي علي عسكر بن سيدي كسكر بن سيدي سراج بن سيدي أبو القاسم بن سيد الإمام زامل بن سيدي موسى الكاظم بن سيدي محمد الباقر بن سيدي جعفر الصادق بن سيدي الإمام محمد تقى بن سيدي محمد نقى بن سيدي الإمام زين العابدين بن سيدي الإمام الحسين.

المسجد الأول:

المتفق عليه حتى الآن أن أول مسجد ابتناه المسلمون هو مسجد دنقلا الذي ذكرته معاهدة البقط، ومن الكتاب الذين كتبوا بتوسع في شأن هذا المسجد الأستاذ عبد الله الشيخ البشير قال: عندما شرعت في كتابة هذا البحث رأيت من الضروري أن أعنى بأول مسجد بني في السودان والظروف التي بني فيها وكنت عرفت من معلوماتي القليلة أن أول مسجد في السودان هو المسجد المنسوب إلى القائد الإسلامي عبدالله بن سعد بن أبى السرح الذى ابتناه المسلمون بناءاً على إتفاقية الصلح التي تمت بينهم وبين مملكة النوبة المسيحية في عام ٣١هـ بدنقلا العجوز ولا علم لي في هذا الموضوع أكثر من ذلك ثم يقول خرجت وفي ذهني هذه الأسئلة ماذا جرى لهذا المسجد وماذا جرى فيه أما يزال موجوداً أم أن كر القرون قد أخنى عليه حقيقةأم أسطورة ورحت ألح في السؤال عنه فقصدت أمانة الشئون الدينية فلم أحظ منها بجواب وليس له وجود في دليل مساجدها رغم أهميته التاريخية العظيمة لأن وجوده يعطي شهادة على أن السودان يعتبر من الشعوب الأولى التي عرفت الإسلام.

وكدت أيأس ولكن الله أعاضني عن الشئون الدينية ببعض من أهالي دنقلا

العجوز الذين أكدوا لي أن المسجد موجود وكانت تقام فيه الصلاة إلى عهد قريب حتى أغلقته مصلحة الآثار وأضافوا أنه كان في الأصل كنيسة أحالها المسلمون مسجداً وأفزعني ذلك الأمر وقلت إن صح ذلك فمعناه أن هناك اعتداء وقع وهو لا يليق بالمسلمين الذين يعرفون تسامح الإسلام واحترامه للأديان السماوية.. وفزعت إلى كتب التاريخ عندنا فوجدتها كلها متفقة على هذه الحقيقة المؤسفة.. ثم أن هناك أوامر صريحة لقادة الجيوش من المسلمين صادرة من الخلفاء بأنهم سيجدون قوماً منقطعين لعبادتهم فلا تتعرضوا لهم بأذى ولا تعتدوا على كنائسهم وصلبانهم وقد طبق ذلك في فلسطين على عهد ابن الخطاب وفي مصر ولا يصح أن تكون قد عطلت هذه الأوامر في عهد الخليفة عثمان الذي بُني المسجد على أيامه.

الثانية: أن هذا المسجد تم بناؤه بموجب معاهدة مشرفة للجانبين نتيجة تكافؤ القوى إلى جانب اعتبارات حضارية أخرى كثيرة.. وعليه فلا يعقل أن تقبل مملكة النوبة التي لم تهزم في ساحة القتال أن ترضى بالاعتداء على مقدساتها.. وبرجوعي إلى نصوص الاتفاقية كما سجلها المؤرخون العرب بالإجماع وجدت النص الخاص بالمساجد حيث يقول: «عليكم رعاية المسجد الذي ابتناه المسلمون» والذي يهمني هو كلمة ابتناه المسلمون.. إذن فالمسلمون لم يحيلوا كنيسة دنقلا إلى مسجد ولو أنهم أرادوا لما أتيح لهم بل مثل هذه الفكرة لا تستقيم مع واقع تلك اللحظة التاريخية الخالدة فقلت ربما كان هذا المسجد الذي يتحدث الناس عنه والمدون في كتبنا التاريخية هو مسجد غير الذي أبحث عنه.. ورجح عندي هذا الرأي ولكي أحسم هذا الموضوع أزمعت السفر إلى هناك لأقف على جلية الأمر وحملت أوراقي والأسئلة المصطرعة في ذهني..

دنقلا العجوز:

هضبة عالية جرداء تطل على النيل إطلالة مستحكم.. ذات أديم أحمر تمتاز به

عما جاورها خالية من السكان تماماً تقع قرية «الغدَّار» على يمينها وجزيرة تنقسى على شمالها وصعدنا إليها في مشقة بالغة فهالتنا آثارها التاريخيــة المتنوعـة.. انظر كنيستين عظيمتين كشفت عنهما الحفريات حديثاً.. يرجع تاريخ بنائها إلــى القـرن السابع الميلادي، يدلان على عبقرية متقدمة في فن المعمار هناك حجر على شـكل اسطوانة عجيبة النحت، ويرجع تاريخه إلى القرن السابع قبل الميـلاد. وهنـاك آثـار مسجد الشيخ غلام الله بن عائد في القرن التاسع الهجري وخـلاوي محمـد سوار الذهب فى القرن العاشـر الهجـرى لقـد بـدت لنـا هـذه الهضـبة بوتقـة عجيبـة فيهـا تـاريخ السودان الحضاري كله في نسق هو الدولة عينها.

وعلى قمة الهضبة تربع بناء مهيب وجدناه مكوناً مـن طـابقين طولـه ٣٨ مـتراً وعرضه ٢٣ متراً وارتفاعه ١٢ متراً على وجه التقريب فصعدنـا إلـى الطـابق الثـاني فالطابق الأول مغلق وقال مرافقنا هذا مسجد دنقلا العجوز الذي كان كنيسة.

ولاحظت محراباً ومنبراً من درجتين ولفتــت نظـري لوحـة رخاميـة مثبتـة إلـى يمين المحراب عليها كتابة هذا نصها ـ فُتِح هذا البـاب المبـارك للذكـر، علـى يـد سيف الدين بن عبد الله الناصر بتاريخ ١٦ ربيع الأول ٧١٧هـ فلمـا قرأتهـا علمـت أن هذا مسجد غير المسجد الأول الذي بنى ٣١هـ. في الطـابق الثـاني، ولـم يكـن المبنى فيما قبل كنيسة حولت إلى مسجد بخـلاف مـا كـان العلمـاء يظنـون وممـا لفت النظر أن نتائج هذا التنقيب جاءت مؤيدة للشـيخ ابـن خلـدون حيـث قـال أن كثيراً من النوبيين قد دخلوا في الإسلام منذ عصر «شكنده» إلا أن الملك عبد اللـه برشمبو أول ملك نوبي مسلم قد أقام مسجداً في قصر المُلك بدنقلا.

وعلق الأب فانتيني بقوله وقد كان هذا المسجد فـي ١٦ ربيـع الأول ٧١٧هـ الموافق ٢٩ مايو ١٣١٧م وتشير الكتابة التي نقشت على اللوحة إلـى هـذا المعنـى «تحويل هذا المكان إلى مسجد للصلاة».

فبطلت إذن جميع المعلومات التي كانت تقول أنه كان كنيسة حولت مسجداً

أو أنه بني على ظهر كنيسة أو أنه مسجد من طابقين ولم يبق أمامنا إلا البحث عن مسجد المعاهدة.

ورحنا نفتش بين الخرائب باحثين عن المسجد الأول، ما كان لنا من دليل غير نص المعاهدة الذي يقول أن المسجد يقع في فناء المدينة التي تشبه القوس وكنا واثقين من وجود هذا المسجد على وجه من الوجوه للأسباب الآتية:

تم بناء هذا المسجد بشروط موثقة وبلا إكراه ولم نقرأ في مراجع التاريخ ما يفيد أن ملوك النوبة أخلوا بهذا الشرط مع أنهم أخلوا بشروط كثيرة من شروط «البقط» اعتبروها مُجحِفة وقاموا بالامتناع المسلح.

لم يكن الملوك متعصبين دينياً.

كانت قوة المسلمين تتزايد ولا يعقل من ملوك حكماء أن يستفزوا مشاعرهم بالاعتداء على أمر يعلمون أنه يثير الحفائظ وربما أسفر عن نتائج سياسية غير مضمونة العواقب.

في ظل هذا الاعتقاد أخذنا نسأل أهل المنطقة الذين التقوا بنا وهم يعلمون كل صغيرة وكبيرة عن تلك الآثار أن المسجد الذي بناه المسلمون بموجب البقط لم يفهموا شيئاً عن البقط وعندما سألناهم عن مسجد ابن أبي السرح قالوا لنا أننا نعرف «مقبرة» لعبد الله اب سرحه وكدنا نطير وانحدرنا من أعلى الهضبة مهرولين.. فوصلنا فوجدناه على الصورة الآتية.

مسجد صغير لا تزيد مساحته على ٥×٥ أمتار وارتفاعه البارز من الرمال متر واحد وبه محراب صغير جهة القبلة وفي المحراب نافذة صغيرة ونصف سقفه سليم ومادة بنائه خليط من الحجر الجيري والطوب النوبي القديم ويبدو من بساطته أنه بني على عجل وعلى رأس المحراب يشخص عمودان ومن ورائه من الجهة الغربية سور مهدم مساحته ٢٠×٢٠ متراً وفي كل ركن من أركان السور

حجرة متهدمة وهو يقع في الركن الشمالي الشرقي من هذا السور.

إن تلك المعاينة لم تدع لنا شكاً في أنه هو المسجد الأول في فناء المدينة في مكان منخفض كما نصت الاتفاقية أن صغر حجمه يتمشى مع الواقع حينئذ لم يكن هنا مسلمون وحتى كنسه وإسراجه قد أسند إلى الحكومة النوبية ثم أنه يشبه في حجمه المساجد الأولى في الإسلام التي نراها حول مكة والمدينة ثم إن النافذة التي لحظناها في المحراب توجد نظائرها في مساجد الجزيرة هذا وأقر يقيننا مصداقية أهل المنطقة الذين يعرفون آثارها جيلاً بعد جيل وليس لهم من المصلحة في إخفائها أثر[1]. انتهى.

زيارة المسجد:

ولما كان الخبر ليس كالعيان فقد ذهبت أنا لدنقلا في ربيع ١٤٠١هـ ومن دنقلا العرضي توجهت جنوباً لدنقلا العجوز وأمضيت وصحبي ليلة عامرة بالأحاديث التاريخية الشائقة في منزل آل القاضي وكان حديثنا يدور حول دنقلا والمسجد وتجمع حولنا نفر من أهل دنقلا العجوز شيوخاً وشباباً وكان أبرزهم الأستاذ محمد الأمين خالد وعبد الرحمن القاضي، ومحمد القاضي وكلهم يعمل بالتعليم والتوجيه الفني في دنقلا العجوز عند تلك الآثار ولهما إلمام بتاريخ المنطقة الأول عن طريق الإرث والثاني عن طريق التعليم المكتسب وقد رافقاني في تلك الزيارة وأفدت منهما فائدة كبيرة وكان ضمن رفقائنا العم الشايب «قِيلِي» وصعدنا القصر الضخم الذي بني على ربوة عالية والصاعد للقصر يرى المنطقة شرقاً وغرباً كأنهما تحت قدميه والنيل يمر تحتها في شكل مقوس كأنه الهلال، وهذا يدل على علو هذا المبنى.. ولا أكرر ما ذكره الأستاذ عبد الله الشيخ البشير من وصف

---

(١) بحث كتبه الأستاذ عبد الله الشيخ البشير العالم اللغوي والشاعر الكبير في مجلة الخرطوم العدد الأول يناير ١٩٨٤م.

رائع ولكنني أضيف لمعلوماته التي ساقها من خلال مقاله ما يلي:

يوجد في الركن الشمالي الشرقي مبنى على شكل مسجد وبداخله قبر والذي قرأ معاهدة البقط يجزم أن هذا المكان هو فناء المدينة الذي أشارت إليه المعاهدة، وفي شمال هذا المبنى وغربه بقليل شُرفٌ وجدر متهدمة بنيت بالطوب الأخضر.. يقدر الأخوين محمد الأمين خالد، وعبد الرحمن القاضي أن المسجد المعني في الاتفاقية المعروفة هو هذا الأثر.. وعلى كل حال إن كان هذا أو الذي وصفه أستاذنا عبد الله الشيخ البشير في مقاله فإن المسجد الذي «ابتناه المسلمون» واحد من هذين الأثرين وليس ذلك القصر المنيف وهو الذي بناه ملوك النوبة وجعلوه دار حكم والذي جعل من طابقه الثاني القائد سيف الدين الناصر مسجداً.

ووجود المسجد خارج القصر يفند ويدحض ما يتناقله الناس وما قررته الكتب التي تُدَرس في المدارس[1] الابتدائية حيث جاء في كتاب «من تاريخ السودان» للصف الرابع الابتدائي، وقام إمام المسلمين يصلي بالناس صلاة العصر لأول مرة في «كنيسة دنقلا العجوز التي حولت إلى مسجد» وهذا يخالف الواقع وما درج عليه الصحابة كسيدنا عمر بعد فتحه بيت المقدس فإنه أبى أن يحول الكنيسة مسجداً. وليس صحيحاً أن المسلمين بعد فتح دنقلا حولوا الكنيسة مسجداً كما جاء في كتاب «من تاريخ السودان» للمدارس الابتدائية.

وقد شهد بصحة هذا الأب فالنتيني في كتابه تاريخ المسيحية[2] وهو رجل دارس ومتمكن من مادته وموضوعه ومخلص لدينه.

إذن الباحثون متفقون أن أول مسجد في بلادنا كان مسجد دنقلا العجوز الذي شاع خبره عند كتاب التاريخ وغيرهم وارتبط المسجد بالمعاهدة المبرمة بين القائد المسلم عبد الله بن سعد بن أبي السرح والنوبة..

---

(١) من تاريخ السودان ـ صفحة ٣٢ ـ دار النشر التربوي.

(٢) تاريخ المسيحية في المماليك القديمة ـ الأب ـ فالنتيني.

أما المسجدان الآخران فقد تعرضت لهما معاهدة عبد الله الجهم مع عظيم البجا «كنون بن عبد العزيز» نظراً لطول المعاهدة فإني أكتفي بالفقرات المرتبطة ببحثي هذا عندما أتحدث عن المسيد في شرق السودان.

مشايخ دنقلا خارج السودان:

أشهرهم الشيخ محمد أحمد سوركتي الذي نزح إلى الحجاز دارساً ومدرساً ثم طلبت «مليزيا» معلماً يدرس العلوم العربية والدينية فوقع الاختيار على الشيخ سوركتي.

فسافر إلى بلاد «أندونيسيا» جزيرة مليزيا فواظب على التدريس مجتهداً حتى عم ذكره جميع الجزر الأندونيسية وبعد أن قويت شوكته أسس مدارس خاصة فعم نفعه وطار صيته عليه رضوان الله.

وخلف أسرة كبيرة تعرف بآل سوركتي وعلمت أن الرئيس الأندونيسي «سوكارنو» سمي تيمناً بالشيخ سوركتي والله أعلم.

ثم تلاه الشيخ ساتي ماجد الذي خرج من دنقلا بعد أن حفظ القرآن لمصر للالتحاق بالأزهر فكان من أمره ما كان وأنقل في الصفحات التالية ما ذكره الكتاب عن هذا الداعية.

ساتي ماجد:

إنه واحد من النابهين الذين تخرجوا في الخلوة، ولد الشيخ ساتي ماجد سنة ١٣٠٠ في «الغدار» وهي من قرى دنقلا العجوز بدأ القرآن عند الشيخ عوض في بلده «الغدار» ثم تحول إلى مسيد الشيخ أحمد أبو زيد وديدي في قرية «رومي» ومكث حتى أكمل حفظ القرآن.

وزعموا أنه بعد أن فارق مسيد الشيخ أحمد وديدي بقرية «رومي» كتب نوعاً

من السجع حفظ الناس منه تلك المقطوعة التي صارت مثلاً قال ساتي ماجد[1] ثلاثة موجودة في رومي.

البُوَيلي والبليلة والعلوم.

«البوبلي المكان الساخن أو الرمال الساخنة أو محل النار واشتهرت رومي بكثبان الرمال التي تحفظ حرارة الشمس حتى الغروب وكلمة «بوبلي» نوبية ـ أما البليلة فهي وجبة رئيسية في مدارس القرآن في السودان تصنع من حبوب اللوبيا والذرة الشامية.

والمعنى أن في رومي ثلاثة أشياء مضمونة وملموسة البوبلي «السخانة» والبليلة والعلم.

وبعد أن حفظ الكتاب الكريم اتجه إلى مصر حيث التحق بالأزهر ولم يمكث فيه طويلاً. وغادرها إلى أوروبا داعياً لدين الله وأقام في انجلترا ثم اتجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية فوصل إليها عام ١٩٠٤ –ومكث بها حوالى خمسة وعشرين سنة وعاد بعدها إلى السودان حيث استقر بدنقلا وهذه ترجمة لحياته اختصرها الكاتب المؤرخ محمد عبد الرحيم.

ساتي ماجد[2]

أو شيخ الإسلام بأمريكا الشمالية

كان هذا أول مجاهد جاهر وناضل بالدعاية لدين الإسلام في قارتي أوروبا

(١) رواية ساتي محمد بن ساتي ماجد وهو محام معروف في أمدرمان.

(٢) ساتي ماجد ـ ١٣٠٠ هـ ـ ١٨٨٣م ـ ١٣٧٥هـ ـ ١٩٦١م.

و«النداء في دفع الافتراء» ـ مطبعة القاهرة. للمؤرخ السوداني محمد عبد الرحيم.

وأمريكا حتى اعترفت به الأخيرة ولقبته «بشيخ الإسلام في أمريكا الشمالية».

ولد في دنقلا العجوز سنة ١٣٠٠هـ - ١٨٨٣م، كان والده من الزّيّاداب الذين هم فرع من البدرية أي «عباسية» كما رواه - مؤلف كتاب «صبح الأعشى» في الجزء الرابع بقوله «أبناء بدير العباسية».

حفظ ساتي ماجد القرآن في بلدته وهاجر إلى الأزهر بالقاهرة لطلب العلم، وما لبث أن سار إلى انكلترا واجتمع هناك برجلين أحدهما كنزي[1] والثاني يماني، فأسس الثلاثة «جمعية للتبشير»، فكانت خطوة أولى من نوعها وشجاعة أدبية مقطوعة النظير ولحسن حظهم كان ساتي ماجد خطيباً بليغاً لا يبالي بمنابر الدعاية، كان جهوري الصوت خبيراً بالاقتباس من القرآن الكريم وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان أحد صديقيه يجيد اللغة الانجليزية ويعرف آدابها فصاروا يجولون في الجزر البريطانية، يقوم ساتي ماجد بإلقاء المحاضرات في أهم المجتمعات باللغة العربية ويترجمها زميلاه إلى الانجليزية كان أحد المبشرين الإيطاليين بأمريكا ينشر مقالات في الطعن على تعاليم الدين الإسلامي ويرسمه بشكل رأس تمساح فاغراً فاه بارز الأسنان، ويصفه بالوحشية وأنه يأمر بأكل لحوم البشر، فتأثر أعضاء «الجمعية الإسلامية» وتشاوروا في خير الوسائل لكبح جماح ذلك المبشر فتطوع ساتي ماجد بأن يذهب إلى أمريكا ويرد على ذلك المبشر في نفس الجريدة التي اعتاد النشر بها.

ولما كانت حرية الأديان مكفولة هناك ولدعاتها أن يجولوا بالولايات مجاناً طلبت الجمعية الإسلامية التصريح لساتي ليبشر للإسلام وتم التصديق له بذلك.

وسافر إلى أمريكا غير مبال بطول الشقة والمشاق، وكان إذ ذاك يدرس اللغة الإنجليزية حيث أجادها ولما وصل نيويورك وجد هناك خمسة أشخاص ـ هم

---

(١) كنزي - نسبة لقبائل الكنوز - أبناء كنز الدولة كما هو معروف.

القنصل التركي ومترجم القنصلية والسفير التركي ومترجم السفارة وإمامهم- ففرحوا به وصاروا يساعدونه في الرد على ذلك القس الذي أسلفنا الحديث عن تهجمه على الإسلام، فقد أرسل ساتي ماجد مقالاته إلى الجريدة الأمريكية التي كانت تنشر للقس، ولكنها رفضت النشر ضد القس فما كان من ساتي ماجد إلا أن رفع قضية بالمحكمة في نيويورك وطلب إلزام الجريدة بنشر مقالاته في العمود الذي تنشر به مطاعن القس أو الحكم له بمائتي ألف جنيه كرد شرف نظير التشهير بالإسلام والحط من كرامة الشرقيين، فحكمت المحكمة بنشر مقالات ساتي ماجد في العمود الذي اعتادت أن تنشر فيه مطاعن القس. وقامت لذلك ضجة صحفية ضخمة لفتت نظر الحكومة والشعب، فلقبوه «بشيخ الإسلام بأمريكا الشمالية» وسار نحوه الكثير من علماء النصارى لمناظرته في العلوم الدينية.

وبينما هم كذلك إذ حدث كسوف في الشمس حتى رأى الناس النجوم نهاراً فدعت حكومة الولايات المتحدة علماء الأديان إلى اجتماع عام ليعظوا الناس للكف عن المعاصي والتمسك بتعاليم الأديان السماوية لكي يرفع البلاء وقد دعي شيخ الإسلام في نيويورك ليلقي كلمة في ذلك الوقت المحدد اجتمع الناس حتى ضاقت بهم رحاب المكان وأعطي لكل زعيم الوقت اللازم لوعظه.

ونودي القس الإيطالي لإلقاء كلمته وانصب كل وعظه في ذم الشرق والشرقيين والطعن في تعاليم الإسلام ونسب كل ما يقع من البلاء والغلاء إلى الإسلام والمسلمين ولم يقاطعه أحد في شيء من ذلك حتى نهاية حديثه.

ونودي شيخ الإسلام ساتي ماجد ليعظ فتكلم عن الإسلام وهديه بعبارة بليغة ثم عطف واستدعى القس الإيطالي الذي وقف، وهناك وجه إليه أسئلة كان أولها:

- أين ولد عيسى في الشرق أم في أوروبا.

- فأجاب القس: في الشرق.. فقال: إذن كيف تحط من كرامة الشرق وهو

الذي أنجب إلهك وإله آبائك.. وهنا دوى المكان «بالتصفيق» إعجاباً وأعقب ذلك بأسئلة أسكتت القس.

ولما انتهى الاجتماع وازدحم الناس في الخروج «طُعِن» ساتي ماجد بسكين حتى خرج طرف الرئة من بين أضلاعه فسقط على الأرض مضرجًا في دمه وهرع البوليس والأطباء لأداء واجبهم وعندما أفاق من غيبوبته قال لهم: «إن وجدتم الجاني أبلغوه بأنني عفوت عنه» فدهش الحاضرون لهذه المكارم، وأخذوا من ذلك أن الإسلام هو دين التسامح ودين مكارم الأخلاق فأسلم المئات بسبب ذلك الحادث.

ولما وصل القاهرة أفتى علماء الأزهر له ما عدا «الشيخ مصطفى المراغي» شيخ الأزهر الذي قال له إنك لم تحمل شهادة ولا يصح قيامك بالدعاية في بلاد عظيمة كأمريكا ـ فأجاب ساتي ماجد بقوله: أرسل معي بعثة من حملة الشهادات وأنا أرافقها للدلالة. فرفض.

نزلت في ضيافته في ديسمبر ١٩٤١ أثناء إحدى رحلاتي لبحث التاريخ فرأيت منه رجلاً طويل القامة كث اللحية متناسب الأعضاء وقوراً وكان كريماً دمث الأخلاق يرتدي الملابس الأفرنكية وعلى رأسه قلنسوة سوداء مما يلبسه العراقيون عادة، ولو كان السودانيون يقدرون الرجال لأقاموا التماثيل لأمثال أحمد محمد سوركتي وساتي ماجد ولكن التاريخ هو الحكم في أقدار الرجال وأبقى لسمعتهم ما دامت الدهور حتى ينفخ في الصور ويبعث من في القبور[1].

نسب ساتي ماجد

١ـ ساتي ماجد. ٢ـ ساتي محمد «تودول» ٣ـ ابن محمد صالح ٤ـ ابن محمد ٥ـ ابن ساتي حلالي ٦ـ ابن ساتي حمد ٧ـ ابن ساتي حسين ٨ـ ابن ساتي

(١) النداء في دفع الافتراء للمؤرخ محمد عبد الرحيم.

حلالي ٩ـ ابن ساتي محمد سوار الذهب[1].

الإمام عبد الرحمن وساتي ماجد

هذا وكانت أخبار الرجل وجهاده وصلت لكثير من الجماعات في السودان ومصر والمغرب والسعودية واليمن... إلخ ولما عاد للبلاد احتفل به الإمام عبد الرحمن المهدي احتفالاً عظيماً ودعى على شرفه جميع أبناء دنقلا على مختلف مشاربهم وكثيراً من الوجهاء وتحدث في الحفل الإمام عبد الرحمن ودعى كل من يستطيع إكرام هذا الرجل المجاهد وأخذت صورة تذكارية لهذا الحفل التاريخي وأنا أثبتها هنا ـ

الجالسون على الأرض من اليمين

١ـ العمدة بابكر حميل ٢ـ عثمان وني ٣ـ مصطفى النور ٤ـ يوسف بشير ٥ـ مهدي الشيخ الطيب.

الجالسون من اليمين إلى اليسار

١ـ عبد القادر القباني ٢ـ محمد أحمد مختار ٣ـ السيد عبد الله الفاضل ٤ـ السيد عبد الله السيد حامد ٥ـ السيد علي المهدي ٦ـ الإمام عبد الرحمن المهدي ٧ـ ساتي ماجد «المحتفى به» ٨ـ سيد أحمد سوار الذهب ٩ـ محمد عبد الرحمن سوركتي ١٠ـ فضلو شيخ فضلو ١١ـ خضر محمد الحاج ١٢ـ دفع الله شبيكة الشيخ عبد الكريم والد السيد عبد الرحمن عبد الكريم وإخوانه.

الواقفون من اليمين إلى اليسار

١ـ السيد السيد الخليفة عبد الله ٢ـ ابراهيم فتر ٣ـ الطيب فضل المولي ٤ـ العوض سلمان ٥ـ عثمان أحمد النصري ٦ـ أمين الشيخ الطيب ٧ـ سعد طاشين ٨ـ عوض جبريل ٩ـ عوض سلمان ١٠ـ مصطفى كاشف ١١ـ مكي عثمان أزرق ١٢ـ حسن عبد الكريم ١٣ـ بشير علي الحلاد ١٤ـ حامد صالح الملك ١٥ـ سالم حسن أبو زيد ١٦ـ عبد القادر خال العيال ١٧ـ بشري إبراهيم السيد ١٨ـ باب الله فضل المولي ١٩ـ محجوب فضل المولي ٢٠ـ صالح محمد ٢١ـ عبد الرحمن عثمان الخراط ٢٢ـ عبد الله إبراهيم عمر ٢٣ـ وسقطت بعض الأسماء التي لم نتأكد من معرفتها.

---

(١) كلمة ساتي بلغة الدناقلة تعني سيدنا شيخ القرآن.



هذا وقد كتب الأستاذ عبد الحميد محمد أحمد كتاباً عن الشيخ ساتي ماجد أسماه «شياخة الإسلام في أمريكا» نشرته مصلحة الثقافة ١٩٧٨ الخرطوم وقد جمع الأستاذ عبد الحميد كل الوثائق المتعلقة بالشيخ ماجد خلال خمسة وعشرين سنة من ١٩٠٤ إلى ١٩٢٩ التي أمضاها بالولايات المتحدة وباللغتين العربية والانجليزية.

العلماء الأقدمون:

العالم يزيد بن أبي حبيب الدنقلاوي كتب عنه الشيخ المجاهد القاضي محمد الأمين القرشي كتاباً أنقل منه بعض الفقرات.

والأمر كله تزكية لدنقلا وأهل دنقلا لأن يزيداً كان أثره وجهاده خارج دنقلا ولكنا نذكره هنا تبركاً به وبسيره الفخمة.

يزيد في فجر الإسلام والمقريزي

ذات يوم كنت أجيل الطرف في كتاب فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين فوجدته يسطر كلاماً عن يزيد هذا يعزوه للمقريزي قال بصحيفة ١٨٩ بفجر الإسلام. وممن اشتهر بالعلم في مصر يزيد بن أبي حبيب مولى الأزد مفتياً لأهل مصر وأبوه من «دنقلا».

وفي صحيفة ٢٣٥ ذكره في معرض العلم فقال: وقد اشتهر في مدرسة مصر بعد الصحابة يزيد بن أبي حبيب وهو نوبي الأصل من «دنقله» وقد أخذ العلم عن بعض الصحابة المقيمين بمصر.

قال الكندي أنه «أول من نشر العلم بمصر» في الحلال والحرام ومسائل الفقه وكان ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا إليهم بمصر رجلان من الموالي ورجل من العرب فأما العربي فجعفر بن ربيعة. وأما المولیان فيزيد بن حبيب

وعبد الله بن أبي جعفر فكأن العرب أنكروا ذلك. فقال عمر بن عبد العزيز ما ذنبي إذا كانت الموالي تسمو بأنفسها (أو يسمون بأنفسهم) صعداً وأنتم لا تسمون.

وكان يزيد عالماً بالفتن والحروب وما يتعلق بفتح مصر وشئونها وولاتها وهو أحد الأركان الذين نقل عنهم الكندي كتابه «ولاة مصر وقضاتها». وكان من أشهر تلاميذ يزيد هذا عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد.

هذا ما قاله الأستاذ أحمد أمين ناقلاً عن تلك المصادر التاريخية فرجعت إليه في مصادره وتتبعت تلك المراجع فوجدتها كما قال.

إكبار وتقدير:

تلك الكلمات العابرة جعلتني أكبر يزيدا[1] وأمجده أيما تمجيد كيف لا وهو مفتي مصر يختاره إمام الهدى عمر بن عبد العزيز الحاكم الذي يضرب بعدله المثل ليكون مرجعاً دينياً لأهل مصر يفزعون إليه في أمور دينهم فيعلمهم ويرشدهم ويهديهم سواء السبيل ويحل مشاكلهم وليس في عهده فقه مدون يطاله أو مذهب محرر يراجعه ولم يقلد أحداً فهو إمام مجتهد مطلق يأخذ الأحكام من الكتاب والسنة ويقيس الأشياء على النظائر فكان إماماً للمسلمين في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وتلك منقبة كبرى وفخر عظيم وشهادة تقصر دونها شهادات الجامعات والكليات وكانت داره ندوة الطلبة ومجتمع العلماء فتخرج على يديه عدد لا يحصى.

الليث بن سعد:

الليث بن سعد وما أدراك ما الليث بن سعد ذلك الإمام المجتهد المطلق فقيه مصر وهو في درجة الأئمة المجتهدين الشافعي ومالك و أبي حنيفة وابن حنبل

---

(١) يزيد بن حبيب تأليف القاضي محمد الأمين القرشي الخرطوم.

وسفيان وغيرهم. وقد كتب عنه ابن حجر العسقلاني سيرة ضافية وذكر فيها تلمذته ليزيد ونقل ابن حجر عن الإمام الشافعي أن الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به. وفي رواية ضيعه قومه فهم لم يدونوا مذهبه وكان مذهب الليث هو الشرع الذي يرجع إليه أهل مصر ولم يعرفوا غيره حتى جاء الإمام ابن القاسم من المدينة المنورة بعد صحبة طويلة للإمام مالك «وابن القاسم من اسكندرية» فنشر مذهب مالك في ربوع مصر ولم يكن مذهب الليث مدوناً في كتاب كما قدمنا وبعد ابن القاسم حمل لواء المذهب تلميذ مالك الثاني وهو أشهب المصري ومنها تعلم الناس مذهب مالك ورجعوا إليه ثم جاءت المذاهب الأخرى.

إن ذا أمر عجب الإمام الليث بن سعد المصري وهو مجتهد مطلق تلميذ يزيد ابن السودان وسليل دنقله أي ورب. لقد شحذت العزم لمواصلة البحث بقدر الاستطاعة فهناك ما أخذته مختصراً من الكندي.

في كتاب الولاة والقضاة للكندي:

هذا الكتاب تأليف ابن عمر محمد بن يوسف الكندي المصري وهو كتاب قيم يبحث فيه قضاة مصر وولاتها وغير ذلك أهداه مستر «كروفت» مدير المعارف السودانية سابقاً إلى مكتبة المعهد العلمي بأمدرمان ووجدته يسرد كثيراً عن يزيد هذا فيما يتعلق بأخبار مصر وحروبها. من ذلك قوله حدثني يحيى أبو معاوية التجيبي قال حدثني خلف بن ربية الحضري عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قال فتحت مصر يوم الجمعة مستهل شهر المحرم سنة عشرين للهجرة وقال حدثني علي بن الحسن بن خلف بن قديد الأزدي عن عبدالله بن سعيد الأنصاري عن أبيه قال أخبرني بن لهيعة عن يزيد ابن حبيب أن عمرو بن العاص كان بفلسطين على ربع من أرباعها فتقدم بأصحابه إلى مصر فكتب إلى عمر وكان سار بغير إذنه فكتب إليه عمر بن الخطاب بكتاب أتاه وهو أمام العريش فقرأه فإذا فيه «من عمر بن الخطاب إلى العاصي ابن العاصي».

أما بعد: فإنه بلغني أنك سرت ومن معك إلى مصر وبها جموع الروم وإنما معك نفر يسير ولعمري لو كانوا ثكل أمك لما تقدمت فإذا جاءك كتابي هذا فإن لم تكن بلغت مصر فارجع» فقال عمرو والحمد لله أية أرض هذه فقالوا من مصر فتقدم إلى «الفرماء» وهي قرية مصرية بالقرب من بورسعيد وبها جموع الروم فقاتلهم فهزمهم ـ وقال حدثنا علي بن الحسن بن قديد وأبو سلمة قالا حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب ـ كان عدة الجيش الذي مع عمرو الذين فتحوا مصر خمسة عشر ألفاً وخمسمائة ـ وقال ليس بين أهل مصر والأساود «يعني السودان» عهد إنما كانت هدنة أمان بعضنا من بعض نعطيهم شيئاً من قمح وعدس ويعطونا دقيقاً ـ قال ابن لهيعة سمعت يزيد بن أبي حبيب يقول «كان أبي من سبي «دملقه» يقلب النون ميماً ـ قلت وهو إبدال معروف عند العرب لقرب المخرجين ودنقلا اسم عجمي وللعرب مجال واسع يحصل فيه التغيير بالتعريب حتى أننا نحن أبناء السودان أحياناً نقلب التاء التي هي هاء السكت ألفاً فنقول «دنقلا» ولنرجع إلى وصل الكلام بعد هذه الجمل المعترضة. قال ذلك المؤلف عن يزيد وغزا عبد الله بن سعد الأساود «السودان» حتى بلغ دمقلة وذلك سنة واحد وثلاثين للهجرة فقاتلهم قتالاً شديداً وأصيبت فيه عين معاوية بن حديج وعين أبي سهم بن أبرهة.

يزيد في تهذيب الكمال للعلامة الخزرجي المولود سنة ٩٠٠ هـ

تهذيب الكمال كتاب عظيم صنفه العلامة الحافظ صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي المتوفى ٩٢٣هـ استمده من تهذيب الحافظ الذهبي وتقريب الحافظ بن حجر وغيرهما جمع فيه كثير من أسماء رواة الحديث وتكلم عنهم بما قرره رجال الفن ومن ضمن أولئك الجهابذ الأعلام يزيد بن أبي حبيب السوداني قال في صحيفة ٣٧٠ يزيد بن حبيب مولى شريك بن الطفيل الأزدي أبو رجاء.

«كنيته يزيد» المصري يقصد أنه مقيم في مصر لا في غيرها ولعله كان يجهل أنه من السودان عالمها. عن عبد الله بن الحارث بن حزء وأبي الخير اليزني وعطاء وطائفة «يرد من قوله عن عبد الله إلخ» أنه يروى عنهم وهذا اصطلاح خـــاص بـــالمحدثين «وعنه يزيد يروى عنه» قال يزيد بن عنسيه وحيوة بن شريح يحيى بن أيوب وخلق «يعني وخلق كثيرون يروون عنه».

قال ابن يونس كان حليما عاقلا وقال الليث يعني الإمام الليث المتقدم ذكـــــره يزيد عالمنا وسيدنا.

قال ابن سعد ثقة كثير الحديث مات سنة ثمان وعشرين ومائة ووضع الخزرجي عند الكلام على يزيد حرف «ع» وحرف العين عند رجال الحديث رمز إلى رواية الجماعة أصحاب الكتب الستة. فزاد إعجابي بالعالم الدنقلاوي يزيد الذي يروي له أصحاب الكتب الستة عليه رحمة الله. انتهى.

مسايد دنقلا:

المسايد وخلاوي القرآن يصعب حصرها لكثرتها وأكتفي بشهرتها.. فقد صـــار الركابية والبديرية يدا واحدة وأسرة متداخلة في بعضها ورغم أن الركابية يعتـــبرون مشايخ المنطقة فقد ساواهم البديرية بجدهم واجتهادهم ومعظم الخلاوي في دنقــــلا يرجع تأسيسها للأسرتين ونشاط الأسرتين لم يتوقف عند دنقلا بل تعداها لجميـــع السودان ــ كالشايقية والجعليين والجزيرة «الترابي» وأم درمان الشيـــخ محمـــد ود البدوي وكردفان ودارفور وغيرها من الأماكن التي اشتهرت بتدريس القرآن.

وأذكر من باب التبرك بعض خلاوي دنقلا ــ خلاوي رومي خلوة الأشراف بجزيرة لبب ــ كندمر آل حاج شريف ــ خلوة ارتدى ــ خلوة كلمسيد ــ خلوة اكـــد ــ خلوة آل بجه ــ بالترعة وهي من أنشط الخلاوي ويرجع تاريخها لأربعة قـــرون مضـــت وينسب موسسها للحجاز والقيم عليها الآن الشيخ البركة الورع حسن بجـــه والـــد

القارىء الشهير محمد نور حسن بحه.. وفي هذه الخلوة أشهر عنقريب «سرير» طولاً وعرضاً وسعة وقد نقل لمتحف الخليفة بأم درمان ولكن الخلوة استعاضت عنه «بعنقريب»[1] آخر في مثل حجمه عشرة أذرع طولاً وسبعة عرضاً وطول قائم الأرجل ثلاثة أذرع.. وكذلك يوجد مثل هذا العنقريب في جزيرة «بدين» وغيرها واتخذته هذه الخلاوي لينام ويستريح عليه الزوار وبعض طلبة القرآن ومن الخلاوي خلاوي مقاصر وارقو والسير والقولد والخندق والزورات وتمنار.. إلخ.

جزيرة بدين:

بدين تجمع بين المحس والدناقلة والأشراف وهي جزيرة طويلة وعريضة يحيطها النيل من جميع جنباتها وأهم خلاويها:

١/ خلوة الشيخ محمد أحمد بحلة فيدي «تنشي» كانت عامرة وقد قصدها الطلاب منذ عام ١٣٠٠هـ من شتى مناطق دنقلا والمحس وقد تخرج منها البعض الذين اشتغلوا موظفين في عهد الاستعمار في السكة حديد والبريد.. إلخ. توقفت بعد وفاته في أوائل الأربعينيات.

٢/ خلوة الشيخ الحاج فرحان حامد: بحلة أبو حازة «تنشي» توقفت منذ أواخر الخمسينات وكانت بدايتها بعد اضمحلال خلوة الشيخ محمد أحمد كانت لأبناء منطقة تنى لم ينضم إليها طلاب من خارج الجزيرة وهناك آثار بعض المشايخ وآثار أخرى.

٣/ خلوة الشيخ محمد فقير شيخ طويل بشياخة «شبه» بجزيرة بدين وهي زميلة لخلوة الشيخ حاج فرحان وما زالت آثارهما باقية.. وقد توقفت في أواخر الخمسينات بعد انتشار المدارس النظامية.

---

(١) عنقريب ـ كلمة نوبية وينطقها النوبة أنقرى، وهي السرير.

٤/ خلوة الشيخ شوكت بجزيرة «سلنارتي» وقد توقفت في نهاية الخمسينات لعوامل الهدم والفيضانات..

٥/ خلوة الشيخ عبد الله محمد موسى بجزيرة بدين تنشى الشرقية وما زالت قائمة ومستمرة إلا أن الرواد أصبحوا قليلين.

مقبرة مشايخ القرآن:

بين دنقلا العجوز والغدار والقرى المجاورة مسافة يسيرة بضع كيلومترات يقطعها الشخص راجلاً ولكنها في زمان منصرم شاقة بعض الشيء وفي هذه الرقعة وجدنا آثار الخلاوي والمسايد وآثار القبور وكلها حول الشيخ غلام الله بن عايد.. والناس في منطقة الغدار يعرفون كل صغيرة وكبيرة من آثار دنقلا العجوز وجعلوا مقبرة الشيخ غلام الله مدفنة لمشايخ القرآن الكبار الذين كان لهم أثر ملموس.

١/ غلام الله بن عايد.

٢/ الشيخ آدم.

٣/ الفكي عيسى.

٤/ محمد عيسى سوار الذهب.

٥/ ساتي محمد.

٦/ عووضه القارح.

٧/ الحاج الغالي.

٨/ ود عواض.

٩/ ساتي حلالي.

١٠/ النور سوار الذهب.

١١/ الشيخ زيادة النور سوار الذهب.

١٢/ الخليفة ساتي.

١٣/ محمد شيخ زيادة.

١٤/ النور زياده.

١٥/ ساتي حمد.

١٦/ الشيخ عبد الرازق.

١٧/ ساتي عيسى.

١٨/ محمد شيخ عووضه.

١٩/ عبد الكريم الشيخ عووضه.

المشايخ في المحس:

والروايات المثبتة والمتوافرة أن العرب دخلوا منطقة النوبة من البوابة الشمالية مصر وبعض منهم من البوابة الشرقية عن طريق البحر الأحمر وباب المندب وبعضهم من طريق البوابة الغربية ثم تدافعوا لقلب البلاد وتوزعوا فيها واستقر نفر في ديار المحس بالأخص حملة رسالة التعليم ونذكر منهم بعضاً. كما أفادت المعلومات التي جمعها الأستاذ سيد محمد عبد الله وذكر طائفة منهم استقروا في الشق الأدنى من المحس الذي يعرف باسم «سكوت».

تاج الختم

الفقيه تاج الختم خيري من أبرز رجال التعليم في إقليم المحس وقد سطع نجمه في منتصف القرن الهجري الماضي ويحسب من أهل الجهاد والبركة وقد درس عليه القرآن معظم المتعلمين والمثقفين من أبناء المحس الذين ارتادوا المدارس النظامية الحديثة وقد نجح وبرز معظم الذين درسوا على هذا الشيخ سيدي تاج الختم.

ومدرسته بقرية «فِرِّيقْ» مركز «دلقو» ولكنها كالعادة لم تكن وقفاً على «فريق» وغيرها من القرى المجاورة بل كانت منهلاً مشاعاً لكل أبناء المنطقة محس ودناقلة وسكوت وغيرهم.

وشيخنا تاج الختم أخذ القرآن في دار الشايقية منطقة (الدويحية) في مسيد عبد الرحمن ود حاج والمدرسة التي درس فيها تاج الختم هي مدرسة دويم ود حاج.

المحس:

تمتد دار المحس على ضفتي النيل الكبير بدءاً من بلدة أبو فاطمة من حدود الدناقلة وتنتهي عند بلدة واوا ثم يلي ذلك الشطر الثاني من المحس وهم سكان منطقة السكوت وليس بينهما من فارق كبير غير الحدود الإدارية أما غير ذلك فهم عنصر واحد من حيث الدماء والأصول والثقافة والعقيدة وسبل كسب العيش وللمحس عاصمة إدارية دلقو وللسكوت عاصمة تعرف باسم «صواردة» وتحد شمالاً منطقة السكوت بما يعرف بأرض الحجر وهي أرض صخرية يشقها النيل في مساره شمالاً ثم تلي أرض الحجر منطقة حلفا..

والمحس من الأسر النوبية السودانية العريقة وهم أصل من أصول النوبة الأقدمين، ثم توافد عليهم العرب بعد الفتح الإسلامي وتم بينهم الاختلاط والتصاهر وهم صادقون إن قالوا نحن «نوبة» فهم يعيشون في أرض النوبة ويتحدثون لغتهم ويتلقدون كثيراً من أعرافهم إلخ وإن قالوا نحن عرب فهم أيضاً صادقون فقد عمهم الإسلام منذ عهد بعيد وتخلقوا بأخلاقه ودخلتهم الدماء العربية وينبغي أن أشير إلى أن غالبية المثقفين من أبناء المنطقة يميلون انتساباً للعنصر النوبي عكس المواطنين الذين يفضلون الانتساب للصحابي الجليل أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي كما يفعل أكثر أهل السودان الشمالي إذ يفضلون الانتساب إلى الأسماء الإسلامية

العربية التي تتصل بالدوحة الشريفة فأكثر أهل السودان «يزعمون» أن أجدادهم ينحدرون من أشراف قريش ولهم وثائق تثبت ذلك وهم صادقون فيما يدعون «وليس بين أيدينا من الوثائق» من يجزم بتلك الصلة لقريش كما ليس لدينا ما يمنعهم من هذا الانتساب..

انتشار المحس:

خرج من أرض المحس الأصل جماعات كثيرة أغلبهم من حفظة القرآن ثم تبعهم جماعات أخرى من التجار والزراع وأهل الصناعات وانتشروا على مجرى النيل - وما من منطقة على مجرى النيل إلا وبها أثر من آثار المحس يتمثل في الجماعات التي هاجرت من الأرض الأصل واستقرت في مهجرها الجديد، نجد ذلك في ديار الدناقلة والشايقية والرباطاب والجعليين ونهر اتبرا. وأشهر تجمع للمحس كان في مديرية الخرطوم فقد عمروا جزيرة «توتي» الواقعة وسط النيل «كما استقروا في شمبات والصبابي والحلفايا» وسكناهم في هذه الجزيرة ينم عن أصلهم النيلي، السكن في الجزر داخل النيل، والسكن في الجزائر وعلى شطآن النيل يوافق طبعهم ويخالف طبع سكان مديرية الخرطوم الأقدمين كالجموعية والجميعاب والعبدلاب والجعليين.. إلخ الذين يفضلون سكن الأرض اليابسة من حول النيل. ثم انتشر المحس على النيل الأزرق وعمروا منطقة العيلفون وما حولها ولهم مناطق أخرى تعرف «بقُرى» المحس ثم أسسوا «كترانج» وهي بقعة شع منها القرآن والعلم دهراً طويلاً واختارت جماعة منهم الإقامة في عاصمة البلاد القديمة سنار وذهب بعضهم لجنوب الفونج والنيل الأزرق وتبدى رهط منهم في شمال شرق كردفان «منطقة حمرة الوز وجبل الحرازة»[1].

---

(١) جبل الحرازة يقع شمال كردفان والمحس الذين بالجبل أهل بادية ومنهم مزارعون.

المحس والقرآن:

في بلاد المحس عموماً ما من قرية إلا وبها «مسيد» لتعليم القرآن ويستخدمون ساحة المسيد لكل أمورهم الحياتية كعقد القران والاحتفالات الدينية وفض النزاعات وإبرام الصلح إلى آخر ما يهم المجتمع الذي لا يعرف مكاناً عاماً يخرج إليه غير المسيد.

ولا يختلف المسيد كثيراً في بلاد المحس من المسايد الأخرى في نظام الدراسة كما أنهم يقرأون برواية «ورش» السائدة في الجزء الأدنى من الإقليم الشمالي وقد تحدثت عن القراءات في مكان آخر ذاكراً أن قراءة ـ ورش ـ انتشرت في دنقلا ومنها شمالاً حتى حدود مصر وظني أن المحس أخذوا من دنقلا فن القراءة إذ كانت الشهرة الأكبر لدراسة القرآن في دنقلا التي تقرأ قراءة «ورش» وربما كانت هنالك رواية أخرى كأبي عمر الدوري التي أقرأ بها الشيخ «عمر الأزرق المحذوب» في ديار المحس وليس بعيداً أنهم أخذوا شيئاً من رواية حفص من طريق مصر ولاسيما فقد دخل بعض المشايخ من مصر لبلاد النوبة من طريق حلفا.

المحس قبيلة من أهل السودان القدماء ويعتبرون من أهم العناصر المكونة للمجموعات النوبية النيلية وتمتد بلادهم على مجرى نهر النيل شرقاً وغرباً ولهم حدود إدارية مع المجموعات الأخرى القاطنة ذات المكان كالدناقلة والحلفاويين وحدهم من الجنوب دنقلا بلدة «أبو فاطمة» وشمالاً تنتهي حدودهم عند بلدة «واوا» وهي حدود إدارية فحسب أما من جهة الشرق والغرب فتفصلهم صحراء عظيمة غير آهلة.

هذا والصلة الأسرية والعرقية والثقافية الممتدة بين المحس والمجموعات الأخرى كالسكوت والصواردة، ومن أهم الروابط بين هذه المجموعات اللهجة المحلية مع اختلاف يسير بين هذه المجموعات.

المحس والخزرج:

والمحس بلا ريب من المجموعات النوبية كما ذكرت آنفاً وفوق هذا لهم نسبهم، ويصنفهم النسابة المؤرخون بأنهم من المجموعات العربية التي استقرت في أرض النوبة وينحدر المحس أصلاً من قبيلة الخزرج وبعض المحس يكتبون في آخر نسبهم فلان الأنصاري الخزرجي.

لذا شبوا وللمسيد في وجدانهم مكانة بكل ما يحمل من زخم واهتموا به اهتماماً كبيراً فهو بلا ريب أجمل بنايات القرية وأنظفها وأطهرها وقد عرف المحس كغيرهم من أبناء المنطقة فن المعمار منذ عهد أسلافهم النوبة «القدماء» تدلنا على ذلك الآثار المنتشرة والتي يردها علماء الآثار للعهود القديمة بالإضافة للبنايات المعروفة بـ«دُفّي» وفي ديار المحس أجمل وأروع البنايات في السودان كما اهتموا بزخرفة وطلاء البنيان من الداخل والخارج أياً كان نوعه وكل هذه الخبرة جسدوها في بناية المسيد، ويعتبر المسيد المحسي أنموذجاً للمسيد في عموم السودان وهو بلا شك بيت الله في القرية فهو أحق بالتجميل والاعتناء من كل بنيان آخر.

انتشر أبناء المحس كما أسلفت على مجرى النيل وخرجوا جماعات وفرادى في معظم مناطق السودان والشاهد أن أكثرهم خرجوا معلمين للقرآن فرحب بهم المجتمع الكبير بالحفاوة والتقدير وأفسح لهم مكاناً في كل رقعة هبطوا إليها أولاً باعتبارهم حملة كتاب الله.

ثانياً: عرف المجتمع كله فضل المحس فهم أصفى الناس وداً وأوفاهم ذمة فأكرم وفادتهم وأنزلهم المنزل اللائق وحيثما استقروا نفعوا وانتفعوا.

عكاشه:

سيدي عكاشة ويعتبر من أقدم المشايخ في المنطقة وهو حجازي الأصل «وحسب الروايات الشفهية كان من الصحابة ودخل البلاد عبر البحر الأحمر عن

طريق مصورع داعياً متنقلاً إلى أن وصل دنقلا مع بعض أصحابه وكانت مجموعة من أبناء المنطقة قد أثارتهم دعوة سيدي عكاشة فتربصوا به إلى أن وجدوه يستحم في النيل فرموه ومن معه بالنبال فماتوا وجرف التيار الجثث وطفت جثة سيدي عكاشة إلى أن استقرت في المكان الذي يعرف باسمه «قرية عكاشة» وليس له عقبٌ معروف.. وأقام الأهالي على شرف ذكراه خلوة القرآن والمسيد فبارك الله في المكان حيث استفاد منه كثير من طلبة القرآن.

سيدي المغيرة:

وتزعم الروايات أن سيدي المغيرة أتى بصحبة عكاشة في عهد التابعين وأثر مسيده في قرية «عمارة» وليس له عقب معروف.

الشيخ بندق:

هو الشيخ إدريس بن محمد شهرته في قرية «أبوصارى» قدم إليها من قرية «حميد» حيث أنشأ خلوة لتعليم القرآن «مسيد» ويقال أنه قدم من الأراضي الحجازية واستقر فيها وله عقب في المنطقة المشار إليها ويعرفون بلغة المحس باسم عائلة «كفن اس» ومعناها أحفاد كف.

الشيخ علي عبود:

ظهر فضل الشيخ في بلاد المحس السكوت حيث علم القرآن والعلم وسميت القرية باسمه «عبودية» وتسمية القرى بأسماء المشايخ من باب التكريم تقليد عرفه المجتمع السوداني منذ عهد بعيد وتقع عبودية جنوب ـ عبرى.. وزعموا أنه قدم من مكة المكرمة واسمه كما يقول الراوي ـ علي بن الشريف بن مكي بن مدني إلخ ويعرف أحفاده ببلاد المحس باسم «أولاد ابود».

فقير عيسى:

قدم الشيخ عيسى من بلاد الكنوز في صعيد مصر ومعه أخواه الشيخ زمراوي والشيخ منور واستقر الشيخ وبنى خلوة تدريس القرآن والمسجد وشرع يعلم الأهالي أصول الدين ولم تعرف قرية «موركه» بجزيرة «صاي» قبله معلماً وأما أخواه زمراوي ومنور فقد واصلا رحلتهما جنوباً حيث استقر زمراوي في قرية «كرمه» ومنور في بلدة «البرقيق» بدنقلا وكان لهما فضل العلم في المنطقتين.

وتضيف الرواية أن والد الفقير عيسى قدم إلى بلاد الكنوز من الحجاز وقد غرس الشيخ عيسى في أهل المنطقة حب العلم والفضيلة وما زال هذا الروح يسري في أهل المنطقة.

الشيخ الحاج منصور:

قدم الشيخ منصور من بلاد المناصير وتجول في بلاد النوبة وطاب له المقام في المحس «السكوت» قرية «بثه» وأنشا خلوة لتدريس القرآن الكريم في داره وبدأ يعلم الناس الفقه وأصول الدين وما زالت ذرية هذا الشيخ «بصارى» وتعرف بعائلة «منصوري» ولهم فضل وسبق في مجال تعليم القرآن.

الشيخ فلاتي:

عرف الشيخ فلاتي في هذه المنطقة منذ تسعة أجيال وهو أصلاً من منطقة «قامي» وترك بلده الصغير قامي من أجل التعلم فلما نهل منه، عاد لوطنه يعلم أهله ومواطني المنطقة القرآن والفقه، ووقع خلاف بينه وبين أهله بسبب مسألة فقهية إذ يرى كثير من الأهالي عدم إعطاء البنت نصيبها من الميراث ويرى الشيخ فلاتي أن تعطى البنت حقها فلما اتسع الخلاف بينهما هجر بلده «قامي» إلى «حميد» فأسس فيها مسيداً وصار يعلم الناس ويدعوهم للحق والخير إلى أن توفاه الله.

الشيخ عامر :

ولد الشيخ محمد عامر في جزيرة كُلُب ونشأ في كنف المعرفة الدينية حيث درس القرآن في خلوة كُلب أكبر خلاوي المحس وصار شيخاً ومعلماً بارزاً فلما كبر قدره فكر في بناء دُفٍّ في ـ تبج ـ فلم يوافقه الأهالي بحجة أنه «عربي» من أرض الحجر وأن الأهالي لا يثقون في نسبه فلما تبين له ذلك أرسل إلى أخيه في كُلُب يطلب شجرة نسبه وخرج مع حامل النسب جمع غفير من الناس زعموا أن أوله في قرية ـ ادباد ـ وآخره في خور عكاشه.

فأقر المجتمع بعد أن اطلع على النسب بشرف الرجل وعلو قدره وأنه بالفعل قدم من أرض الحجاز «مكة» وبعدها بنى ـ الدف ـ وعاش بقية حياته معلماً.

وغيرهم كثير ـ أمثال المشايخ:

١/ خليل أبو بكر.

٢/ ود قوديب.

٣/ سليم آت ـ محمد أبو سليم ـ ادي.

الصواردة:

صواردة من أشهر بلاد المحس وتقع في الشق الشمالي الذي يعرف بالسكوت. ولها شهرة كبيرة في وسط السودان ولاسيما في الحقب الماضيات من السنين، والمواطنون في أصقاع السودان يعرفون المحس إجمالاً ويميزون ــ الصواردة من بين المحس ويردونهم إلى صواردة «البلد»[1] وكانت صواردة منطقة عامرة بالخلاوي والمسايد ولأهلها معرفة بصناعة السواقي والمراكب كما يعرفون فن التجارة والذي يهمنا هنا المدرسة القرآنية «المسيد» الذي اشتهرت به صواردة في العهود الماضيات ولما استتب الأمن نسبياً بقيام دولة الفونج خرج جماعات

---

(١) صواردة البلد ـ أو إلى جدهم صارد.

من موطنهم صواردة واتجهوا جنوباً لداخل السودان وتركزوا في القرى «الحواضر» المشهورة في تلك الأيام، شندي ـ الحلفايا ـ الخرطوم ـ سنار وغيرها من الأماكن التي يقصدها أصحاب الرسالة التعليمية وفي الحواضر عصرئذ مجال لمن يبتغي أن يُعلم الناس أو يتعلم لأن بها كما نقول بلغة العصر الكثافة السكانية والعيش الميسور والأمن، ولم يكن انتشار الصواردة في هذه الأماكن وحدها فقد قصدوا أماكن أخرى من السودان وأقاموا بها وذراريهم وآثارهم شاهد على ذلك.
أما الأماكن الأربعة التي أشرت إليها فهي:

١/ دار الجعليين شندي.

٢/ الحلفاية.

٣/ الخرطوم.

٤/ سنار.

الصواردة في شندي:

دخل الصواردة دار الجعليين مطلع القرن الثاني عشر الهجري كما ذكر الأستاذ عبد الحي الحاج جابر رحمه الله وهو من أعمدة أسرة الحاج جابر. فحوى قوله أن جدهم محمود ولد عبد الرحيم والد الحاج جابر هاجر من صواردة مجاهداً. ينشر القرآن ومكث في منطقة شندي فترة ثم استقر في قرية «الجوير» غرب شندي وشمال المتمة حيث أنشأ المسيد الذي ظل يدرس ويؤدي رسالته حتى يومنا هذا ورغم أنهم صاروا جزءاً من المجموعة الجعلية إلا أن نسبتهم لصواردة معروفة وهم بها معتزون.

سردية:

وذكرت الروايات الشفهية أن جزيرة سردية «وهي من أشهر الجزر في منطقة شندي» عمرها الصواردة فى زمان ماض ومنهم أخذت اسمها «سردية» وأصله «صاردية» نسبة للصواردة وكانت مشهورة بالعلم والتجارة وتقصدها المراكب

الصاعدة والنازلة وزارها بعض الأجانب بحسبانها محطاً مهماً قبل شندي كما زارها كثير من علماء السودان ووجهائه ـ كالسيد الحسن الميرغني «الكبير» والسيد عبد الله بن فحل والد الإمام المهدي ومنها تزوج والدة الإمام المهدي السيدة «زينب بنت نصر» في الشقالوة «والشقالوة وسردية قريتان مكملتان بعضهما لبعض» كما زارها الإمام المهدي في تجواله لطلب العلم وغيرهم ـ كما أهدتنا «سردية» الشاعر المفوه أحمد أبو شريعة عليه الرحمة.

الخرطوم والصواردة:

يحسب الصواردة من أوائل العشاير التي استوطنت الخرطوم ولا نستطيع أن نجزم إن كان دخولهم الخرطوم مع أبناء عمومتهم المحس أم بعدهم ومن الشواهد الدالة على قدم وعراقة سكان أي منطقة «حول النيل» امتلاكهم للأراضي النيلية الجزر والشواطىء وأكثر الأراضي النيلية يعود امتلاكها لعهد السلطنة الزرقاء قبل أربعة قرون مما يدل على عراقة ملاكها. والصواردة من أكثر المجموعات امتلاكاً للأراضي النيلية في الخرطوم «العاصمة» وكانت رئاسة الخرطوم الإدارية «الأهلية» في بيت الصواردة آل المرضى ود الخضر.

الصواردة في الحلفايا

الحلفايا لا ريب كانت حاضرة البلاد ردحاً من الزمان وعرفت «بحلفاية الملوك» نسبة لملوك العبدلاب الذين أسسوا المملكة الإسلامية المعروفة بالسلطنة الزرقاء مع الفونج، ثم قسموا السلطنة جزأين الجنوبي عاصمته سنار والشمالي عاصمته قرّي[1] ونقل العبدلاب كرسي السلطنة بعد ذلك إلى الحلفاية ومن ثم أطلق عليها اسم حلفاية الملوك.

---

(١) قرّي تقع شمال الجيلي وتعرف بلغة السكة حديد بمحطة ـ جبل جاري ـ حوالي ١٠٠ كيلو من الخرطوم. وكانت عاصمة لمملكة العبدلاب.

وهم قوم منسوبون إلى جدهم صارد أو «صاردي» ويذكرون أن صادر هذا أخو جذام وعبد العزيز «محسي» وكلهم من أبناء ذبيان ويرجعون بنسبهم البعيد إلى جهينة وهم كبقية المحس ينتسبون إلى كعب الخزرجي الأنصاري وينتسبون في رواية أخرى إلى عقيل بن أبي طالب. فهم من هذه الناحية إخوان العقليين والعقاقلة والعقيلات «العقيلات بمصر».

والصواردة من أقدم العناصر حضوراً في الحلفاية وإليهم تنسب أكبر مقابرها المسماة «بترب» الصواردة. شمال المدينة[1]، وقد اشتهر الصواردة بالعلم والورع ومن شيوخهم الفقهاء الشيخ حميد الصاردي المولود بالكُبّر قرب المسلمية الذي أخذ عليه التوحيد والعربية الفقيه ضيف الله بن علي الفضلي وإليه ينتسب صواردة الحلفاية ومنهم الولي علي بن قنديل الصاردي جد الفقيه علي بن بري لأمه وأم الشيخ حسن ود حسونه صاردية من أمها ـ ولعل سكناهم كانت بحي أبي حميدة القديم ـ شمال الحلفاية أو قرب مقابرهم.

وقد تفرق الصواردة في مختلف جهات السودان وكانت صلاتهم بالجعليين قوية وبالذات «المسيكتاب» حتى ظن كثير من عامة الناس أن الصواردة من الجعليين. ورغم قدمهم في الحلفاية إلا أنهم فيما يبدو قد اضمحلوا بسبب الهجرة إلى «العيكورة»[2] والجزيرة عامة وغيرها. ولم يبق منهم إلا عدد قليل من الأسر يتصل معظمها بصلات القربى والنسب مع مجموعة «اليحياب» الذين ينتسب معظمهم إلى قبيلة الأحامدة «وبعضهم يزعم أنهم من «الحمدة» وهو بعيد ولكن كثير من أهل الحلفاية يتصل نسبهم من ناحية الأمهات مثلما هو الحال مع الحموعية الحميدانية بالحلفاية فإن كثيراً من أمهاتهم صارديات.

---

(١) حلفاية الملوك التاريخ والبشر ـ بروفسير عون الشريف قاسم صفحة ٤٦٠ ويرجع القارىء لشجرة نسب الصوارد في الكتاب المذكور صفحات ٢٧٠ ـ ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٢) بلدة بين مدني والحصاحيصا.

الصواردة في سنار:

سنار هي عاصمة أكبر دولة في تاريخ السودان حيث دام سلطان تلك الدولة ٣١٦ سنة ولما كانت سنار حاضرة البلاد ترامت سمعتها إلى كثير من الشعوب في الشرق العربي والعالم الأفريقي. ودخلها في تلك الحقبة جماعات من العلماء والرحالة والتجار من خارج القطر.

كما أمها كثير من أهل السودان من مدرسي القرآن وأهل العلم وأصحاب الحرف والتجارة. وكان على رأس المعلمين نفر من شمال السودان في مقدمتهم ـ الصواردة وعمل كثير منهم معلمين حيث فتحوا الخلاوي وأقاموا المسايد لتدريس القرآن وعمل بعضهم في القضاء وأكثرهم عملوا كُتّاباً للدولة، ونساخاً للمصاحف وهذا دليل على أنهم قدموا من منطقة عرف أهلها العلم.

ثم تفرقوا في نواحي سنار حتى جبال الفونج وفازغلي وبعضهم توغل حتى بني شنقول[١] واصوصا ولهم بقايا في تلك الجهات حتى الآن. وفي مكوار[٢] «سنار المدينة» رهط كبير من الصواردة وعلى أيام الانجليز كانوا لا يسمحون لمن يجلس على كرسي القضاء أو الإدارة إلا لرجل يزكيه المجتمع والمجتمع لا يضع في هذه المناصب إلا لمن تضرب أعراقه في تراب هذا البلد وقد وقع الاختيار لنظارة سنار ولرئاسة محكمتها لأحد أبناء الصنواردة وهو الشيخ عثمان علي.

الصواردة في سهم الأرحام

أخذت هذا عن رجلين عارفين أحدهما الفكي عبد الله بقرية «ملولحة» شرق

---

(١) بني شنقول ـ أصلها فلشنقول وقلبها اللسان العربي فصارت بني شنقول وهي المنطقة التي ضمت إلى أثيوبيا عند الفتح الانجليزي المصري.

(٢) مكوار هو الاسم الذي عرفت به مدينة سنار (المدينة) أما سنار صاحبة الاسم فهي سنار (التقاطع) اخترعته السكة الحديد.

الحاج عبد الله[1] ومن الصواردة جماعة بعمارة الحاج طه وقد زرتهم في العمارة وهي جنوب الحصاحيصا واتصلت بأبناء علي طه منهم إبراهيم ومحمود وعبد الرحمن «الوزير»[2] وغيرهم.

وقد ذكرتهم مع «المسيكتاب» وذكرت ذكرية «علي طه» بالعاصمة المثلثة. وذكر الكاتب أن جد الصواردة يسمى محمد صارد أو سارد ومن الصواردة آل الأزهري بتوتي والحوير ورفاعة ومنهم المشايخ الصديق وحسن الأزهري والأمين وغيرهم ويتصل بهؤلاء ذرية أبي الروس[3] بالعاصمة المثلثة.

ومنهم أولاد المرضي وأولاد القلّب حدثني بهذا الخليفة إبراهيم القلب ب ـ بري إلخ.

المحس في أنحاء السودان:

حسبما توصلت إليه أن قبيلة المحس من أكبر قبائل شمال السودان وخرج كثير منهم من أجل نشر المعرفة وما من منطقة أو قبيلة في أطراف النيل إلا وبها أثر من آثار المحس.

أما أكثرهم فقد نفذوا إلى قلب البلاد الخرطوم والنيل الأزرق والنيل الأبيض وغير ذلك من الأمكنة التي أشرت إليها من قبل وبعد حديثنا عن المحس في الشمال ننتقل إلى محس وسط السودان وتخيرت علماً من أعلامهم لا يختلف عليه علماً ومثابرة وجهاداً هو سيدي «أرباب العقائد».

يهتم أهل السودان اهتماماً كبيراً بالنسب ولاسيما ما يربطهم بالأصل العربي

---

(١) ملولحة ـ والحاج عبد الله قريتان الأولى شرق النيل والأخرى في الجزيرة.

(٢) الأستاذ عبد الرحمن علي طه معلم بارز، تولى وزارة المعارف ـ التربية والتعليم ـ قبل الاستقلال ومؤلف كتاب [السودان للسودانيين].

(٣) آل أبو الروس من قدامى سكان الخرطوم حي المقرن].

سهم الأرحام في السودان ـ تأليف عثمان حمد الله مكتبة القاهرة ـ علي يوسف.

الإسلامي وما من بيت كبير إلا وبه شجرة نسب. ولعل تعلقهم بالنسب يرجع لسببين.

الأول: ناحية إسلامية إذ الاتصال ببيوت الشرق الإسلامية يكسبهم وضعاً اجتماعياً ممتازاً ويكون لهم تقية من كثير من الشرور التي تأتي من القبائل المشهورة بالإغارة والسطو فقد درج المجتمع القديم في السودان ألا يغير على مال ولا عرض من لهم صلة بآل البيت وكان ذلك في غضون القرون الثلاثة الثامن والتاسع والعاشر «الهجري» وتعرف تلك الفترة بفترة «القيمان» مفردها قوم ـ وذلك قبيل قيام السلطنة الزرقاء ـ وعهد القيمان كان عهد غارات وثارات واتفقت الجماعات القبلية ألا تمس العشائر والقبائل ذات الأصل «الشريف» بأي أذى احتراماً لصلتها بآل البيت ولهذا السبب وغيره جعلوا «وسماً» خاصاً بالأشراف وعرف الوسم بين الناس قديماً وحتى وقتنا الحاضر باسم «العرج» صفته هكذا (≤) يوضع ميسماً على بهائم الأشراف فإذا أغار الصعاليك (الهمباتة) على حي أو مكان تحاموا الإبل التي تحمل هذا الوسم وإن أخذوها مساءاً وعرفوا في الصباح أن وسمها «العرج» ردوها إلى أهلها. وظل وسم الأشراف محل احترام جميع القبائل ولا يستطيع أحد تقليده فهو خاص بهذه الأسرة فقط ولا يقبل المجتمع ان يقلده كائن من كان من العشائر الأخرى.

السبب الثاني:

أما السبب الثاني فهو عربي بحت وما زالت بعض القبائل والشعوب في بلادنا فيها نبض جاهلي «المفاخرة بالنسب» ولذلك يحترز كتاب الأنساب في كل نسب يكتبونه أن يذكّروا طالب النسب بآي القرآن وبالقول المأثور ويكتبونه في صدر الصحيفة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له الوجود القديم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين - أما بعد فاعلموا أيها الإخوان أن حفظ الأنساب أهم شيء عند المتقدمين والإهمال فيه نقص وعيب للمجتهدين - ويذكرونه بقوله تعالى - ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وبعضهم يكتب قوله تعالى ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾.

وكلهم متفقون على إيراد القول المأثور عن سيدنا عمر رضي الله عنه «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم».

هذا والمحس الذين نزحوا من الشمال اهتموا كغيرهم بتوثيق النسب رغم أنهم لا يتلاحون به كما تفعل القبائل شبه البدوية في وسط البلاد، وأورد ههنا نسب أحد علماء المحس الذين اتفق المجتمع على احترامه وتوقيره بحسبانه شيخاً متجرداً وزاهداً فوق أنه أحد المشائخ الذين حرصوا على نشر القرآن وهومن المحس الذين استوطنوا قلب البلاد ذلكم هو الشيخ العالم أرباب العقائد[1] وقد ورد باسم «محسن» في بعض النسب الذي أورده - «ماك مايكل» في كتابه «العرب في السودان» وكذلك ورد اسم «محسن» في النسب الذي أورده الشيخ الفحل ابن الفكي الطاهر في كتابه «تاريخ وأصول العرب في السودان» ص١٠٣ ولعل

---

(١) أحمد بن علي بن عون بن عامر بن صبح بن فلاح بن شرف الدين ابن محمد المقلب «بمعجم» بن زايد بن محمد المعروف بـ«محس» ابن الملك سعد بن الملك جميل بن الملك حسن بن الملك أحمد بن الملك أمير بن عبد الكريم بن عبد الله - بن يعقوب بن جابر بن سعد بن موسى بن إدريس بن جميل بن سالم بن عبد الرحمن بن علي بن سلمان بن محمد بن زايد بن عمارة بن خارجه بن عبادة بن أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي «والقارىء» الشهير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مات عام ١٩ هجرية في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الراجح في ضبط هذا الاسم هو «محس» كما ذكر المؤلف عاليه لأن العربية لا تقر أن تكون النسبة إلى «محسن» «محسي» «ومحس» بتحريك المهملتين لقب غلب على محمد بن الملك سعد «ومَحَسَ» في لغة العرب تعني حمل في الحرب وأقدم. ومحس الأديم دبغه وألانه. والمحسي والمتحمس هو المقدام الشجاع. ولعل محمداً بن سعد كان مقداماً شجاعاً محساً ـ أو كان دابغاً للجلود وأستبعد هذا لأن الرجل كان من علية القوم ومن أسرة مالكة فلئن يكن مقداماً شجاعاً يحمل في الحرب من غير تهيب أحرى من أن يكون «دباغاً» وعليه فإن محمد «محس» تعني محمد «أقدم» في الحرب وحمل «وذلك مثل إبراهيم «جعل» فالنسبة إلى «جعل» جعلي والنسبة إلى محس «محسي» هذا وقد جعل الشيخ الفحل من «محسن» بن «مرزوق» والراجح من الروايات التي تحفظها الوثائق أنه ابن الملك سعد. والله أعلم أي ذلك كان.

١/ ومعروف عند المؤرخين وعلماء الاجتماع أن من تقاليد النوبة الذين كانوا يسكنون جنوب مصر وشمال السودان أن يورثوا المُلك لابن أختهم ويبدو أن عبد الكريم بن يعقوب قد تزوج بنت أحد ملوكهم فولدت له «اقبر» الذي صار «ملكاً» ثم تعاقبت ذريته على الملك حتى أفضى الأمر إلى الملك «سعد» الذي ولد له محمد المعروف بـ«محس».

٢/ تقول بعض الروايات التاريخية أن «عبادة» ابن أُبيْ بن كعب رضي الله عنهما دخل منطقة النوبة في حملة عبد الله بن سعد ابن أبي السرح في خلافة سيدنا عثمان بن عفان الخليفة الراشد الثالث. وقد ذكر سيدي الأستاذ الشيخ عبد المحمود أن خارجة بن عبادة هو الذي استقر في بلاد النوبة حينما دخل في صحبة قيس بن سعد الأنصاري الذي ولاه الإمام علي كرم الله وجهه على مصر. ومن مصر دخل خارجة إلى بلاد النوبة والله أعلم.

ومن هذا النسب نعلم أن الشيخ «أرباب العقائد» ينتمي إلى «المحس» كقبيلة

من قبائل السودان والتي هي فرع من عرب «الضباينة» التي سكنت منطقة النوبة بين الشلال الثاني والشلال الثالث من شمال السودان. وقد سمى هذا الفرع من عرب الضباينة بـ«المحس» لانتمائهم إلى «محمد محس» بن الملك «سعد» فهم على هذا عرب ينتمون إلى قبيلة الخزرج التي تنتمي إلى «قحطان» بن «يعرب».

وقد زعم بعض مؤرخي الفرنجة[1] أن المحس لا صلة لهم بالعرب فهم خليط من النوبة سكان تلك المنطقة والزنوج. وهو زعم باطل ولكن ما ينبغي تقريره أن فرعاً من الخزرج دخل شمال السودان مع حملة «عبد الله بن أبي السرح» في عهد سيدنا «عثمان بن عفان» واستوطن المنطقة واختلط بسكانها الأصليين وهم نوبيون من أصل حامي وتزوجوا بهم. وكعادة النوبة في توريث الملك لابن الأخت حتى أفضى الأمر إلى «سعد» والد «محمد سعد» الجد الأعلى لقبيلة المحس المستعربة.

هذا وقد نزح بعض هؤلاء المحس في بداية القرن الثامن الهجري من شمال السودان إلى مناطق مختلفة في السودان وتفرعوا إلى شُعبٍ وبيوت.

وقد انتشر الجردقاب في كل من كردفان وجبل الجزازة وصحراء الكبابيش وجبرة وسنار وتوتي والعيلفون. ومن فرع الجردقاب نجد «البركاب» نسبة للشيخ «بركات» والداخلاب ويتركزون في بري وتوتي والعيلفون وقرية النوبة على النيل الأزرق.

الصبحاب:

وهم رهط الشيخ «أرباب العقائد» ونسبتهم إلى صبح «العوناب» ونسبتهم إلى عون بن عامر بن صبح، ويسكنون الآن في بري المحس وتوتي والحلفاية والبشاقرة وما حولها.

---

(١) المستر «هل» في كتابه «العرب في السودان» والمستر «بوركهارت» كما نقل عنه ماكمايكل» في كتابه «تاريخ العرب في السودان».

المحمداب «الامحداب» والكبانية

وهم رهط الشيخ «خوجلي أبي الجاز» وقد غلب مؤخراً اسم «الخوجلاب» وقد استوطن «الخوجلاب» وهم فرع غالب من «الامحداب» جزيرة توتي وحي القبة من مدينة بحري. ومنطقة الخوجلاب في شمال الخرطوم بحري وفيهم بيوت في حلفاية الملوك وشمبات.

وهنا عدد من فروع المحس مثل المكيناب والمشرقاب والمنيناب والحاجاب والفلاتاب. وقد انتشروا على شواطيء النيل الأزرق وتعددت ذراريهم ولا أقصد بهذا السير وراء الإحصاء والتدقيق في الأنساب وإنما أردت أن أشير إلى أصول الشيخ «أرباب العقائد». وللأصول والنسب احترام كبير في بلادنا فالمعلم صاحب الأصل والنسب ينصاع إليه المجتمع ويظنون به خيراً.

الشيخ أرباب العقائد

ميلاده:

ولد الشيخ «أرباب العقائد» في جزيرة توتي عام ١٠١٧هـ وما يوافق عام ١٦٢٠ وذلك في عهد الشيخ «محمد العقيل» بن الشيخ «عجيب» المانجلك بن الشيخ «عبد الله جماع» وقد كانت مشيخة «محمد عقيل» على «قرى» من عام ١٠١٥ إلى ١٠٤٥ هجرية ما يوافق ١٦٠٨م إلى ١٦٣٨ وقد ولد الشيخ «أرباب العقائد» بعد عامين من تولي الشيخ «محمد العقيل» مشيخة «قرى» وذلك عام ١٠١٧هـ ما يوافق ١٦٢٠ وسلطان الفونج يومئذ هو السلطان «رباط» بن السلطان «بادي» المعروف بـ«سيد القوم» وكان عمر الشيخ «إدريس» يوم مولد الشيخ «أرباب العقائد» ١٠٦ عاماً. وقد توفي سيدي «الشيخ إدريس الأرباب» عام ١٠٥٩هـ وعمر الشيخ «أرباب العقائد» اثنان وأربعون عاماً «٤٢ عاماً» فيكون الشيخ «أرباب العقائد» معاصراً للشيخ «إدريس ود الأرباب» على تقدم في سن الشيخ «إدريس ود الأرباب».

حفظه القرآن ودراسته الفقه وعلم العقائد:

حفظ القرآن على والده وهو في العاشرة من عمره ثم تخرج في علم الفقه بعد دراسة المختصر والرسالة وشرح الزرقاني على الموطأ على يد العلامة الشهير الشيخ «الزين» بن العلامة الشيخ «محمد صغيرون».

والمراجع التي كتبت عن تاريخ السودان في القرن الحادي عشر الهجري على ندرتها قل أن تخلو من بعض الإشارة إلى الشيخ «أرباب العقائد» وقد ترجم له الشيخ العلامة «محمد النور ضيف الله» في بضعة أسطر ولكنها حافلة بالذكر الجميل.

وقد استمر الشيخ «أرباب العقائد» في جزيرة توتي يبث العلم وينشر العقيدة الإسلامية ويلقن كتاب الله عز وجل. ثم انتقل إلى الضفة الجنوبية من النيل الأزرق حيث مبنى مديرية الخرطوم اليوم وهناك أسس «خلوة القرآن» وبنى داراً للطلاب امتدت حتى المكان الذي يقوم عليه جامع فاروق اليوم وهناك رواية لا أذكر مصدرها تقول:ـ

أن مسجد فاروق يقوم على مسجد أرباب العقائد ولذا كثيراً ما يطلق عليه اسم الجامع العتيق. الأمر الذي يستحق التدقق للوصول إلى الحقيقة. ولا عجب فقد سبق القول أن طلابه كانون من الكثرة بحيث يقدرون بألف طالب في الحلقة.

وتزوج الشيخ «أرباب العقائد» عام ١٠٤٤هـ امرأة من «البشاقرة» وأخذ الشيخ «أرباب العقائد» يواصل الدرس وتعليم الطلاب حتى عام ١٠٨٥هـ وفي هذا التاريخ عزم الشيخ على الانقطاع إلى الله والخلوة وقد بلغ من عمره ثمانية وستين عاماً فانتقل إلى منطقة تقع جنوب غربي وعلى مسافة لا تزيد على الميلين شرقي النيل الأبيض ـ جنوب اقتران النيل الأبيض بالنيل الأزرق. والمنطقة يقال لها «الكرتوب» وسميت بذلك لأنها كانت «قمامة» أهل المنطقة يرمون فيها ما ينفق من دوابهم فوصفت بذلك.

١/ هنالك بعض الدراسات الحديثة تحاول أن تجعل «الكرتوب» أصلاً «للخرطوم» مدخلين عامل التحوير في تطوير الألفاظ غير أنها محاولات فيها الكثير من الاعتساف «والتكلف» الخرطوم اسم حديث يرجح أنه أطلق على منطقة «المقرن شرق» عام ١٢٥١هـ مستمد من شكل خريطة المنطقة التي تشبه «خرطوم الفيل» وقد اتخذ خرطوم الفيل رمزاً لمحافظة مديرية الخرطوم.

ومكث الشيخ «أرباب العقائد» في منطقة الكرتوب «خمس سنوات» قضاها متقشفاً صائماً قائماً. ولكن الشيخ «أرباب العقائد» بشهرته وبعد صيته لم يكن ليخلو خلوة تقطعه من الناس بحيث لا يلتقي بهم بل أن عدداً من طلاب العلم قد علموا مكانه وبعد معرفتهم مكانه وفدوا عليه يبتغون منه العلم والمعرفة رغم خلوته ـ على أن عزلة الشيخ «أرباب العقائد» وانقطاعه عن الناس لم يدم طويلاً. فبما مضت عليه خمس سنوات حتى طلب منه السلطان «أونسه الثاني بن ناصر» أن يفد إلى البلاط السلطاني في سنار عاصمة سلطنة الفونج فكان هذا الطلب إيذاناً بأن يقطع الشيخ عزلته ويذهب إلى سنار. وقيل أن سبب دعوة السلطان «أونسه» للشيخ «أرباب العقائد» للأسباب الآتية:

الأول:

أن الشيخ «أرباب العقائد» اشتهر بالعلم وقوة عارضته في العقيدة فأراد السلطان أن يستفيد من هذه الطاقة العلمية الجبارة وهذا المعين الثر تزييناً لمجلسه وإرواء للمتعطشين للعلم، باستقدام جهابذة العلماء مثل الشيخ «أرباب العقائد».

الثاني:

كان أول سني حكم السلطان «أونسه الثاني» عام قحط وجدب أصاب فيه الناس ما أصابهم من جراء هذه المجاعة. فأكلوا كل ما يمكن أكله واضطر الكثير منهم إلى أكل «لحم الكلاب» فعرفت هذه السنة وهي ١٠٩٠هـ بسنة «أم لحم»

وكانت المجاعة عامة حيث اضطر الشيخ «أرباب العقائد» للنزوح إلى سنار رجاء للحياة الكريمة. وقد نزح كثير من العلماء غيره. وكلا السببين وارد في الحسبان.

وما يهمنا أن الشيخ «أرباب العقائد» ذهب إلى سنار عام ١٠٩٠هـ ومكث في منطقة سنار اثني عشر عاماً. وقد تلقى عليه العلم في هذه المدة العديد من الرجال ولم يزل مجاهداً لنشر كلمة التقوى وبث العلم حتى توفي عام ١١٠٢ هجرية في عهد السلطان «بادي الأحمر بن أونسه» ودفن حيث مات في سنار التي كانت عاصمة دولة الفونج. هذا وقد كان عمر الشيخ «أرباب العقائد» حين توفي خمسة وثمانين عاماً.

وقد وهب الله للعلامة الشيخ «أرباب العقائد» قلباً منيراً وتجردًا وانقطاعًا للعلم مما أهله للتفوق في العلوم الإسلامية بعامة وعلم العقيدة الإسلامية بخاصة. ولعل في شهرته بأنه «أرباب العقائد» ما يدل دلالة واضحة على ما بلغه الشيخ من شأو في هذا العلم ومن التزام بمقتضيات هذه العقيدة ولوازمها حتى صار بذلك دلالة متحركة وآية بارزة ومعلماً شاخصاً للعقيدة الإسلامية.

وقد عرف الشيخ «أرباب العقائد» بلقب آخر لا يقل روعة وعمقاً وإثارة عن سابقه. ذلك هو شهرته بـ«أرباب الخشن» وقد عللت خشونة أطرافه بكثرة الوضوء وإسباغه في مكاره الأحوال من غير ترفه من الشيخ بما يكسب بشرته ليناً أو نعومة.

ولقد كان لشهرة الشيخ «أرباب العقائد» بالعلم أثرها الكبير في استقطاب التلاميذ حوله حيث وجدوا فيه العالم الذي يتدفق علماً. وقد اتخذ من منطقة الشاطيء الجنوبي للنيل الأزرق مما يقابل توتي مركزاً دراسياً فوفد عليه الطلاب من دار الفونج «منطقة سنار وما حولها» ودار برنو وشاد وافريقيا الوسطى «السودان الغربي قديماً» وقد كانت حلقته تضم «ألف» طالب كما ذكر الشيخ «محمد بن ضيف الله في الطبقات» ومن أشهر تلاميذه الذين صاروا شيوخاً

للإسلام من بعد ولهم أثر كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية في السودان:

الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن «أبو الحاز»

الشيخ فرح ود تكتوك

الشيخ محمد بن ضيف الله

الشيخ محمد بن حتيك

الشيخ حمد ود ام مريوم

الشيخ القرشي الصلحابي

الشيخ هارون بن حصي

وكلهم عاشوا في عهد أول حكومة إسلامية في السودان. هي دولة الفونج ولا تزال آثارهم ومعالمهم التي أقاموها على طريق الحق تهدي السالكين وتنير طريق السائرين إلى يوم الدين إن شاء الله.

حمد ود أم مريوم

محمد بن علي المشيخي المشهور عند الناس بود أم مريوم، أمه محسية مشرفية من بنات ود قدال وأبوها ود كشيب، وهو مسلمي الأصل ولد بجزيرة توتي سنة ١٠٥٥ هجرية، حفظ الكتاب عى الفقيه أرباب الخشن «أرباب العقائد» وقرأ عليه التوحيد وابن عطاء الله، وأتم ختمين لخليل عند الفقيه حمد أرباب.

كان الشيخ حمد آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم، كان عنيفاً على الحكام وكان يقول «أول أمري أقوال وثاني أمري أفعال وثالث أمري مقاصد، فأما الأقوال فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن ذلك أن يأمر من تاب على يديه ألا يزوج ابنته أو موليته لفاسق كالحالف بالطلاق والغاصب وآكل الربا ومن ذلك أنه قطع مخالطة الرجال مع النساء وأمر بغض النظر وأمر

بقطع كلام النساء من حيث يسمع الرجال كلامهن خيفة الفتنة، وأنه أمر بترك «بكارة النساء» وقال ذلك هو السنة، ومن ذلك أنه يقول لمن جاءه لحفظ القرآن لا يجوز لك أن تقرأ وأنت جاهل بفرائض العين، فرض الله عليك أحكام الوضوء والصلاة ومعرفة الله وأما القرآن فنافلة إلا أم القرآن خاصة في الصلاة فإنها فرض، ومن ذلك أنه يأمر الإنسان بمواصلة أرحامه ويأمره ألا يتكلف للأضياف بل يعطيهم «ما فضل» من نفقة عياله ومن ذلك أنه يشترط على «الواقع عليه» من السلطنة وغيرها أن يصلوا الأوقات الخمسة معه هم ونساؤهم وأتباعهم ومن لم يفعل ذلك يطرده، تبعه على ذلك جماعة من المحس منهم الفكي محمد ولد صباحي، وولداه وأخوه وأولاد عيسى رحمه والفكي عباس والفكي شكر الله ولد منوفلي والفقيه محمد ولد زمر وابنه وجماعة كثيرة من بني جرار، كان يأمر فيمتثل لأمره ويقول فلا يسأل عن دليل ويأتي بالجواب فلا يجسر أحد على مراجعته، وأتباعه في ذلك من النساء أضعاف الرجال وأكثرهن من عرب فزارة.

وقول الشيخ وثاني أمري أفعال منها، لبسه للجبة والمرقعات ونسج «عناقريه بالليس»[1] وجعل «الخريم»[2] طعاماً له يتقوت به، وقال لأجل علل ثلاث، هضم للنفس، وقلة الحلال في زماننا واتباع السلف الصالح، ومنها أن السلطة وضعت على زراعته نصف الخراج فأخرج لها نصف الخراج ومن القَنْقَرْ والقُرُون، وحمل محصل الضرائب ذلك وقدمه للشيخ عجيب ود العجيل، فقال له دا شنو، قال جابو فقير يقال له «ولد أم مريوم» فقال الشيخ عجيب الدار تصدقنا بها عليه، ومن أفعال الشيخ ولد أم مريوم أنه بنى له حائطاً بين زراعته وزرع جاره حتى لا يقع ثمر زرع جاره في أرضه. ومنها أنه كان كثير الرحيل بين الديار إذا نزل داراً وكثر فيها الناس يرحل عنها، ومنها أنه كان إذا أراد بناء البيوت يأمر بقطع المروق والشعب

---

(١) شجر متسلق معروف.

(٢) الخريم ثمر شجر الحراز.

والرصاص ويصر على مساواتها في الطول والعرض وإذا ما وجد في واحد منها اختلافاً أمر بقطع غيره خوف التأثير على النساء وبيوت نسائه يساوي بينها في الأرض وفي الوضع كهيئة بيوت أمهات المؤمنين.

ومن أفعاله إقامة الحدود الشرعية في أهل بيته وغيرهم وأن ابنه الشفيع تزوج على «فوق» زوجته القديمة وآثر الحديدة عليها بيومين أو ثلاث «فشعبه وأرمده» وغز عوداً في الشمس ربطه فيه أياماً وقال عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وفعل قبل ذلك بآخرين، ومن أفعاله أن بني حرار يأتونه كل سنة بزكاة مواشيهم نقداً فيشتري بها الرقيق ويعتقه.

توفي الشيخ حمد سنة ( ) ودفن بأبي نحيلة المقبرة المشهورة جنوب حلة خوجلي رضي الله عنه.

ورثته إحدى تلميذاته من قبيلة فزارة بالشعر الدارج قالت:

أبونا أبو دِلقاً مرقع
العنده الرأي والصح المفقع
أبونا المنع المناكر والكباير
أبونا الخلى الفزاريات فقاير

هذا وقد اهتم الشيخ حمد بتعليم النساء اهتماماً كبيراً وجعل لهن خلوات ومساكن على شط النيل الأزرق من «حنينة الخواجة» إلى مكان كبري النيل الأزرق الحالي وإدارة الوابورات النهرية ويعتبر الشيخ حمد نموذجاً لمن خرجهم المسيد.

الباب الثالث

البديرية

رغم أن الشياخة القرآنية بدأت بالركابية فإن البديرية لا يقلون عنهم من حيث الأداء والانتشار والجهاد.

وعلى رأس البديرية العالم الفذ سيدنا محمد عيسى سوار الذهب وأولاده العشرة وقد ترجم له ود ضيف الله قال ـ محمد بن عيسى بن صالح الجعلي البديري المشهور بسوار الذهب وأمه اسمها «حقيقة» قرأ «خليل» على أبيه الشيخ عيسى فأخذ عنه ختمة تامة، والثانية إلى الجنائز[1] وبعد وفاة أبيه درس وقرأ علم العقائد والمنطق وعلم القرآن على المصري، ثم انتشر علم الشيخ محمد عيسى سوار الذهب في جزيرة الفونج وممن أخذ عليه علم التوحيد الفقيه حسن أبو شعر شيخ أولاد بري[2] وأخذ عليه علم القرآن وأحكامه الشيخ عيسى ولد كنو وعبد الله الأغبش والد الغبش ونصر الترجمي والد الفقيه أبو سنينة شيخ أربجي[3] والفقيه عبد الرحمن أبو ملاح وأبو ملاح والد الشيخ خوجلي «أبو الجاز».

ومن زملائه وأصحابه نذكر الشيخ عووضة شكال القارح والشيخ عبد الله راجل قَرِّي والشيخ عبد الرحيم والشيخ محمد ولد العباسي راجل وهيب وأنقاوي والشيخ حمد ولد أبو حليمة الركابي وهؤلاء وغيرهم أخذوا عنه العلم إلخ..

---

(١) باب الجنائز في الفقه المالكي عن طريق خليل.

(٢) أبناء بري - إبراهيم وعلي من العلماء الأبكار.

(٣) أربجي مدينة رائدة في العلم والمعرفة والعمران ومن معانيها عند النوبة والدناقلة ـ المكان خارج المدينة بمعنى سكن البدو.

وديار البديرية تمتد من دنقلا العجوز شمالاً إلى الدبة جنوباً. وحجر الحد بين البديرية والشايقية في قرية «الباسا» جنوب الدبة أما عاصمة البديرية فهي «العفّاض» وما من قرية في هذه الرقعة إلا وبها مسيد وخلوة قرآن. قوشابي ـ تنقسي ـ البار ـ جلاس ـ الغُريبة ـ أم درق ـ مورة ـ كورتي ـ البرصة ـ وهي موطن آل الشيخ العجيمي وهم علماء سنة وأهل جهاد.

ثم انتشر البديرية في منطقة الشايقية ودنقلا وديار الجعليين ووسط السودان والجزيرة وكردفان ودارفور والنيل الأزرق ـ وأماكن أخرى كثيرة.

وللبديرية فضل كبير على الأماكن التي درّسوا فيها، وكان حكام الفونج والعبدلاب يسعون لهم ويتوددون لهم ليرحلوا إلى مناطقهم حباً في علمهم، كما أن وجودهم في أي منطقة يكون صمام أمان للحكام فالمنطقة التي يقيم فيها كبار مشايخ البديرية تكون مهابة ومحمية من كثير من الشرور والغارات التي تشنها القبائل بعضها على بعض ورغم أن فضل البديرية لا يحصى فإني أورد مثالاً لمسيد رائد.

مسيد الغُريبة ـ ٨٨٨هـ

الغريبة قرية ذات وزن ثقافي وتاريخي وأسري. الفضل راجع في هذا إلى القرآن وإن كان لكل قرية أو مدينة سمة اشتهرت بها فإن قرية الغريبة شهرتها بالقرآن وقد دوى فيها صوت القرآن الكريم في سنة ثمانية وثمانين وثمانمائة هجرية.

ففي تلك السنة قدم «على الحاج بلال» البديري الدهمشي وتذكر إحدى الوثائق أن الشيخ علي الحاج بلال قدم مع آبائه من جهة الغرب ونزلوا سنار وكان في معيتهم بعض الحفظة والفقهاء لإرشاد الناس هنالك. ثم وقع خلاف بينهم وبين سلطان سنار فبارحوا سنار متجهين شمالاً إلى أن حط ركبهم في هذه المنطقة «الغُرَيِّبَة»[1] ثم بدأ الشيخ علي الحاج بلال إشعال نار القرآن الكريم ثم عم ذكر

(١) الغُريبة قرية مشهودة بالقرب من كورتي.

الرحل وعلو همته كل أنحاء الإقليم فقصده الطلبة والحيران من كل الجهات وصار اسم الحاج بلال واسم الغرية على كل لسان.

ثم تلى علي الحاج بلال أولاده وأحفاده واستمرت الدراسة حتى يومنا هذا.

والأسرة لا ريب أنجبت الحفظة والفقهاء الذين حافظوا على نهج آبائهم، وآل الحاج بلال من الأسر القليلة التي اهتمت بالكتابة والتدوين وهذا ثبت بأسماء المشايخ الذين تعاقبوا على «حمل السوط»[1] الدراسة وهي مرصودة في ثبت خاص نقرأه على النحو التالي:

	الاسم	من - إلى	المدة بالسنة
١	الشيخ علي الحاج بلال	٨٨٨ - ٩٤٨	٦٠ سنة
٢	الشيخ عز الدين علي بلال	٩٤٨ - ١٠٠٣	٥٥ سنة
٣	الشيخ علي عز الدين	١٠٠٣ - ١٠٦٣	٦٠ سنة
٤	الشيخ حامد الشيخ علي	١٠٦٣ - ١١١٨	٥٥ سنة
٥	الشيخ محمد حامد	١١١٨ - ١١٧٣	٥٥ سنة
٦	الشيخ معروف محمد حامد	١١٧٣ - ١١٨٨	١٥ سنة
٧	الشيخ حامد الفكي محمود	١١٨٨ - ١٢٢٨	٤٠ سنة
٨	الشيخ محمود الفكي حامد	١٢٢٨ - ١٢٧٣	٤٥ سنة
٩	الشيخ نور الدين محمد	١٢٧٣ - ١٢٧٤	١ سنة
١٠	الشيخ أبو زيد محمود	١٢٧٤ - ١٣٢٩	٥٥ سنة
١١	الشيخ محمد صديق المفتي	١٣٢٩ - ١٣٥٩	٣٠ سنة
١٢	الشيخ سر الختم محمد أحمد	١٣٥٩ - ١٣٨٣	٢٤ سنة
١٣	الشيخ القاضي نور الدين	١٣٨٣ - ١٣٨٩	٥ سنة
١٤	الشيخ أحمد عبد الرحمن محمد خير	١٣٨٩ - ١٤٠٨	

(١) حمل السوط كناية عن القيام بالتدريس..

والشيخ الفقيه عبد الرحمن محمد خير المشهور «بالصيادي» هو الشيخ الحالي[1] الذي يشرف على هذه المدرسة القرآنية «خلوة الغريبة» وقد أمضى تسع عشرة سنة في التدريس نرجو له العافية وسداد الخطى.

وهو الشيخ الذي نقلنا عنه هذه القائمة من المخطوطة الأصلية، هذا ولما كانت الغريبة شعارها القرآن منذ ذلك التاريخ البعيد فقد رسخ في قلوبهم حب القرآن يدْرسُونه ويُدَرّسونه وتخرج منها الكثير وكانت تتلقفهم الخلاوي الأخرى لأنهم خريجو خلوة الغريبة ذات السمعة الكبيرة وقد انتشروا في أماكن كثيرة من البلاد ونذكر في هذه القائمة بعضاً من ذلك النفر الذي دَرّس في أماكن أخرى.

عدد	اسم المعلم	الخلوة	المكان
١	الشيخ أبو كسبة	درّس في خلوة الدويحية	الدويم
٢	الشيخ معروف	درّس بعده في خلوة الدويحية المدة عشرين سنة	الدويم
٣	الشيخ محمد الفكي حامد	درس في خلوة الدويحية ٢٠ سنة كما درس في خلوة العامراب	الدويم
٤	الشيخ الفكي نور الدين	درس في خلوة أبورنات	
٥	الشيخ محمد صديق	درس جزيرة التلبناب	
٦	الشيخ أحمد معروف	درس في خلوة	كورتي
٧	الشيخ عثمان محمد نور الدين	درس في خلوة	كورتي
٨	الشيخ الفكي المفتي	درس في خلوة	كورتي القويز
٩	الشيخ عبد الواحد أحمد	درس في خلوة	كورتي

(١) رواية شيخ المسيد الحالي. الشيخ عبد الرحمن الصيادي.

١٠	الشيخ محمد الفكي المفتي	درس في خلوة	كورتي القويز
١١	الشيخ عبد الواحد أحمد	درس في خلوة	كورتي الفريق
١٢	الشيخ أبو زيد محمد	درس في خلوة	حلاس أم دروق
١٣	الشيخ عثمان عبد الله	درس في خلوة	الأراك
١٤	الشيخ محمد الأمين	درس في خلوة	الأراك
١٥	الشيخ عثمان الصافي	درس في خلوة	حزيمة
١٦	الشيخ محمد الأمين	درس في خلوة	الزومة
١٧	الشيخ عبد الله أحمد حفصة	درس في خلوة	الزومة
١٨	الشيخ سيد أحمد التهامي	درس في خلوة	
١٩	الشيخ علي محمد سعيد	درس في خلوة	مروى شرق
٢٠	الشيخ الحسن محمد نور الدين	درس في خلوة	بربر مديرية النيل
٢١	الشيخ الفكي حامد	درس في خلوة قوز البسابير	ريفي شندي
٢٢	الشيخ الحاج أحمد بن الحاج قرني	درس في خلوة أوسلي	مركز مروي
٢٣	الشيخ سر الختم الصافي	درس في خلوة كسلا	البحر الأحمر
٢٤	الشيخ أحمد الفكي المفتي	درس في خلوة ودسلفاب	الجزيرة
٢٥	الشيخ سليمان ود حامد	درس في خلوة	الدويم

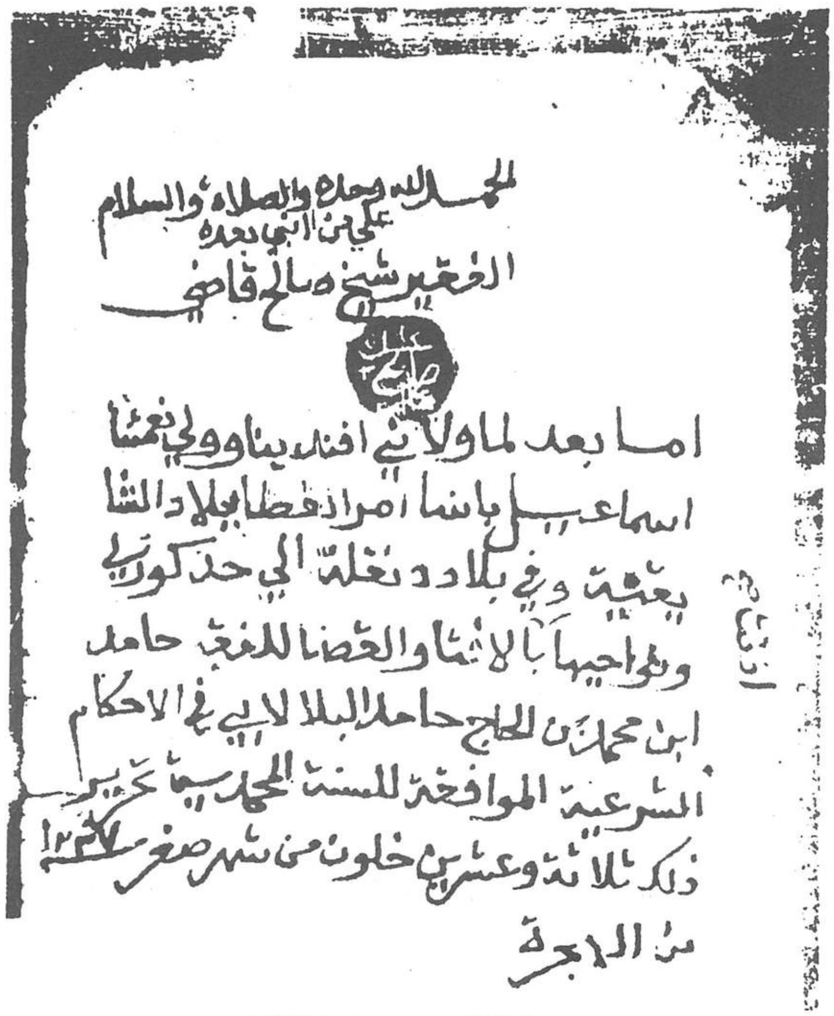
هذا وعددهم عموماً كبير وقد درَّسوا في كل أنحاء السودان وكلهم من حفظة خلوة الغربية القديمة وأحفاد الشيخ علي الحاج بلال.

هذا وقد وجدنا في الكتب القديمة مختصر الإمام خليل في الفقه على مذهب مالك كاتبه محمد بن سراج الدين بن الشيخ علي الحاج بلال.

وقد ذكر في ختامه أنه أكمل كتابته في يوم الثلاثاء خامس شهر شوال سنة ٩٧٢هـ.

وقد قال في لفظه أنه قد كتبه وقفاً لإخوانه وأبنائه أبناء الشيخ علي الحاج بلال على لفظه وأيضاً وجدنا ثلاثة كتب مع هذا الكتاب لم نحصل على تاريخها لطـول الزمن وهي الآن موجودة عندنا بالمسجد ومعها مخطوطات كثيرة.

وجرى العرف والتقليد أن يتوزع أبنـاء القريـة طلبـة القرآن ويتولـون طعـامهم وشرابهم وكل متطلباتهم وهذه قائمة بأسماء الطلبة وأسماء أصحـاب البيـوت التي تقوم بإطعامهم وهي من باب التمثيل لا الحصر.



الحمد لله وحده والصلاة والسلام
على من لا نبي بعده
الفقير شيخ صالح قاضي

اما بعد لما ولاني افندينا وولي نعمتنا
اسماعيل باشا امراء قطار بلاد الشا
يقية وفي بلاد دنقلة الي حد كورتي
ونواحيها بالايتما والقضا للفقير حامد
ابن محمد بن الحاج حامد البلالابي في الاحكام
الشرعية الموافقة للسنة المحمدية تحرير
ذلك ثلاثة وعشرين خلون من شهر صفر سنة ١٢٣٧
من الهجرة

تحررت الوثيقة بتاريخ صفر ١٢٣٧ هـ

العدد	أسماء الطلبة	المكان		المتكفل
١	الحاج هارون محمد	نيالا	دارفور	أحمد عبد الرحمن محمد خير.
٢	سليمان هارون محمد	–	–	عبد الرحيم القاضي
٣	سليمان عمر	–	–	أحمد خالد أحمد
٤	عيسى عبد الله آدم	–	–	خليفة سر الختم
٥	إسحاق عبد الله آدم	–	–	محمد محمد سعيد
٦	صالح إسماعيل دام	–	–	عثمان عبد الرحيم
٧	موسى عبد الله إبراهيم	–	–	عبد الله أحمد عبد الله
٨	موسى زكريا	–	–	محمد الحسن أحمد
٩	إبراهيم النور	–	–	مالك محي الدين
١٠	دام عثمان	–	–	محمد الياس
١١	يوسف أحمد	–	–	أحمد سليمان
١٢	علي محمد	–	–	علي احمودي
١٣	علي محمد	–	–	عبد الرازق الحسين
١٤	عثمان إبراهيم	–	–	الحسن الحسين
١٥	علي أحمد عبد الرحمن	–	–	محمود أحمد محمد خير
١٦	بشير يوسف	–	–	محمد خير عبد العاطي
١٧	إدام إبراهيم	–	–	أحمد محمد عثمان
١٨	التوأم جابر	–	–	محمد محمد عثمان
١٩	السيد عامر عبد الله	–	–	الياس محجوب
٢٠	أحمد محمد حامد	–	–	نور الدين شمس العلا
٢١	خالد عبد الله محمد	–	–	إبراهيم محمد عثمان
٢٢	سعيد ابكر سعيد	–	–	حسن الفكي
٢٣	آدم ابكر سعيد	–	–	محمد وداعة الله حسين
٢٤	نور الدين عامر عبد الله	–	–	محمد وداعة الله حسين

٢٥	حامد حمدان	-	-	الحساني علي حسين
٢٦	مضوي عبد الله	-	-	عبد الرحمن الخليفة
٢٧	محمد آدم الحاج	الزريبة	كردفان	حامد معروف
٢٨	مسلم محمد أحمد	-	-	حامد عبد الرحيم
٢٩	محمد الصافي جودة	-	-	عبد الوهاب علي فضل
٣٠	الأمين ناصر	النهود	-	عمر هاشم
٣١	محمد أحمد	-	-	عثمان حسن
٣٢	آدم قوني يعقوب	سنار	الأوسط	محمد حسن
٣٣	نصر الدين محمد أحمد	شندي	النيل	أحمد عز الدين
٣٤	عثمان خميس فهري	الكرمك	الأوسط	عبد السلام عز الدين
٣٥	عابدين يوسف سليمان	-	-	خليفة محمد سعيد
٣٦	محمد الخير علي	بوحات	الشمالي	محمد سر الختم
٣٧	حماد الخير علي	بوحات	الشمالي	سليمان احمودي
٣٨	بكري عبد الله	-	-	محمد أحمد نور الدين
٣٩	حسن جبريل	-	-	حامد حمري
٤٠	كرار عثمان مختار	-	-	محمد الحسن عبد الله
٤١	محمد محمد أحمد	القرير	الشمالي	عبد الحليم عطية الله
٤٢	علي محمد أحمد	-	-	الفكي محمد الفكي
٤٣	آدم حمد محمد	-	-	محمود فضل الله
٤٤	حسن علي شبت	الدبة	-	عباس الفضل
٤٥	بشير يوسف آدم	القرشي	الأوسط	حماد النذير
٤٦	محمد سر الختم معروف	الغريبة	الشمالي	إبراهيم محمد حامد
٤٧	يوسف محمد يوسف	النهود	كردفان	جاد كريم فضل المولى
٤٨	قريب الله محمد	النهود	كردفان	حمزة سعيد
٤٩	حسين آدم حسين	النهود	كردفان	الضو فضل المولى

٥٠	علي أحمد عبيد	النهود	كردفان	صلاح الدين محمد خير
٥١	علي إبراهيم	الضعين	دارفور	عبد الرحمن علي محمود
٥٢	عوض الله عبد العليم	الكباشي	الخرطوم	أحمد الشيخ
٥٣	عبد الحميد حمد عبد الرحمن	الكرمك	الأوسط	عبد الحميد محجوب
٥٤	حسب الرسول سالم	الأبيض	كردفان	عوض بخيت
٥٥	أبو بكر هارون	نيالا	دارفور	شمس العلا عبد الرحمن
٥٦	أحمد آدم دنقس	تشاد		محي الدين مالك محي الدين
٥٧	ادريس سعد	التلولي	غرب افريقيا	عثمان حسن المأمون
٥٨	الأمين حماد	بوحات	الشمالي	محمد أحمد نور الدين
٥٩	حماد الخير علي	بوحات	الشمالي	علي عبد الله
٦٠	نصر الدين عبد الله	الجزيرة	الأوسط	طه محجوب
٦١	أبو بكر عمر الحاج	الجزيرة	الأوسط	بلال عبد الله
٦٢	حماد محمد دقش	الجزيرة	الأوسط	عوض عبد الرحمن
٦٣	التجاني أحمد	نيالا	دارفور	علي نفقة المسجد
٦٤	زكريا موسى	-	-	-
٦٥	محمد عيسى	-	-	-
٦٦	عبد الكريم محمد	-	-	-
٦٧	حامد إسحاق	-	-	-
٦٨	ويحيى عبد القادر	-	-	-
٦٩	الشريف محمد	-	-	-
٧٠	فضيل عبد الكريم	-	-	-

الشايقية

الشايقية قبيلة مشهورة موطنها الحالي مركز «مروي» وتقع ديارهم التقليدية بين المناصير من جهة الجنوب والبديرية من جهة الشمال وبتعبير أدق. حدهم من الشمال قرية «الباسا» ومن الجنوب قرية «أمري» وهم فرع من قبيلة «جعل» الكبرى التي تسكن فروعها وبطونها من جنوب أم درمان «الجموعية» إلى دنقلا وعرف الشايقية بين القبائل بأنهم ذوو طبيعة عسكرية ومنذ وطئت أقدامهم أرض دنقلا «منطقة مروي» ونزحوا إلى دارهم الحالية من منطقة الجعليين «منذ عهد بعيد» وحينما كانوا جزءاً من «جعل» كانوا أهل فروسية وطموح عسكري. ويحكى أنهم عندما دخلوا دنقلا «وطنهم الحالي» جاءوا بمعداتهم العسكرية الخيل - والرماح - والسيوف - وكل أدوات الفتك الشائعة في ذلك الزمان.

وكانوا يطلبون من أهل دنقلا «النوبة» أن يعطوهم «التّنقِير»[1] و«الكُلّيقة»[2] وبعد فترة ادعوا أنهم أهل حق في الأراضي والسواقي. كفله لهم «التنقير والكليقة».

الشايقية عند الشيخ الفحل

شايق بن حمدان بن صبح أب مرخة المدفون فوق رأس جبل «العرشكول» كان شايق رجلاً شجاعاً وكان ذا قوة من خيل ورجال وله أحد عشر ولداً مثله في الشجاعة. وكانت نفسه تتوق إلى الملك فلما تولى أخوه غانم الملك، توجه لجهات دنقلا ونزل بين أولاد صالح ملك البديرية وأولاد منصور ملك المناصير.

وكان شايق لا ترضى نفسه الزراعة أو معالجة البهائم فلما نزل البلاد فرض على كل ساقية اردبين من القمح وخروفاً وظلوا يعيشون على هذه الحال ولما توفي شايق سار أولاده سيرة أبيهم وشملت غاراتهم بلاد النوبة من بعد أرض

---

(١) التنقير - كلمة نوبية - معناها الطريق بين الزرع

(٢) الكليقة - كلمة نوبية - معناها حزمة القش.

الحجر، ثم كردفان، وأغاروا على جيرانهم وأبناء عمومتهم البديرية»[1] وحكى لي أصحاب المعرفة أن الشايقية أغاروا ذات مرة على بلدة «العفاض» فخربوها واعتدوا على مسيد وعاثوا فساداً في المسيد، وكسروا الألواح وأوقدوا بها النار. كما أغاروا على المناصير والحسانية الدناقلة والمحس حتى أرض الحجر ولم تسلم منهم أطراف كردفان ولا أبناء عمومتهم الجعليون وطبيعتهم المشار إليها كانت لا تدعهم يميلون إلى الدراسة والاستقرار والزراعة وكانوا يسخرون «طبقة معروفة» لتقوم نيابة عنهم بالعمل في الحقل.

والزراعة والرعي وحصد التمر حتى «الغناء» الذي برع فيه الشايقية في زماننا هذا ما كانوا يمارسونه بل تقوم به الطبقة «المستغلة» والمسخرة وما زالت بقاياهم التي تمارس فن الغناء موجودة ويطلقون على (المغني) منهم كلمة «ملك» ولعلها تعويضاً عاطفياً واجتماعياً للمغني؟؟

لهذه الأسباب وغيرها لم يقبلوا على الدراسة مثل جيرانهم البديرية والركابية والدناقلة وكان طموحهم معلقاً بالعسكرية منذ عهدها القديم وإلى أيامنا الراهنة وأغلب فتيانهم الذين يخرجون من دار الشايقية إلى مصر أو وسط السودان في أيام ماضيات يعملون بالعسكرية « ضربة لازب » وقد تمكن منهم الروح العسكري وإلى زمان قريب كان شعار العسكري على مستوى «الحكومة» أن يرسم أو يصور وعلى خديه الشلوخ الأفقية المعروفة «بشلوخ الشايقية» ولحق حبهم العسكرية أطفالهم فهم حينما يلعبون يرسم الواحد منهم أباه بزي عسكري أو عسكري على ظهر بعير «هجاني» يرسمونه على الحيطان وفي البيوت، وهذا يدلنا على أن العسكرية غاية عند الجيل القديم وكل يتمنى أن يكون ابنه عسكرياً.

ثم مال الشايقية على دراسة القرآن.. وبرعوا فيه وتفوقوا وكثير من مشايخ القرآن والعلم درسوا في دار الشايقية عند المشايخ المشهورين.

---

(١) انتهى حديث الشيخ الفحل.

الشايقية والقرآن

صار الشايقية بعد أن ملكوا الجزر والسواقي وأرض الكرو[1] كالمستقرين ثم انعطفوا نحو البطولة الجديدة المتمثلة في «مشايخ القرآن» فمال أغلبهم نحو المشايخ وتقربوا إليهم واستمالوهم وأهمهم الجماعات التي أوقدت نار القرآن أولاد جابر في الجزء المعروف «اشش» من جزيرة ترنج وقد سكن أولاد جابر دار الشايقية في غضون القرن العاشر الهجري في الحدود الجنوبية.

وعلم الناس جميعاً والمشايخ خصوصاً صدق نية الشايقية فأقبلوا نحو ديارهم ركابية وبديرية وأشراف من طبقات المشايخ. وكانت دار الشايقية عامرة بالخير فاحتضن الشايقية أهل القرآن كما رفعوا من قدر المشايخ وجعلوهم في مقدمة كل أمر من أمور الحياة الدنيا والأخرى وجعلوا لهم نصيباً في كل موسم زراعي كما خصصوا لهم أرضاً زراعية تخترق السواقي والأراضي الزراعية كلها وتعرف تلك الأرض بـ«العُرَاضَة» لأنها تمتد بعرض السواقي فيفلحها طلبة القرآن. حسب كل موسم زراعي. وعموماً فقد رفع الشايقية من قدر المشايخ وطار اسمهم إلى جميع أنحاء البلاد فقصدهم الطلبة من كل الجهات ونسوق مثالاً بالطالب «عبد الله العركي» الذي درس عند الشيخ عبد الرحمن بن جابر.

عبد الله العركي

الشيخ عبد الله العركي جد العركيين وهي أسرة معروفة درس في بلاد الشايقية ترجم له ود ضيف الله قال أمه اسمها «هدية بنت عاطف» جميعابية ولد «بأبيض ديري» وحفظ الكتاب على أبيه وسافر ومعه من الطلبة عبد الرحمن النويري ولما رجع عبد الرحمن النويري إلى أهله بالصعيد بعد سبع سنين. سأله الشيخ دفع الله العركي عن ابنه عبد الله. فقال له عبد الرحمن النويري ابنك «يحش القش» لشيخه

(١) الكرو ـ كلمة نوبية ـ وتعني الأرض التي تلي أرض السواقي من جهة اليابسة.

قراءته متقطعة فغضب الرحل غضباً شديداً وسافر لدار الشايقية من فوره.

فوجد ولده شايل شبكة ومنحلاً يحش القش لخيل شيخه ولما وصل ذبحوا له فأبى أن يأكلها وبات «القَوَى» فلما علم الشيخ عبد الرحمن قال دفع الله ما رآنا أهلاً للخدمة فناداه وأطعمه بيده وعاد هو وابنه مكرمين إلى أن وصلا بلدة «الهلالية» المشهورة وهذه الحكاية وغيرها تكشف لنا جانباً هاماً في المسيد وهو ممارسة العمل والتربية بجانب الدراسة والطالب المذكور من أشراف القوم ولأسرته مكانة رفيعة في مجال القرآن والعلم ورغم ذلك أرسله والده لدار الشايقية التي طالت شهرتها جميع أطراف البلاد ورغم مزاعم الطالب عبد الرحمن النويري فإن عبد الله العركي كان حافظاً ومؤهلاً وأبقاه الشيخ عبد الرحمن بن جابر حباً فيه وكلفه بهذه الأعمال من باب التربية وكسر النفس وكثير غيره يعملون في المسايد والخلاوي التي يتعلمون فيها فيصقلهم هذا العمل ولاسيما أبناء كبار المشائخ الذين يؤمون هذه المسايد وفي نفوسهم شيء من الكبرياء والترفع الخفي.

مشايخ القرآن في الشايقية

* أولهم أولاد جابر[1].

وهم كما تفيدنا الروايات المكتوبة والشفاهية أنهم أول طلائع معلمي القرآن وتلاهم البديرية وهم بلا ريب مكملون لأولاد جابر الركابية وقد نوهت في مكان آخر أن الركابية والبديرية اتحدوا وانسجموا حتى لتحسبهم أسرة واحدة وأرض الشايقية أصبحت مستقرة وآمنة والعيش فيها صار ميسوراً وأهلها بالطبع أهل كرم، ثم توافد المشايخ نحو بلاد الشايقية من كل فج.

وهذا ثبت بأسماء الأسر المعلمة التي دخلت دار الشايقية واستقرت فيها وصارت جزءاً منها طبعاً وسلوكاً.

---

(١) أولاد جابر ـ علماء فقهاء ـ معلمون ولهم شهرة عظيمة.

١ـ أولاد جابر الركابية.

٢ـ البديرية.

٣ـ الدويحية.

٤ـ العراقاب.

٥ـ الحواجنير.

٦ـ الحمد توياب.

٧ـ الكوارير.

وغيرهم. كل هؤلاء استوطنوا دار الشايقية فأقبل الناس نحوهم من جميع الجهات. وصار اسم هذا النفر من المشايخ واسم الشايقية على كل لسان وبعد سنة مائة وألف ١١٠٠هـ صار مركز القرآن عند الشايقية وكل أبناء الجهات الأخرى يسافرون إلى الشايقية للدراسة وجاء زمن على الناس من لم يقرأ في الشايقية يكون حظه قليلاً (خبر كان) من القبول.

ود عدلان:

الشيخ محمد ود عدلان الحوشابي من قلب الشايقية من أبناء حواش جد «الحواشاب» وهو أبرز فقهاء الشايقية وصفه ود ضيف الله بأنه شيخ الإسلام والمسلمين وخاتمة المتكلمين المجددين للدين، حج إلى بيت الله وجاور به وقرأ علم الكلام والمنطق والأصول على الفقيه «عبد الله المغربي» عالم المدينة[1] ثم رجع إلى وطنه «تنقاسي» وأوقد نار القرآن ونار الكرم ونار العلم المعقول وكانت فيه «نقابة» الطلبة كما يقولون.

وانتفعت الناس بعلمه وتصانيفه وشدت إليه الرحال من سائر الأقطار حتى دار «برنُو» ومن تصانيفه شرحه الكبير على «أم البراهين» وأسماه «حجة العارفين»

---

(١) عبد الله المغربي ـ عالم المدينة المشهور في ذلك العصر.

وألف كتاب العقيدة[1] وأسماه «تحفة الطالب» وأشار فيه باتباع النهج السلفي السني رحمه الله.

سعد الكرسني:

أصله مسلمي وشايقي قرأ القرآن وأحكامه على الفقيه عبد الرحمن ولد اسيد فدعا له على قريحة صادقة تولى تدريس القرآن بعد موت شيخه بنورى ورحلت إليه الناس من الأبواب وأرض الصعيد ودار دنقلا وأرض الشايقية وكان شديد الرياضة لحيرانه حريصاً على معرفتهم للشد والمد ـ والهمزة ـ والقلقلة ـ والإظهار والإدغام والغنة ـ ومعرفة الوقوف من تام وكاف وحسن ومن لا يعرف هذه الأحكام فليس بدارس عنده.

شيخ الأعسر:

ابن عبد الرحمن بن حمدتو كان ممن جمع بين العلم «والعمل» اتبع سبيل السادة الأقدمين.

ولد بنورى وتفقه على أبيه وذكروا أن إنجاب أبيه كان كله بنات «ماسكات» الفقراء وأن واحداً منهم أخّر عشاءه عن وقته المعتاد لغرض غير شريف وفي آخر الليل طلب عشاءه فلما ناولته البنت عشاءه مسك يدها وبعد هذا الحادث أغلق الشيخ الأبواب بين بناته والطلبة ومنع الأجانب من الدخول على نسائه.

عبد الله صابون

الشيخ عبد الله صابون أنموذج للطالب المجاهد أورد سيرته كما ترجمها ود ضيف الله كان عبد الله صابون وهو مملوك لامرأة من ناس «القليع» حفظ الكتاب ولازم الفقيه عمار أخذ عليه أكثر فنونه وبرع في النحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والبديع وعلم «العروض» وكان شاعراً ماهراً.. وصانعاً حلاداً وخياطاً ـ وله

---

(١) العقيدة ـ وشهرتها عقيدة ود عدلان، شرحها وحققها فضيلة الشيخ محمد علي البشير من بلدة ودراوة.

معرفة بالخط الذي لا يضع مثله إلا «الأروام» وعمله كل ليلة يقرأ ثلث القرآن ويملأ الأسبلة التي هي في القرية جميعها نحو عشرة مساجد أو تزيد وعمله بالنهار يحضر درس العلم عند شيخه ويُدرِّس غيره وعامة نهاره إما أن يكتب الكتب احتساباً لله أو يخيط «المطبوق»[1] أو الجوخ أو يسجل الكتب وكل ذلك احتساباً لله تعالى وأنه أعزب لم يتزوج وأعطاه شيخه ابنته «أم ناس ضوين» فامتنع وقال العبد ما يأخذ سيدته وقال الفقيه ما وجدت لها كفؤاً غيره.

أولاد جابر:

تعرض الشيخ أحمد عبد الرحيم الفكي في مخطوطه لأولاد جابر «الجابراب» في العصر الحديث فبدأ بالحديث عن أحفاد البولاد أو البواليد كما أسماهم فقال أن ذرية إبراهيم البولاد هم جميع «الجابراب» الموجودين حالياً بقرية البواليد بالضفة الغربية للنيل جنوب شندي.. وكان جدهم هاجر من دار الشايقية إلى الأبواب لتعليم الناس بهذه الجهات كما رحب به الشيخ عجيب «المانجلك» فأهدى له أرضاً شاسعة ما تزال في يد أحفاده، كما عمَّر المسجد وأحيى نار القرآن وعلم الكبار والصغار وخلفه من بعده ابنه عبد الرحمن.

ثم أسس أولاد جابر في منطقة الجعليين ثلاثة مساجد كلها عامرة ثم ينتهي المخطوط بأنهم تفرقوا في البلاد فسكنوا أماكن مثل الجزيرة نسري.. والكمر والجابراب[2] وحجر الطير والبواليد وسَانَوّه والجريف. كذلك اتجه نفر من الجابراب جنوباً فأقاموا في ود رملي كالفكي حاج حمد بن عثمان وهناك بعض الجابراب بالعاصمة وبعضهم في قرية - أم سنط - جنوب مدينة ود مدني وفي أم «دقرسي - شمال الجزيرة»..

---

(١) المطبوق - نوع من الثياب يشبه اللحاف، ويسمى الهلس - والحلس.

(٢) الجابراب - ينسبون إلى أولاد جابر وقد نزحوا في زمان مبكر لهذه المنطقة.

كذلك اتجه جماعة منهم إلى كردفـان وبـارا وفـي دارفـور نجدهـم فـي نيـالا والفاشر ومنهم رهط سكن النيل الأزرق جهة ود النيِّلْ..

وبعد مطلع القرن الحادي عشر الهجري انتشـرت الخـلاوي فـي كـل جهـات الشايقية وما من قرية إلا وبها خلوة أو خلوتان وهذا غـير المسـايد والخـلاوي فـي نوري وتنقاسي ومسـاوي والأراك والقرير والزومـة والـبركل والكاسـنجر والمَقَـلْ إلخ.. وهذا مثال. وربما سهوت عن المسايد والخلاوي الكبيرة فـالمعذرة أسـوقها لمن يهمهم الأمر.

الباب الرابع

مسيد الدامر

مدينة الدامر من الناحية التاريخية بدأت قبل مئات السنين. فإذا أردنا أن نبين تاريخها يمكننا أن نتخذ طريق الأجيال. فالمؤرخون عندما يعوزهم الدليل الوثائقي يلجأون لهذه الوسيلة «حساب» الأجيال فالجيل عند بعضهم ثلاث وثلاثون سنة وعند بعضهم «خمس وثلاثون سنة» إلخ.. فإذا أخذت نفسي كمثال لهذا الجيل يمكن أن أسرد تاريخ أسرة المجاذيب التي بدأت بهذا الوضع الأخير، الوضع الديني المعروف الآن. والبداية كانت في قرية صغيرة تبعد عند الدامر حوالي كيلومترين الآن «الشعديناب».

وكانت سابقاً تعرف بـ«دَوُّر» أما الحد الذي بدأ إشعال نار القرآن وبناء المسيد فهو الحاج عيسى بن قنديل بن عبد العالي بن عرمان.

ومن جيلي أنا المتكلم حتى الحاج عيسى بن قنديل بيننا ثلاثة عشر جيلاً[1].

أنا مجذوب بن عبد الله النقر بن أحمد بن جلال الدين ابن عبد الله بن حمد بن محمد المجذوب بن علي بن حمد بن عبد الله بن محمد بن الحاج عيسى فإذا جمعنا عدد السنين هذه الأجيال صارت نيفاً وأربعمائة سنة ـــ إذاً يمكننا القول أن نار القرآن بدأت قبل أربعمائة سنة مع بداية السلطنة الزرقاء أو قبلها وارتبط اسم الدامر بالتاريخ الديني في السودان. فالحاج عيسى رجل اشتهر في المنطقة وكان له نفوذ وجاه وقد رحل إلى الحجاز وتلقى العلم هنالك ثم رجع إلى بلده وابتدأ

---

(١) المتحدث النسابة ـ الأستاذ الشيخ مجذوب النقر فقيه وعالم وقانوني متمكن من رواية التاريخ توفي منذ خمس سنوات رحمه الله.

بنشر الثقافة الإسلامية وكان يلقى الاحترام والتقدير من كل القبائل. وتولى نشر الرسالة من بعده أحفاده وعلى رأسهم ولده محمد بن الحاج عيسى ثم تلاه حفيده عبد الله المشهور بعبد الله راجل «درو» ثم خلفه حمد بن عبد الله المؤسس الحقيقي لمدينة الدامر «دامر حمد» ومع بداية التأسيس رحل من منطقة الشعديناب إلى الدامر واتخذها محلاً للعبادة وتدريس القرآن وأسس فيها المسيد المعروف باسمه مسيد حمد وبدأ في نشر القرآن والعلم وبدأت القبائل تتجمع من حوله ومع تكاثر القبائل نشأ السوق وهو سوق الدامر المشهور في السودان وخارجه ولاسيما في مصر فقد اتخذه المصريون منذ عهد بعيد سوقاً لجلب حرائر الإبل واستعمالها في حراسة الحدود «خفر السواحل» وسبب نجاح هذه السوق واشتهاره يرجع الفضل فيه إلى المسيد فقد وفر له الحماية والأمن فازدهر، والأسواق عصرئذ لا تزدهر إلا في ظل حماية قوية. ويرجع السبب لضعف الحكومة إذ لم يتوطد ركنها بعد. إذ كانت الدولة السنارية غضة لينة فكان الحكم في أيدي القبائل ومشائخها وتعرف هذه المرحلة باسم «القيمان». وفي تلك الفترة كانت الأسواق كلها عرضة لهجمات القيمان وقطع طريق القوافل الداخلة والخارجة من الأسواق.

وتحت مظلة المجاذيب وقوة شوكتهم وحماية المسيد نشأ السوق فقصده الناس من كل الجهات.

الدامر في نظر الأجانب

من أوائل السواح الأجانب الذين زاروا الدامر وشهدوا بمجدها وكتبوا عنها منوهين. الرحالة جيمس بروس الذي زارها في اكتوبر ١٧٧١ وكتب عنها في كتابه المعروف باسم «اكتشاف منابع النيل» قال «جئنا إلى الدامر مدينة الفقيه ود المجذوب وهو [قديس] من الطراز الأول عند الجعليين الذين يعتقدون أنه يصنع المعجزات ويعالج من الكساح والعمى والجنون ومن ذلك فإنهم يخافونه خوفاً شديداً».

وتسير القوافل التجارية تحت أمان المجاذيب في طمأنينة يأمنون قطاع الطرق..

كما زارها الرحالة الألماني بيركهارت[1] سنة ١٨١٤ ووصفها بأنها مدينة كبيرة بها حوالي خمسمائة منزل وليس بها مبان خربة وهي بالقياس لبربر نظيفة وشوارعها منتظمة وأن أهلها المجاذيب من عرب الحجاز وهم في الأغلب الأعم فقهاء وقد حباهم الله مقدرة على كشف الحجب وقوة خارقة للعادة فوق طاقة البشر ولا يستطيع كائن من كان أن يقاوم سحرهم.

ويقرر بيركهارت في كتابه «رحلات في بلاد النوبة».

وكان للمجاذيب مكتبة كبيرة كما كانت حلقات العلم فيها تضارع حلقات الأزهر وكان المجاذيب يعلمون التلاميذ تلاوة القرآن وتجويده ويعدونهم الحفظة كما كانوا ـ يلقون عليهم المحاضرات في التفسير والتوحيد ومساجدهم يلجأ إليها أبناء السبيل والغرباء.

وسألني الفقيه الكبير وكان على هيبة ووقار ويلبس عباءة بيضاء عن وطني ودراستي وأي كتب قرأت.

هولت

كما ذكرها هولت في حديثه عن النظافة والتعليم في السودان. وقال: وهو يتحدث عن مملكة الفونج: ـ «كان أشهر مركز تدريس بها مدينة الدامر حيث أسس المجاذيب خلال القرن الثالث عشر ما يمكن أن يسمى جامعة إسلامية كانت خلالها على اتصال دائم بمركز الثقافة والعلم في الحجاز والقاهرة».

وقد وفر المسيد، للسوق كل أسباب النجاح والاستقرار وفوق الحماية وفر

---

(١) Burch Hardt - Travels in Nubia Murray (London 1822).

لهم الكاتب. والكتابة في الأسواق ضرورة لتوثيق البيع والشــراء كذلـك قـامت المحاكم وقيامها واحد من أسباب الاستقرار في هـذا السـوق كذلـك ــ أفـاد موقع الدامر الجغرافي الذي أعطاه عـدة ميزات أولاً: تقـع بيـن نهريـن كبـيرين النيل ونهر أتبرا. ثانياً: موقعها بين طرق رئيسية فالطريق من الدامر يذهـب إلـى مصر عبر بربر وطريق آخر لسواكن فالحجاز ومنها يخرج الطريـق إلـى شـندي الخرطوم فسنار ويخرج منها طريق عبر البطانة إلى القضارف ومن غربـي النيـل يأتيها الطريق المتصلة بكردفان ودارفور وأفريقيا والمنطقة التي تقع فيهـا مدينـة الدامر تعرف عند المؤرخين القدامى «بالأبواب» وفي تعليل اسم الأبواب. قالوا «لكثرة الطرق فيها» وتلتقي عندها معظم الطرق وتتفرع عنها.. وقـالوا سـميت المنطقة بدار الأبواب نسبة للأبواب النيلية وهي شلالات صغيرة تقع بين شـلال السبلوقة ومقرن اتبرا وعددها ستة شلالات وأصحاب المراكب الكبيرة يسمون مسارب المياه بين تلـك الشـلالات «الأبـواب» واحدهـا «بـاب» فـالممر بيـن الشلال والشلال هو الباب ومن هنا جاء الاسم والشاهد أن الأبواب السـتة تقـع في هذه المنطقة المعروفـة بـأرض الجعليين حديثـاً والمشـهورة بـدار الأبـواب قديماً والله أعلم.

ثم أذن الشيخ حمد بن عبد الله لابنه عبد الله النقر بإنشاء مدرسة قرآن مستقلة فكانت خلوة عبد الله مستقلة بكيانها وقد درج السلف الصالح على أخذ الإذن من الشيخ الكبير إذا أرادوا تأسيس خلوة أو مسيد فيأذن الشيخ ويعلن مباركته ورضـاءه وأغلب الذين يطلبون الإذن بإيقاد نـار القـرآن يكونون مـن تلاميـذ الشـيخ المعنـي. ويضربون موعداً ليوم إشعال نار القرآن الجديدة والتقليـد أن يـأخذ الشـيخ الجديـد الشعلة «من نار القرآن» «الأم» من المسيد في موكب حاشد يتقدمـه حـامل النـار وخلفـه الشـيخ والطلبـة يحملـون ألواحهـم ويلوحـون بهـا وهـم يـرددون الحـداء المعروف بالتهليل..

لا إلـــــــه إلا اللــــــه

الفقـــــراء عبيــــــد اللــــه

لا إلـــــه إلا اللـــــــه

نحـــن نمـــوت والبـــاقي اللـــه

لا إلـــــه إلا اللـــــــه

محمـــــــد رســـــول اللـــــه

لا إلـــــه إلا اللـــــــه

الفقـــــراء عبيــــــد اللــــه

وقد يكون المكان بعيداً فيمشون اليوم واليومين تحت مظلة هذا الكرنفال «والتقابة»[1] مشتعلة بينهم إلى أن يصلوا المكان المحدد لإيقاد النار فيتقدم الشيخ الكبير ويسمي الله ويضرم النار الجديدة بين التهليل والتحميد والتكبير وزغاريد النساء وقرع الطبول والدفوف.

ثم يحتفلون أياماً بهذه المناسبة ويعود الطلبة من حيث أتوا بذات الموكب الحاشد الذي تظله الرحمة وتحفه أفئدة سكان القرى الواقعة بين المكانين وإن كان المكان المراد فيه إيقاد نار القرآن بعيداً يحملون عوضاً عن النار رماداً.

ويلقى الموكب في ذهابه وإيابه آيات البشر والترحاب وتتنافس القرى في إكرامه بنحر الذبائح وإقامة الولائم إلى أن يعود موكب الطلاب لمكانه، وظل نقل النار من النار عند السلف وقد حكى أشياخنا أن الشيخ حمد ود المجذوب درس في خلاوي الغبش «بربر» على الشيخ حمد بن عبد الماجد ولما أكمل دراسته

---

(١) التقابة ـ من الثقاب عود النار.

تثقبت النار فأنا أتثقبها تثقباً، وأثقبها إثقاباً وتثقبت بها، مسكت بها تمسكاً وذلك إذا فحصت لها في الأرض ثم جعلت عليها بعراً وضراماً والثقاب والثقوب ما أثقبها به وأشعلها به دقاق العيدان. راجع لسان العرب الجزء الأول.

استأذن شيخه في حمل «التقابة» ليشعلها في الدامر وزعموا أن شيخ الغبش تردد كثيراً بحسبان أن الدامر هي المعلمة والرائدة ولكنه تحت إلحاح تلميذه قبل. فسار موكب الشعلة من الغبش إلى الدامر تحوطه نظرات الإكبار والإعجاب.

ثم انداحت موجة الخلاوي حول الدامر من مدد هذا المسيد غربي النيل وشرقه خلوة الفكي الصادق بن الفكي حمد والفكي عبد الماجد بن محمد المجذوب ومساجد أخرى أشعلت نار القرآن في نهر اتبرا وكنور والحباراب والموسياب والحصاية وانتشرت بركات مسيد الدامر لأماكن اخرى كسلا ـ القضارف ـ سقادى ـ بربر وغيرها.

وسرت سمعة مسيد الدامر إلى الحجاز واليمن مع الحجيج وزارها نفر من الشيوخ الأفارقة من بلاد شنقيط ونيجريا وتمبكتو مقيمين وعابرين وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة وتركوا آثاراً تتمثل في كتب التجويد والفقه والخط المغربي الذي ما زال بعض شيوخ الدامر يحتفظون به ويحذقونه.

ونلاحظ أن التعليم في هذه المسايد يبدأ هكذا.

أولاً: القرآن الكريم حفظاً وتجويداً. ثانياً: الفقه والعلوم الإسلامية علوم الفقه الإسلامي. على المذهب المالكي وعلوم التوحيد والعقائد وعلم العربية بمختلف أنواعها كالنحو والبلاغة ورحلة الدراسات الأخرى تأتي بعد أن يتخطى الطالب المرحلتين السابقتين وتكون له رغبة في الدراسات العليا الخاصة لها وجهات وجه نظري ووجه عملي أما الوجه النظري فهو بيان الحقائق وكان يعتمد فيه على كتب الإحياء للغزالي والسكندري والتنوير إلخ... مع المجاهدة وهي تزكية النفس بصورها المختلفة وتتم هذه العملية بواسطة مشايخ معينين يكونون قد سلكوا وزكوا أنفسهم.

أما الوجه العملي فيتمثل في العبادات من صلاة وصوم وذكر وقيام ليل وبر وكرم إلخ..

وإذا قسمنا الدامر لثلاث مراحل نجد الفترة الأولى هي فترة ـ درّو ـ والتي بدأها الحاج عيسى بن قنديل وهي جمع الناس وتعليمهم القرآن.

الثانية فترة الازدهار وهذه ظهرت في غضون السلطنة الزرقاء.

الثالثة ظهر فيها تلقيص نسبي وهي مرحلة الفتح التركي ـ ١٨٢٠ والذى اتخذ منه أهل المسيد موقفاً معارضاً.

الأمر بالمعروف

إنه من أعظم الواجبات الدينية بعد الإيمان. إذ ذكره الله تعالى في كتابه ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾. آل عمران.

كما أمر تعالى في قوله ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ آل عمران.

كما قال تعالى ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ الحج.

الحديث «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» ـ مسلم.

كما قال ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم» ـ الترمذي.

وعندما دخل الأتراك ووصلت طلائعهم بربر.. عقد مشايخ الدامر اجتماعاً عاماً ضم كل المشايخ وأهل الحل والعقد وتوصلوا لقرارات فحواها.

أولاً: الأتراك يحكمون بما يسمى «القانون» وهو مخالف للشريعة التي يتمسك بها أهل المسيد.

ثانياً: الأتراك يبيحون «الربا» ولهذه الأسباب وغيرها قرروا معارضتهم بل واستعدوا لحربهم وجعلوه واجباً دينياً ولذلك أعدوا العدة للحرب وبالفعل وقعت بينهما معركة معروفة تسمى واقعة «الكوِيْب»[1].. ومات فيها خلق كثير من أهل العلم والقرآن كالشيخ قمر الدين ود حمد والد العلامة محمد المجذوب بن قمر الدين والفكي الطيب شيخ العلامة كما استشهد فيها أبناء رقية الأربعة والشيخ محمد أب صرة والمجذوب ود علي وعدد كبير من الفقراء ورغم أن المجاذيب خسروا المعركة بسبب السلاح الناري فقد غنموا مدفعاً نقله من بقي منهم لمسيد الدامر ثم أخذه السعداب جماعة الملك نمر لشندي.

ثم دارت معركة أخرى غربي الدامر تعرف بواقعة «تَاقِبْ»[2] ومات فيها جمع غفير منهم.

ثم بدأ تخريب الدامر فهجر الناس المسيد والبلد وأسسوا مسايد وخلاوي قرآن في أماكن أخرى. الفكي ابن الفكي عبد الله النقر أسس مسيداً في كسلا والفكي الأزرق بن الفكي أحمد في الصوفي والقضارف إلخ.. ونلاحظ أن هذا الخراب كان مع بداية العهد التركي وصحب ذلك فترة ركود شملت المسيد والسوق والبلد كلها.

وبعد فترة استأنف المسيد نشاطه من جديد وما زال شعاره الأمر بالمعروف.

وما زالوا عند رأيهم في تحكيم الشريعة. ومدينة الدامر منذ إنشائها كانت تحتكم إلى الشريعة وكان فيها رهط من المحتسبين كان آخرهم شيخنا القاضي قمر الدين بن الفكي أحمد رحمه الله.

ووظيفة هؤلاء المحتسبين ملاحقة المنكر والمخالفات الشرعية وكان لمسيد

---

(١) رواية الأستاذ محذوب النقر. أما منطقة الكويب فهي بالقرب من ملتقى النيل بنهر أتبره. وهي معروفة الآن باسم الكويب.

(٢) تاقب ـ قرية ومكانها غرب النيل «قصاد» الدامر.

الدامر تـأثير على الإمـام المهـدي فالإمـام المهـدي تلميـذ الشـيخ محمـد الضكير بـن عبد الله بن خوجلي والشيخ محمد الخير [الضكير][1] درس القرآن والفقـه عنـد الفكـي الأزرق وكان محمد الضكير قوي العزم وقد نقل هذا السلوك لمنطقة بربـر وطبقه فـي مسيد أهله الغبش وتأثر الإمام المهدي بشيخه محمـد كثيراً وظهـر هـذا السـلوك فـي شخصية الإمام المهدي وأشهرها اعتراضه على الاحتفال بختـان أنجـال شيخه محمـد شريف بن نور الدائم وهي حادثة مشهورة عند كافة الناس وفـي سـنة ١٢٨٦ وقعـت للشيخ محمد أحمد بن عبد الله قبل المهدية حادثتان في الخرطوم الأولـى عندمـا كـان سايراً في شوارع الخرطوم مع زملائه نادتهم [بغي] من «بغايا» الخرطوم بألفاظ قبيحـة ودعتهما إلى منزلها فالتفت المهدي إلى أحد التلامـذة الذين كـانوا معه. وقـال: مـاذا تقول هذه، فقال له دعها يا مولاي هذه امرأة «باغية» فقعد المهدي القرفصاء وأمسـك على رأسه بكلتا يديه وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. إلى هذا الحد وصلت الخرطوم ثم نهض قائماً. وقال: إن شاء الله سيكون زوال هذا الفساد على يدي.

الأمر الثاني: أنه صادف في نفس الوقت وفاة محمـود حنجـانجي.. وهـو مـن كبار الأهل فسـوت النسـاء الصـف وارتبطـن بالحبـال وكشـفن رؤوسـهن فنهـاهن المهدي عن ذلك فلم ينتهين ووضعن على رؤوسهن الرماد والـتراب وصـرن ينحـن عليه في شوارع الخرطوم وخرج المهدي من الخرطوم إلى الجزيرة «ابا»[2].

هذه مجرد إشارة لأثر الدامر علـى الشـيخ محمـد الخير وبـالقطع فـإن الإمـام المهدي تأثر بشيخه.

المهدية والأمر بالمعروف

وظلت مسايد الدامر تؤدي رسالتها التعليمية والدينية مثلما بـدأت والمجـاذيب

---

(١) الضكير ـ بمعنى ـ الذكر الفحل وضكير تصغير ضكر «ذكر».

(٢) مخطوط نادر عثرت عليه بمكتبة مولانا صديق العجب بأم درمان العباسية خور أبي عنجة.

من أوائل الجماعات التي استجابت للمهدية وقد رفع الإمام المهدي شعارات الدين والشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصادف هذا ما يدعو له أهل الدامر فانخرطوا معه والتزموا بالمهدية التزاماً كاملاً ولما عرف المهدي صدق القوم عقد أول راية للجعليين للحاج علي ود سعد[1] وجعل مقرها الدامر.

ولما عارض عبد الله ود سعد خليفة المهدية وعصى. انحازت له أغلبية الجعليين الذين خاطبهم في شأن «ظلم الخليفة» أما أهل الدامر فإن مشايخهم اجتمعوا وتوصلوا لفتوى اطمأنوا إليها دينياً فحواها أن الحاكم الشرعي لا يصح عزله باتهامه «بالظلم» وثبتوا على بيعتهم وما زالوا.

وكان أشد أهل الدامر اعتراضاً الشيخ الأمير حاج حمد ود منصور[2] إذ وقف ضد عبد الله ود سعد بكل صلابة ووصلت أخبار أمير الدامر حاج حمد لحملة كتشنر بعد حين وكان من أوائل الرجال المطلوب القبض عليهم ومحاكمتهم. وكان الأمير حاج محمد من الرجال الذين اشتركوا في موقعة النخيلة المشهورة.

وانجلت المعركة بعدم توفيق جيش المهدية وأسر الأمير محمود ود أحمد وكثير من الأمراء وأرسلوا إلى رشيد بمصر أما الأمير حاج حمد فإنه بعد انجلاء المعركة كتب عدة رسائل يحرض الناس فيها للتحفز للقتال وجمع الصفوف فوقعت بعض رسائله في يد اللورد كتشنر. الذي جد في القبض على الأمير حاج حمد فأسروه وشكلوا له محكمة عسكرية وطلبوا منه أن يتبرأ من بيعة المهدي فأغلظ في الرد على المحكمة وأصر إصرار من باع نفسه في سبيل عقيدته وكان يرد بين الحين والآخر كلمة: مهدية ـ مهدية. فرفعوا المحكمة وأرسلوا له الوساطات فلم تثنه عن موقفه الصلب ثم انعقدت المحكمة وأصدرت حكمها بالإعدام رمياً بالرصاص وتوضأ الأمير حاج حمد ود منصور وصلى ركعتين واستعد

---

(١) حاج علي ود سعد ـ شقيق عبد الله ود سعد الأكبر.

(٢) حاج حمد ـ فقيه البلد وشيخها وصاحب راية المهدية بعد حاج علي ود سعد.

للموت فربطوه في جذع «دومـة» بالمسيد على ركـن الخلـوة الجنوبـي الشـرقي وأطلق الجند إحدى وعشرين طلقة فصعدت روحه الطاهرة ودفن في جبانـة الدامـر عند الركن الجنوبي الغربي رحمه الله وأجزل مثوبته.

ويعتبر الأمير حـاج حمـد بـن منصـور أول شــهداء الاسـتقلال وإن تناسـى المؤرخون موقفه الباسل والأمير حاج حمد أنمـوذج لخريجي المسيد وينبغي أن نذكر رهطاً من شيوخ القرآن الذين ساهموا بحظ وافر فـي هـذا المجـال معارضـة الحكم الأجنبي.

الفكي حمد بن المجذوب والفكي عبد الله النقر والفكـي أحمـد أبـو جـدري والفكي قمر الدين الفكي المكي الذي اشتهر في القضارف والفكي الأمين والشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين وهو من أبرز رجالات العلم فقد دَرَّس في المسجد النبوي تسع سنوات وتتلمذ على يده الكثير مـن الحجـازيين والشـوام والعراقيـين واليمنيين كما قضى بسواكن سنتين ونصف وقد ساهم في تغيير الوضع الاجتمـاعي والديني بأسلوبه الأخاذ وبصيرته النافذة وعلمه الجم وله عدة مؤلفـات منهـا شـرح المنهاج نقد كتب الشافعية مناسك الحج كما ألف في اللغة العربية..

وشرح كثيراً من قواعد النحو وألف كتاباً في مصطلـح الحديث ولـه ديوان شعر معروف، ومن الرجال الذين تأهلوا في مسيد الدامر العالم الشـاعر الثائر الشيخ الطـاهر المجذوب صاحب الإمام المهدي وهو من أبرز حملة شعار «الأمر بالمعروف والنهـي عن المنكر» واشتغل بالسياسة وناهض الحكم التركي وتتلمذ عليه جماعات كثيرة مـن أهل شرق السودان أبرزهم الأمير عثمان دقنة المشهور بأمير الشرق.

كما اشتهر ابنه محمد المجذوب المعرف باسم الشيخ ود الشيخ الطاهر وكان من ـ أعلم أهل السودان في وقته ـ حفظ البخاري عن ظهر قلب وله أشعار مطبوعـة وله فتاوى مشهورة ومخطوطات كثيرة عند أبناء أخيه في مدينة «اركويت» بشرق السودان.

وكتب الشيخ بن الشيخ الطاهر كتاباً رد به على العالم المشهور الشيخ «علي عبد الرازق» بعنوان «تضييق المآزق في الرد على، علي عبد الرازق» فند فيه ادعاء الشيخ علي عبد الرازق فيما ادعاه عن المعراج وإنكاره لواقعة العروج وشطحة الشيخ علي عبد الرازق مشهورة وهو من علماء الأزهر.

وكتب قصيدة مشهورة بعنوان «ثريا» وهو الذي رد على الشيخ الفا هاشم الفلاتي الذي كتب قصيدة بالحروف المهملة لم يكن فيها حرف منقوط وقد تحاماها كثير من الفقهاء والشعراء في مجلس الشيخ محمد ود البدوي بأم درمان.

الفا هاشم الفلاتي

جاء الشيخ الفا هاشم الفلاتي في طريقه إلى الحجاز ونزل ضيفاً على الشيخ محمد البدوي شيخ الإسلام وعرض عليه قصيدته «المهملة»[1] التي يمدح فيها النبي «ﷺ» وليس بها حرف منقوط وكأنه يتحدى أو يختبر العلماء بالسودان قائلاً للشيخ ود البدوي: هل ببلادكم من يستطيع تشطير هذه القصيدة فأرسل الشيخ ود البدوي إلى الشيخ بن الشيخ الطاهر المجذوب[2] «بحمَرِي»[3] عارضاً عليه طلب الشيخ الفا هاشم ووصل «الهجاني» وألفى الشيخ يشترك مع تلاميذه في بناء «راكوبة». فأعطاه رسالة شيخ الإسلام. وقبل أن يفرغ الهجاني من تناول الطعام والقهوة انتهى الشيخ من تشطير القصيدة ـ أي أنه أخذ صدر البيت الأول من قصيدة ـ الفا هاشم. ووضع له عجزاً ثم وضع صدراً لعجز البيت الأول ـ وهكذا فإذا قرأت صدر البيت الأول ومعه عجز البيت الثاني وصدر البيت الثالث وعجز البيت الرابع وبهذا النهج إلى آخر القصيدة تكون قد قرأت قصيدة الفا هاشم.

(١) المهملة ـ والمهمل يعني الحروف غير المنقوطة.

(٢) شهرته الشيخ بن الشيخ الطاهر واسمه أصلاً محمد المجذوب بن الشيخ الطاهر.

(٣) حمري منطقة بأعالي نهر أتبرا.

وإذا قرأت صدر البيت الثاني وعجز البيت الثالث وصدر البيت الرابع وعجز البيت الخامس وبهذه الطريقة إلى آخر القصيدة ـ تكون قد قرأت قصيدة المجذوب وإذا قرأت القصيدة كوحدة بين الشاعرين تذوقت المعنى كأن الشاعرين شاعر واحد ـ وقد سموها «عرش بلقيس» كأنه هو «.....» وحمل الهجاني رسالة الشيخ وعاد بها إلى الشيخين الكبيرين الشيخ ود البدوي شيخ الإسلام والشيخ الفا هاشم الفلاتي فكان تعليق الشيخ الفا هاشم بعد اطلاعه على تشطير الشيخ إن هذا الشيخ لبحر علوم متدفق ولو أن المذاهب الأربعة اندرست لأحياها هذا الشيخ.

القصيدة:

ألاَ واصل الله السلام المرددا	لأكرم رسل الله طراً وأسعدا
وأوسع آلاءً وكمَّل طَولـه	لأوسع كل الرسل سعداً وأحمدا
محمد الصدر المعلى مكارماً	ومصلح حال الكل أحمر أسودا
رسول له الآمال أطّر حالها	ممهد أحكام الإله موطدا
مدمر أعداء المصور للورى	حسام لردع الملحد الصلد أرصدا
وصول لأرحام رسول مطهر	وموئل ماسور الهدى رام مَغْرَدا
مسهل آمال ومصلح صالح	وكم سامدٍ لولاه أهلكه الردى
هو الدر حد السر رد علومه	هو الروح أعلى الرسل أكرمهم هدى
ومسعد عاص دار حول مدامه	ومحمود أعمال كما هد ماردا
حسام علا هام العدو وطله	مطاع كلام ساد كُلاً وسودا
هو الأصل لوح الكل أصلح صالح	هداهم هدى الإسلام كهلاً وأمردا
وأكمل محمود وأعلى محامدا	وأسمح مسؤول وأطهر مولدا
همى راحه ماء لأهل وداده	وارواهمو مما همّاه وأسعدا

وعم عطاه للملا كل عادم كما رمحه صد العدو وأصعدا

وما أمه السؤال إلا وأوردوا ركاماً هما صاروا له الكل وردا

ولا رامه الرواد إلا أراهمو موارد طول سحه عم سرمدا

معالمه أهدى المعالم كلها ولم لا وهو طه إمام أولي الهدى

مراحمه كم عم هاطل رعدها مطامعه أحلى وأسهل موردا

وعلم هداه مسعد كل سالك مسالكه راعي الصراط الممهدا

ممد لأرواح العلا طوع أمره وصارم أهل اللوم والوهم والردا

سلام كروح المسك والعود روحه لأحمد ما صاح الحمام ورددا

إله السماء والى مراحم طوله له الدهر ما سح السماء وأرعدا

مع الآل والأهل الحداد سلاحهم لأعداك حد السم هلكاً واكدا

ورهط رأوك الدهر مرأى وأرصدوا لأهل الهوى صلاحهم لاح والهدى

نظام التعليم عند المجاذيب

بداية النشاط التعليمي للمجاذيب تعود إلى الحاج عيسى ابن قنديل الجد الأكبر للمجاذيب الذي تروي الروايات الشفهية بأنه أنشأ خلوة للتعليم في قرية الشعديناب بالقرب من مدينة الدامر الحالية.

وتعتبر الخلوة أساس النظام التعليمي المجذوبي ويطلق عليها «نار القرآن» وبدأت كنشاط منظم في عهد حمد بن عبد الله ـ مؤسس الدامر والذي كان يقوم بتدريس صبية الرعاة وأهالي الدامر دروس القرآن الكريم. وبعد نمو الدامر توسعت الخلوة وأصبح بين أحشائها طلاب من مختلف بقاع السودان بعضهم لا يعرف اللغة العربية الأمر الذي أدى إلى تقسيم طلاب هذه المرحلة لشرح المواد الدراسية للطلاب.

واستفاد المجاذيب من طلاب المرحلة الوسطى «نار العلم» القادمين من

مناطق مختلفة في التدريس والإشراف على أبناء قبائلهم في مرحلة الخلوة.

ولم يكن النشاط في هذه المرحلة يقتصر على الدراسة بل إن الطلاب كانوا يساهمون في زراعة الأراضي للمجاذيب وهبات الخلاوي من الأراضي التي يدفعها الملوك والأغنياء.

وكان الطالب يملك حق العمل في الأراضي الأخرى أو الاحتطاب أو توفير بعض المال الذي يتوق إليه رغم مجانية الإعاشة والسكن في خلاوي المجاذيب ومن أبرز شيوخ هذه المرحلة الشيخ «الحاج علي بن أحمد» معلم المجذوب الصغير ومحمد الخير، أحد شيوخ المهدي والشيخ الطيب بن الفقيه عبد الله النقر في أخريات القرن الثامن عشر.

ورغم أن مرحلة الخلوة تستمر ثلاثة أعوام إلا أنها تعطي إجازة لطلابها لكن حفظ القرآن وتجويده ومعرفة القراءة والكتابة تعد جوازاً للمرحلة الوسطى [نار العلم] ويقول الأستاذ مجذوب النقر أن شرط الثلاث سنوات لم يقف عائقاً يحرم من الانتقال للمرحلة الوسطى بفضل نظام الإعادة الذي انتهجه المجاذيب.

وفي المرحلة الثانية من السلم التعليمي نجد مرحلة «نار العلم» وقد ظهرت في حياة حمد المجذوب عندما بلغت الدامر أوج ازدهارها.

وتهتم هذه المرحلة بدراسة الفقه والعلوم الدينية والعربية والشعر والأدب العربي وتعتمد على الإشراف المباشر لمدة سبع سنوات يعطى الناجحون في نهايتها إجازة تتيح لحائزها تدريس المدارس الفقهية المختلفة ومن أمهر أساتذة المرحلة الوسطى «نار العلم» حمد بن المجذوب وابنه الفقيه عبد الله النقر وحفيده الطيب بن أحمد[1].

ومن أشهر علماء القرن الذين درسوا في هذا المكان العلامة الشيخ

---

(١) الدكتور كرستي مجلة الثقافة السودانية، السنة الخامسة العدد السابع عشر.

مجذوب بن جلال الدين والشيخ قمر الدين بن أحمد جلال الدين.

ومن الذين درسوا في خلوة المسيد العالم الفذ اللغوي النحوي الشاعر عبد الله الطيب والشاعر الكبير محمد المهدي مجذوب، وذكر الأستاذ محمد المهدي المجذوب خلوة «أبونا» عبد الله النقر في مقدمة ديوانه (الأول) نار المجاذيب قال:

رأيت طفولتي الباكرة على ضوء هذه النار المباركة ونظرت إليها وسمعت حديثها وعلمت وانتشيت وغنيت.

أوقدها الحاج عيسى ود قنديل والسودان في ملك «العنج» النصارى من أهلية فالتفت في ليل «درُّو» الساكن تلقي ذوائبها الذهبية على الحيران تحلقوا حولها وعانقوا الألواح ورتلوا القرآن سهر حولها الفرسان والفقهاء يسبحون وينشدون سماحة بين الناس وأمناً وأريحية قروناً طوالاً حتى الساعة. ودفع بي أبي إلى ضوء هذه النار فرأيت وجه شيخي وسيدي شيخ الفقراء الورع الحافظ محمد ود الطاهر.

وخرجت مع الحيران إلى «الفزعة» لنحتطب وفي قبضتي الصغيرة «فَرَّارٌ»[1] وماء من بحر النيل في زجاجة خضراء وتغوص أقدامنا في كثبان الرمل المسر؟ وتتعلق أعيننا بزرقة النيل ورؤوس الدوم والنخيل ونرى طفولتنا في السدر الظليل ونعود للنار بالعشر والسلم وتطعمنا النار مغرب كل أربعاء كرامة من بليلة اللوبيا المبارك وعيش الريف الحلال.

فوز العلم

على عهد باكر والخلوة في عنفوان صباها كان اهتمام المشائخ في المقام الأول أن يحفظ الطالب أكبر قدر من آي الكتاب دون التفات لضبط وتجويد ثم أحس جمهرة الفقراء أنهم في حاجة شديدة لضبط القرآن وتجويده ففزعوا إلى بعضهم بعضاً يعلم أحدهم الآخر أصول القراءة والضبط.

---

(١) الفرّار ـ فأس صغير.

الشيخ صغيرون

محمد بن سرحان العودي وأمه فاطمة بنت جابر قرأ على أخواله أولاد جابر خصوصاً خاله اسماعيل وحدث شجار بينه وبين أبناء خؤولته بسبب المنافسة اضطره لأن ينزح لأرض «الأبواب» ديار الجعليين ومما حركه للرحلة ومغادرة دنقلا أن الملك عدلان ود أية بعدما قتل الشيخ عجيب المانجلك في كركوج «الحريف شرق».

سافر بجيوشه إلى دار دنقلا فلما جاء «حفير مشو» عزله الفونج عن الملك وولوا بدله الملك «بادي سيد القوم» فحينئذ طلب منه الملك المخلوع عدلان أن يسافر معه لأرض الصعيد وقال له الشيخ صغيرون «بَلْحَقْكُم»[1] ثم قدم بعده إلى أرض الصعيد بأمه وإخوانه وزوجاته وأولاده وفي الطريق اختلف طلبته. أهْلَ السافل قالوا ينزل معنا. وقال مثلهم أهل الصعيد فقال لهم الشيخ صغيرون سوف أختار الله. ثم خرج يحمل ركوته «إبريقه».. ولما رجع من الخلاء أخبرهم أنه اختار «قوز المطرق» جنوبي شندي وقوز المطرق كما يقولون كان به رهط من الجعليين الحاكمين. والحاكمية كانت تسمي عند قدامي الجعليين «المطرق» وتعني صولجان الملك وكانت مملكة الجعلين تتكون من ستة مطارق واحدة منها في هذا القوز الذي سمي بها «قوز المطرق» وبعد نزول الشيخ صغيرون به سمي «قوز العلم» لأن الشيخ صغيرون كان أول من أوقد نار العلم جوار نار القرآن وقد أمره رجل صالح أن يدرس في هذا المكان وغرس له عصا في الأرض وقال له اجلس في هذا المكان والشعبة التي غرسها بقيت «دهراً» طويلاً على حالها إلى أن تآكلت بطول السنين ولما أصبحت هيكلاً نخراً أحاطوها بحجر مجوف مثل الماسورة وهي الآن أمام موقع الخلوة.

جلس صغيرون في هذا المكان ثلاث عشرة سنة بذلاً وجهداً إلى أن توفاه الله

---

(١) ألحق بكم ـ من اللحاق.

ودفن بالقرب من مكان خلاويه وصغيرون هذا من أبكار الرجال الذين درسوا التجويد ومن تلاميذه الكبار الشيخ دفع الله ابن الشيخ أبو إدريس العركي والفكي عبد الرحيم ود بحر وأولاد بري علي إبراهيم والشيخ تور المتنا الكاهلي وغيرهم وصغيرون لم يقف على المعرفة التي تلقاها من خؤولته إنما هبط مصر وجلس مع طلبة الشيخ «البنوفري» فتنبأ له بالنبوغ في الدراسة.

ومن المشايخ الذين اهتموا بتدريس التجويد كما ذكر ود ضيف الله الشيخ محمد عيسى سوار الذهب وتلميذه النابغة الفكي عيسى ود كنو وكان يدرس بمسجد «حفير مشو» بدنقلا.

مسيد الجوير

مسيد مشهور جداً في منطقة شندي وقد أسسه الشيخ محمود الصاردي الذي قدم من شمال السودان لدار الأبواب[1] أرض ـ الجعليين ويعرف المسيد وخلاويه باسم أولاد جابر. ولما كان البيت بيت قرآن وعلم فقد جعلوا ثبتاً لمشايخ المسيد أولهم المؤسس.

١ـ الشيخ محمود بن عبد الرحيم أبو رجلين.

٢ـ الشيخ الحاج جابر وهو الذي تسمت به الأسرة آل الحاج جابر.

٣ـ الشيخ محمد.

٤ـ الشيخ عبد القيوم.

٥ـ الشيخ عبد الله.

٦ـ الشيخ محمد.

٧ـ الشيخ المأمون.

---

(١) دار الأبواب اسم من أسماء منطقة الجعليين ولا تستعمل عبارة دار الأبواب في زماننا هذا إلا عند من يعالجون الكتابة في المصنفات إلخ..

وما زال هذا المسيد عامراً بخلاويه وضيوفه والناس تقصده من كل الجهات.

ولفت نظري أن كتب تأسيسه بالتاريخ الميلادي بلافتة تلاحظها العين من بعيد ١٦٥١م.

وهذا أمر لا يستقيم مع رسالة هذه المسايد والخلاوي ورغم احترامنا للتاريخ الميلادي كان ينبغي أن يسبقه التاريخ الهجري الذي نشأت في كنفه هذه المدارس القرآنية فإن عام ١٦٥١م يقابله ١٠٦٢ هـ.

الكتّياب

ما ذكر اسم الكتياب إلا تذكر الناس دراسة القرآن فقد اشتهرت هذه الجماعة من بين أبناء عمومتها بحفظ الكتاب الكريم. ومر عليهم زمان كانت القرية تحفظ القرآن على بكرة أبيها.

ورغم انصراف أهل الكتياب للتجارة والزراعة فإن رهطاً كبيراً منهم يحفظ القرآن. زراعاً وتجاراً ورعاة ويرجع اسم الكتياب إلى جدهم أحمد الملقب بأبي كتاب أو «أبو كِتَيْ» ومنه اشتقوا اسم «الكتياب» أما جدهم الأكبر فيسمى عبد الله أبو خمسين ــ وزعموا أنه لقب بذلك عقب معركة دارت بين أهله والفونج[1] في «العقبات»[2] وهي المنطقة الواقعة بين الهوبجي ومنطقة ود حامد على الضفة الغربية للنيل وتحسب المنطقة من أرياف مدينة شندي.

كان عبد الله أبو خمسين يقيم وأسرته في «العقبات» حينما نزل بهم جيش الفونج بقيادة الفارس المشهور «ود كِوِينه» حط ود كوينه في الضفة الشرقية وأبو خمسين وجماعته في الضفة الغربية وكان جيش الفونج كبيراً فاحتال عليهم أبو خمسين وأوهمهم أن جيشه يفوق جيشهم مرات..

---

(١) تعرف الواقعة بواقعة «ود كِوينة».

(٢) العقبات منطقة معروفة تقع جنوب المتمة بالضفة الغربية.

وكان لديه خمسة خيول «فقط» فصار يوردها النيل وقبل أن ترتوي يصدونها عن الماء وبعد برهة يغيرون من هيئتها ويوردونها ثانية وهكذا أوردوها عشر مرات فصارت في نظر العدو خمسين فارساً فأفزعهم هذا المنظر وانطلت عليهم «الخُدْعة» وقفلوا راجعين من غير قتال. فلقب منذ ذلك الحين بعبد الله أبو خمسين.

ولد عبد الله أبو خمسين ابنه أحمد وبعد أن شب شغفه حب الكتاب «المصحف» وصار يربطه في عنقه أينما ذهب وصار مشهوراً به فلقبوه بأبو كتَيِّب ثم رخموا الكلمة فصارت «أبو كتي» وأصبح أبو كتي جد الكتياب وبه اشتهروا.

وله يعود فضل تأسيس مسيد القرآن وذكروا أن والده أبو خمسين كان ـ يحفظ ـ القرآن وأن ابنه أحمد حفظ عليه في المكان المعروف «بالعقبات» وقيل أن أبو خمسين عاش ومات في تلك المنطقة. والعقبات عَمَرَها من قبلُ العالمان المشهوران علي وإبراهيم أبناء بري.

وما زالت آثارهم دالة عليهم.. أما مسيدهم فقد أخنى عليه الدهر وصار أثراً بعد عين، وقد ارتوى كثير من الرجال العظماء من فيض أولاد بري كما أشار إلى ذلك صاحب الطبقات مراراً. وعبد الله أبو خمسين أنجب ولدين غير أحمد أبو كتي هما بله وأبو حريرة وأنجب بله فرعاً يعرف بـ«البلياب» جزء استقر بمنطقة البطانة شرقي مدينة رفاعه أما الأخ الثاني أبو حريرة فنسله موجود في قرية الحيراب الواقعة غربي شندي بين قريتي ـ الجبلاب وطيبة الخواض.

انتقل أبو كتي من العقبات لمكان أسرته الحالي غرب المحمية وكان رحمه الله ورعاً وماهراً في الحفظ والتجويد وأول ما استقر بنى المسيد وبنى الخلوة وذلك في سنة ١٠٨٢هـ حسب التاريخ المثبت عند مشايخ الكتياب ثم تشعب من هذا المسيد عدد من المدارس القرآنية والخلاوي الصغيرة ومنذ ذلك العهد وإلى يومنا هذا ظل المسيد يؤدي رسالته دون كلل أو إبطاء وتبعته المدارس المتفرعة منه كذلك.

وقيل إنها اثنتا عشرة مدرسة وقيل أزيد من ذلك.

وأصبح أهل الكتياب أهل ذكرى حسنة ووثق فيهم الجمهور وصاروا يدفعون أبناءهم لمسيد الكتياب[1].

والمسيد في هذه المنطقة وغيرها لا يكلف الطالب بأي عبء مالي أو غيره فطعامه وسكنه وكساؤه يقوم به أهل القرية التي بها المسيد وهذا أمر بدهي في كل المسايد.

مقبرة الحفظة

ولعلها المقبرة الأولى في السودان أو في افريقيا وربما لا يوجد لها نظير في بلاد المسلمين الأخرى ـ فقد خصص أهل الكتياب جزءًا من مقبرة «أبو كتي» الكبرى ـ خصصوا مكاناً لمقابر حفظة القرآن الكريم لا يفصل بينهم أي قبر لم يحفظ صاحبه القرآن وقد دفنوا أربعين شيخاً من الحفظة الآخرين في رقعة واحدة لم يتخللهم أحد. غير حافظ لكتاب الله.

وعلمت أن أهالي جبل «مرة» بدارفور فيما مضى خصصوا مدفنة لحفظة القرآن الكبار الذين يعرفون «بالقُونية» مفردها قوني[2] وهو الحافظ الماهر المجود لعلوم القرآن وذلك في مقبرة ملوك الفور الشهيرة بمنطقة «طرة».

وأنجبت الكتياب أفذاذاً من العلماء الشعراء وينبغي أن نشير هنا للمرحومين ـ التجاني يوسف بشير ـ ومحمد عبد الوهاب القاضي ومحمد سعيد الكهربجي والأستاذ عبد المنعم حسب الله وغيرهم من نابغي الجيل.

---

(١) رواية الشيخ عبد الرؤوف عبد الوهاب القاضي شيخ خلوة الكتياب.

(٢) كلمة قوني تطلق في السودان الغربي على العالم المتبحر في علوم القرآن وظني أنها كلمة برناوية ـ نسبة لقبيلة البرنو بنيجيريا.

المسيد اليوم:

ما زال المسيدان الكبيران مسيد سيدي الشيخ عبد الله الكتيابي ومسيد الشيخ عبد الرؤوف عبد الوهاب القاضي يؤديان رسالتهما بالإخلاص والتجرد الذي اشتهرت به أسرة الكتياب وازداد إقبال الطلبة عليهم في هذا الزمن.

وقد لاحظت وأنا أزور الكتياب أسماء قراء القرآن ورواته وبالمسيد ثلاث عشرة خلوة جاءت تسميتها هكذا.

قراء القرآن:-

١/ خلوة ابن كثير.

٢/ خلوة عاصم.

٣/ خلوة أبي عمرو.

٤/ خلوة نافع.

٥/ خلوة الكسائي.

٦/ خلوة ورش.

رواة القرآن:-

١/ خلوة الدوري.

٢/ خلوة هشام.

٣/ خلوة قنبل.

٤/ خلوة السوسي.

٥/ خلوة ابن ذكوان.

٦/ خلوة قالون.

٧/ خلوة حفص.

وأطلقوا هذه الأسماء على الخلاوي من باب التيمن والاعتراف بفضل الأولين من القراء والرواة رحمهم الله.

السروراب الجعليين المحس

حينما يثبت أهل مسيد «ما» نسبهم فإنهم يفعلون ذلك على سبيل التوثيق.

الوثيقة التالية أخذتها من الشيخ عبد الرحمن محمد أحمد محمد نورين من أهل مسيد السروراب بمنطقة الكتياب وعجبت أن الوثيقة عولت على التاريخ الميلادي مخالفة بذلك ما درج عليه أهل المسيد والخلاوي في كتابة التاريخ الهجري ومن قبل لاحظت أن أبناء الحاج جابر وأصلهم صواردة كتبوا تاريخ مسيدهم بالعام الميلادي.

الوثيقة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد. فهذه نسبة السروراب أولاد الحاج «حَمَدُوبَه» واسمه أحمد ولكن أهله المحس حوروا اسمه ليكون «حَمَدُوبَه» وهو أول من جاء إلى بلاد «الأبواب» وكان يحفظ القرآن وعلم كثيراً من أبناء المسلمين وهو ينتقل من مكان إلى آخر إلى أن استقر في بلاد «الأبواب» السروراب غرب بلدة المحمية.

استقر بها وعمر المسيد والخلوة وقام بتدريس القرآن ثم تلاه ابنه الشيخ سرور جد السروراب وهو أول خليفة بعد حمدوبه وتوفي حمدوبه سنة ١٣٥٢م[1] واستمر الشيخ سرور إلى أن توفي سنة ١٤٠٣ وتلاه الشيخ محمد وفي عهد الشيخ

---

(١) حصلت على هذه المعلومة قبيل انتهاء هذا الكتاب وإذا تتبعنا هذه الوقائع التاريخية يتضح أن مسيد السروراب يعد من أقدم المسايد والله أعلم.

محمد كتب المصحف المشهور باسم «أبو نُميْ» وهو أشهر مصحف في المنطقة وكاتبه هو محمد أبو نمي ابن السيد أبو الفضل بن السيد يحيى بن السيد أبو الفضل ابن السيد محمد بن السيد أحمد بن السيد طه بن الشريف الحسيب النسيب مجاهد «النبراوي» بلداً والشافعي مذهباً غفر الله له ولوالديه وتم نسخ هذا المصحف الشريف في يوم الاثنين وقت الضحى نهار عشرة من شهر رجب سنة ست وستين وألف من الهجرة وبعد ذلك توفي الشيخ محمد سنة ١٤٦٢ وقام بالمشيخة بعده ابنه الشيخ تاتاي الذي توفي سنة ١٥٠٧ وبعده قام بالإقراء أخيه الشيخ سرور إلى ١٥٦٧ وتلاه أخوه الشيخ حمدوبه الذي توفي سنة ١٦٤٧ وبعد الشيخ عبد الرحمن إلى ١٦٦٧ وتلاه الشيخ عبد الرحيم المتوفى سنة ١٧٣١ وبعده ابنه الفكي الأمين إلى سنة وفاته ١٧٨٦ وقام بالخلافة ابنه الفكي نورين إلى سنة ١٨١٢ وبعده ابنه أحمد سنة ١٨٩٦ وتلاه أخيه الشيخ عثمان إلى سنة ١٩٧٠ وقام بعده ابنه الشيخ محمد وتوفي سنة ١٩٧٧ وقام بأمر الخلافة ابنه الشيخ تاتاي بن الخليفة أحمد وهو الآن خليفة المسيد.

هذا ما وجدناه في التاريخ من الأجداد والله الموفق نقل هذا التاريخ من أصله ـ الشيخ عبد الرحمن محمد أحمد نورين ابن الفكي الأمين.

حلف اب دنانة:

الناس عموماً خاصتهم وعامتهم في هذه المنطقة يجمعون على صحة نسبة «بنات» الشريف حمد اب دنانة وأن كل واحدة منهن أنجبت علماً من الأعلام المعروفين ورغم هذا الإجماع ووثيقة مولانا الشيخ أحمد الشريف المهدي إمام جامع الخرطوم «سابقاً» وكتابة الشيخ عبد الله ود الهاشمي[1] فإني كثير الشك في هذه الرواية التي لا يد للشيخ أحمد فيها ولا لمن حدثوني فهم سمعوا من

(١) كتاب هداية الوهاب في أنساب العمراب، تأليف الشيخ عبد الله الهاشمي.

آبائهم وأجدادهم هذا النسب فهم يروونه كما سمعوه وكل الروايـات متفقـة علـى أن الشيخ حمد اب دنانة أنجب سبع بنات هن:

١ـ أمونة.

٢ـ حليمة.

٣ـ ود يت.

٤ـ رابحة.

٥ـ عائشة.

٦ـ مكة.

٧ـ فاطمة.

وابناً واحداً هو الحسن البيت. وشكّي مبني على عدة أسباب.

١/ حمد اب دنانة يقيم في منطقة الجعليين بلدة «المحمية» والذين صـاهروه يقيمون في مناطق نائية بالنسبة لمواصلات ذلك العصر فآل سوار الذهب في دنقـلا وكذلك آل عبد الله الأغبش أما الركابية وآل عبـد الصـادق فمنطقتهـم أعـالي نهـر الرهد وأطراف البطانة جهة القلعة «رانج» المطلة على القضارف.

والبعد في ذلك الزمان مانع كبير.. كيــف رأى الأزواج بنـات الشـريف حمـد ولـم يرد في كل الروايات أن واحـداً مـن الأزواج رأى بنـات الشـريف حمـد ولـم يثبت أنهن رأين أزواجهن.

وكذلك لم نسمع رواية تفيد أن واحداً من «أزواج» بناته درس عنده أو كانت لأهله صلة بالشريف حمد.

وإذا افترضنا أن الشريف حمد هو الذي اختار هؤلاء الرجال أزواجاً لبناته فأين لقيهم وكيف تم الاختيار.. وفي ذلك الوقت المبكر لا يتم الزواج إلا بين الأقـارب وخاصة بنت العم وإذا أخذنا في اعتبار أن ليس للشريف حمد أبناء عمومة فـالأولى

حسب العرف السائد أن يزوج بناته لتلاميذه أبناء المنطقة فقد عرفهم وخبرهم فهم الأولى بذلك.

٣ـ ولم يحدثنا راو أو متكلم عن «أبناء» بنات الشريف السبعة الآخرين هل أنجبت كل واحدة ولداً فقط أم أنهن أنجبن أولاداً كثيرين وما عدد ذلك الولد وأين هم وأين ذراريهم الآن. لا حديث عن ذا ولا ذكر فلم ينتبه راو واحدٌ للأبناء والبنات الآخرين فكل الرواة يقفون عند البنات السبعة اللائي ولدت كل منهن ولداً واحداً وهذا أمر نادر الحدوث أن تلد كل واحدة ابناً واحداً ويصير علماً من أعلام البلاد. هذا وربما كان لهن أولاد ولكن الرواة أهملوهم وركزوا على هؤلاء الأعلام.

الحلف الدناني:ـ

وتقديري أنه ربما كانت هنالك صلة بين المشايخ عمر ود بلال والشيخ شرف الدين بن محمد فكرون المعروف «براحل انقاوي» بحكم الصلة الأهلية فبين عمراب «المُطمَر» والزيداب مسافة قريبة.

أما الصلة بين المشايخ الأعلام فهي لا تعدو أن تكون حلفاً «عربياً إسلامياً» وفي ذلك الوقت كان الناس بحاجة لمثل هذا الحلف الذي يحمي عرضهم وأرضهم وعقيدتهم ويُمكّن لهم في بلاد العنج هذه.

فكان أن خرجوا بهذه الحبكة التي أثمرت هذا الحلف الذي شمل معظم المناطق الحية التي يتجمع فيها وحولها الجمهور وكان ثمرة هذا الحلف المصادقة والمراحمة التي انبثقت منها هذه المودة التي يستشعرها أبناء هذه الأسر رغم أن بعد الزمان بينهم وبين أجدادهم الذين تفصلهم وإياهم مئات السنين وقد حفظ هذا الحلف كيان المجتمع حتى يومنا هذا.

وفي رواية أن الشيخ عبد الله العركي أيضاً ابن خالة هؤلاء المشايخ.. ولكن

رواية نسبة العركي ضعيفة فلم أسمعها متكررة ولم ترد في وثيقة الشيخ أحمد ولا كتاب الشيخ الهاشمي العمرابي وغيرهما من الذين يحتفظون بشجرة الأنساب، التي أرخت لنسب بنات حمد اب دنانة والله أعلم.

هداية الوهاب:

تحدث الشيخ ود الهاشمي عن نسب جده الشيخ عمر بن بلال من «أمة» قال وأما نسبه من جهة أمه فأقول أن أمه كانت تدعى «وديت» بنت الشريف حمد ابو دنانة بن الشريف سليمان أبو الريش ساكن بيلا صاحب الغار المشهور بالسودان ابن السيد محمد بن السيد أحمد بن بكري بن السيد عبد السلام بن السيد داؤود بن السيد سليمان بن السيد كمال الدين بن السيد جلال الدين بن السيد علي الهادي بن السيد حسن العسكري بن السيد محمد الجواد بن السيد علي الرضا بن السيد موسى الكاظم بن السيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن السيد علي زين العابدين بن السيد الحسين بن السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ.

وأن السيدة وديت هذه والدة الشيخ عمر بن بلال وهي إحدى بنات الشريف حمد أبو دنانة السبعة وهن.

الأولى وديت والدة الشيخ عمر بن بلال.

الثانية أمونة والدة الشيخ محمد عيسى سوار الذهب.

الثالثة رابحة التي أنجبت الشيخ شرف الدين.

الرابعة عائشة أنجبت الشيخ عجيب المانجلك.

الخامسة فاطمة المرضية الملقبة بصلحة أنجبت إدريس ود الأرباب.

السادسة مكة أنجبت الشيخ محمد الهميم ولد عبد الصادق.

السابعة حليمة أنجبت عبد الله الأغبش.

وذلك مروي عن الفقيه العباس بن محمد الهادي نقله عن الفقيه حجازي الولي الصالح بن الفقيه دفع الله نقله عن الشيخ الطيب بن البشير.

أبناء بنات الشيخ اب دنانة عند ود ضيف الله.

ود الأرباب

قال ود ضيف الله في ترجمته له ـ ولد رضي الله عنه في العيلفون وقيل الحليلة شوحطت سنة ٩١٣هـ وتوفي ١٠٦٠ عن عمر ناهز الـ١٤٧.

محمد بن عبد الصادق بن ماشر الركابي لم يذكر شيئاً عن تاريخ ميلاده ووفاته.

محمد عيسى سوار الذهب.

قال امه اسمها «حقيقة» وعند الرواة الآخرين اسمها أمونة. أخذ عليه القرآن وأحكامه على عيسى ولد كنّو وعبد الله الأغبش ونصر الترجمي ود الفقيه أبو سنينة شيخ اربجي والفقيه عبد الرحمن أبو صلاج والد الشيخ شرف الدين أبو جمال الدين بن محمد فكرون.. وُلِدَ الشيخ شرف الدين بمويِس ثم انتقل ودفن في انقاوى جهة الزيداب.

عبد الله الأغبش:

البديري الدهمشي، حفظ الكتاب على الشيخ محمد سوار الذهب توفي ودفن في بربر.

لم يزد ود ضيف الله عن هذا في ترجمته لهؤلاء الرجال ولو كان هذا حقيقة.. لنبه إليه الشيخ ود ضيف الله وهو أقرب منا إلى ذلك العهد وكان ود ضيف الله رحمه الله يهتم كثيراً بالترجمة لهؤلاء الأعلام.

والموضوع في ظني محبوك بواسطة تلاميذ الشيخ اب دنانة فمن لم يكن جده

اب دنانة بالحسب والنسب فليكن جده الشيخ حمد اب دنانة مجازاً وسلامة القصد والنية متوفران.

مسيد الأغبش:

من أقدم المساجد وأشهرها في وادي النل أنشأه الشيخ عبد الله الأغبش بن محمد ماجد المشهور «بكندمر»[1].

وتتفق الروايات أن تأسيسه تم في القرن العاشر الهجري.

وتأسيسه الأول كان على شاطىء النيل الغربي قبالة بربر القديمة «المخيرف» ثم نقل من شط النيل حوالي نصف كيلو وعللوا نقل المسيد أن الشيخ عبد الله الأغبش رأى في المنام أن يصلي في هذا المكان.. فقرر نقل المسيد لهذه البقعة المعروفة وحمل كل حفظة القرآن معه حجراً ووضعوا الحجارة على دائرة وتسمى دارة الحجارة هذه «المزروب» ثم توسع المسيد من بعد، فصار له عدة خلاوي وبنايات أما المزروب فقد خصصوه مصلى على الموتى وأصبحت الصلاة على الجنازة داخل المزروب تقليداً..

وظلت نار القرآن مستعلة في هذا المكان من غير توقف إلى عهد المهدية وانضمام الشيخ محمد الخير إليها وبعد رجوع محمد الخير من الأبيض حيث بايع المهدي في «بقعة» الأبيض حضر وفي يده الإمارة على بربر. وبعد وصوله بأيام جند طلبة القرآن والعلم لفتح مدينة بربر وأمر أهل البلد أن يرحلوا إلى الضفة الشرقية للمشاركة في الجهاد وتنفيذاً لأمر الأمير رحل كل أهل منطقة الغبش وتلك هي الفترة التي تعطل فيها المسيد وخمدت نار القرآن التي ظلت مشتعلة قروناً عديدة.

وبعد المهدية دخل الغازي البريطاني ورجع بعض الناس الذين يهمهم أمر

---

(١) كندمر ـ اسم اشتهر به آل الشيخ عبد الله الأغبش في دنقلا.

المسيد كالشيخ الأمين وأوقدوا نار القرآن مرة أخرى ولكن الدراسة لم تستمر كثيراً.

لأن «الغبش» خرجوا من المهدية وليس لديهم شيء يصرفون منه على الطلاب فقد بذلوا كل ما يملكون في سبيل نصرة المهدية.

والذين تولوا الخلافة في هذا المسجد وجلسوا لتدريس القرآن.

١ـ الشيخ الفقيه عبد الله الأغبش.

٢ـ الشيخ الفقيه حمد ولد عبد الله الأغبش.

٣ـ الشيخ الفقيه عبد الماجد ولد حمد توفي ١١٢١.

٤ـ الشيخ الفقيه حمد بن الفقيه عبد الماجد قرأ عليه «حمد ولد المجذوب» وأخذ منه شعلة القرآن إلى أن أوصلها الدامر في كرنفال مشهود.

٥ـ الشيخ الفقيه محمد بن حمد بن الفقيه عبد الماجد.

٦ـ الشيخ الفقيه خوجلي بن محمد بن حمد بن الفقيه عبد الماجد.

٧ـ الشيخ الفقيه محمد بن خوجلي.

٨ـ الشيخ الفقيه الأمين ـ «وهو معاصر للشيخ محمد الخير وفي عهده قامت الثورة المهدية وتعطل المسجد وبعد المهدية رجع وأوقد نار القرآن من جديد في زمن صعب ولكنه لم يعمر طويلاً.

الفقيه الشيخ سعد بن أحمد بن الفقيه الأمين تولى الخلافة بعده الفقيه عبد الماجد بن الفقيه الأمين ـ وكان يقوم بالتدريس ومعه الشيخ محمد الأمين محمد الخير وكثر عدد الطلاب في زمنهما ثم أخذ يتقلص عدد الطلاب بعد رحيل الشيخ محي الدين إلى بربر ووفاة الخليفة عبد الماجد.

غذاء الطلاب وضرورياتهم:

كان غذاؤهم من «سواقي» الغبش وكان عددها ٨٠ ساقية وكانت تصلهم إعانات من الموسرين من أبناء الغبش المسافرين في بقاع السودان كالجزيرة «الصعيد» وكردفان وفي العهد التركي كانت تصل للطلاب إعانة سنوية من الحكومة.

مسيد راس الوادي:

بربر مدينة قديمة في تاريخها وقد زارها وهاجر إليها جماعات من معلمي القرآن وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الأغبش صاحب المسيد الأشهر «مسيد الغبش» وبالقرب منه مسيد كدباس.. مقر الشيخ أحمد الجعلي والشيخ أحمد الجعلي رحمه الله من أبرز شيوخ القرآن وقد انتخبه خليفة المهدي «أيام حكمه» شيخاً على مشائخ القرآن لدقة حفظه ومهارته في تجويد القرآن.

وكدباس اليوم ١٤٠٩هـ يوجد بها أكبر مجمع لحفظ القرآن في المنطقة ويليها مسجد الشيخ ود الفكي علي المشهور باسم مسيد «الحلفا» وغير ذلك كثير.. ومن الكثير هذا اخترت:

رأس الوادي الجزء الجنوبي من مملكة الميرفاب وحاضرتها قرية «السَّلَمة» جنوبي بربر ويعتبر هذا المكان قديم جداً ووجدت شاهداً مادياً في يد الخليفة العبد. إذ زرته في منتصف شهر شعبان سنة ١٤٠٢هـ وأطلعني على المخطوط الذي أرخ للمسيد، وبدأ المخطوط بسلسلة النسب ثم جاء ذكر المسيد وتأريخه أثناء السياق.. وبدا المخطوط هكذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

وبعد فلنذكر ما عَقْب شهيد كربلة «كربلاء» الإمام الحسين السبط بن علي كرم الله وجهه. من سيدة نساء العالمين السيدة فاطمة الزهراء أما ابنها الحسين فلم يعقب من الأولاد الذكور إلا الإمام علي زين العابدين إلخ.

وسرد الكاتب النسب إلى أن وصل إلى السيد حمد.. ويبدو أن المخطوط اهتم بأنساب «الكمالاب» الذين يتصل نسب مؤسس المسيد بهم قال:

إن السيد محمد قدم من فاس لزيارة الرسول ﷺ، ولما قضى زيارته أراد الرجوع إلى مدينة فاس، وقد تزوج من الأشراف القاطنين يومئذ «بالبَحِيرة»[1] وكان في زمن السلطان بيبرص «بيبرس» وقد انتقل من البحيرة.. وأعقب من الولد السيد كمال الدين والسيد كِميل الدين والسيد أحمد الذي «نبتوا» منه الجعافرة والسيد حماد بفضاء (ادفو) والسيد أحمد «بالسليمية» ومن ذريته عبد الكريم الحرجاوي والسيد «جهين» بالأرض الوسطى بحوار طحطة «طهطا» والسيد عيسى بمدينة قيروان وإن السيد كمال الدين له ثلاثة أولاد ذكور أحدهم السيد المشهور بِشَنْدَقْ.. والثاني شَبُّو والثالث انشيك[2].

تفرع منه جميع الشندقاب ومن أولاده السيد علي أسد أعقبَ السيد عبد الله والسيد عبد الله أعقبَ السيد محمد والسيد عبد القادر، سكنته وذريته على شاطى

(١) البَحيرة ـ بلدة بمصر.

(٢) شندق ـ شبو ـ انشيك ـ يعتبر هؤلاء الرجال أجداد قبيلة المرغوماب بأرض البطانة (أم شديدة) ويتداخل نسبهم مع الكمالاب.

بحر النيل ببلدة تسمى ـ رأس الوادي وفي سنة ٨٦٩هـ أسس مسجده في تلك البلدة في زمن الأرباب الصايم[1].

وولد الصائم محمد الغنامي ذريته قاطنون بتلك البلدة وهم أهل أصلها وأن محل المسيد يسمى حلة «الدِّبيكر» بالسعدابية وله من الأولاد السيد المكي جد المكياب[2].

سكنته وذريته بحر النيل ببلدة تسمي
راس الوادي وفي حوالي ٨٦٩ هجرية قد
اسس مسجد بتلك البلدة في زمن الارباب
الصايم واولاده واحداً ولد الصايم محمد الغنامي
ذريته اهلها قاطنين بتلك البلدة وهم
اهلها وان محل المسيد يسمي حلة الدبيكر
بالسعدابيه وله من الاولاد السيد المكي وان
هو الذي لقبوا به المكياب وهو عقب
الفقيه السيد مصطفي والسيد [illegible]
عقب الفقيه السيد عبد [illegible]
واخيه السيد عجيب وعجيب [illegible]

نص الوثيقة التي أرخت قيام هذا المسيد

---

(١) رأس الوادي هو الجزء الذي يلي بربر جنوباً وله إدارة منفصلة تمتد حتى نهر أتبرا.

(٢) المكياب ـ آل الشيخ الخليفة العبد محمد النور.

الرباطاب

الرباطاب قبيلة نابهة الذكر وتقع بلادهم بين مملكة الميرفاب «جنوباً» والشايقية «شمالاً». هذا في التاريخ القديم حينما انشطر رباط وشايق من بني عمومتهم الجعليين القاطنين في منطقتهم المعروفة ـ بدار الأبواب ـ وكان بين الرباطاب والشايقية منطقة تكثر فيها الشلالات والصخور فلم يعمرها ـ لا ـ الشايقية ولا الرباطاب وظلت خالية من السكان إلى أن رحلت إليها قبيلة «المناصير» فعمرتها وبعد استقرار المناصير. صار الحد التقليدي للرباطاب جنوباً «السنقير» وشمالاً «شامخية» ثم ظهرت مدارس القرآن فانحاز إليها المجد والبطولة والنبل فشمر المجتمع عن ساعد الجد وعمر المسيد والخلوة وكان الرباطاب في الطليعة.

العبابسة

وظهرت في بربر أسرة الغبش وفي بلاد الشايقية أولاد جابر وفي دار الجعليين المجاذيب وفي بلاد الرباطاب ظهرت أسرة «العبابسة» وإليهم ينسب الفضل في إنشاء الخلاوي والمسايد ونشر التعليم في دار الرباطاب باديء ذي بدء والروايات الشفهية تؤكد أن مدارس العبابسة والمجاذيب والبديرية والركابية كانت على عهد المسيحية ويزعم الرواة أن رهطاً من العبابسة خرج من دار الرباطاب مهاجراً ومبشراً حتى استقر في جنوب كردفان تقلى «الجبال الشرقية» وسميت المنطقة باسم «العباسية» نسبة لهذه الأسرة وتزوج الشيخ العباسي من بنت ملك «تقلِى» وأنجب منها جد الملك «جيلي» وحسب عرف القوم صار السلطان و«المكوكية» من أسرة جيلي وما زال آل جيلي هم واجهة الجبال الشرقية المعروفة بتقلى العباسية والله أعلم.

أدوار الخلوة ووظائفها في المجتمع التقليدي

تنتشر الخلاوي في منطقة الرباطاب انتشاراً واسعاً وتكاد تكون لكل قرية في المنطقة خلوة خاصة بها. لكن هذه الخلاوي تتفاوت في أهميتها وأدوارها. وتبدأ الخلاوي من نواة في الحلة أو القرية تقوم بإيواء الضيوف، وتدريس مبادىء القرآن والكتابة. وتمثلها خلاوي سِبِنْس والباقير وانحرِى وكُرقس الجزيرة، وعشرات الخلاوي الأخرى المنتشرة في قرى المنطقة. وهناك خلاوي أكبر حجماً وتجمع أكثر من وظيفتين حين تقوم بجانب الضيافة وتعليم القرآن بالعلاج والتوثيق، والمحاية وتمثلها خلاوي العَابداب والخلوة «أم راو» وخلاوي مُقْرَات والحِجير. وهناك خلاوي ذات تأثير أكبر ووظائف أكثر تعدداً وتخدم مجموعة من القرى وتمثلها خلاوي القلوباب في «الطُوينة» وخلاوي الشكَاكِيك والسُنيناب في مَرُّو وخلاوي العبيداب في عتمور وهي تقوم بوظائف التعليم والضيافة وحل المنازعات والقضاء ولكنها تقتصر أن تكون خلوة شاملة في بعض الجوانب وخاصة النفوذ السياسي العام.

ويمكن القول بأن الخلاوي تتدرج من نواة صغيرة حتى تصل إلى مرحلة الخلوة الشاملة، وهذه مرحلة قل أن تصل إليها خلاوي كثيرة في المجتمع التقليدي وتختص بهذا الدور خلوة واحدة رئيسية تمارس نفوذاً عاماً على جميع المنطقة وهي خلوة الدراسة.

سنهتم بالدور الذي تقوم به هذه النوعية من الخلاوي كمصدر أساسي للدراسة. وقد اخترت لهذا البحث خلوة «العبابسة» في «ندى» وهي من هذا النوع الشامل ويعترف لها المجتمع في منطقة الرباطاب عامة بالسبق والريادة.

الأدوار التي تقوم بها الخلوة في المجتمع التقليدي

الدور السياسي والاجتماعي

أول أدوار الخلوة أنها برلمان المنطقة المعبر عن آراء سكانها في مشاكلهم الاجتماعية العادية وهي مكان حل المشاكل الفردية والعامة أو المشاكل السياسية التي تهم جميع الأفراد وتدل المعلومات المتاحة حول الخلوة أنها كانت طوال تاريخها الدار التي يتجمع فيها سكان المنطقة المحددة لمناقشة الأحداث وتبادل الآراء وعرف الناس في ديار الرباطاب بجانب أسرة العبابسة أسرة «البوشاب» وغيرهم من بناة النهضة التعليمية.

ثم عمرت في دار الشايقية وفي بربر والجعليين وصار المؤرخون يركزون على هذه الخلاوي والمسايد وأهملوا من غير قصد خلاوي الرباطاب ذات التاريخ البعيد.

وفي عصرنا الحاضر يسر الله ابناً من أبنائهم كتب بحثاً بعنوان المؤسسة الدينية التقليدية دورها ووظائفها في مجتمع الرباطاب نال به درجة علمية رفيعة جزاه الله خيراً..[١]

نهاية الكنيسة في المنطقة وبداية ظهور الخلاوي

يصل الأب فانتيني[٢] في دراسته للكنائس في السودان إلى قناعة بأن الكنيسة المسيحية لم تنهر انهياراً سريعاً وإنما ماتت موتاً بطيئاً. وأن آثار الكنائس تدل على أن انتهاء دورها كان تدريجياً ومن المحتمل أن بعض الخلاوي نشأت في

---

(١) الأستاذ الدبلوماسي أحمد المعتصم، كاتب هذا البحث.

(٢) فانتيني قسيس وكاهن مشهور وله مساهمات كبيرة وهو إيطالي الجنسية ويقيم في الخرطوم.

أواخر عهد الكنائس المسيحية وأنها استطاعت أن تعيش في المنطقة قبل أن تندثر الكنيسة المسيحية وتكون الغلبة للمؤسسات الإسلامية.

وتشير بعض الوثائق المتاحة إلى أن أحداد أسرة العبابسة دخلوا المنطقة أثناء حكم العنج «المسيحية» وأنهم استطاعوا أن يضعوا أقدامهم في بعض الأماكن في المنطقة. وهذا يعني أن مجموعة مسلمة استطاعت التغلغل التدريجي، ومن ثم دخل الإسلام في المنطقة عن طريق هذه العناصر في الفترة التي كان العناصر المسيحية تحكم فيها ومن الواضح أن نمط السكن في الفترة الأخيرة من العهد المسيحي كان ينحو نحو سكنى الجزر الحصينة وإفراغ الضفتين الشرقية والغربية من السكان. وهذا «الفراغ» الذي حدث في ضفاف النيل وخاصة الضفة الشرقية أصبح جاذباً لعناصر جديدة أغلبها من المسلمين وتدلنا أسماء الأماكن الحالية في المنطقة لهذه الظاهرة حيث أن أسماء الأماكن كما أشرنا سابقاً في الضفة الشرقية أسماء عربية وأسماء الجزر تغلب عليها الأسماء «النوبية» البحتة والضفة الغربية فيها نسبة قليلة من الأسماء العربية وغالبيتها أسماء نوبية وهذا يعني أن الأقليات المسلمة استطاعت أن تنشيء مؤسساتها الدينية في وقت كانت فيه الكنائس تؤدي دورها نحو السكان المسيحيين وتنشط وسط رعاياها ويبدو أن التعايش بين المؤسستين المسيحية والإسلامية تم دون صراع حاد بينهما.

وبطول الزمن بدأت المؤسسة الإسلامية تجذب أعداداً متزايدة من السكان المحليين إليها. وعلى حساب الكنيسة حتى جاءت المرحلة التي أصبحت فيها الكنائس نفسها أماكن عبادة إسلامية حيث أسلم رعاياها ـ ويعطينا مصير الكنائس المسيحية ثلاثة أنماط للتغيير يمكن تلخيصها فيما يلي:

١/ هناك كنائس هُجرت تماماً وأصبحت آثاراً يحتفظ لها الذهن الشعبي بذكرة ما. وقام هذا بديلاً لها في المنطقة أو القرية بمؤسسة إسلامية منذ البداية وكان مؤسسوها في الأصل مسلمون لم يشأوا الارتباط بمكان الكنيسة وهذه

النوعية من الخلاوي تمثلها نَدِى والطُّوِينة والعَارْ وأغلبها ينتشر في الشاطى الشرقي وقد ارتبطت بشخصيات إسلامية نازحة إلى المنطقة ونمط خلاوي العبابسة «ب» النمط الثاني هو نمط الكنائس التي تحول دورها الديني في فترة ما من كنائس مسيحية إلى مساجد إسلامية واستعمل نفس المبنى ليقوم بهذا الدور دون حساسية تذكر. ويمثل هذا النمط كنيسة «ارْتُل» التي أصبحت جامع «البوشاب» وكنيسة الكُرُو التي أصبحت مسجد «ود صالح» الآن. وهذا النوع يوجد في الحزر وفي الضفة الغربية.

جـ ـ والنمط الثالث هو الغالب ويتمثل في آثار الكنائس التي فقدت استمراريتها كمبان تؤدي دوراً دينياً ولكن ما زال العامة يكنون لها احتراماً.

وتضم هذه الفئة كنيسة «قنديس» المشهورة عند الأثريين التي أصبحت مزاراً للولي «أبو خف» وكنيسة «دم النور» التي أصبحت مزاراً «لحمدت الله».

وتدل هذه الأنماط الثلاثة على حركة إسلامية مختلفة في هذه المنطقة حدثت بطريقة فيها الكثير من الأخذ والعطاء والتغلغل التدريجي في المؤسسات المسيحية حتى تمت فيها الغلبة للمؤسسات الإسلامية لقد احتضن المجتمع خلال تاريخه الطويل المؤسسات الدينية وأفرد لها دوراً خاصاً في بنيته الأساسية وورثت الخلوة هذا الدور من المؤسسات الدينية.

وتجدر الملاحظة هنا أن المسجد كمظهر إسلامي أدى وظيفة محددة لم يملأ الفراغ الذي تركته الكنيسة بوظائفها المتعددة فقامت الخلوة بملء هذا الفراغ والقيام بهذا الدور الهام.

الباب الخامس

المسيد في شرق السودان

شرق السودان لا تنصرف إلا على ديار «البجا» الواقعة غرب البحر الأحمر وشرق النيل الكبير ونهر أتبرا وتحد شمالاً بمصر وجنوباً بالحبشة وبالقطع لا أستطيع تغطية هذه المساحة الكبيرة من هذه الديار وحسبي أمثلة بعينها وهي الأماكن التي زرتها توكر[1] ونواحيها ـ سواكن ـ وبورتسودان ـ كسلا ـ همشكوريب ـ سنكات اركوريت إلخ..

وأهل شرق السودان البجاة بشتى قبائلهم من أكثر الجماعات السودانية تعلقاً وحباً للقرآن والبجاة لا ريب تأثروا بالعرب قبيلة «بلى» قبل البعثة المحمدية وقد أورد الشيخ الأستاذ محمد الأمين شريف مؤرخ شرق السودان نقلاً عن ابن حوقل ـ أن البجاة عرفوا قبيلة «بلى» قبل عام الفيل بثلاثة قرون ـ والبجاة حتى اليوم ينادون أو يطلقون على أي «عربي» كلمة «بلويت» نسبة لقبيلة «بلى» أما لغتهم هم فهي ـ تبدوايت ـ مقابل «بلويت» العربية.

وقبيلة بلى ارتادت ديار البجاة بقصد المنافع والتجارة، وبسبزوغ فجر الإسلام توافدت قبائل أخرى لشرق السودان من طريق ينبع إلى عيذاب ومن طريق جدة وفَرَسَان إلى توكر وسواكن وعقيق[2].

---

(١) توكر ـ هو النطق الصحيح لهذه المدينة وليس طوكر. وقد أبدل المصريون أيام حكمهم الثنائي التاء طاء وفعلوا ذلك في أماكن كثيرة.

(٢) عقيق ـ منطقة ساحلية تقع جنوب توكر.

وكانت عيذاب مدينة عظيمة في ذلك الزمان وقد وصفها المقريزي أن بها سبعمائة مسجد[1].

وكلمة بجاة أو بجة كما تعبر الكتب القديمة لا يستعملها أهل شرق السودان ولا يحبونها لأنها أطلقت عليهم من الخارج فهم قبيل شتى لكل اسمٌ و ديارٌ وحدودٌ .

أولهم ـ هدندوة [٢] بني عامر [٣] أمرأر [٤] أشراف [٥] أرتيقة [٦] بشاريون [٧] حلنقا [٨] كميلاب [٩] ملهكتناب [١٠] حباب. أتْمَنَ وغيرهم.

المسايد

أكبر وأشهر مسجد في ديارهم يعرف باسم «امسقد إبر» ومعناها «المسيد الكبير» وهو قديم ومشهور وقام بتدريس القرآن دهراً طويلاً وما زال أصحابه الملهكتناب[2] يمارسون التدريس وجماعات أخرى كثيرة تقوم بتدريس القرآن بجد وعزم شديدين كقبائل الأشراف، والحلنقا آل سيدنا مالك، وآل الشنقيطي، في توكر، وآل ود حاشي، في قوز رجب، والمجاذيب في القاش، وسواكن واركويت وانعقد لواء تدريس القرآن الآن عند سينا علي بيتاي لا في الشرق وحده بل في جميع أصقاع السودان.

واستأذن في استعمال كلمة «بجاة» التي أصبحت الأكثر استعمالاً عند غالبية المتحدثين والكتاب وغيرهم. والبجاة نشأوا على الحرية والكبرياء وفي أكثرهم خنزوانة شديدةَ فهم لا ينكسرون لبشر قط اللهم إلا من لهم صلة بالقرآن كالمشائخ والفقهاء ولا سيما الأشراف منهم.

---

(١) نقل عنه نعوم شقير ـ صاحب كتاب جغرافية وتاريخ السودان هذا الخبر.

(٢) الملهكتناب ـ بلغة البجا بمعنى سكان المكان الوسط.

أشرت لهذا السلوك لأدلل على حب البجاة للقرآن وحاملي القرآن وأضيف أنهم لا ينزعون سلاحهم ولا يتخلون عنه إلا إذا أقبلوا على «فقير» أو معلم قرآن أو رجل شريف متفق على شرفه.

قبائل الأشراف

وقبيلة الأشراف قبيلة بيجاوية من صميم أهل الشرق ولكنهم امتازوا على غيرهم بتعلقهم بالقرآن فقد ظلوا يحملون راية التدريس منذ قرون ولا سيما نساؤهم فأكثر مشائخ القرآن عندهم «نساء» يدرسن البنين والبنات في سن مبكرة ولما يقاربون سن المراهقة يفرقون بينهم فتصير البنات لخلاوي النساء ويذهب البنون لخلاوي الرجال. وهذا تقليد عرفته الخلاوي الكبيرة في وسط السودان ولكن شرق السودان امتاز بهذا الأسلوب والقراءة المختلطة ثم التفرقة في سن معينة.

إذن يتوجب عليّ أن أتحدث عن هذه العشيرة الأشراف الذين جاء جدهم الشريف «محمد» الداعي إلى سواكن في منتصف القرن العاشر الهجري وطلب الزواج من الأرتيقة ولكنهم طلبوا منه أن يثبت صحة نسبه.

فرجع إلى الحجاز. ثم انتهز فرصة الحج فالتقى بعدد من أعيان سواكن فأثبت أمامهم صحة نسبه ثم عاد إلى سواكن فتزوج من إحدى حفيدات ـ محمد جمال الدين ـ أمها بنت الشيخ [بوداي] من الهدندوة «الشرعاب» التي كان مصراً على تزويجه منها، وينقسم الأشراف إلى عدة فروع. ويسكن معظمهم في مدن وقرى شرق السودان ويعملون بالتجارة والزراعة ويسكن قسم منهم في منطقة «خور بركة»[1] فيسمون أشراف خور بركة ويسكن قسم آخر في منطقة «عيتباي» ويسمون أشراف عِتْبايْ[2].

---

(١) خور بركة ـ جنوب منطقة توكر ويتصل بأرتيريا.

(٢) عتباي ـ منطقة معروفة في شمال ديار البجا.

لقد اهتم الأشراف بالتعليم الديني كثيراً ولهم مكانتهم الكبيرة في نفوس الناس جميعاً، باندغامهم في أهل الشرق اكتسبوا لغة الأم فصاروايتحدثون «التبدوايت» كغيرهم كما أن زيهم مثل زي عموم البجاة في زماننا هذا.

ولغة الأشراف هي اللغة البجاوية بجانب العربية ولهم نقيب في سواكن وعندهم تجمع سنوي يأتيه الأشراف من كل المناطق وهو حولية الشريف محمد جدهم الأكبر، وتم اختلاط وتزاوج بينهم وبين الأرتيقة مما قرب بين القبيلتين فتعاطفا وتآزرا.

وعند الأشراف شجرة نسب لم أر لها مثيلاً وهي متجددة كل حين إذ يضيف لها الشريف «النقيب» أي مولود جديد وحتى الذين يعيشون خارج المنطقة يرسلون أسماء أبنائهم الجدد فيضيفها النقيب كل حسب فخذه وفرعه ولا أحسب أن هنالك شجرة تدانيها في السودان أو غيره من البلدان التي تهتم بالنسب.

سواكن

ذهبت إلى سواكن في شعبان ١٣٩٧هـ وهي مدينة تاريخية عظيمة وزارها على عهد عمارها كثير من الرحالة مسلمين وفرنجة وعلى رأسهم الرحالة ابن بطوطة والألماني بركهارت.

وقد عمرت سواكن وطار صيتها بعد تدمير مدينة عيذاب[1] وظلت سواكن عروس البحر الأحمر باعتبارها أفضل ميناء حتى أن البحارة أطلقوا عليها «بندقية» الشرق وبعد عمارها المشهور بدأ يدب في جسدها الموت حيث قررت الحكومة نقل المكاتب والميناء وكل أسباب العمران إلى مدينة بورتسودان فشبت بورتسودان وشاخت سواكن إلى أن أدركها العجز التام فنخر الموت مبانيها

(١) عيذاب ـ مدينة دارسة ـ على شط البحر الأحمر في الشمال الشرقي من البلاد.

وصارت أطلالاً. وتحت عمائرها وأزقتها بقية من فضل أهلها الأوفياء كالعمدة الأمين محمود أرتيقة من أصحاب مجدها. ولقيت فيها العم الشيخ حسن محمود بوداي وغيرهم من الشيوخ الذي تجاوزوا السبعين والثمانين من العمر كنت أقصد من هذه الزيارة مشاهدة أماكن الخلاوي التي اشتهرت في سواكن وقادني العم حسن بوداي وهو العليم الخبير بأسرار سواكن والأماكن والخلاوي في الجزيرة[1] وخارجها حيث زرنا أماكن الخلاوي الآتية:

[١] خلوة الشيخة بخيتة أحمد في الساحل جوار قصر الشناوي.

[٢] خلوة الشيخة فاطمة أحمد ايرا في حي المشيل.

[٣] خلوة الشيخة فاطمة علي طويل في حي اللّيْ ليْ.

[٤] خلوة الشيخة خديجة إسماعيل في حي اللي لي وفي سنكات أخيراً.

تلك كانت أهم الخلاوي التي زرتها وفي كثير من القصور والبيوت توجد هذه الخلاوي الخاصة وقد اشتهرت بها سواكن ومثلها في العالم الإسلامي كثير. كذلك لقيت رهطاً من الشيوخ الذين دَرَسُوا عند هذه الشيخات أمد الله في أيامهم.

اسم الشيخة	اسم الطالب	وضعه الاجتماعي الآن
الشيخة بخيتة	الأمين محمود ارتيقة	عمدة سواكن
الشيخة بخيتة	حسن محمود بوداي	صاحب ماشية
الشيخة بخيتة	فاطمة محمود بوداي	ربة منزل
الشيخة بخيتة	مريم محمود بوداي	ربة منزل
الشيخة بخيتة	أحمد الأمين موسى	تاجر ببورتسودان

(١) الجزيرة ـ سواكن الأصل تسمى الجزيرة.

الشيخة بخيتة	محمد طاهر الأمين ارتيقة	شيخ كبير
الشيخة بخيتة	أبو زينب محمد يوسف	شيخ كبير
فاطمة أحمد ايرا	الأستاذ حامد أبو علي	موجه فني معاش
فاطمة علي طويل	إبراهيم فضل محمد	ضابط جمارك معاش
خديجة اسماعيل	الأمين محمود ارتيقة	عمدة

هذا بعض ممن لقيتهم وغيرهم كثيرون بل كل الجيل الذي درس في المدارس العليا وكلية غردون كل هؤلاء درسوا أول هذا القرن في خلاوي الشيخات ومن قبلهم كثير وكما ذكرت فإن تعليم الصبيان مطلقاً تقوم به نساء الأشراف، وكان التعليم مختلطاً كما أفادنا الشيخ حسن محمود بوداي الذي درست معه أختاه فاطمة بوداي ومريم بوداي وهن من الشيخات الحاذقات كل ذلك في حالة الصغر.

هذا ولمعلمات القرآن كما للمعلمين منزلة خاصة واحترام كبير وللشيخات أسماء وألقاب بلغة القوم:

١/ شيخة تون.

٢/ فقية تون.

٣/ سيدنا تون.

٤/ فكي تون.

كما زرت مع أستاذنا محمد الأمين شريف رحمه الله والعم الشيخ حسن بوداي سواكن مرة أخرى حيث وقفت على بعض المدارس التي تمزج بين القرآن والفقه.

مدارس الشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين[1] وما زالت تؤدى فيها

(١) مدرسة المجاذيب وهم أسباط الشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين من ابنته عائشة وعقبه في شرق السودان من ابنته تلك.

الصلوات ويتعبد فيها الزهاد ويخلو فيها أهل التلاوة.

كما زرت مدرسة الأشراف ومسجدهم وهو من المساجد التي تقوم بتدريس القرآن والفقه. وفي قلب جزيرة سواكن مساجد كثيرة أهمها الشافعي المالكي الحنفي الحنبلي وأهل سواكن يتعاملون في أحوالهم الشخصية ويتقاضون على مذهب الإمام «الشافعي» خلافاً على ما هو عليه عموم أهل السودان الذين يأخذون بالمذهب «المالكي» الذي يناسب أحوالهم أما محاكم الدولة فالقضاء فيها على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان وهذا أثر من آثار الحكم التركي الذي حمل أهل البلاد على الاحتكام للمذهب الحنفي، كما وقفت على الزوايا التي أنشأها بعض العلماء.

١/ زاوية الأبرار.

٢/ زاوية الأسرار.

٣/ زاوية الأنوار.

وقد أسسها السيد محمد عثمان الميرغني الختم وهو عالم مشهور، وله تلاميذ في السودان ومصر واليمن والصومال والحجاز. وفي مدرسة الأنوار درس القرآن مولانا السيد علي الميرغني وفي زاوية الأنوار درست النساء وكان السيد محمد عثمان الميرغني كثير الاهتمام بتعليم النساء القرآن وأمور دينهن.

والزوايا موزعة كالآتي:-

١/ الأسرار في القيف (الشاطيء) خارج الجزيرة.

٢/ الأبرار وسط الجزيرة.

٣/ الأنوار خارج الجزيرة أيضاً.

كذلك توجد زاوية عامرة وهي زاوية الأشراف المعروفة باسم الشريف السيد

عبد الله يسن علي كرار وقد أشرت لزاوية المجاذيب آنفاً وهي عامرة جداً بالنسبة لهذه الزوايا.

والقراءة في سواكن على رواية الدوري قراءة أبي عمرو بن العلاء وهي إحدى القراءات الصحيحة عند أئمة المسلمين، ولا يظن أحد أن أهل السودان وحدهم الذين يقرأون برواية الدوري، يقرأ بها خلق كثير.

وغير ذلك من بلدان الساحل الأفريقي، وقد علمت من مولانا القاضي يحيى الكبسي شيخ القراءات في اليمن أن أهل اليمن كانوا يقرأون بها ثم صاروا يقرأون برواية نافع.

إن في الحفاظ على هذه القراءة حفاظٌ على أثر كريم قرأ به الصحابة الأجلاء فلسنا أحرص منهم في المحافظة على القرآن وهناك مسعى لتوحيد القراءات على رواية واحدة تسندها بعض الجهات الإسلامية وأخشى أن يكون غاب عليهم أن عشرات الملايين ظلت حفيظة أمينة على هذه الرواية.

وليست هنالك مدعاة لتغييرها فالقرآن نزل على سبعة أحرف فبأية قراءة قرأنا سلمنا.

المسجد في شرق السودان

وفي شرق السودان مسجدان قديمان أحدهما في أقصى ديار البجة جنوب خور بركة ويقع اليوم في المنطقة الارترية ويعرف عند المؤرخين باسم مسجد «هجر» وينطقها البجة وبني عامر «هقر» بالقاف العامية.

والمسجد الآخر يقع شمال غرب سواكن وعرف باسم مسجد «صيحات» ولا معنى لكلمة «صيحات» في لغة البجا وربما هو اسم حرفه العرب من كلمة محلية ولكن المحل يعرف عند البجا باسم «نوبت».

ودفعني البحث أن أشد الرحال لشرق السودان وانطلقت من جبيت صحبت شيخي العالم المؤرخ محمد الأمين شريف صاحب المخطوطة «الثقافة الإسلامية في شرق السودان».

وامتطينا عربة كبيرة تكرم بها علينا قائد معسكر جبيت وفي اليوم العشرين من شهر رجب ١٣٩٧هـ خرجنا صوب منطقة «نوبت» وتبعد من سنكات وجبيت حوالي ستين ميلاً قطعتها العربة المتينة في حوالي تسع ساعات إلى أن وصلنا المنطقة المعنية وهي خالية من السكان إلا بعض بيوت بعيدة من المكان وعن طريق الصدفة مرت بنا قافلة فمالوا نحونا وحيونا أطيب تحية وصنعوا لنا القهوة البجاوية الشهيرة.

وبعد استجمامة قصيرة قصدنا مكان المسجد المعروف باسم «صيحات» مع شخصين من أبناء البجا الذين لقيناهم كما أشرت بمحض المصادفة وأكدوا أنهم سمعوا من آبائهم أن هذه الجدر المتساقطة هي مسجد قديم ولا يعرفون أكثر من هذا فحمدنا لهم هذا الرأي.

ولا شك عندي أن هذا الكم المتساقط من الحجارة هو المسجد المعنى والمبنى مستطيل حوالي أحد عشر متراً وعرضه حوالي أربعة أمتار مبني بالحجر القرانيت ومكان المحراب واضح وكذلك بابان مكان الباب الجنوبي أكثر وضوحاً وعثرت بين الأحجار المتساقطة على حجر رخامي طوله حوالي قدمين ونصف القدم.

والذي لفت نظري حروف عربية محفورة بآلة حادة كالسكين ولم أستطع قراءتها قراءة صحيحة وحملتها معي إلى الخرطوم وأعطيتها لشعبة الآثار بجامعة الخرطوم وأخطرت مصلحة الآثار والمتاحف بهذا الحجر الذي عثرت عليه في ذلك المكان.

وفي زيارة سابقة قام بها أستاذنا محمد الأمين شريف عثر على حجرين بهما كتابة واضحة وسلمهما لحاكم الشرقي وحولهما الحاكم بدوره لمتحف شرق السودان وهما الآن بكسلا.

أما الحجر الذي حملته معي فقد قرأه بعد مدة طويلة الأستاذ الدكتور أحمد محمد علي الحاكم وكانت عليه تلك العبارات ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾.

وحول المسجد في منطقة «نوبت» مجموعات لحجارة مرصوفة رصفاً منسقاً في شكل دائري كأن صانعها مهندس ماهر.

وتعلو من سطح الأرض حوالي متر وعشرين «سنتاً» ولم أدر كنه هذه الحجارة ولكن علمت من شيخنا شريف ومن العرب الذين لقيناهم في ذلك المكان أن تلك الأكوام ربما كانت مقابر وقال واحد إنها بيوت!!

وفي تقديري أن البيوت لا تحتاج لهذا الكم الكبير من الحجارة ولا أجد سبباً يجعلهم يتجشمون جمع هذه الأحجار للبيوت.. أما كونها مقابر فهل هي للمسلمين أم لقوم غابرين لم يكن دينهم الإسلام.

وعلمت أن جماعات من الفرنجة كانت تزور هذا المكان وزعموا أنهم أجروا بعض الحفريات وهذا مبلغ علم محدثي.

ويذكر «بلوس» أنه عثر على مقابر أولئك الأمويين على طول الطريق الذي سلكه من بلاد النوبة حتى ميناء باضع.

فضلاً عن هذا فإن الأبحاث «الأركيولوجية» أثبتت وجود جاليات إسلامية في منطقة خور «نوبت» الواقعة على بعد ٧٠ ميلاً غربي سواكن.

إذ عثر على شواهد قبور عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادي ٧٦٠م وهو تاريخ يتفق وهجرة الأمويين إلى أوطان البجاة مما يدعونا

إلى الاعتقاد أن هذه القبور تنسب إلى أولئك الأمويين الهاربين إلى هذه الأوطان.

هذا وقد ثبت وجود جاليات إسلامية في منطقة خور «نوبت» غربي سواكن ودل البحث الأثري على وجود مسجد في سنكات يرجع تاريخه إلى سنة ١٨٣١م[1].

وقد لاحظت منذ خمس عشرة سنة حجارة قريبة من هذه الأشكال ولكنها غير مستديرة كما في نوبت وتلك الحجارة رأيتها في جبل «الحرازة» وهي منطقة يسكنها النوبة الدواليب وغيرهم[2].

واشتركت في حفر أجراه الأثري المعروف الدكتور حاكم يساعده الأستاذ فتح العليم عبد الله شمبو مساعد أستاذ بشعبة الآثار[3] وبعد كشف كومة الحجارة ظهر تحتها قبر واتضح أن طريقة الدفن غير إسلامية. إذ اتضح أن الرأس المدفون يقابل مغرب الشمس ويقدر الأستاذ أحمد حاكم أن تاريخ هذه القبور يرجع لألفي سنة ويسمي الأهالي هذه الأحجار المتراكمة وهي مئات عديدة «الكيمان» وبالقرب منها أفران لصهر الحديد والذي ساقني لذكر هذه الأحجار هو ما رأيت في «نوبت».

والشاهد عندي أن الأثر المتساقط في نوبت مسجد إلا أن تثبت الحفريات أمراً غير ذلك وهذا احتمال بعيد.

ثم ذهبت عن طريق بورتسودان فسواكن وتوكر ومنها جنوباً لمنطقة هَمَّرْ ولما تجاوزنا منطقة عقيق اعترضنا بعض الجماعات الأرترية المقاتلة «بزيهم العسكري وأسلحتهم النارية» وعلمنا منهم أن الطريق لهجر غير مأمون وأنهم في

---

(١) تاريخ التعليم في السودان يحيى محمد إبراهيم دار الجيل بيروت.

(٢) النوبة الدواليب ـ وهم نوبة شمال كردفان وليسوا نوبة جنوب كردفان!!!

(٣) فتح العليم عبد الله شمبو: الآن محاضر أول ورئيس قسم الدراسات البيئية بجامعة أم درمان الأهلية.

هذه الأيام على خلاف مع أحد الفصائل التي تقيم معسكرها في منطقة هجر فلا يأمنون سلامتنا، وعدت مكسور النفس بعد ذلك الحماس الذي كنت أحسه وأنا مقبل على منطقة هجر.

هذا كان جهدي في التحري من صحة ما ذكر وكتب عن هذين المسجدين. ويفيد الأستاذ نعوم شقير أنهما بنيا في عهد الخليفة المأمون أول القرن الثالث.

المسجد والتعليم

يعتبر مسجد دنقلا المشار إليه آنفاً ومسجدا هجر وصيحات بديار البجا أقدم المساجد التي عرفتها بلادنا في تلك الفترة الباكرة والإسلام ما زال غضاً.

وأضيف للمساجد الثلاثة رواية ذكرها الشيخ «عبد الرحيم أبو حليقة» من أهالي «كلومسيد» عندما سألته عن تاريخ بناء مسجد كلومسيد قال: ما سمعناه عند أسلافنا أن مسجدنا هذا يعتبر أقدم المساجد في دنقلا بل أقدم من مسجد دنقلا العجوز وشاهده أن حملة المسلمين أتت من الشمال وكلومسيد أدنى وأقرب من دنقلا العجوز وبينهما مسافة بعيدة وأن المسلمين لما دخلوا أقاموا هنا ثم ساروا جنوباً وفيه صليت أول «جمعة» في بلاد النوبة دنقلا.

هذا الرأي واحد لم أجد من يثبته وهو رأي سماعي فقد سمع أبو حليقة هذه الرواية من آبائه ثم مضت فترة طويلة لم يظهر فيها مسجد يشار إليه، وفي غضون القرن السابع الهجري تدافع كثير من المسلمين نحو السودان، فأقاموا المساجد وهي وقتئذ لا تكلف جهداً كبيراً فكانوا ينونها بما تيسر من المواد المحلية كالبروش والجريد والشعر ثم الطوب الأخضر والطوب المحروق ولا ريب فبناء المسجد مظهر مادي هام في تاريخ الجماعة الإسلامية، ثم ظهرت مساجد هنا وهناك وهي ليست كمساجد العصر بل دون ذلك بكثير وكان التقشف في بناء

المساجد عند السلف ضرب من الورع، وكثير منا شاهد مساجد الصحابة في المدينة المنورة فهي بنايات من الطين المسقوف بجريد النخل وقد رأيت مساجد مماثلة في الجمهورية العربية اليمنية ولا سيما مسجد أبي موسى الأشعري في مدينة زبيد وكلها مساجد متقشفة.

حديثي عن المساجد تمهيد للحديث عن التعليم فالمسجد بلا ريب كان المكان المخصص للدراسة على أيام رسول الله ﷺ والصحابة الكرام.

وقد جاءت أحاديث ومأثورات في أن الدراسة كانت بالمساجد.

وظيفة المسجد التعليمية

واستمر المسجد مكاناً لتعليم القرآن والحديث فإذا كان المسجد قد صار منذ نشأته في الإسلام مكاناً للتعليم فذلك لأنه كان من المستحيل التفرقة بين ناحيتي العقيدة والعمل في الدين الإسلامي ولم يفرق الإمام مالك بين العبادة والدرس فكلاهما عنده سواء في القيمة لأن الدرس والتعليم في نظره نوع من العبادة والسودان عرف المسجد منذ عهد الإسلام الباكر كما بين لنا تاريخ فتح بلاد النوبة سنة ٣١ هجرية وأثبتت عن ذلك معاهدة (البَقِتْ) المعروفة عند المثقفين بمعاهدة «البقط» التي تضمنت ذكر المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينة دنقلا.

المسجد في اللغة

المسجد الذي يسجد فيه وقال الزجاج كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد ألا ترى أن النبي ﷺ قال: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

والمسجد بالفتح جبهة الرجل حيث يصلي لدى السجود وقوله تعالى ﴿إن المساجد لله﴾ ـ قيل مواضع السجود من الإنسان ـ الجبهة والأنف واليدان والركبتان والرجلان.

وقال الليث في قوله وإن المساجد لله ـ قال السجود مواضعه من الجسد والأرض مساجد واحدها مسجد فأما المساجد من الأرض فموضع السجود نفسه.

وظيفة المسجد التعليمية

لم يكن بدعاً في تاريخ الإسلام أن يحتل المسجد في السودان هذا المكان كمعهد للتعليم فلقد كان المسجد منذ ظهور الإسلام مكاناً للعبادة ومكاناً للدين ومكاناً للفتوى والقضاء ولقد شابه المسجد في وظيفته التعليمية مدارس الكنيسة والأديرة عند المسيحيين. وكان الرهبان ورجال الدين هم المعلمون والوعاظ في القرون الوسطى نعم كان التعليم بعد ظهور المسيحية وأثناء القرون الوسطى دينياً قام به القساوسة في مدارس اللاهوت بالشرق ومدارس الكنائس بالغرب ـ وكانت الأديرة ومدارسها معاهد لتعليم الصبيان الراغبين في الرهبنة ومبادىء القراءة والكتابة والحساب والعقيدة والغناء الديني. وقد بقيت مدارس الأديار المعاهد الوحيدة للتعليم تقريباً حتى القرن الحادي عشر الميلادي. كما بقيت التربية في أوربا بلا تغيير يذكر حتى القرن الثالث عشر وكان كل دير «مدرسة» وكانت التربية تحت إشراف رهبان ورجال الكنيسة.

وفي الإسلام اتخذ الصحابة والتابعون من المسجد المكي والمدني أماكن الفتوى وتفسير القرآن ورواية الحديث ولما انتشر القرآن والإسلام خارج جزيرة العرب أصبحت مساجد الأمصار كالمسجد الأقصى والجامع الأموي ومسجد بغداد والبصرة والكوفة ومصر والقيروان وفاس وقرطبة وغيرها معاهد للتعليم. وكان رسول الله ﷺ اتخذ المسجد منذ بدء الإسلام مكاناً للدراسة.

وبتقادم الزمن تكاثر المسلمون وكثرت بالتالي المساجد فحيثما حلوا كان المسجد وقد ذكروا أن في مدينة «عيذاب» سبعمائة مسجد فإذا كان هذا في مدينة واحدة فمعناه أن بلادنا عرفت مساجد كثيرة.

فالمسجد في ذلك الوقت الباكر كان مكاناً لأداء الصلوات والعبادات وكل ما يهم المسلمين ومظهراً معنويًا فوجود المسجد معناه الأمن والطمأنينة وتمكن الإسلام.

لذا ركزت المعاهدات كلها على الحفاظ على المساجد واحترامها وتقديسها.. إلخ.

ومن العسير أن يجد المرء مخطوطاً أو وثيقة تحدد أول من درس القرآن في تلك الفترة المتقدمة.

ولكننا نجد بعض الروايات التي تدل على البدايات المنظمة والجادة كانت في القرنين التاسع والعاشر وفي تقديري أن هنالك بدايات متفرقة ومتقطعة لم يأبه لها المؤرخون وأكثر المساجد والخلاوي التي ظهر أمرها في تلك الحقبة.

الركابية

المجاذيب

البديرية

الدناقلة

المحس

البجا

الفور

ثم تكاثرت المساجد وصارت الكبيرة منها تعرف بالمسجد أو الجامع ثم غلب اسم المسيد على الأماكن التي عنيت بتدريس القرآن بادىء ذي بدء.

الحلنقة والبجا

أطلق المؤرخون العرب كالمقريزي وابن عبد الحكم وابن حوقل اسم البجة على الشعوب الحامية التي تسكن الصحراء الشرقية الواقعة ما بين البحر الأحمر والنيل وتبدأ بلادهم من عيذاب في ناحية الشمال.

وجزء من قبائلهم على تخوم بلاد الحبش تسمى البازا ويقول المقريزي عندما كثر العرب في معدن العلاقي وعيذاب تزوجوا من «الحَدَارِب». شوكة القوم ووجوههم وهم أشجع البجة قاطبة.

ونستطيع أن نؤكد أن روايات ابن حوقل واليعقوبي وغيرهم أن الحلنقة أول مجموعة إسلامية عربية نزلت على ساحل البحر الأحمر الغربي في بلاد الحبشة، والبجة منذ فجر الهجرات العربية الإسلامية الأولى وسرعان ما اندمجت في الكيان البجاوي الكبير بالتزاوج والاختلاط واستطاعت هذه المجموعة أن تبني كياناً إسلامياً في بلاد كان فيها للوثنية ركامٌ وأخاديد.

(وأيضاً) نجح الحلنقة في أن يجعلوا بينهم وبين القوم نسباً وصهراً ومودة جعلت القوم يبادلونهم الاحترام.

خلاوي الحلنقة

في العهد السناري والتركي كانت منطقة التاكا تعج بالمساجد وبعد المهدية تغير الوضع الاجتماعي فظهرت الخلاوي في أحياء الحلنقة وكان الحي عندهم يسمى الدَوّار[1].

١/ خلوة سيدنا مالك أبو بكر.

٢/ خلوة الشيخ إسماعيل شكور.

٣/ خلوة الشيخ محمد الأمين داشي.

٤/ خلوة الشيخ عمر الخليفة.

٥/ خلوة الشيخ الصافي محمد نور.

---

(١) الدوار ـ الحي وأهل السودان يسمون المناطق التي يقطنونها بالدار ـ مثلاً دار حامد ـ دار محارب ــ دار فور إلخ..

٦/ خلوة الشيخ إبراهيم عبد الله الحاج.

هذه من أشهر خلاوي الحلنقة وهم من الجماعات التي نفرت من التعليم المدرسي الذي أتى مع الاستعمار الانجليزي ويقول مؤلف كتاب الحلنقة[1]:

أما الحلنقة فما انفكوا متمسكين بعهد الخلاوي والمساجد ولم يتجهوا إلى المدارس وللتعليم الحديث بسبب ما رسخ في أذهانهم بأن هذا علم يؤدي إلى الكفر والإلحاد.

الأسرة والطالب

المجتمع السوداني كان وما زال يحتفي بطلبة القرآن وقرائه وأقام علاقة وأسس عرفاً حميداً ظل أثره باقياً حتى يومنا هذا وهو أن يأخذ كل رب دار في الحي أو القرية طالباً أو طالبين وربما أكثر حسب سعة البيت ويَسَارُ أهله ويضمهم صاحب الدار لأولاده ويتكفل بإطعام الطالب أو الطلبة في كل الوجبات بالإضافة لكسائه أو كسائهم ومصاريفه في حالة السفر أو سفرهم. وهذا التقليد عرفه وسط السودان وشماله وشرقه.. إلخ.

وهذا ثبت بأسماء الطلبة وكفلائهم أخذته من مدينة كسلا حي الحلنقة. أولاً خلوة الشيخ إبراهيم عربي الصافي.

اسم الطالب	اسم الكفيل
١/ عثمان ادريس	اشبو محمد سني
٢/ محمد آدم	اشبو محمد سني
٣/ محمد عيسى طاهر	محمد طاهر عواض
٤/ صالح إبراهيم	محمد الحسن أحمد

(١) الأستاذ عثمان أحمد عيسى ـ مطبعة جامعة الخرطوم. ١٥ شوال ١٤٠٦هـ الموافق يونيو ١٩٨٦م.

٥/ عثمان محمد علي عثمان	الشيخ إبراهيم العربي
٦/ داود عزاز	أحمد حسين خليل
٧/حسن محمود بشير	أحمد حسين خليل

خلوة الشيخ إبراهيم شكور:

اسم الطالب	**اسم الكفيل**
١/ إدريس محمد	الشيخ إبراهيم شكور
٢/ إيماني عثمان أحمد	الشيخ إبراهيم العربي
٣/ إيماني أحمد أوهاج	الشيخ إبراهيم العربي
٤/ إبراهيم أدروب إبراهيم	الشيخ إبراهيم العربي
٥/ بشير محمد أحمد	الشيخ إبراهيم العربي
٦/ محمود محمد أحمد إبراهيم	الشيخ إبراهيم العربي
٧/ محمد موسى عنان	الشيخ إبراهيم العربي

حروف الهجاء عند البجة

البجا في شرق السودان لغتهم «تبداويت» وهي لغة الرطانة السائدة في شرق السودان ويتحدثون العربية ولكن ليست بالطلاقة التي يجدونها في لغة الأم «تبداويت» ولهذا السبب عسر الحرف العربي على لسان صبيانهم فقد ركز المشائخ على استنباط أسلوب فيه نغم شجي متساوق ركزوا فيه على حركات ثلاثة الفتحة والكسرة والضمة وقد اشتهر أهل شرق السودان بجمال الصوت ولا سيما حينما يقرأ الصغار الحروف الهجائية بطريقتهم المشار إليها:

أ	انا	إينا	أونا
ب	بانا	بينا	بونا
ت	تانا	تينا	تونا
ث	ثانا	ثينا	ثونا
ج	جانا	جينا	جونا
ح	حانا	حينا	حونا
خ	خانا	خينا	خونا
د	دانا	دينا	دونا
ذ	ذانا	ذينا	ذونا
ر	رانا	رينا	رونا
ز	زانا	زينا	زونا
س	سانا	سينا	سونا
ش	شانا	شينا	شونا
ص	صانا	صينا	صونا
ض	ضانا	ضينا	ضونا
ط	طانا	طينا	طونا
ظ	ظانا	ظينا	ظونا
ع	عانا	عينا	عونا
غ	غانا	غينا	غونا
ف	فانا	فينا	فونا
ق	قانا	قينا	قونا

ك	كانا	كينا	كونا
ل	لانا	لينا	لونا
م	مانا	مينا	مونا
ن	نانا	نينا	نونا
هـ	هانا	هينا	هونا
و	وانا	وينا	وونا
ي	يانا	يينا	يونا

هذا وعلمت أن أهل الرطانة «الطلبة» من سكان شرق السودان وشماله يرسخ الحرف العربي في ذهنهم أكثر من الذين يتحدثون العربية بالسليقة وربما كان هذا الرأي مهماً لكن الأغلب، أن أهل الرطانة يقر الحرف عندهم. في تقديري لسببين الأول حرصهم على تعلم العربية من خلال حروف الهجاء. ثانياً لشعورهم بالضعف في ألسنتهم.

خلاوي توكر

زرت مدينة توكر في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٩٨هـ وهي من الأماكن التي لها سمعة كبيرة في حفظ وتحفيظ القرآن وقراءتهم كقراءة أهل السودان على رواية الدوري.

وخلاوي توكر وأريافها خلاوي حية وحاشدة بالطلبة والحيران بنين وبنات زرت منها الخلاوي الآتية:

١/ خلوة سيدنا هاشم عبد القادر الشنقيطي[١].

٢/ خلوة الشيخة زينب أحمد أُونور[٢].

(١) الشنقيطي ـ بحاوي من أصل شنقيطي وهو شريف.

٣/ خلوة سيدنا علي حسين محمد محمود[١].

٤/ خلوة سيدنا أبو عيشة علي كرار[٢].

٥/ خلوة سيدنا بابية محمد جيادا[٣].

مسيد همشكوريب بيتاي

سيدنا الشيخ علي بيتاي صاحب أكبر وأشهر مسيد في شرق السودان «الان» ثم اتسعت دائرة ضوء المسيد حتى عمت أجزاء كثيرة من البلاد.

والحديث عن المسيد بالضرورة يقودنا لمؤسسه سيدنا الشيخ علي بيتاي الرجل المجاهد حقاً.

ولد سيدنا الشيخ علي في يوم الأربعاء ٢١ سبتمبر ١٩٣٠ هكذا وجدناه مكتوباً بالتاريخ الميلادي علماً بأن أصحاب مدارس القرآن في كل أنحاء السودان يؤرخون بالعام الهجري ويثبتون تاريخ ميلاد البنين على سجل المصحف بالتاريخ العربي وربما وجدنا العذر لمؤرخي تاريخ ميلاد الشيخ إذ أن أهل سيدنا علي لم يكونوا من أصحاب المسيد ولذلك اعتمدوا التاريخ الميلادي وهم صادقون فيما ذهبوا إليه.

رأى النور سيدنا علي في منطقة همشكوريب[٤] التابعة لمديرية كسلا في الجهة الشرقية الشمالية من الإقليم وتعرف المنطقة بـ ريفي الحدود إذ يتاخم ريفي الحدود المشار إليه إقليم أرتريا. أما أسرته الصغيرة فهي قبيلة «بقلد» وهم بطن من

---

(٢) الشيخة زينب من الهدندوة.

(١) علي حسين من قبيلة بني عامر.

(٢) أبو عيشة علي كرار ـ من قبيلة الأشراف.

(٣) بابية ـ من الفلاتة.

(٤) همشكوريب ـ معناها بالعربي الكور الجاف ـ والكور هو سرج الجمل كما في الفصحى.

قبيلة أجمله «أو أدْمَلَه» وتعرف قبيلة احمله عند الناطقين بالعربية باسم جميلاب ـ ومعظم القبائل وسط السودان وشرقه وشماله يلحقون كلمة اب في آخر اسم جد القبيلة «مثلاً» من كان جدهم حامد يقرنون معها كلمة اب ـ فيصير الاسم «حامداب» هكذا يُخرَّج الاسم في معظم مناطق السودان وكل قبائل الوسط، والشرق إن تحدثوا بالعربية جعلوا المقطع اب في نهاية اسم الجد. إلخ..

وقريب من هذا مشهور في البلدان العربية «مثلاً» في المملكة العربية السعودية يقولون آل علي آل إبراهيم ولكنهم يدغمونها استعمالاً وكتابة فتصير العلي والابراهيم.

والعرب في بلاد شنقيط يقولون أحمد ولد علي ولد حمد ـ وفي السودان نستعمل نفس التخريج «ولد» ولكن الأهالي رخموها استعمالاً فصارت «ود».

آب

انتبه لهذا المقطع الكاتب الشامي نعوم شقير صاحب كتاب جغرافية وتاريخ السودان وهو كتاب جامع لتاريخ السودان على ما به من أخطاء وأغلاط تجافي الواقع والحقيقة. كتب نعوم شقير عندما تحدث عن «البجاة» قال وأما لفظ «اب» الذي ينتهي به اسم «العبدلاب» وغيرهم من القبائل العربية فهو مأخوذ من البيجاوية ومعناه عائلة أو قبيلة.

وتناقل هذا القول «الخاطيء» بعض الكتاب وزعموا أن المقطع اب، بيجاوي والشاهد أن البجاة لا يستعملون المقطع اب إلا إذا تحدثوا بالعربية أما في لغتهم «التبداويت» فلا توجد كلمة آب ـ نلاحظ ذلك في أسماء القبائل الكبرى عندهم.

١/ هدندوا.

٢/ امرار.

٣/ حلنقا.

٤/ اتمن.

٥/ ارتيقة.

٦/ ابشارا.

وهذه أسماء بعض القبائل الرئيسية وفي البطون والفخوذ لا نجد أثراً لكلمة اب وأحسب أن «أب» تخريج محلي أتت به بعض القبائل ثم انتشر استعماله عند الغالبية في وسط وشرق وشمال البلاد أما القبائل العربية في غرب السودان. فلا تعرف هذا المقطع ولا تستعمله إلا نادراً.

العبابدة

ولنا مثال في قبيلة العبابدة فهم يستعملون كلمة اب في أول اسم من باب الكناية في بادىء الأمر ثم صارت دالة عليهم من دون العشائر والقبائل الأخرى فحيثما وجدت رجلاً اسمه ـ اب حسن ـ اب علي ـ اب رباح ـ اب قاضي ـ اب حسين ـ اب أحمد فأغلب الظن أنه من قبيلة «العبابدة» وهم منتشرون في جنوب مصر «أسوان» وشمال السودان ويندر أن تجد عبادياً ابن «بلد» لا يتركب اسمه من اب، اللهم إلا الجيل الحديث الذي نشأ في المدينة وقياساً على ما تقدم فظني أن اسم «اب» الذي يأتي في آخر النسبة للقبيلة هو مقطع عربي خاص بالقبائل العربية التي استقرت في حوض النيل ومن بعد شاع بين القبائل الأخرى.

والجميلاب هدندوة والهدندوة أكبر القبائل البيجاوية في شرق السودان وفوق كثرتهم وقوتهم فهم أهل منعة وصرامة. وقد أعانتهم بيئتهم القاسية على التخلق بالشدة والصرامة التي جعلتهم يميلون لاستعمال القوة في أدنى الأسباب، وليست هذه الصفات وقفاً على الهدندوة إنما تنطبق على أغلب قبائل البجة وأكثر قبائل البجة تطرفاً «بقلد» أهل سيدنا الأقربين.

الصعاليك في السودان

في السودان طبقة من الفتيان «البدو» الذين يحترفون «الصعلكة» وسلوكهم مثل صعاليك العرب ويعرفون في السودان باسم «المهاجرة» واحداها مهاجر ـ كما يعرفون بـ النهاضين واحدها «نهاض» والآن صارت تدل عليهم عبارة الهمباتة، وهي الأكثر سيرورة.

ذكرت الصعاليك لسبب وجيه جداً عندي. فالصعلوك في القبائل البدوية لا يحسب من الأبطال إلا إذا أغار على إبل الهدندوة ولذلك يسعى أكثرهم لبلوغ هذه الغاية ويعرضون أنفسهم للموت والهلاك في سبيل هذا الشرف والسبب في ذلك أن الهدندوة وعموم البجاة يحمون أموالهم وإبلهم بأعز ما يملكون وإن أغار عليهم أحد قلما يفلت منهم فهم مستعدون ومتحفزون الليل والنهار لصد الغارة والفتك بمن تحدثه نفسه بالطمع فيهم. وأشهر قبائل الهدندوة تطرفاً كما ذكرنا «الجميلاب» وقد أشعلوا حرباً مع بني عامر وغيرهم من قبائل الشرق ولكن سيدنا علي الذي جمع الناس على القرآن والحب ودفن الماضي قد آخى بين الناس كما آخى الرسول ﷺ بين الأنصار والمهاجرين.

وعاشوا كأنهم أسرة واحدة بالخصوص بني عامر وقبائل البراعصة والزنيمات والبراطيخ من الرشايدة. كان مالهم ودمهم حلال عند الهدندوة فزالت هذه الأسباب بعد دعوة سيدنا علي بيتاي التي تمسك بها أغلب أهل الشرق.

نشأة سيدنا علي

نشأ سيدنا علي بيتاي في هذه البيئة الجافية الصلدة ولما بلغ الخامسة دفع به والده لمسيد سيدنا الشريف محمد طاهر صاحب «سوت» جهة مدينة «هيا» فبدأ بتعليم حروف الهجاء وتخطاها إلى قصار السور ولما بلغ سورة «القارعة» ترك الدراسة وانطلق مع أهله الهدندوة في تلك الصحارى وبعد فترة التحق بمسيد

«الكميلاب» في منطقة توكر وقرأ إلى سورة ﴿والسماء ذات البروج﴾ ثم انقطع عنْ الدراسة وكان متميزاً على جميع أقرانه في أحواله الخاصة.

السياحة والغيبوبة

ثم هام في الفلوات والجبال وبعدها دخل في حالة «لا وعي» لمدة ثلاثة أعوام أفاق منها على رؤية صالحة وأنقل هنا طرفاً من الكلام الذي كتبه سيدنا نفسه نقلاً عن كتابه «الهداية إلى الطريق المستقيم»[1].

قال ـ وأخيراً رأيت الرسول ﷺ مناماً فوق الجبل، الذي من جهة القبلة لمسجد «همشكوريب» وقال لي أمتي أمتي ورددها سبع مرات «أمنوا حاضرهم ونسوا آخرتهم» قل لهم توبوا إلى الله واقرأوا القرآن وأمسكوا التهليل وعين لي مكاناً للمسجد بالوقوف فيه وقال لي «أعطيتك إرشاد القرآن» وبعد ذلك أفقت من هذه الغيبوبة كالمنتبه من النوم، وكان الحنظل والعشر عندي مثل العسل. وبعد إفاقتي من الغيبوبة أدركت مرارتها وذهبت عني الوحوش والناس جميعاً بعد حديثي لهم وخافوا من الآخرة وتابوا وتصافحوا وتعافوا مما حصل بينهم في الماضي وعملوا «المساجد» كل من سمع كلامنا ويسر الله لهم ذلك. فقرأوا الكتاب في مدة قليلة ذكوراً وإناثاً والناس جميعاً دخلت في قلوبهم خشية الله وسعوا للآخرة، والذين أخذوا بنصائحنا وجهناهم كلاً إلى ما يلزمهم في الشريعة الحنيفة فأمرنا بستر النساء وأن يقوم كل بواجبه المعروف في الشريعة وعندئذ قامت قيامة الاستعمار وقالوا أن الرجل مدعي «النبوة» وأنتم إذا وافقتموه تهلكون فلا تقربوه وقالوا أن كل أتباعه هالكون وقالوا أيضاً للدولة إنه ادعى «النبوة» وكان ذلك في عام ١٩٥٤ وكنت موجوداً معهم وكانوا لا يأتوني ولا يسألوني عما أدعو إليه الناس فأخذت الحكومة التحقيق معي. ولم يفكروا في الذي وجهت الناس إليه في أمور

---

(١) تأليف الشيخ علي بيتاي.

دينهم ولكن ذلك ساعد في الإرشاد إذ صار الناس يأتون إلينا بكثرة حين سمعوا «تشويهاتهم» ليروا الحقيقة ويسمعوا ما ندعو الناس إليه فيعرفون الحقائق ويرجعون ثم تفد إلينا وفود أخرى أيضاً لأجل التأكد والاستفادة من هذه الإرشادات فيقيمون المساجد بين ذويهم بنصائحنا وتعليماتنا وقد يسر الله لهم ذلك. والدولة عندما كثرت الأقاويل لديهم أخذتني وعملت معي تحقيقاً وأخذت الحقائق مني ووضعتني في السجن ثم الزنزانة ثم المنفى من عام ١٩٥٤ ـ ١٩٦٠ وصار الاستقلال فعاملونا معاملة حسنة وأخذوا منا الحقائق وساعدونا في الإرشاد ولا زالوا يساعدونا بكل خير من تعيين الأئمة والمؤذنين للمساجد والوعاظ وتقرير الإعانات السنوية وعملوا ما نحن عليه وما ندعو إليه وما أحدثنا في الناس من التغيير.

نسب سيدنا علي بيتاي(١)

نسب الشيخ علي بيتاي من جهة أبيه هو الشيخ علي بن السيد محمود الملقب بيتاي بن علي بن محمد بن علي بن انفيين بن محمد بن علي بن أحمد بن محمود بن علي بن عيسى بن محمد الباقر (عثمان) بن الشيخ عجيب المانجلك بن الشيخ عبد الله جماع «لجمعه بين القبائل العربية» وهذا النسب كتب سنة ٩٤٦هـ بالحرمين الشريفين كما في كتاب «السمرقندي» وعليه سبعة عشر ختماً من أختام الأشراف الموجودين في ذلك الزمان بالحرمين وهم من نفس البيت، وعندما قَدَّمت العرب الشيخ عبد الله جماع في السودان بعد سنة ٩٠٠ هـ كان ذلك التقديم لقرب نسبه من المصطفى «ﷺ» وشريف السواكني الحاكم عليها ذلك الوقت. الذي كان يدعى «أبو نُميْ» كان من بني عمومته شريف مكة وبيت الشيخ عبد الله يعرف ببيت «بركات» بمكة وهو الذي تزوج في السودان أي

(١) النسب من الضرورات في نسيج المجتمع خاصة لأهل المسايد فهو يرفع من قدرهم في نظر المجتمع.

السيد عبد الله من السيدة عائشة بنت حمد أبو دنانة المشهور في السودان.

أول قيامي بهذه الدعوة بين أهالي وقبيلتي «بقلد» فالتفوا حولي وتـابوا وقـاموا معي بكل الاهتمام والرعاية ثم قام معي أهل أمي قبيلـة «رَدَّى» وهـي قبيلـة عريقـة وأهل شجاعة وكرم ثم قامت معي قبيلة «قرعيب» وهي قبيلة عريضة وأهل شجاعة ولهم فينا قرابة من جهة أمهاتنا وبيننا مصاهرة ثم قبيلة «شرعاب» وهذه أيضاً قبيلـة عريضة وبعد هذا جاءني رجل صالح من الحدود الأرترية وهو من قبيلـة بنـي عـامر ومعه وفد كبير مـن أتباعـه مـن الهدنـدوة والبني عـامر هـو الشيخ محمـد عثمـان المشهور «بالمدائح» النبوية ثم توجهت لنا كل القبائل بـالدعوة للوعـظ والإرشـاد فوجهناهم بإنشاء الخلاوي وبالتوبة النصوح.

وقد نشأت وتربيت على يد أخي محمد أحمـد بيتـاي كذلـك كـان معـي في بداية دعوتي وهو رجل ذو فراسة عريضة ورأي ثاقب وعقل راجح وقوي والوقوف بجانب الله وتقوى وورع وشفوق ودؤوب في إرشـاد الأمـة وإصلاحهـا ويتحمـل عني مشاق الدعوة وكذلـك معي السـيد حسين أوهـاج حسـن، وكـان أبـوه مـن الصالحين العالمين وأيضاً (آدم علي فكي) وكان أبوه من الصـالحين المتقيـن كـان ذلك عندما كنت أسافر بالجمال المسافات الشاسعة.

إليكم جميعاً أسوق هذا الحديث إن كـان لـي «علـم» فهـو مـن فضـل الله ليـس بالتعلم وإنما بالخبرة والتجربة في الحياة ولذلك تحدثني كثير السؤال عمـا مضـى ومـا يكون اليوم ولقد نشأت بشرق السودان وتمنيت أن تزال كثـير مـن العـادات وأشـفقت عليهم ولقد رأيت وسمعت الكثير من شتى المناطق في السودان علمت أن الجهل هـو سبب الشقاء وأردت لهم التعلم لتتحسـن الحالـة الاقتصاديـة والدينيـة لديهـم وبحسـب ذلك فقد أرشدتهم ونصحتهم حتى ظهر في الجهل والإجرام خير كثير إذ تركوا مباهاة الجاهلية ونسوا الأحقاد وخلافات الماضي فصاروا إخوانـاً فـي ديـن الله رغـم ألوانهـم وتباين مشاربهم على هدي كتاب الله على مشارف المدارس العليا والمعاهد جنبـاً إلـى

جنب مع نار القرآن فيتسابقون إلى معرفة أحكام دينهم وتعلمت النساء أمور دينهن حتى نجد فيهن من يفتين في «الميراث» مثلاً ويحفظن ويعلمن القرآن الكريم مصحوباً بالعمل حيث لا ينفع علم بلا عمل فدعونا العرب الرحل لتأسيس خلاوي القرآن والاستقرار لها ولنا تجربة في ذلك وقد يسر الله لهم أي الأعراب حالهم الدنيوية إذا كانوا يعانون من شظف في العيش وقساوة في الحياة. والاقتصاد أساس الاستقرار وهو الاعتماد على النفس وترك الكسل والبطالة والسعي في كسب الرزق وقد عرفت الحكومة أماكن هؤلاء العرب الرحل وهم بالمثل عرفوا فائدتها إذ قدمت لهم الخدمات الصحية بدلاً من موتهم في باديتهم بالأمراض الفتاكة ومجالس القرى تبحث في شؤون وقضايا الوطن ولكل مسجد إمام ومؤذن ومن يتمنى ما ذكرناه في بلدة بصدق نية نحن مستعدون للخدمة لوجه الله تعالى وما توفيقي إلا بالله.

حينما اشتدت حركة الدعوة وانتمى إليها عدد كبير من أهل البوادي من كل القبائل واشتد حماسهم للدين الإسلامي تحسراً على ما سبق من عمرهم وطمعاً وحباً للحياة الدينية الجديدة وقد كانت تأتي إلينا الوفود وما زالت وتطلبنا أن نذهب معهم إلى أهليهم للاستفادة من الوعظ حتى توغلنا داخل الحدود الأرترية.

همشكوريب

على بعد ٢٠٠ كيلومتراً من كسلا وعلى مقربة من الحدود السودانية الأثيوبية وبين الجبال وفي أحضان أشجار الدوم تقوم قرية همشكوريب في أرض قاحلة شحيحة الأمطار والعشب ومياه الشرب، ويحترف سكانها الرعي لقليل من الأبقار والأغنام وعلى هذا جاءت حياتهم قاسية وتركت هذه القسوة بصمتها على الناس فاشتهروا بقسوة الطباع وشدة الشكيمة والخروج على كل قانون وشريعة يزهقون النفس لأوهى الأسباب حيث القتل بطولة والسرقة شرفٌ وقطع الطريق والسلب والنهب ممارسات يتغنى بها مجتمعهم في فخر واعتزاز.

سارت الحياة على هذا إلى أن شاهد سيدنا علي بيتاي تلك الرؤية المنامية التي حولت هذا المجتمع الشرس إلى مجتمع يعيش في محبة ووئام نابع من خلق القرآن ومما قاله الرسول ﷺ لسيدنا علي بيتاي في تلك الرؤيا «أعطيتك إرشاد القرآن» وانطلق الشيخ من تلك اللحظة يعمل لقيام خلاوي القرآن الكريم ولإصلاح ذات البين بين الأفراد والقبائل.

أوقد سيدنا علي بيتاي نار القرآن أول حلقة قرآنية حوالي ١٣٤٧هـ الموافق ١٩٥٥م ثم أوقد الثانية والثالثة والرابعة إلى أن بلغت في وقت وحيز أربع عشرة «تُقّابة» وتعادل التقابة الحلقة وتضم ما بين الثلاثين إلى الخمسين طالباً.

وتحولت همشكوريب الأم إلى مجتمع إسلامي تام ومتوهج قولاً وعملاً إذ بلغ عدد سكانها ما يزيد على الثلاثين ألفاً وبلغ عدد الدارسين والدارسات من الرجال والنساء والصبيان والصبايا نحو ٨ آلاف كلهم يسعون لغاية واحدة وهي حفظ القرآن الكريم الرعاة والزراع والتجار والصناع كلهم هدفهم القرآن الكريم يبدأون قراءة القرآن بالخلوة من بعد صلاة الصبح ويجلسون في حلقات ويتوسط كل حلقة شيخ وتضم الحلقة مختلف الأعمار والجنسيات الجميع يقرأون في حرارة حتى بدء وقت الضحى حيث ينطلق أصحاب العمل إلى أعمالهم ويبقى الطلاب في الخلوة يكتبون على ألواحهم أو يحفظون وفي المساء يتجمع كل سكان القرية حول حلقات القرآن مرة أخرى والحياة لا تسكن ولا تهمد إلا في الثلث الثاني من الليل أما الثلث الثالث فيبدأ الطلبة التلاوة حتى آذان الفجر وهكذا يجتمعون في الله ويتفرقون في الله.

وسرعان ما انتشرت خلاوي القرآن في قرى المنطقة ثم تخطتها إلى ما وراء جبال البحر الأحمر ثم ظهر ضوء حلقاتها في شرق السودان ثم عم الضياء وغمر أغلب أنحاء السودان وبرزت خلاوي علي بيتاي في مناطق القضارف والدامر وأمدرمان وشمال كردفان وجنوبها هذا وسيدنا علي يجوب بقاع السودان النائية

بهمة وحماسة عظيمين ينشىء ويدعو ويشجع على قيام خلاوي القرآن ويلبي دعوات الداعين لذلك، مهما بعدت الشقة وعظمت المشقة.

وصحبت هذه الدعوة القرآنية دعوة إلى العمل بما جاء به القرآن الكريم والبدء بإصلاح النفس في هدوء والتزام، وكان يقول النظافة من الإيمان ـ نظف جسمك ـ وثوبك ـ تعلم القرآن الكريم واللغة العربية لتعرف دينك وإخوانك المسلمين. دع الشجار فإنه يقودك إلى السجن وإلى الغرامة حيث تستفيد الحكومة وتخسر أنت إخوتك ومالك ووقتك ونفسك وقد تكون قاتلاً أو مقتولاً وكان لقوة شخصيته وقوة منطقه وبساطة أسلوبه فعل السحر عند سامعيه وسرعان ما استجاب له خلق كثير وخمد الكثير من نيران الفتن وتعانق الخصوم ولما قوي ساعده وانتشرت تعاليمه أغاظ هذا العمل بعض الأفراد فنقل الوشاة الخبر إلى الحكومة وبالرغم من سلمية الدعوة التي لا سلاح عندها غير المصحف واللوح والإبريق فقد استدعته السلطات الانجليزية وأملت عليه ثلاثة شروط:

١/ أن يمر على الخلاوي التي أقامها ويفرقها.

٢/ أن يلوذ بالصمت وألا يبث آراءه بين الناس.

٣/ ألا يتحدث برؤياه للرسول ﷺ.

ورفض الشيخ الإذعان لذلك وصدرت الأوامر بنفيه وتحديد إقامته وهكذا قضى نحو من ٦ سنوات رهن السجون والإقامة الجبرية في سبيل دعوته الإصلاحية ثم أطلق سراحه وسمح له بالعودة لبلده.

عاد الشيخ وأتباعه إلى همشكوريب وازدهرت فيها الحياة القرآنية والإصلاحية وشاهد الناس أمامهم مجتمعاً خالياً من الجريمة لأنه نبذ ما يقود إلى الجريمة من سرقة وخمر وزنا وقمار وكل ما يقود إلى إتلاف المال والصحة فأقلع مجتمعها عن المكيفات المتعارفة فيه كالسجاير والسعوط التي توقف التجار عن استجلابها

وبيعها في حوانيتهم وخلت شوارع همشكوريب من الشرطي والخفير لأن إنسانها أصبح رقيباً على نفسه وبعيداً عن الجريمة.

وكان جهاد سيدنا علي بيتاي قائماً على تعليم القرآن وحول مائدة القرآن بسط دعوته الإصلاحية واستطاع أن يجلس ألد القبائل خصومة مع أعدائهم بالأمس وأن يزيل ما بين القبائل من أحقاد وثارات وأن يمحو الكثير مما يتمسك به المجتمع من اختلافات في الجنس واللسان واللون. ومما حققته خلاوي سيدنا علي بيتاي في محيط التربية والتعليم وتنمية المجتمع.

١/ أنها جمعت بين التعليم والتربية.

٢/ وأنها محت الأمية بين النساء والرجال بأسلوب سهل زهيد الثمن.

٣/ تدرجت بحفظة القرآن حتى مستوى الجامعات داخل السودان وخارجه.

٤/ خرجت الآلاف من حفظة القرآن الكريم.

٥/ الدارسون بها قوة منتجة تدرس وتعمل.

٦/ أثبتت قوتها الروحية برجوع أبنائها الذين أتموا دراساتهم العليا داخل السودان أو خارجه إليها وفيهم الطبيب والمهندس والمعلم وفني التكنولوجيا الحديثة وهم في حماسة للبذل والعطاء وولاء فريد لمجتمعهم القرآني.. وإنها لمراقي للنجاح لم تبلغها مثيلاتها من المؤسسات القرآنية.

وفي يوم ١٩٧٨/٩/١٨ أسلم الشيخ علي بيتاي الروح لبارئها في المستشفى العسكري بالخرطوم بعد مرض لم يدم طويلاً ونقل جثمانه إلى همشكوريب القرية التي بلغ صيتها أقاصي العالم الإسلامي وكانت آخر كلماته في دنياه «عليكم بكتاب الله وسنة رسوله وقراءة القرآن».

همشكوريب واحة القرآن[1]

بدأ الشيخ دعوته بسؤالين كان يلقيهما على تجمعات الناس عدة مرات هل تعلمون «من أخوكم! ومن عدوكم!» ويتولى الإجابة بنفسه بعد تكرار السؤال «أخوكم كل مسلم» وعدوكم «الشيطان» فقدت إحدى القبائل زعيمها وأرادت اختيار من سيتولى شياخة القبيلة واختلفوا على فريقين كل يسمي شخصاً، وبعد جدال طويل قرروا أن يحتكموا للشيخ علي بيتاي، فقال لهم هذه المرة سأقضي بينكم أما مستقبلاً فولوا عليكم «التقي الذي ينبذ التعصب القبلي».

يعيش الهدندوة الآن والبني عامر في شرق السودان والفور والزغاوة في غرب السودان والشلك والدينكا في جنوب السودان مع الماريا من أرتريا جنباً إلى جنب في إخاء ومحبة في رحاب القرآن بهمشكوريب وخلاوي أخرى.

ويطيب للبعض الحديث عن ضرورة التحديث لخلاوي همشكوريب والسؤال ما معنى التحديث وخلاوي همشكوريب بوضعها الحالي تمثل قمة ما توصلت إليه النظريات التربوية من ذلك.

١/ أن الخلاوي همشكوريب تجمع بين التربية والتعليم.

٢/ استطاعت خلاوي همشكوريب أن تمحو الأمية عن الرجال والنساء معاً وبأسلوب فريد وبأسهل الوسائل وبدون تكلفة تذكر.

٣/ خلاوي همشكوريب تطبق أساليب التربية والتعليم فالدارسون قوة منتجة بجانب انشغالهم بتلقي العلم.

٤/ استطاعت خلاوي همشكوريب التدرج بحفظة القرآن بها حتى مستوى الجامعات فقد تخرج الكثير من طلاب همشكوريب من الجامعات الإسلامية في

---

(١) همشكوريب ـ واحة القرآن تأليف الأستاذ محمد شريف فضل ـ ذو القعدة ١٤٠٨هـ الموافق ١٩٨٨/٧/١٦، ـ كسلا السودان.

السودان ومصر والمملكة العربية السعودية وعادوا بدورهم لتحفيظ القرآن ولأداء ما عليهم من دَيْن معنوي.

والغريب في الأمر أن تدرجهم التعليمي حتى المستوى الجامعي لم يفصلهم عن الانتماء للأرض والأهل فما بهرتهم أضواء المدن التي تلقوا فيها دراساتهم الجامعية. ومن الجامعيين الذين عادوا للتدريس في الخلوة نذكر محمد اوهاج ومحمد علي محمد دِينْ. فأي حداثة أو تحديث وراء هذا.

لقد قام الشيخ علي بيتاي ومن بعده شقيقه الشيخ الطاهر بيتاي بالدور الكبير والجهد الأعظم. وذلك بتعديل حياة الناس من الترحل إلى الاستقرار ومن الهمجية إلى الحضارة ومن ظلام الأمية إلى نور العلم وجمع الناس حول القرآن. وبعد ذلك يأتي دور جميع الحادبين على الإسلام وعلى نشره وتيسير حفظ القرآن وفهم معانيه سواء كانوا من الأفراد أو الهيئات أو المنظمات وإلى كل هؤلاء وجه الشيخ علي بيتاي النداء التالي «أناشدكم أيها العلماء والصلحاء والعاملون لخير الإسلام أن تسعوا معي للاستفادة من هذه النفوس البشرية المهيأة لقبول الإرشاد والتوجيه والتنوير بنور القرآن والسير على سنة الرسول ﷺ بهذا أحمل إخواني العلماء مسؤولية ذلك أناشدكم بالله أيها العلماء أن تقبلوا على توجيه إخوانكم لترك المتع التي يتمتع بها ساكنو المدن كالمراوح والمكيفات ومطايب الأكل وغيرها من الملذات لانشغالهم من الجهل والظلام والضلال إلى نور العلم والهداية إلى الطريق المستقيم.

الباب السادس

الخلوة والمهدية

دراسة الإمام المهدي

لا ريب أن التعليم السائد في بلادنا هو تعلم الخلوة فكل المتقدمين تخرجوا في هذه الخلاوي قبل أن يعرفوا المدارس الحديثة ومن ضمن هؤلاء الإمام محمد أحمد المهدي بن عبد الله.

قال الراوي[1] وبعد وفاة والده عبد الله ارتحلوا أولاده إلى كررى فأقاموا بها طويلاً وقد بدأ المهدي القرآن في الخرطوم على الشيخ شرف الدين عبد الصادق ثم على الفكي محبوب الحبشي «معتوق شجر الخيري» وتلميذ الفكي الأمين ولد أم حقين ثم في خلوة بري على الفكي خوجلي ولد المبارك وفي سنة ١٢٧٧ أخذ على الشيخ محمد شريف نور الدائم ثم درس علوم الدين على الشيخ الأمين الصويلح بكترانج[2] وفي سنة ١٢٧٩ هجرية تاقت نفسه لتلقي العلوم بالأزهر الشريف فقام على النية وعندما وصل بربر ذكر ذلك للشيخ السماني ولد فزع أحد تلاميذ الشيخ محمد خير عبد الله خوجلي فقال له إن شيخنا له إلمام تام بعلم الفقه وتدريسه وله اطلاع واسع وربما يغنيك عن الذهاب لمصر. فسمع المهدي رأيه وتأخر عن الذهاب لمصر وأكب على طلب العلم عند الشيخ محمد الخير فمكث عنده ثلاثة سنوات. ثم طلب منه أن يأذن له في الذهاب إلى كَرَرِي لكي يتزوج ثم

---

(١) كاتب هذه المخطوطة لم يذكر اسمه.

(٢) كترانج ـ قام محدها على القرآن وتقع على النيل الأزرق شرق قرية المسيد.

يعود ومعلوم ما كان من حالة المهدي مع الشيخ محمد خير فإنه كان امتنع من أكل الطعام الذي يقدم للطلبة وكان يأكل فقط مما يصطاده من السمك. حتى علم بذلك الشيخ محمد الخير فعاهده بأن الأكل الذي يأكله من محصول ساقيته[1] التي ورثها عن والده فطاب المهدي نفساً بذلك وصار يأكل من محصولها إلى أن عاد إلى كرري وتزوج بالوالدة فاطمة بنت حاج وذلك في سنة ١٢٨٢هـ.

امتناع المهدي عن الطعام

والسبب في امتناع المهدي عن أكل طعام الشيخ محمد الخير فقد روى لنا الشيخ محمد أحمد حاج عطوة[2] أنه قال كنا في طلب العلم ثلاثة تلاميذ «سوياً» وخصص لنا الشيخ محمد الخير أكلاً خاصاً وألزم زوجته لخدمتنا والثلاثة هم:

١/ محمد أحمد المهدي.

٢/ الطاهر تاتاي.

٣/ محمد أحمد الحاج عطوة.

وكان الطاهر تاتاي كثير الهزار فقال للمهدي من نوع الهزار إن شيخنا محمد الخير طعامه كله من «ماهية الحكومة»[3] فعند ذلك توقف المهدي عن أكل الطعام بعد سماعه لهذا الكلام حتى عاهده الشيخ محمد الخير على كتاب الله العزيز بأنه لا يأكل من مرتب الحكومة وإنما يأكل فقط من خراج ساقيته التي ورثها عن أبيه وبذلك طاب المهدي نفساً.

ثم ارتحل المهدي لكرري ومنها بدأ يدرس العلم في الخرطوم فهيأ الله كثيراً

---

(١) الساقية أداة معروفة في حوض النيل وهي وسيلة كسب العيش قبل قرون عديدة.

(٢) ود حاج عطوة مغربي كان يقيم المكايلاب ضاحية بربر وهو جد الفقيه الشيخ محجوب جلال الدين.

(٣) ماهية الحكومة ـ كانت الحكومة التركية تدفع مساعدات لبعض المسايد ومن ضمنها مسيد الغبش والله أعلم ـ راجع التربية في السودان لعبد العزيز عبد المجيد.

من الناس لحضور درسه لسعة اطلاعه وغزارة مادته ويحكى أنه كان شغفاً بالعلوم العقلية وقيل كان يهوى من علوم الدين - علوم التفسير والحديث وقالوا وجدنا بخط المهدي نفسه أنه قرأ كتاب «الشمس البازغة» عشرين مرة وتفسير الجلالين سبعة وأربعين مرة.

ثم أقام فترة في الخرطوم وخرج منها متوجهاً إلى الجزيرة «ابا» وأقام فيها فترة أعد فيها نفسه وتهيأ روحياً ونفسياً ومادياً وفي غرة شعبان سنة ١٢٩٨ الموافق ٢٩ يونيو ١٨٨١ أعلن المهدي عليه السلام دعوته التي أراد بها إعادة الشريعة والتعاليم الإسلامية سالف مجدها وفي منتصف شعبان بايعته الجموع الزاخرة التي توافدت على الجزيرة «ابا» بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً وبه إماماً ومهدياً وعلى زهد الدنيا وعلى الجهاد في سبيل الله.

ومنها اندلعت شرارة الثورة المهدية التي عمت البلاد كلها والروايات المتواترة تذكر أن الإمام المهدي «وكان عهدئذ يعرف بالشيخ محمد أحمد» يتعفف من كل شيء فيه ريبة وكان يرتاب في كل أمر يفعله «الترك» ويشك ويزداد شكاً كبيراً في مصدر أموال الدول من حيث الوجهة الشرعية وهذا يدلنا على ورع الإمام المهدي وعفته.

وتزعم الروايات أنه كان شديد الزهد متوكلاً على الله ومن زهده وتوكله وورعه بعد أن توقف من أكل طعام شيخه كان يصطاد السمك من النيل ويشويه ويأكله ويؤكد الرواة أنه كان يرمي [السنارة] من غير طعم والسنارة جرى العرف وفن الصيد أن يجعلوا فيها - طعماً - من صغار السمك أو اللحم أو الديدان أو خشاش الأرض - وكلها تجذب السمك فيلتهمها فتنغرس السنارة في خيشومه ثم يسحبه الصايد.

فالمهدي أبى أن يضع «الطعم» في السنارة وعندما سألوه عن فعله هذا قال أخشى أن أغش السمك.. إلخ.

المهدية والمسيد

فيما سبق تحدثت عن دراسة الإمام وأوردت بعض المشائخ الذين درس عليهم القرآن. وبعد الدراسة تهيأ للتغيير الذي ينبغي أن يحدث في البلاد ووطن نفسه على إزالة الحكم التركي الذي ملأ البلاد ظلماً وجوراً وكان سبيله إلى وصول ذلك الهدف «الإسلام» فقامت دعوته على أسس وقواعد إسلامية وهو خبير عليم بأن هذه الأمة لا يستقيم أمرها إلا بالرجوع إلى الإسلام.

فجدد في أسلوب الدعوة وجمع الناس على المحجة البيضاء فتبعه الناس واستجابوا لداعي الله ووجد العديد من المعارضين حتى من أهل الطرق الصوفية وعلى رأسهم شيخه محمد شريف والشيخ برير إلخ وكان يعتمد على شيوخ المسايد والخلاوي وبعض القادة الاجتماعيين كشيوخ القبائل ونحوهم.

ولكن اعتماده الأكبر على المشائخ فكاتب أصحاب المسايد والعلماء والفقهاء وتودد إليهم.

ومن المعلوم أيضاً أن المهدي كاتب بعض المشائخ وطاف على بعضهم ودليلي ذهابه لكردفان الذي أورده مخطوط «ود العجب» قبل أن يكون المهدي فيما بعد.

سافر إلى كردفان[1] قبل ظهور المهدية مرتين ففي المرة الأولى سافر من الجزيرة ابا لكردفان ولكنه لم يصل الأبيض ورجع من دار الجوامعة بعد مقابلة الشيخ المنا وذلك في سنة ١٢٩٧هـ.

أما السفرة الثانية فقد رُوِيَ لنا أنه قام من الجزيرة «ابا» في شهر محرم سنة ١٢٩٨هـ ووصل إلى بارا في أواخر صفر سنة ١٢٩٨ بعد أن مر على جميع المساجد وأهل الدين المشهورين في طريقه. ثم مكث ببارا[2] بقية شهر صفر وفي

---

(١) كردفان إقليم مشهور واسع خصيب يقع في غرب السودان.

(٢) بارا ـ بلدة لها مساهمة كبيرة في تاريخ السودان.

ربيع الأول قام «لأسحف»[1] وبات بمسجد الفكي مساعد حامد.. ثم قابل أخاه عثمان ولد حامد الذي كان ناظراً ثم «رفته» الأتراك وتَعَيَّن بدله جابر الطيب وفي الصباح قام إلى الأبيض فنزل على «الخليفة محمد سوار الذهب».. ثم خرج «لجنوب كردفان» في ١٥ ربيع ١٢٩٨ واجتمع في تقلى[2] بالملك ادم ام دبالو في جبل كراية ثم قفل راجعاً إلى الجزيرة أبا وأثبتت الوثيقة أسماء الرجال الذين صحبهم المهدي في رحلته تلك وعددهم مائة وعشرون رجلاً.. وأغلبهم من أهل القرآن ونذكر منهم:

١/ الخليفة عبد الله.

٢/ أحمد شرفي وابنه محمد.

٣/ عبد الرحمن حاج علي.

٤/ الشيخ إدريس الشاعر.

٥/ الشيخ محمد سعد الدويح.

٦/ الشيخ عبد الله الدويح.

٧/ الشيخ ضي الدين الدنباوي.

٨/ الشيخ الأمين محمد أبو سنينة.

٩/ الشيخ آدا الأعيسر.

١٠/ الشيخ العيسابي.

١١/ الشيخ العبيد العيسابي.

١٢/ الشيخ محمد بلال.

١٣/ الشيخ بركات محمد سعيد.

---

(١) أسحف ـ في غرب السودان (كردفان).

(٢) تقلى إحدى بلدان جنوب كردفان.

١٤/ الشيخ الرفاعي محمود.

١٥/ الشيخ جلال الدين أحمد الأنصاري.

١٦/ الشيخ مكي علي أبو شنب العركي.

١٧/ الشيخ القاضي محمد بادي.

١٨/ الشيخ مكي.

١٩/ الشيخ أحمد الأزهري.

٢٠/ الشيخ الفكي عربي الهواري.

٢١/ الشيخ ود اب صفية الصديق وأخيه عبد الكبير.

وغير هؤلاء من أهل المسايد الذين اقتنعوا بصدق هذه الدعوة..

أوردت هذا للدلالة أن خلاوي القرآن والمسايد كانت سنداً وعاملاً هاماً في نجاح المهدية وقليل من هذه المراكز الدينية من شذ ولما اشتدت الدعوة للجهاد تعطلت المدارس القرآنية في أغلب أنحاء القطر لأن المشايخ والتلاميذ انخرطوا في سلك الجهاد وبعد انتقال الإمام المهدي للرفيق الأعلى آل الأمر لخليفته عبد الله بن السيد محمد فأمر باستئناف دراسة القرآن..

الخلوة والمهدية

فترة التعبئة التي نهض فيها الإمام محمد أحمد المهدي توقف نشاط الخلاوي رغم أن معلمي القرآن معفوون من الخروج للجهاد وانخرط جل المشايخ وطلبتهم مع المجاهدين ولما استقام أمر الدولة التفت خليفة المهدي عليه الرحمة وأمر بإيقاد نار القرآن في مسجد الإمام المهدي «جامع الخليفة».

ووجه الأنصار ببداية تدريس القرآن وأن يُعلم من يَعلم الذين لا يعلمون وعثرنا على الوثيقة التالية التي أرخت لبداية تدريس القرآن في مكتبة شيخ العلم المجاهد أحمد العجب وهذا نص الوثيقة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم أما بعد: فقد ثبت بتاريخ أول يوم محرم سنة ١٣٠٣هـ أن خليفة المهدي عليه السلام بحضرة الخلفاء والأمراء بالبقعة المباركة بدأ قراءة القرآن يوم «الأربعاء» بأربعة ألف وخمسمائة لوح. وأمر الإخوان أن يعلموا الأحباب قراءة الفاتحة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين آيةً وشكلةً وسورتين من القرآن «المعوذتين» وأمر الصبيان بالقراءة من أ ب ت ث إلى إلخ.. وقامت خمسمائة حلقة في بطن الجامع يقرؤن حزب القرآن صباحاً ومساءً مع راتب الإمام المهدي عليه السلام وفي سنة «خمسة» نبه جميع الناس، وكان ذلك بمسجده بجامع المهدي وأمر بالتهليل والتكبير وتلاوة القرآن وفي شهر رمضان يصلون سبعون ألف «فروة» ليلة بعد ليلة، ثلاثين يوماً.. شهد بذلك محمد بن البصير وشهد بذلك إبراهيم عالم وشهد بذلك موسى التكينة والقاضي الهادي وموسى بن عقلة، حسبوا ووجدوا كافة الفقراء هذا العدد بالتمام، وفي كل سنة يختمون القرآن ستة ألف «مَدْلَى» وفي البقعة المباركة ثمانمائة مسجد لقراءة القرآن وتستلم من بيت المال ثمانمائة «ريال» للفقراء الذين يعلمون الصبيان القرآن من ابتدائه.. هذا التاريخ الصحيح نقله الشيخ أحمد ود سعد خدام الجناب النبوي..

وهذه الوثيقة لا تحتاج لشرح فقد وفق الشاعر أحمد ود سعد في هذا وكان من المخلصين للمهدية وقد أفادنا وأفاد الأجيال بهذا العمل الجليل «كتابة الوثيقة» والناس عهدئذ كانوا على درجة عالية من الورع شاهدنا على ذلك استشهاد أحمد ود سعد بأربعة رجال عدول شهدوا على صحة رواية ود سعد وهم من الشخصيات المشهود لها بالصدق:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا
محمد وءاله مع التسليم اما بعد فقد
ثبت بتاريخ اول يوم محرم سنة ١٣٠٠
ان خليفة المهدي عليه السلام
بحضرة للخلفاء والامراء بالبقعة
المباركة ابتداء قراءة القرءان
يوم الاربعاء اربعة ءالاف
وخمساية لوح وامر الاخوان
ان يعلموا الاحباب قراءة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العلمين ءاية وشغلة
وسورتين من القرءان (المعوذتين)
وامر الصبيان بالقراءة منذ ابتدأت
الي ءالاخر وخمساية حلقة في بطن
الجامع يقرءون حزب القرءان صباحا
ومساء مع راتب المهدي عليه السلام
وفي سنة ٥ ليلة جميع الناس وكان ذلك
بجامع المهدي وامر بالتهليل والتكبير
وتلاوة القرءان وفي شهر رمضان

يهللون سبعون الف فروة ليلة بعد
ليلة ثلاثين يوما وشهد بذلك
محمد ابن البصيت وشهد بذلك
ابرهيم بن عالم . وشهد بذلك محمد
النكيبته والقاضي الرادي . وموسى
ابن عقله حسبوا ووجدوا كافية
لمنفراد هذا العدد التام وفي
كل سنة يختمون القرءان ستة
الاف مرة له في البقعة المباركة ثمنماية
مسجد لقراءة القرءان ومسلم من
بيت المال ثمنماية ريال للفقراء الذين
يعلمون الصبيان القرءان من ابن زاعيه

هذا التاريخ الصحيح قد نقله
الشيخ احمد سعد خدام الجناب النبوي

وبعد انحسار دولة المهدية الرسمية اضطربت الدراسة بعد دخول الجيش الغازي ولكنها ما لبثت أن عادت بعد فترة وكانت أكبر الخلاوي خلوة الجامع في ذات المكان «جامع ـ الخليفة» بأم درمان ولكنها تقلصت لنيف وستين حلقة دراسية تلاوة وتحفيظاً.

ومن كبريات الخلاوي خلوة شيخ الدين بن الخليفة ثم انتشرت الخلاوي في جميع أنحاء المدينة خاصة «الزرايب» وهي نظام السكن الذي ابتدعه الوافدون المجاهدون إلى أم درمان فقد سكنت كل قبيلة في ناحية من المدينة وأحاطت محل سكنها بزريبة ثم زالت الزرائب بمرور الزمن وحل محلها الأحياء الحالية.

١/ ود نوباوي.

٢/ أبوروف.

٣/ بيت المال.

٤/ أبو كدوك.

٥/ أبو عنجة.

٦/ زريبة الكاشف.

وبعد زوال الدولة المهدية جاء الحكم الثنائي وتوزع الناس وتفرقوا وعادت كثير من القبائل لوطنها الأصلي وبقي من بقي وكان أول ما فعله المواطنون في أم درمان بناء الخلاوي قبل بناء الدور.

والخلاوي هي الإرث الباقي من الدولة المهدية الإسلامية التي تخرج قائدها وخلفاؤه والمجاهدون والفرسان من أحشاء هذه الخلاوي وقد بلغت مئات عديدة ولكن بمرور الزمن وانتشار المدارس الحديثة ضمرت الخلاوي ولكنها رغم انتشار التعليم الأكاديمي ظلت باقية.

ويندر أن تجد إنساناً فوق الأربعين لم يدرس فيها وهـذا ثبـت بـالخلاوي التـي ظلت باقية حتى الأربعينات بمدينة أمدرمان.

١/ خلوة ود القاضي ـ شارع كرري.

٢/ خلوة الكتيابي ـ حي البوستة.

٣/ خلوة أبو شنب ـ حي الشهداء.

٤/ خلوة بولس ـ حي بيت المال.

٥/ خلوة الفكي إدريس ـ حي الركابية.

٦/ خلوة الفكي الماحي ـ حي ودنوباوي منزل الشيخ عثمان صالح.

٧/ خلوة ود عبد الماجد ـ حي الهجرة.

٨/ خلوة ود ارو ـ حي ود ارو.

٩/ خلو السيد علي الميرغني ـ حي بيت المال.

١٠/ خلوة السيد عبد الرحمن المهدي ـ حي ودنوباوي.

١١/ خلوة الشيخ قريب الله ـ حي ودنوباوي.

١٢/ خلوة حسن سوار الذهب ـ حي ودنوباوي.

١٣/ خلو ود المكاوي ـ حي الركابية.

١٤/ خلوة ود السيد ـ حي السوق شمال.

١٥/ خلوة الكوباني ـ حي ابي روف.

١٦/ خلوة بشارة ـ حي ابي روف.

١٧/ خلوة الشيخ حسن ـ جامع أمدرمان الكبير.

١٨/ خلوة الشيخ صالح العبادي ـ حي أبي روف.

١٩/ خلوة ود المنا ـ حي بيت المال.

٢٠/ خلوة الفكي وهب الله ـ حي ودونوباوي منزل الحاج سعد.

٢١/ خلوة حسن محمد خير ـ حي سوق الأربعاء.

٢٢/ خلوة الفكي محمد أبو جنازير ـ حي القلعة.

٢٣/ خلوة الفكي محمد المبارك ـ حي الهجرة.

٢٤/ خلوة الشفيع ـ حي الهجرة.

٢٥/ خلوة عثمان ونى ـ حي سوق الشجرة.

٢٧/ خلوة الفكي الحسين ـ حي ودونوباي.

٢٨/ خلوة محمد الحسين ـ حي الهجرة.

٢٩/ خلوة قدح الدم ـ حي الموردة.

٣٠/ خلوة الفكي خضر ـ حي «ريد».

٣١/ خلوة ـ مرفعين الفقراء ـ حي العباسية.

٣٢/ خلوة ناصر ـ حي القلعة.

٣٣/ خلوة الفكي أزرق ـ حي العصاصير.

٣٤/ خلوة السيد المكي ـ حي السيد المكي.

٣٥/ خلوة الشيخ ميطي ـ حي الركابية.

٣٦/ خلوة الشيخ الريح ـ حي أبوكدوك.

٣٧/ خلوة مكي حسن حسين ـ حي الموردة.

٣٨/ خلوة خليفة الياس ـ حي الموردة.

٣٩/ خلوة ود قلينج ـ حي الموردة.

٤٠/ خلوة الفكي حسن ـ حي الفيل الموردة.

٤١/ خلوة ود النور ـ حي ودنوباوي.

٤٢/ خلوة ود البنا - حي ود البنا.

٤٣/ خلوة الفكي عبد الباقي - حي سوق الشجرة.

٤٤/ خلوة يوسف كردفاني - حي أبي روف.

٤٥/ خلوة النور عنقرة - حي شارع الهجرة.

٤٦/ خلوة محمد عبد الرحمن ساتي - حي ود ارو.

٤٧/ خلوة مصطفى عطا الله - حي ود ارو.

٤٨/ خلوة البلة حمزة - حي ود ارو شمال.

٤٩/ خلوة علي المهدي - حي بيت المال.

٥٠/ خلوة الحجا - حي شمال السوق الشجرة.

ورد في هذا الثبت بعض أسماء رجال وجهاء وأصحاب يسار وقد ذكرناهم أما الخلوة التي يسبقها اسم الفكي فهي منسوبة للفكي مؤسسها.. وبعض الرجال ينشيء الخلوة حباً في نشر المعرفة وابتغاء الأجر والثواب وبعضهم يؤسسها وجاهة لأن الشخص المحترم في مطلع هذا القرن هو الذي يبني الديوان الفخم ودار الضيافة وتكتمل الوجاهة بإنشاء الخلوة سواء في الدار أو خارجها.. ومن الرجال الذين أسسوا الخلوة السيد بولس وهو مسيحي من مواطني أمدرمان وخلوته تقع بين بيت المال وحي أبي روف وبالقرب من شاطيء النيل.

هذا مما استطعت جمعه من خلاوي أمدرمان وقد اندثرت اليوم أكثر تلك الخلاوي وربما فاتني ذكر بعض الخلاوي المهمة فليعذرني من لم أذكر خلوته أو خلوة أسرته.. ولتكن هذه الخلاوي المذكورة نيابة عن الخلاوي التي لم أستطع الوقوف عليها وقد جمع هذا العدد من باب الذكرى والتبرك..

الخط عن الإمام المهدي

حرص الإمام المهدي على المستوى الرفيع في كل شيء وكان يوجه أحبابه ليحسنوا في كل وجه من الأوجه حتى الشكليات فيكتب لهم مثلاً في الحرص في إجادة الخط فيقول:

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم وبعد:

فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله إعلاماً منه لجميع كتاب أحكام المهدية وأنصار الدين ـ أما بعد فالذي نعلمكم به أن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ بحيث فهمتم فلا بد من تحسين الخط وتجويفه وعدم تغيير الحروف وقلب معانيها.. فقد أهلك الله المغيرين ودمرهم فاتركوا خطهم ولا تسلكوا سنتهم وأظهروا السين من بسم الله الرحمن الرحيم والشين من الشيطان الرجيم وأعطوا الحروف حقها كما أنزلت وحسب ما عهد فيما السلف، وتعليق الكاف والهاء على هذه الهيئة فإياكم وكتابة الترك ثاني مرة واجتهدوا في أخذ حذركم منها كي تعودوا بأيديكم على كتابة القرآن الكريم الذي أنزل بها واحفظوا أمرنا هذا واعملوا به للجميع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سنة ١٣٠٠هـ.

مسيد أم ضبان:

يحسب من أشهر المسايد في وسط السودان ولا أتجاوز الواقع إن قلت أنه المسيد الأكثر شهرة على أيامنا هذه.

والحديث عنه في هذا الفصل ينقسم إلى ثلاثة أوجه الأول سيرة الشيخ محمد أحمد بدر مؤسس المسيد،.

الثاني تاريخ المسيد.

الثالث أثر المسيد التعليمي والتربوي.

ولد الشيخ محمد أحمد بدر المسلمي البكري[1] بمنطقة شندي[2] في قرية «الحوارة» وهي من القرى الدارسة «اليوم» فقد اجتاحها النيل في «موسم الفيضان» قبل سنين طويلة.

أمه السيدة رية بنت أبو زيد وأمها تدعى «عزلة» وكانت رية وأمها متمسكتين بأهداب الدين ولهن صلات ود مع المسايد والخلاوي المشهورة في ذلك الزمان، وعلاقتهما أخص بمسيد الشيخ حسن ودحسونة ويحكى أن السيدة رية لها شخصية متميزة وكانت مضرب المثل في قوة الشخصية وسداد الرأي وكانت تطلق على ابنها «لقب» العبيد وبعد برهة طغى اسم العبيد على اسم محمد وصار اسم شهرته «العبيد ود رية» لما لأمه من مكانة مرموقة وكان الشيخ شديد الاعتزاز بأمه ولما سئل عن شيخه الذي درسه القرآن قال «شيخي «أمي» كانت تعلمني القرآن وأنا سارح مع الغنم» ولما صار شاباً وجد أهله يرتحلون مع ماشيتهم وأغنامهم طلباً للماء والكلاء..

متنقلين في سهل «البطانة» الشمالية واستقروا فترة من الزمان في «قوز رجب»[3] ثم خرجوا منها منساحين صوب الجنوب الغربي من أرض البطانة وكان بجانب دراسته القرآن يرعى الغنم ويفلح الأرض.

وفوق هذا أخذ نفسه بالشدة والمجاهدة وكان يمضي الأيام والليالي صائماً قائماً حتى نحل جسمه وصار أصدقاؤه «يعدون» أضلعه ومفاصل ظهره من شدة الضعف والهزال ولم يزل هذا ديدنه حتى بلغ مبلغاً روحياً عظيماً.

---

(١) نسب الشيخ ود بدر يمتد عبر المسلمية إلى سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

(٢) شندي ـ في شمال السودان ١٥٠ كلم من الخرطوم وهي حاضرة الجعليين.

(٣) قوز رجب ـ بلدة مشهورر بأعالي نهر أتبرا.

وبعد هذه السياحة اتجه نحو الشيخ «عوض الجيد» فأخذ عنه الفقه والعربية ثم خرج حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر المصطفى ﷺ والسفر وقتئذ ضرب من الجهاد والابتلاء، والسلف الصالح في بلادنا بخاصة الذين قادوا النهضة العلمية القرآنية أدى أغلبهم فريضة الحج في ذلك الزمان المتقدم وصار الحج إحدى شروط الجهاد فوق أنه فريضة ولكن من أركان الإسلام، وقد نلاحظ من خلال هذا الكتاب أن المشايخ المتقدمين حجوا والسودان تحكمه الدولة المسيحية «علوة» فالحج اختبار لعزائم الرجال، وبعد عودته من الحج انقطع إلى الله تعالى وزهد في تركه الأسباب الدنيوية وصرف همته للعبادة والتأمل.

وبعد برهة أوقد نار القرآن المعروفة «بالتقابة».

أخلاق الشيخ:-

التزم الشيخ العبيد الأخلاق الفاضلة وتمسك بأهداب السنة في كل خطواته وكان شعاره الزهد، والتوكل على الله واتبع ذلك البطش والكد بيديه فكان يتولى الزراعة بنفسه والرعي وسقي الماشية وإكرام الضيف.

الحكمة:-

وفوق هذا فقد ألهمه الله الحكمة في الأقوال والأفعال فكلامه يخرج كالدر في قالب من الحكمة الجزلة مسجوعاً ومنغماً.. والناس يتلقون كل كلمة «وحديث أو حكمة» تتناقلها الخاصة قبل العامة حتى شاعت في أكثر بقاع السودان في وقت وجيز..

وروى تلاميذه أنه قال سألت الله أن يستجيب لي ثلاث دعوات.

الأولى أن يعطيني لسان أبوي الشيخ فرح ود تكتوك.

الثانية أن يعطيني كرم أبوي الشيخ إدريس.

الثالثة «غِنَى» أبوي الشيخ حسن ود حسونة.

وكان الرجال الثلاثة من ألمع مشايخ السلف الصالح وقد سبقوا الشيخ العبيد بحوالي قرنين من الزمان وعرف الشيخ فرح بسماحة الأخلاق وطراوة اللسان وصياغة الحكمة التي يستسيغها العامة والخاصة وكثير من أقوال الشيخ فرح تنسب للشيخ العبيد كما تنسب أقوال الشيخ العبيد للشيخ فرح للتقارب الشديد بينهما في النهج والأسلوب.

أما الشيخ إدريس ود الأرباب فقد بز أهل عصره في السخاء والكرم وهو أمر معروف عند كل الناس أما الغنى «الثراء» فقد وقع على الشيخ حسن ود حسونة وقد استجاب الله بفضله ومنه وحقق له دعوتين أما الثراء فلم يتحقق للشيخ فكل درهم يقع في يده كان ينفقه في التو والحين فلم يدخر مالاً ليحسب نفسه من الأغنياء «ويحسبه الناس».

طائفة من أقواله وحكمه:

كان أحد الحكام الأتراك يميل نحو التدين وكان يزور الشيخ العبيد الفينة بعد الأخرى وبعد ظهور المهدي أرسل الحاكم التركي رسولاً يسأل الشيخ العبيد عن رأيه في المهدي فرد الشيخ بطريقته المعروفة:

كان مهدي جيدْ لِينا

واكان ما مهدي شِينْ لِينا

سمع الشيخ العبيد أن رجلاً متحمساً قاوم الجيش التركي فتصدت له قوة جيش الحكومة وقتلته وأنصاره فلما سمع الشيخ العبيد الخبر تأسف وترحم على الرجل وقال قولته المشهورة:

أخونا فلان أذّن قبل دخول الوقت

وفي رواية ـ صلى قبل دخول الوقت

ومن أقواله:ـ

نعمة الأمير إن زار الفقير

وبئس الفقير إن زار الأمير

***

القادر ما تقادرو

الاضينَة ما تعاذروا

وما تشهد على الماك حاضروا

***

العنده حَبَّهْ من الرئاسة

ما تكمل معاه الفراسة

***

الماعنده ضهر

وما بحمل السهر

ووشو مافيه قهر

هو اليَجِزْ ومرتو التَهِزْ

***

توضا صحيح

صل صحيح

وإن سألوك قول قولاً نصيح

ومد إيدك لا تكون شحيح

شوف يوم القيام اكان ما تستريح

وسئل عن القرآن فقال مقولة مشهورة بين تلاميذه حتى يومنا هذا. قال حفظ القرآن يحتاج للصبر والمثابرة ـ وضرب مثلاً برجل اشترى أربعة نياق من السوق كل واحدة من جهة.

إن لم يصبر عليهن رعياً وشراباً ومواظبة فإنهن متى ما وَجَدْنَ الفرصة هربن. كل واحدة لأهلها فالذي يصبر عليهن حتى «يأتلفن» ويصرن نفساً واحدة لا تستطيع إحداهن مفارقة أخواتها وهكذا سورة القرآن من يرعاها ويصبر عليها تلتئم ولا تتفرق أبداً «وتستقر» في فؤاده.

وقال عن المراة

ـ المرأة الكاملة

مقنعاً سابل

وجِسًّا ضابل

ووشاً للرجال ما يقابل.

ثم الطاعة وحفظ اللسان.؟؟

ـ النساء ثلاث ـ مَرَة ونص مَرَة وأثر مرة.

الأولى المرة من العتبة وإلى ورا.

والثانية نص المرة للجيران تمشي بالضرا.

والثالثة الهي مرة «ناس السوق جايين خبرا»

إنشاء المسيد

أوقد نار القرآن وبدأ التدريس سيدي الشيخ العبيد ود «ريـة» بـادىء ذي بـدء في مكان يقال له «النخيرة» تبعد حوالـي ٤٠ كيلومـتر مـن موقـع مسـيد أم ضبـان الحالي من جهة الشرق وكان يتنقل بطلبته من النخـيرة إلـى بقعـة أم ضبـان حوالـي ٢١ سنة. ثم استقر في هذا المكان والذي عرف «بأم ضبان» فيما بعد.

أم ضبان

جاء في كتاب قلائد الدر[1] اسم البقعة «أم ذبان» بعضهم قال أم «ضوبان».

سألت «الخليفة يوسف» رحمه الله عن حقيقة اســم «أم ضبـان» فـي صبيحـة الثاني عشر من ربيع آلأول ١٤٠١هـ قال:ـ

كان الشيخ ود بدر ينزل من قريـة النخـيرة ويصعـد حوالـي ٢٠ سـنة وكـان تلاميذه يردون النيل ببهائمهم بمُشرع المحس بالقرب من العيلفون[2] ثم يصــدرون جهة الشرق بضـع كيلومـترات وكـان بالمكـان شـجرة «طنـدب» يسـكنها ذبـاب «النحل» وحول «الطندبة» سهل فسيح طيب الـنزل. فكـان الشـيخ ود بـدر يشـير عليهم بأن ينزلوا سهل الشجرة «أم ضبان» وصاروا يترددون علــى المكـان إلـى أن ألفوه وطاب لهم المقام وحفروا البئر الحفير[3] ثم تساقطت شجرة الطندب وبادت وبقي اسمها فقط، وصـار النـاس كلهـم يقولـون «أم ضبـان» نسـبة للشـجرة آنفـة الذكر.

والعرب تسمي النحل «الذباب» جاء في لسان العرب في مادة النحل «النحــل

---

(١) قلائد الدر ـ تأليف الشيخ صالح بن الشيخ تاج الدين الرازقي. طبع بمطبعة سليمان داود منديل بالخرطوم في أول محرم ١٣٤٩هـ.

(٢) مُشرع ـ المشرع مورد الماء.

(٣) الحفير ـ حوض ضخم تتجمع فيه مياه الخريف حتى يحول الحول.

ذباب العسل» وأهل السودان لا ريب أخذوا لغتهم من أصولها العربية التي انحدرت لهم من أسلافهم الأقدمين. وقد وصف عنترة بن شداد العبسي[1] ذباب النحل في معلقته قال[2]:

وخلا الذباب بها فليس ببارح   غرداً كفعل الشارب المترنم

وعامة العرب يسمون النحل الذباب ـ فلا مُشَاحَّة إذا استعمل الشيخ العبيد وتلاميذه كلمة «ذباب» أو ضبان كما في اللسان العامي.

الوجه الثاني: أن أكثر المشايخ الذين أسسوا المسيد وخلوة القرآن عرفوا بالزهد والتقشف وتحقير النفس ووفق هذا الأسلوب كانوا يسمون الأماكن التي نزلوا فيها وعمروها بأسماء تنم عن الزهد وإنكار الذات.

١/ الشيخ العبيد يسمى ـ أم ضبان.

٢/ الشيخ إبراهيم الكباشي سمى ـ أم زُقان.

٣/ الشيخ عوض الجيد سمى ـ عفينة.

وهذا أسلوب شائع في بلادنا تسمية الأماكن بأسماء حقيرة هضماً للنفس وقتلاً لحب الظهور فيها.

ولما أوقد الشيخ العبيد نار القرآن كان في يمينه الفكي محمد بن الحاج ١٢٦٤ وقد مسك «السوط» من يد الشيخ العبيد ثم تلاه:

١٢٦٥ الفكي بلة بن الفكي محمد.

١٢٦٦ الفكي محمد ابن الفكي بلة.

١٢٦٧ الخليفة أحمد بن الشيخ.

---

(١) النحل ـ لسان العرب ـ الجزء الرابع عشر صفحة ١٧٢.

(٢) شرح المعلقات للزوزني.

١٢٦٩ الفكي بلة بن الفكي محمد مرة ثانية.

١٢٧٣ الشيخ علي الكرار بن الشيخ.

١٢٧٤ الفكي عبد الرحمن بن الفكي محمد المهلاوي.

١٢٨٥ ومكث المهلاوي إحدى عشرة سنة.

١٢٨٥ الشيخ الطيب بن الشيخ.

وفي هذا العام استقر الأستاذ العبيد في أم ضبان ومكث ابنه الطيب حوالي عشر سنوات وقيل إحدى عشرة.

١٢٩٦ الشيخ العباس بن الشيخ العبيد.

١٣٠٢ واستمر ستة أعوام.

١٣٠٦ الفكي عبد الرحمن بن الفكي أحمد حنقول

ثم خمدت نار القرآن كما أشرت بسبب المجاعة سنة ٦ وعاد التدريس في نهاية ١٣٠٧ ـ ١٣٠٨ في بداية هذه السنة تولى التدريس الفكي محمد الحاج نور إلى ١٣١٢.

ثم الخليفة حسب الرسول بن الأستاذ ويحسب الشيخ حسب الرسول من أمهر قادة التدريس من ١٣٢٢ إلى ١٣٤٩ وهو تاريخ بداية تأليف هذا الكتاب[1].

ونار القرآن لها خمس وثمانون سنة حتى تاريخ تأليف هذا الكتاب ١٣٤٩ منها ٣٧ في حياة الأستاذ وإحدى وعشرون منها بين النخيرة وأم ضبان ومنها ثمانية وأربعون بعد وفاته نسأل الله أن يمدها بأوفر مدد من عنده.

---

(١) كتاب قلائد الدر تأليف الشيخ صالح تاج الدين.

المسيد اليوم

هذا واتسع المسيد بعد أن كان بضعة أكواخ وخلاوي صغيرة إذ تحول الآن لتصبح أم ضبان مدينة على أيامنا هذه، وقد كان أكثر عمرانها على عهد الخليفة يوسف بن عمر بن الشيخ العبيد فقامت في أكناف المسيد كل أسباب المدنية.

١/ الكهرباء.

٢/ الماء.

٣/ المستشفى.

٤/ المدارس الأكاديمية العليا بنين وبنات.

٥/ الشرطة.

٦/ القضاء.

٧/ المجلس الإداري.

٨/ الأندية الرياضية والثقافية والاجتماعية إلخ..

٩/ ثم معهد تجويد القرآن والدراسات الإسلامية الأخرى.

١٠/ العيادة النفسية بمعاونة المسيد ورعايته.

أثر المسيد التعليمي

كان مؤسس مسيد أم ضبان كما أشرت شيخاً بارعاً حصيفاً وكان عليه رضوان الله ورحمته خبيراً بأدواء النفوس وعلاجها فكان يقوم بجانب تدريس القرآن بتدريس الفقه وإصلاح ذات البين بين الناس وذكر مؤلف كتاب «قلائد الدر» أن الشيخ العبيد كان يقسم يومه على النحو التالي:

الوظيفة الأولى

من صلاة العشاء الأخيرة إلى حلول فجر اليوم الثاني يخلو إلى الله يقرأ القـرآن ولا يكلم أحداً ولا يكلمه أحد بكلام الدنيا.

الوظيفة الثانية

من بعد النافلة «صلاة الضحى» إلى منتصف النهار يدرس الفقه ويشـرح لكـل حسب مقدرته الذهنية ويضرب مثلاً لكل حسب حرفته الحراث، بحراثته، التاجر بتجارته، الجزار بجزارته، الحايك بحياكته إلى آخر أنماط الناس، ويغوص في المسألة حتى يجلي عبارتها لأهل الأفهام الغليظة.

الوظيفة الثالثة

من صلاة العصر ينظر في حوائج المسلمين فإن وجد شيئاً قضاه وإلا عـاد إلى قراءة كتب الفقه.

الوظيفة الرابعة

من صلاة العصر إلى اصفرار الشمس يواصل قضاء حوائـج النـاس مـن إصـلاح ذات البين وإغاثة الملهوفين ومعالجة المرضى وغيرهم ويتفقد الأرامـل والمسـاكين إلى غروب الشمس وفي كل وقت كان يطـل على طلبـة القـرآن وتفقـداً أحوالهـم وحاثهم على الحفظ والتجويد.

الوظيفة الخامسة

بعد المغرب إلى آذان العشاء يطوف على منازل الضيوف ويتفقد عشاءهم إلـى أن يصلي العشاء الأخير كان هذا دأبه إلى أن توفاه الله.

جهاد الشيخ العبيد

ولما ظهرت دعوة الإمام المهدي عليه السلام للملأ كان الشيخ العبيد من المؤيدين لها بعد أناة وإعمال نظر ولما كانت للشيخ مكانة عند أهل المعرفة فقد خاطبه الإمام المهدي بعدة رسائل وكان يسكت عليها وفي أثناء الفترة التي كان يراسله فيها الإمام المهدي قال الشيخ العبيد قولته المشهورة وهي عبارات باللغة العربية الدارجة المسموعة ما زال الناس يرددونها.

اكان مهدي جيد لينا

وكان ما مهدي شن لينا

وكان الشيخ العبيد يدرك أهمية التربية البدنية الروحية ولذلك حثّ أولاده وتلاميذه على الجهاد والانخراط في سلكه وكان الشيخ العبيد يحرص على أن يشارك أولاده في وضع الخطط القتالية ويحثهم على الفوز بالشهادة وهذه فقرات من رسائل الإمام المهدي إلى الشيخ العبيد.

منشور المهدي إلى الشيخ العبيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد.

فجزيل السلام من عبد ربه الواثق بمولاه محمد المهدي بن عبد الله إلى حبيبه العبيد بدر وكافة من كان لله وبذل نفسه في نصرة الدين في عباده المؤمنين.

أنتم أهل دراية وقد علمتم أن القلب إذا خلا من غير الله يمتلىء نوراً ويفيض منه إلى خلق الله ولا شك أن الرباني المتمسك بالله كأمثالكم شأنه هكذا ولا سيما هي عدم الخشية من أحد غير الله.

فإذا بلغك جوابي هذا فشمر وقوّ عزمك في الله وشد حزام العزم والحزم

واجمع همك في الله وأرسل لجميع أتباعك وأحبابك وأهلك وعشيرتك في الله وجاهد في معاداة الكفر واقطع السكك وبارز بالعداوة ظاهراً وباطناً بالقتل والأسر والرباط والحصار ولا تتوقف أبداً لأمر ما إن كنت ممتثلاً مصدقاً بمهديتنا افعل ذلك ولا تبالي. حكم ما فعل محمد الطيب البصير وإن خشيت فانضم إليه فلا يكون رضائي عليك إلا بفعل ما أمرتك من أحد الأمرين. فلما انجلى الأمر وسطع البرهان جمع الشيخ العبيد أولاده وأتباعه بعد أن أغار جيش الترك على العيلفون وقتل من فيها وخربها ثم اتجه نحو أم ضبان قرية الشيخ العبيد.

فوضع الشيخ وأبناؤه وتلاميذه خطتهم الدفاعية والهجومية وكانت الواقعة المعروفة باسم واقعة «الكرنوس» في سبتمبر ١٨٨٤.

وقد شارك الشيخ في وضع الخطة وكان «التكتيك» أن يلاقوا الجيش التركي خارج أم ضبان بمحل الكرنوس وكان قائد المعركة المقدم [سعد] وهو أصغر القواد سناً. وكان تقسيم الجيش على هذا النحو:

١/ الميمنة المقدم سعد.

٢/ الميسرة الشيخ الطاهر بن الشيخ العبيد.

٣/ القلب الكرار وحسب الرسول أبناء الشيخ العبيد.

وانتصروا انتصاراً باهراً في هذه المعركة.

المسيد والجهاد

وسيرة هذا الرجل الشيخ العبيد نموذج لسيرة معظم مشايخ المسيد فهم بجانب رسالتهم التعليمية قد خبروا الجهاد في كل صوره منذ عهد الفونج وإلى قيام المهدية فكل القادة وأصحاب الهمم العالية ممن تخرجوا في المسيد وانطلقوا منه، والأمل ما زال معقوداً على المسيد في إصلاح الحال الذي آل إليه مجتمع اليوم.

هذا وقد مدح الشيخ العبيد ومسيده كثير من الشعراء والكتاب وهذا جزء من قصيدة الشاعر إدريس جماع عن نار القرآن في هذا المسيد.

يا عابداً سهر الدجى	والناس غرقى في المنام
أنت الكريم ابن الأكارم	والإمام ابن الإمام
يا ابن من هزم الطغاة	بسر ربه والحسام
ذكرت مواقع جحفل	يعلو سناها في الغمام
بالشرق أشعلها بنوه	مكبرين بلا سقام
دحروا العداة الكافرين	لأجل دين لا يضام
أشعلت للقرآن ناراً	لا تكف عن الضرام
نار تبدد جهلهم	والجهل أشبه بالظلام
وجمعت طلاباً من الشيخ	الكبير إلى الغلام
وجلست تنصت خاشعاً	والناس حولك في ازدحام
ما بين طالب حاجة	يرجو نداك ومستهام

هذه القصيدة نظم الشاعر «إدريس جماع» في الخليفة حسب الرسول محمد أحمد بدر[1].

ود أب صالح

الشيخ ود أب صالح مسيده من أنشط المسايد الآن وله مساهمة كبيرة وذكر حسن وقد خرَّجَ آلافاً من الحفظة الذين تبوأوا مناصب هامة في مجال التعليم، والمسيد موقعه قلب البادية الشرية جنوب ود حسونه وشرق «أم ضبان»..

وذِكر هذه الأماكن كمثال لأن نقل المسيد من مكان إلى مكان له أسباب

(١) رواية الأستاذ صالح بانقا (إبن البان).

وأهداف. فمسيد ود حسونه والشيخ أرباب العقايد.

والشيخ أحمد ود عيسى والعبيد ود بدر وحمد بن عبد الله صاحب الدامر كل هذه المسايد تنقلت من مكان إلى آخر لأسباب منها ـ البعد عن المشاغل التي تزحم وقت الطلبة ومن أسبابها ضيق المكان فبعض المسايد ضاقت سعتها فآثروا تغيير الموقع لمكان أرحب.

للأسباب التي أشرت لها ورأى المشايخ أن الطالب المجتهد يحرص على الوصول إلى هذه الأماكن البعيدة، ومجيئه ههنا دليل على صحة عزمه وانقطاعه للدرس والتحصيل.

الاستقرار

ومن أهم الأسباب التي أظهرت حكمة المشايخ التي عرفها الناس فيما بعد، أن الانتقال بالمسيد من مكان إلى آخر فيه دعوة صريحة إلى الاستقرار.

إذ كان المجتمع السوداني يتكون من فئتين. مزارعين على شواطىء النيل ورعاة رحالة يجوبون البوادي والفلوات.

وكان أغلب الأهالي لا يعرفون الاستقرار ولا يؤمنون به فدعاهم المشايخ إلى الاستقرار حول هذه الأماكن فقبلوا الاستقرار. في حمى المسيد فأول شيء فعله المشايخ حفر البئر، «والمماهل» الكبيرة التي تعرف بـ«الحفير» وهو حوض ضخم يمكث الماء فيه سنة كاملة وعند كل مسيد حفير ضخم كان وما زال، وبعد بناء سور المسيد والمصلى والخلوة وغرف الضيوف، يأمر الشيخ ببناء البيت وهو من الأشياء التي لم يعهدها المجتمع الرعوي خاصة البيت «المستديم» وكانوا يسمونه «المربعة» إذ لم يعهد المجتمع الرعوي وعموم أهل الضهارى بناء المساكن المستقرة فلما رأوا هذه البيوت ـ سموها المربعة لغرابتها عليهم.

التقليد

ثم تبع التلاميذ مشايخهم فقلدوهم في بناء المربعة وحفر البئر والاستقرار حول المسايد ثم كبرت القرية. وهكذا كلما حط شيخ في مكان ما حفر البئر أو الحفير وبنى المربعة فيتبعه التلاميذ وكافة الناس وهكذا بدأت نواة القرى والمدن، وكثير من القرى والمدن تنسب لمشايخ القرآن[1].

العلاج

لا ريب أن المسلمين واجدون في كتاب الله كل شيء يحتاجونه وفي كتاب الله العظيم الآيات الشافيات التي تغسل ما في النفوس من كدر وهم وغم.

وكذلك يجدون في الأحاديث الشريفة أسباب العلاج كلها فمن لم يتيسر لهم في الكتاب يجدون شرحه في الحديث.

ثم أقوال الصحابة وما أجمع عليه السلف الصالح.

وفوق هذا فقد يجمع الشيخ بين العلاج القرآني والتطبيب بالأعشاب والكي بالنار والفصد بالمُوسَى.

وأكثر المشايخ يحذقون هذه الحكم ففي كل مسيد حكماء من غير مشايخ القرآن يشجعهم المسيد على الإقامة في كنفه. فالمواطن المريض يقبل على المسيد وهو مطمئن النفس فكل علاج يتلقاه يستجيب له ولو كان «ماء» من بئر المسيد فهي بلا ريب تؤثر في المريض الذي يظن فيها الخير، وما زال كثير من الأهالي رغم تقدم الطب وكثرة المستشفيات لا يذهبون إلى الطبيب المتخصص إلا بعد أن يأذن لهم شيخ المسيد.

وأهم ما اشتهرت به المسائد في السودان علاج الأمراض النفسية والعقلية التي تعرف عند العامة بـ«الجن».

---

(١) أم ضبان ـ طابت ـ طيبة ـ إلخ...

وأهل القرآن الخلص لا يهتمون بعلاج «الجن» ولكن لا يخلو المسيد من بعض المشايخ الذين يعالجون هذه الأوجاع النفسية بمقدرة وثقة عظيمتين.

التربية

والمسيد متاحة فيه وسائل التربية فتعليم الحرف مع القراءة متوفر في المسيد وتعليم الزراعة ومعاملة المجتمع كلها ميسورة في المسيد.

وفوق هذا فكل أدواء الناس الاجتماعية والاقتصادية والعائلية تحسم في المسيد، برضا كامل.

وقد لاحظ الاستعمار الانجليزي أن أهل السودان يوقرون المسيد ومشايخ المسيد وكل من ينتمي لأسرة المسيد فعين منهم إداريين- برتبة «ناظر»[1] وهي وظيفة اجتماعية كبيرة - فالناظر يتمتع بسلطتين.

١/ إدارية.

٢/ قضائية.

وفوق ذلك سلطات اجتماعية أخرى يكتسبها من وضع أسرته التي استمدته من المسيد.

التمباك

هو أصل «الدخان» كله، وهو نبات يزرع في كثير من بقاع المعمورة ويشققون منه عدة أصناف «السجائر» المتعددة والتبغ بكل ضروبه إلخ..

وفي منتصف القرن العاشر الهجري اختلف الناس في بلادنا. أحلال التمباك أم حرام وانقسم الناس يومئذ قسمين. قسم يقوده الشيخ إدريس بن الأرباب وهو القسم الذي أفتى بحرمة التمباك مطلقاً.

---

(١) الشيخ الطيب ود بدر.

القسم الثاني يقوده شيخ معروف في المجتمع السناري يدعى الشيخ الشريف عبد الوهاب «راجل أم سنبل» ثم اجتمعا عند الشيخ «عجيب المانجلك» سلطان الدولة وتناظرا ولما لم ينحسم الأمر أرسل الشيخ إدريس تلميذه «أحمد ولد عقرب» في معية الشيخ حمد أبو حليمة وعلي أبو نافلة وهما ومن معهما كانوا في طريقهم إلى الحج والحج في ماضي السنين وقبل إنشاء ميناء سواكن كان عن طريق صعيد «مصر» «كرسكو» من أعمال أسوان ـ فمدينة «القصير» عند البحر الأحمر ومنها إلى الميناء الحجازي «ينبع» فلما دخل ود عقرب مصر ذهب إلى الأزهر وهو يحمل رسالة الشيخ إدريس ابن الأرباب إلى الشيخ الأجهوري ولم يستطع ود عقرب مقابلته لكثرة الناس حوله من باشوات وسناجك وعلية القوم إلخ..

فترصده يوم الجمعة فلما قرأ «المكتوب» رماه في وجه ود عقرب وقال له كلاماً فظاً فغضب ود عقرب أشد الغضب.

وفي يوم الجمعة القادم قام الشيخ إبراهيم اللقاني خطيباً وبعد الاستفتاح قال مخاطباً الشيخ الأجهوري يا شيخ علي الدخان أتت به النصارى من بلاد الفرنجة وافتتن به المسلمون وأنت أفتيتهم بالإباحة وهو حرام لأنه بدعة ولأنه سرف ولأنه محروق، ثم نشب شجار بين المغاربة والشيخ الأجهوري ثم رأى الشيخ الأجهوري رؤية «منامية» فلما أصبح الصبح طلب أحمد ود عقرب رسول الشيخ إدريس وكتب له كتاباً أفتى بحرمة «التمباك» وأرسل مع الكتاب عدة هدايا أهمها بلغة عصرنا «الميدالية» وهي موجودة الآن بالعيلفون عند أبناء الخليفة بركات وهي مدالية من الفضة المطعمة بالذهب والنحاس وشكلها مخروطي وعليها تاريخ الإهداء ٩٧٦هـ وتعرف باسم «الأجهورية».

والشيخ إدريس قام مجده وعلا اسمه بإيقاده نار القرآن وهذه الواقعة تشير إلى أن أصحاب المسايد والخلاوي أهل دراية ومعرفة ولا أحسب أن جماعة في ذلك

التاريخ ناقشت الدخان والتمباك مثلما ناقشه مشايخ القرآن بالسودان في ذلك الزمان المبكر ٩٦٠هـ.

وها هو العالم كله يناقش اليوم قضية التمباك «التدخين» وقد سبقهم أهل المسيد بأربعة قرون فتأمل..

العلاج التقليدي

ومثلما ناقشت المسايد والخلاوي الدخان في وقت مبكر فقد انتبه علماء نفسانيون أجلاء انتبهوا قبل غيرهم من الأطباء وربطوا بين العلاج الحديث والعلاج التقليدي وعلى رأس هؤلاء الأطباء العلامة الموسوعي البروفسير التجاني الماحي وكان يرحمه الله كثير التردد على المسايد والخلاوي وقد وطد صداقات مع هؤلاء المشايخ بالأخص آل أحمد طه البطحاني الشيخ البخاري والشيخ الحسين وغيرهم.

ثم تلى التيجاني الماحي تلميذاه النابهان بروفسير طه بعشر وحسبو سليمان ومشيا على أثره وارتبطا كثيراً بمسيد «أم ضبان» وهو مسيد عظيم قدم ويقدم للناس خدمات جليلة منها العلاج النفسي ولما توثقت الصلة بين المسيد وبروفسير بعشر وبروفسير حسبو نتج عنها افتتاح مصحة عقلية أو نفسية داخل مسيد أم ضبان في سنة ١٩٦٥م وكان يزورها كل أسبوع طبيب متخصص وكان شيوخ المسيد يعالجون وفق أسلوبهم وبذلك يدخل الطب الحديث إضافة جديدة تكمل ما بدأه الطب التقليدي وظل الأطباء يروحون ويغدون لمسيد «أم ضبان» وبعد حين افتتحوا عيادة نفسية في المسيد تشرف على المرضى ومن تتطور حالته يرسل للمستشفى الكبير بالخرطوم بحري..

الأطباء الأجانب

وكلما زار بلادنا وفد من الأطباء زاروا مصحة مسيد أم ضبان وكلهم أبدوا

إعجاباً بهذا العمل الرائد المتقدم، هذا وقد أوصت المؤتمرات الحديثة بربط العلاج التقليدي بالعلاج الحديث وللأطباء النفسانيين صِلات مودة مع جميع أصحاب المسايد التي تعالج المرضى ـ كمسيد الشيخ المكاشفي ومسيد «طابت»[1] الشيخ عبد المحمود وأحدث مصحة نفسية افتتحت منذ ثلاث سنوات في «طيبة الشيخ[2] عبد الباقي» أقامها الشيخ أبو عاقلة وخصص لها مباني حديثة وداراً للأطباء من أحدث الدور.

لا ريب هذا عمل عظيم وكبير ومتقدم جداً ويحسب هذا العمل في كفة المسايد الراجحة والآن أصبح العالم كله يسير بخطى حثيثة نحو العلاج الطبيعي ونحو الأعشاب ونحو كل ما هو فطري.

ومسايد القرآن أعدت هذه الأماكن للأطباء وخصصت لهم المآكل والمشارب من غير مقابل وهذا عرف سائد في جميع المسايد كما أنها تقبل المرضى وذوي المرضى مهما كثروا فهي مستعدة لإيوائهم وإطعامهم وكسائهم وإن دعا الحال فإن «مصاريفهم» عليها من غير مَنٍّ ولا أذى، وفي نظر المجتمع أن المسيد بيت من بيوت الله، فمن أقام فيه فلا يتعرض للإهانة ولا للمذلة فهو يقيم في مكان آمن معترف به اجتماعياً وأخلاقياً وفوق ذلك الاعتراف الديني وهو الأساسي.

والجو العام في المسيد يعين المرضى على الشفاء فكل شيء يعين المرضى أصوات مرتلي القرآن أصحاب الأناشيد وغيرهم ممن يعطرون هذه الأماكن بأصواتهم الشجية الندية، ومن قبل لفت نظر العَالِم لهذا الجانب المفكر الروسي «بابلوف» وتحدث عن الإثارة والاستجابة عند المرضى في الأماكن التي تشبه المسيد.

---

(١) طابت أسسها الشيخ الأستاذ عبد المحمود نور الدائم وتقع غرب مدينة الحصاحيصا خليفتها اليوم العالم الفقي أبي البركات سيدي الشيخ الجيلي بن الشيخ عبد المحمود الحفيان.

(٢) طيبة ـ قرية قام مجدها على قراءة القرآن أسسها الشيخ عبد الباقي العركي.

الشريف محمد الأمين الهندي

دراسة القرآن في عهدها الأول كانت وقفاً على حفظ آي الذكر الكريم دون إتقان للتجويد والضبط.

وجاء أخيراً نفر من المشايخ بفن التجويد ذكر طائفة منهم ود ضيف الله ومن أبرزهم أسر معروفة على نطاق القطر ـ كمجاذيب الدامر والسواراب والغبش وأولاد جابر وآل وديدي وغيرهم.

وكان هؤلاء المشايخ يضبطون تجويدهم مقلدين السلف في تأليف المنظومات ومن أبرز المنظومات قديماً منظومة الشيخ الدنفاسي[1] تلميذ الشيخ عبد الله الأغبش.

مهتدين بأسلوب ونهج التجويد النظامي كالخرازي والجزري والشاطبي إلخ...

والمشايخ المشار إليهم كانوا على عهد المملكة السنارية المعروفة بالسلطنة الزرقاء.

وكان جهدهم موزعاً هنا وهناك بسبب سوء المواصلات وضعف النشر ثم خرج على مجتمع المشايخ رجل وهبه الله عزيمة صادقة وقريحة صافية هو الشريف محمد الأمين الهندي.

نشأته:

نشأ الشريف محمد الأمين في ديار العقليين بين الدندر والرهد في محل يقال له «راشد» ثم بدأ دراسة القرآن على يد والده الشريف يوسف ثم أكمل القراءة على يد الشيخ أحمد دبياي بالمفازة ثم درس عند الفكي اسيد ثم ارتحل الطالب

---

(١) منظومة مشهورة نصها في كثير من المسايد وهي كما المنظومات التي تجري على بحر الرجز.

محمد الأمين إلى جهة القضارف[1] وواصل الدراسة عند الشيخ محمد الأزرق المجذوب ثم رجع إلى سنار ودرس قليلاً عند ود صبر ثم ذهب للفكي أحمد ود كنان المشهور.

والتنقل والانتقال من شيخ إلى آخر تقليد معروف عند طلبة الخلاوي في السودان بقصد البركة والترويح فكلما سمع الطالب بشيخ ماهر شد الرحال إليه مهاجراً وقد وقر في ذهن الطلبة أن التنقل يعين على التحصيل الجيد.

ومن بعد الشيخ كنان، شد الرحال لمصر حيث درس فيها علوماً شتى أهمها علم البلاغة والفقه على يد الشيخ عليش والباجوري الصغير والشيخ العدوي وخرج من مصر «نحو أسوان بلدة «ادفو» التي طار خبر شيخها الورع «أبو دريقة» وهو حافظ وحاذق للتجويد ومكث عنده مدة طويلة نهل فيها من فيض علم الشيخ أبو دريقة. ثم خرج الشريف محمد الأمين «حاجاً» ثم عاد لمصر وبعد أن حذق التجويد عاد إلى السودان وكانت مدة سياحته وهجرته لطلب العلم خمساً وعشرين سنة.

وكان للشريف خلوة في السروراب[2] ثم أم طريفي ومرنات واستمرت ـ الدراسة في تلك المواضع حوالي سبع وعشرين سنة وطار اسم الشريف محمد الأمين في كل أصقاع البلاد فقصده الطلبة من جميع الجهات وتكاثروا عليه حتى ضاق بهم المكان وصاروا يتعرضون للأزمات المعيشية من وقت لآخر.

ثم استخار الله ونقل المسيد إلى منطقة الرهد ومنطقة الرهد اشتهرت بالخصب ووفرة الحبوب التي هي ضمان أكيد لاستقرار الدراسة ومكث في حلة الشريف يعقوب حوالي أربع عشرة سنة ثم ارتحل وطلبته لمكان يعرف بـ«نوارة»

---

(١) القضارف ـ مدينة كبيرة اشتهرت بإنتاج الحبوب.

(٢) السروراب ـ فرع من قبيلة الجموعية اشتهرت بالعلم والصلاح.

وبلغ اسمه القمة في نوارة وهي قرية تقع على شط نهر الرهد والعيش فيها رغد والأمن والاستقرار مبسوطان ثم طار اسم نوارة إلى جميع الجهات وبلغ الشيخ في نوارة مبلغاً عظيماً من نباهة الذكر وسعة الأفق وتجلت نفحاته وفاض علمه في تجويد القرآن وبلغ عدد الطلبة في عهد نوارة الآلاف العديدة.

ويدلنا على ذلك عدد «تقاقيب»[1] القرآن التي أشعلها لتحفيظ وتجويد القرآن وقد أحصاها بعض الرواة فوجدوها خمسين تقابة لطلبة القرآن وبلغت تقاقيب التجويد ثلاث عشرة حلقة ولكل حلقة شيخ وتلاميذ.

والتقاقيب تُشعل ليلاً وقد ذكر لي الرواة أنه حينما تشب نار هذه التقاقيب تضيء القرية كلها. والنساء يغزلن القطن ويضفرن السعف على ضوء هذه النيران وهن في منازلهن وذكروا أن مشهد نيران نوارة من بعيد ومن ـ قريب يخلب اللب ويثير النفس وظلت نار الشريف محمد الأمين مشتعلة نحو الخمسين سنة من السروراب إلى الشريف يعقوب ولم تخبو نار الشريف إلا بعد أن هاجر لمبايعة الإمام المهدي سنة ١٢٩٩ محاولاً اللحاق به في «بقعة» الأبيض ولما وصل الشريف وتلاميذه بلدة الرهد أدركته المنية ودفن في منطقة الرهد التي تقرب من مدينة الأبيض رحمه الله وأجزل مثوبته.

أشهر مشايخه:

في سرد سيرة الشريف محمد الأمين ذكرت المشايخ الذين تتلمذ عليهم في السودان ومصر ولكن هنالك شيخ كبير له أثر على الشريف محمد الأمين وهو الشيخ عبد الله الصليحابي البرقاوي[2] والصليحابي من مشايخ التجويد المبرزين في زمانه وكان الشريف براً حفياً بشيخه ولا سيما بعد أن أدركه الكبر وبلغ حبه

---

(١) تقاقيب ـ مفردها تقابة.

(٢) الصليحابي ـ أحد مشاهير علماء تجويد القرآن.

وتقديره لشيخه أنه كان يرقد على الأرض عند سرير أستاذه ـ والصليحابي كان مريضاً بداء السلس[1] ويخرج كثيراً بالليل وكان الصليحابي كفيفاً وكلما قام من مرقده وضع رجليه على ظهر الشريف محمد الأمين فيهب الشريف ويذهب به إلى «الخلاء» وفوق هذا كان يغسله ويغسل ملابسه وملابس زوجه. كل هذا من ضروب الوفاء والبر بالشيخ.

مؤلفاته:

وضع الشريف محمد الأمين الهندي خلاصة تجارب عمله في مجال التجويد في كتب ما أحصي منها عشرة مؤلفات أذكر منها:

١/ مجموعة البيان.

٢/ عقيلة أتراب القصائد.

٣/ العانة.

٤/ مقدمة الأحكام.

٥/ الفوائد في علل الهمزة والزوايد وغيرهن.

وربما أخطأ الرواة فأضافوا له ما لم يؤلفه ونسي بعضهم مؤلفات الشريف وكل المؤلفات مخطوطة ومفرقة بين أيدي تلاميذه الأبكار وهم ضنينون بها ويحسبونها بركة ولا يخرجونها للناس إلا عند الضرورة.

وأحسب أن لهذه المؤلفات قيمة علمية وتاريخية وأثرية ويوجد منها القليل طرف حفيده الشريف الصديق يوسف الهندي خليفة والده الشريف يوسف الهندي في مكتبه بـ بري الشريف.

---

(١) السلس ـ البول السكري وقيل مرض البول المتقطع.

خلاوي البدو

المدارس المتنقلة التي تتبع العرب الرحل تسمى خلاوي وهي كالخلاوي المستقرة في القرى والمدن من ناحية الدراسة إذ الغاية فيها قراءة القرآن وحفظه حفظاً كاملاً أو مجزءاً.

وكما رعى المجتمع الزراعي المستقر المدرسة القرآنية رعى المجتمع البدوي الخلوة وأولاها الاحترام والتقدير وبينها وبين الخلوة العادية اختلاف بسبب نمط الحياة الترحال والهجرة التي تصبغ حياة البدو فهم أبداً مترحلون ولهم ثلاث رحلات في السنة.

١ـ الخريف.

٢ـ الدرت.

٣ـ الصيف.

ولكل رحلة أهمية وخاصية. فرحلة الخريف تبدأ مع تباشير الخريف وفي «نوء» يعرف بالذراع.

وتسمى هذه الرحلة الشوقار[1] أو الشوقارة والشوقار أول نبت يخرج في الخريف فيتبعه البدو مع ماشيتهم فترعاه ويظلون يتابعون الشوقارة إلى أن يستوي الكلأ فيضربون خيامهم لمدة ثلاثة أشهر أو أزيد.

«ب» «الدرت» لهجة محلية والدرت هو الموسم الذي تنضج فيه ثمار النباتات ويبدأ قبيل الشتاء وقد يطول ويقصر حسب تقلبات الرياح.

«ج» الصيف ـ تسمى رحلة «الدمر» وتعني كلمة الدمر الفترة التي يمضيها البدو الرحل على الآبار والمناهل الثابتة كالحفير والأضاة إلخ..

---

(١) الشوقار ـ نبات يظهر أول الخريف (فصل الرشاش) ويرتاده العرب أهل البهائم رعياً. ومنه استعاروا شوقار البكاء وهو الوفد الذي يذهب إلى العزاء.

والمشايخ الذين يتبعون العرب في ترحالهم هذا، جماعة ممتازة محتسبة أجرها على الله، وقد تميزت على غيرها بالصبر والأناة، يميل إليهم العرب ميلاً عظيماً ويحترمونهم ويرغبون في الارتباط بهم بالزواج فينتج عن ذلك مودة ورحمة تجعل الشيخ منسجماً مع المجتمع البدوي.

والشيخ بجانب وظيفته الأساسية «معلم» فهو طبيب وفقيه وواسطة خير وشرطي لحفظ الأمن فالبدو عندما ينشب بينهم خلاف لا ينصاعون إلا لكلمة «الشيخ» أكثر من كلمة الدولة الرسمية.

نظام الدراسة

الدراسة في هذه الخلاوي ميسرة ولا يُضيق على الطلبة بل برضائهم ورغبتهم وينزل أحياناً الشيخ عند رغبات آبائهم ولأستاذنا المرحوم حسن نجيلة ذكريات عطرة[1] إذ كان يدرس أبناء البدو في مدرسة شبه نظامية ولكنها متنقلة مترحلة حيثما ذهب البدو فهي معهم[2].

فالشيخ معلم القرآن يكتب للحوار لوحه ثم يخرج الصبي مع البهائم لرعيها ويعود مساء لعرض ما حفظه وهكذا دواليك.

الفكي علي صالح

وأضرب مثلاً بالشيخ الفكي علي صالح وهو من أبرز مشايخ العرب الرحل وكان نشاطه حوالي ١٣٣٥هـ ببادية البطانة «المغاربة»[3] التابعة لعمودية العمدة «فج النور حسن» وغيره كثيرون.

---

(١) انظر كتاب ذكريات في البادية لحسن نجيلة.

(٢) وللشيخ إبل خاصة تحمل متاعه ومتاع طلابه.

(٣) المغاربة ـ قبيلة ـ كبيرة ينسبون للشيخ أحمد زروق المغربي الفاسي.

الثراء

والبدو قوم جبلوا على السخاء فكانوا يتبارون في إكـرام مشـايخ القـرآن حتـى أصبح بعض المشـايخ مـن أثريـاء الباديـة فالشـيخ طيلـة الأيـام تتقـاطر عليـه الهدايـا وبعضهم يساعده الحظ فيتزوج في القبيلة وينجب فتكـون القبيلـة لـه سـنداً ودرعـاً وهو بالتالي يذود عنهم برأيه وفقهه.

الباب السابع

المسيد في دارفور[1]

أهل إقليم دارفور من أميز المجموعات السودانية التي تتمسك بالقرآن دراسة وحفظا وذلك منذ عهد بعيد ولم يدانيهم أحد في زماننا هذا إلا قبائل شرق السودان.

وحينما أتحدث عن دارفور فإني أعني المجموعات التي تقطن هذا الإقليم وكلمة دارفور تعني خليط التحالفات الأسرية والعرقية التي حافظت على نسيج وحدة السلطنة الإسلامية قروناً عديدة.

ورغم أن الإقليم سمي باسم الفور إلا أنه يضم كل القبائل والعشائر التي أقامت مجدها على الإسلام من خلال المسيد وأخص بالذكر الفور والتنجر والزغاوة والبرقو والفلاتة والمساليت والقمر والبرقد والرزيقات والهبانية وكل القبائل العربية وغير العربية وما ذكرت وما لم أذكر فكلهم شركاء في هذا الفضل الذي يقوم على دراسة القرآن وأبناء دارفور ويليهم أبناء كردفان هم قوم كل المسايد في جميع أنحاء السودان ولهذه الجماعات صبر وثبات شديدان على لأواء الغربة ووحشتها وقد زرت أكثر المسايد في حوض النيل فوجدت قوام المسايد هم أبناء دارفور ولا ريب فإن القرآن أثر على سلوكهم فهم على المستوى العام أصدق الناس لساناً وأرفعهم سلوكاً وأزهدهم في عرض الدنيا.

وإذا كانت المسايد تطورت واتسعت في أنحاء السودان فإن في دارفور نهضة

---

(١) دارفور الإقليم الغربي في البلاد ويتاخم تشاد وأفريقيا الوسطى وليبيا.

جديدة مماثلة يقودها الشيخ أبو القاسم التجاني في منطقة «أم دوين» شرق مدينة الجنينة.

المسيك

وكما يعرف أهل السودان قاطبة بل العالم العربي الإسلامي وحتى أهل الأندلس قديماً وحديثاً يعرفون معنى «المسيد»، أما أهل دارفور فإنهم قلبوا دال المسيد كافاً فصار عندهم «المسيك».

بعد زيارتي لبعض أجزاء من دارفور توفرت لي معلومات عن المسيك وخلوة القرآن.

ولكني وجدت كتابات كتبها أبناء دارفور وهم بلا ريب أفضل مني معرفة بمجتمعهم الذي فيه يعيشون.

التعليم في دارفور

ارتبط تأسيس سلطنة دارفور بالتعليم الإسلامي خاصة قراءة القرآن وفتح من أجل ذلك الخلاوي وأرسلت بعثات لتلقي التعليم الإسلامي في بلاد مراكش ومصر وبلاد الحرمين وقد عملوا على استجلاب علماء من الخارج لتأسيس الخلاوي وهم ما يعرفون اليوم «بالواحية» في إقليم دارفور ثم بعد ذلك رحبوا ترحيباً كاملاً بعلماء برنو الذين نزحوا من غرب إفريقيا وأحسنوا وفادتهم واقتطعت لهم مساحات من الأرض تعينهم على التعليم عرفت «بالحواكير» ثم أن الفور عملوا على نشر تعليم القرآن الكريم نشراً واسعاً في كل أرجاء السلطنة وذلك بفتح الخلاوي ولعل من أهم وأقوى مظاهر هذا الاتجاه نحو التعليم، هو هذه الصلة الحميمة التي تربط بين مؤسسات الحكم ومؤسسات التعليم.

الخلوة أو المسيد هما اسمان لمؤسسة واحدة وهي بمثابة المؤسسة التعليمية

الأساسية وهذه المؤسسة مقصورة على الذكور فقط لأن الإنـاث ممـن يرغبـن فـي التعليم يدرسن في المنازل أو بالاحتكاك المباشر بالفكي. يقيـم الفكـي لنفسـه داراً بمساعدة المهاجرين خارج القرية وحول بيتـه منـازل صغـيرة للمهـاجرين وتسـمى عادة «قرى المهاجرين» وهي من المعالم البارزة فـي قـرى الفـور ويقـال أن ثلاثـة أشياء ضرورية لإنشاء أي قرية تعيين الشيخ[1] والإمـام[2] والبئر التـي تشـرب منهـا القرية.

الطفولة المبكرة

يبدأ اهتمام الأسرة بتعليم أطفالهما في زمن مبكر ومن حسن تربية الأطفـال أن يعلمهم والدهم مبادىء الكتابة ويرغبهم في التعليم كمرحلة تمهيدية للذهـاب بهـم إلى الخلوة بعد ذلك[3].

الطفولة والصبا «الهجرة»

يسمى طالب القرآن في مجتمع الفور «المهاجر» هَجَـرَ أسـرته وذويـه لطلـب العلم وعندما يبلغ الطفل سن الثامنـة تقريبـاً يرسـل مـع إخوتـه الكبـار إلـى المسيد لطلب العلم ويتلقى الدروس مـن إخوانـه الملتحقيـن بالمسـجد إذ أن مرحلـة تلقـي التعليم من الأستاذ «الفكي» تأتي في مرحلة متأخرة عندما يصير المهاجر كبيراً.

يوم المهاجر الصغير

يبدأ اليوم وقت السحور حيث يقـوم للصـلاة ثـم يقـرأ فـي اللـوح إلـى شـروق

(١) الطالبان موسى آدم عبد الجليل ـ الآن أستاذ جامعي «دكتور» عبد الله آدم خاطر من المثقفين العاملين في الحقل الثقافي عمل في الصحافة وتأليف الكتب.

(٢) السيد عبد الرحمن محمد محمود ـ من رجالات الإدارة وشغل منصب وزير إقليمي في دارفور.

(٣) الأستاذ المربي آبّو حمد حسب الله من رجال التربية المرموقين.

الشمس فيغسل اللوح ويخرج (للحِلّة) المجاورة طلباً للطعام لأن من مسئولية الصغار خدمة أسرة الخلوة، ويجلب الطعام من داخل «الحلّة» وبعد الإفطار يبدأ في كتابة فقرات جديدة للحفظ ويسمى ذلك كتابة «اللوح» ويكون بمساعدة مهاجر كبير خاصة إذا كان من إخوانه أو أقاربه وقبل الغروب يعودون إلى القرية لجلب العشاء ثم يذهبون للنوم ليبدأ غدهم باكراً.

كبار المهاجرين

هؤلاء يكونون متفرغين للدراسة خاصة في الصيف فيبدأون يومهم وقت السحور أيضاً يدرسون إلى وقت الإفطار ثم يذهبون إلى الفكي الواحد تلو الواحد للتصحيح والمراجعة وأثناء النهار يواصلون دراستهم المسائية من صلاة المغرب إلى العشاء.

ثم إن للفكي مهام تربوية إضافية هي توجيه هؤلاء وإرشادهم إلى كيفية إحسان العبادة كالوضوء وكيفية الصلاة ويمنعهم من إتيان كل ما من شأنه تقليل قدرهم كطلبة قرآن وعندما يحفظ الطالب القرآن الكريم يدعو الفكي كبار الفقهاء ويوزع عليهم جزءاً من القرآن ويذبح لهم ولد الطالب ثوراً ويحتفل الناس بذلك وقد تكون المناسبة مقرونة بتزويجه ويكون هذا الاحتفال بمثابة منحه شهادة عليا.

يتولى الفكي رسم الشرافة على لوح الحوّار أو يوكل ذلك لأحد الحيران الكبار البارعين في الرسم الزخرفي فيرسمها ويملأ مقلقاتها بالألوان.

«الجبرية المحلية ترسم» يحمل الحوار اللوح إلى أهله أولاً، ثم يعود إلى المسيد ليخرج مع الحيران يعرضون شرافتهم لربات البيوت والسوق المحلي وهم ينشدون الأهزوجة التالية:ـ

مولانا يا مولانا آمين

من فضلك لا تنسانا آمين

من فضلك لفقير آمين

الفقي وحيرانا آمين

الحيران للجنة آمين

فيها الحور والرمان آمين

والحيران حواليها آمين

محمد ساكنا الله آمين

والقارىء كتاب الله آمين

نحن نموت والحي الله آمين

هذا ويقوم بالإنشاد حوار واحد وتكتفي المجموعة بترديد كلمة آمين وراءه.

الصلة بين الخلوة والحلة

أفراد القرية يتقبلون الخلوة كامل القبول ويقدمون كل الدعم لتأكيد وجودها ويسارع أفراد القرية لمساعدة الفكي في قضاء حاجته خاصة الزراعية.

الصلة بين الفكي والعمدة أو الشيخ

إن كلاً من الفكي والعمدة يمثل قوة حقيقية في مجتمع دارفور ويعمل على تحقيق رغبة المجتمع في التعليم والعمدة له رجاله الذين يساعدونه في الإدارة كما أن إنشاء الخلاوي عمل إداري لذا فالاحترام المتبادل هو السمة الأساسية في العلاقة بين الفكي كممثل لمؤسسة التعليم والعمدة كممثل لمؤسسة الحكم.

فالسلطة الإدارية سواء الشرتاي[1] أو العمدة اهتمت اهتماماً كبيراً بالفقهاء الذي يسمون بالأئمة لقيامهم بإقامة الصلاة وغيرها.

(١) الشرتاي رتبة إدارية أهلية في دارفور.

وفي كل عام بعد نهاية الخريف يطلب العمدة أو الشيخ من الأئمة أن يأتوا إلى منزله لمدة أسبوع يقرأون القرآن وبعد الفراغ يعلقون المصحف على شقين ثم يكتبون محاية[1] توزع على نية الأمل في الشفاء ونجاح المنتوج من خلال العمل الذي قاموا به وطلباً لتسهيل أمور حكمه ولمواطنيه أن يعيشوا في رفاهية ورخاء.

تاريخ حركة المهاجرين[2]

بدأ دخول الإسلام وانتشاره بدارفور اعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادي وتلك هي فترة دخول القبائل العربية المسلمة إلى سلطنة دارفور وأصبح الإسلام الدين الرسمي في عهد سلاطين الكيرا مؤسسي دولة دارفور ١٦١٦ ـ ١٦٤٠م وحتى القرن الرابع عشر وفد إلى المملكة عرب من جهة تونس يقال لهم بنو «هلال» واختلطوا بالسكان الأصليين وعندما تزوج أحمد المعقور «خيرة» بنت شَاوْ دُوْر سلطان الفور التنجر وأنجب منها ابنه سليمان سولنج الذي أسس أول دولة مسلمة في دارفور وهناك روايات تذكر أنه كان عالماً في الدين ويعد أول المهاجرين وعمل على أن يكون الإسلام الدين الرسمي وكانت السلطنة تحكم بقانون «دالي» الشهير[3] لقد عملوا على نشر الإسلام وشجعوا مواطنيهم على الهجرة إلى الأزهر بمصر طلباً للعلم وجعلوا للمهاجرين رواقاً بالأزهر عرف برواق «الفور» وشهدت هذه الفترة بناء الجوامع وإنشاء المساجد وتشجيع المهاجرين ومن أشهر ملوك دارفور الذين شجعوا حركة بناء المساجد والخلاوي السلطان تيراب ١٨٧٥ يقال أنه بنى تسعة وتسعين جامعاً وجلب العلماء من الأزهر وتونس.

كانت أشهر خلاوي المهاجرين في هذه الفترة خلاوي طرة وخلاوي شوبا

---

(١) محاية ـ كلمة معروفة وهي نتاج جهد الشيخ المتمثل في كتابة الشيخ على اللوح ومحوه ويشرب المريض هذا ويشفى بإذن الله.

(٢) عبد الرحمن محمد محمود مجلة الدراسات السودانية جامعة الخرطوم العدد الأول ١٣/١٠/١٩٧١م.

(٣) قانون دالي قانون عرفي وضعه أحد حكام التنجر اسمه إبراهيم دليل.

وخلاوي طينة وكوبى و خلاوي تندلتي أو الفاشر ومشايخ هذه الخلاوي من الأئمة المتفهمين في الدين.

وبدأت حركة المجاهدين أول ما بدأت حركة لتعليم القرآن والكتاب والقراءة ونلاحظ أن حركة المجاهدين هذه بدأت كتعليم ديني يعرف بتعليم الخلاوي كما بدأت كظاهرة منتشرة بين جميع المناطق لكنها تقلصت مع دخول الاستعمار. وذكر البحث مؤسسات قائمة بذاتها لها نظم وقواعد ومفاهيم مرتبطة بها وربما يعود ذلك إلى سياسة الانجليز في جعل إقليم دارفور إقليماً مقفولاً في وجه التيارات الثقافية والفكرية الآتية من أواسط السودان كل ذلك أي لقبول أفراد الفور لمنظمات المهاجرين كمؤسسات أهلية تتمتع بالدعم المعنوي وهذا ساعد المهاجرين على الاستمرار والبقاء لأن أفراد الفور يؤمنون بأن الطفل لا يستطيع أن يتعلم مبادىء القراءة والكتابة إلا إذا هاجر لقرية غير قرية والديه مما أدى لانتشار هذه الحركة بين جميع قرى الفور.

التنظيم الداخلي لمنظمات المهاجرين

ليس هناك حد للعمر للالتحاق بحلقة من حلقات المهاجرين لكن مسارها عرف بين أفراد أهل دارفور على أن يبدأ الالتحاق فيما بعد السنة السابعة كما أن فترة البقاء أو الانتساب للحلقة مقرونة بتجويد الكتابة والقراءة وحفظ القرآن وغالباً يقضي التلاميذ أربعة أو خمسة أعوام قبل أن يتم تخرجهم، لهذا نجد أن أعمار المهاجرين متأرجحة ما بين السنة السابعة والسنة الخامسة والعشرين.

ولربما يوجد من هم فوق هذه السن وبالفعل شهدت ثلاثة من المهاجرين المنتسبين إلى خلاوي «كِلْبِس» وهم فوق الخمسين عاماً أما عدد المهاجرين فيختلف من خلوة أو من حلقة لأخرى ويعتمد ذلك على شهرة الفقيه وسمعته الطيبة لدى الجمهور ومدى حفظه للقرآن وتجويده لقراءته ومدى تدينه. يعتمد

عددهم أيضاً على مدى كرم المواطنين بالقرى لخلاوي المهـاجرين نسبة لاعتمـاد المهاجرين على ما يتصدق به عليهم غيرهم.

وخلاوي المهاجرين هي عبارة عن قرى قائمة بذاتها وتعرف بقرى المجاهدين وهي أول ما يلحظه الزائـر لمعظـم القـرى بهـذه المنطقـة وتبنـى قراهـم فـي شـكل قطاطي صغيرة الأحجام.

تسع القطية واحداً أو اثنين للإقامة بها، وهي قرى مؤقتة ويتوسطها منزل الفقيه ويتفاوت عدد هذه القطاطي من قرية لأخرى كما ذكرنا وهنـاك قـرى للمهـاجرين يبلغ عدد تلاميذها المائة تلميذ ومن أشهر هذه الخـلاوي خـلاوي كلبـس ومرنـدو وحجير وبيلا ومكجر وسندو ونرج وشنقة وخـلاوي جبـل كوتـو وخـلاوي جبـل كونو وخلاوي قرعة ودايا.

وهناك عدد كبير من الخلاوي التي يناهز عدد تلاميذها عدد تلاميـذ المـدارس النظامية كخلاوي كلبس ومكجر واديا وقوتو وكردل. فخلـوة كلبـس مثـلاً ينـاهز تلاميذها الثلاثمائة وتمتاز الخلاوي بموقعها الجغرافي الممتاز إذ توضع دائماً فـوق المناطق المجاورة لمجاري الوديان المقاربة للقـرى الكبـيرة وتمتـاز قراهـم بـأبراج الحمام المتعددة فقد تخصص المهاجرون في تربية الحمام[1].

أما عن التنظيم الوظيفي فعلى قمته الخلاوي والإشراف الكلي على التلاميـذ أو المهاجرون ثم تليه طبقة المهاجرين العليـا وهـم المتقدمـون فـي أعمـارهم والذيـن شارفوا التخرج ووظيفتهم شبيه بوظيفة مديـري الأقسـام داخـل المؤسسـة الواحـدة وتلي هؤلاء طبقة صغار المهاجرين وهم التلاميذ حديثو العهد بالهجرة.

وتعتبر حلقة المهاجرين وحدة اجتماعية واقتصادية قائمة بذاتها كما هو الحال

---

(١) الحمام ـ واختيار الجيد منه ولعلهم ألمّوا بأخبار حمام الحرمين كما أفادنا الكُتّـاب ومشـايخ المهـاجرين يتيمون بسيرة الحمام كثيراً وهذا الفصل نقلوه من كتاب الرحلة الحجازية للبتنوني محمد لبيب.

عند أسر الفور فالزوجان يمثل كل منهما وحدة اقتصادية قائمة بذاتها إذ لكل فئة من فئات المهاجرين وظيفة وعمل خاص تقوم بأدائه والمهاجرون يحترفون سؤال الناس «الشحدة» وتمثل مصدراً رئيسياً لدخلهم ولقوتهم كما أن المجتمع يعتبر أن ما يقدمه للمهاجر هي مساهمة في دفع عجلة التعليم وحفظ القرآن الكريم وينتظر الثواب من الله تعالى ومن وظائف صغار المهاجرين طهي الطعام للكبار وتخصيص جزء مما يجمعونه للفقيه. ويشترك كل فئات المهاجرين في حرث وزرع أرض «الفكي» كما يستأجرهم المزارعون في العملية الزراعية وداخل هذه الوحدة الكلية بالنسبة لمجموعات المهاجرين نجد أن كل مهاجر يعتمد على نفسه اعتماداً تاماً.

دخل الإسلام بادىء ذي بدء غرب السودان عن طريق التجار ولكنهم لا يستطيعون تعليم أمور الدين، ولكن بدخول بعض المتعلمين تغير الحال وصار كل حافظ لبعض القرن يبني له خلوة ليتعبد فيها ويجمع حوله الذين يريدون تعلم أمور ويبنون منازلهم حول الخلوة وهكذا حل محل دراسة القرآن اسم الخلوة في دارفور فكان القرآن يدرس في المساجد والجوامع وفي منازل الحفظة كما جاء في كتاب «تشحيذ الأذهان»[1] لمؤلفه محمد بن عمر التونسي. ونجد التونسي قد خص المسجد بتعليم الكبار أما الخلوة للسكن وتعليم المجاورين علوم الشريعة.

أما ما ذكره التونسي من عدم إجادة أهل دارفور للقرآن فهذا زعم غير مقبول ونحن نرد على التونسي بكثرة الخلاوي الشهيرة بدارفور ومنها خلوة الفكي غرباوي الجامعي وقرية كريو الشهيرة والتي تعلم فيها السلطان «عبد الرحمن الرشيد» والشيخ مالك الفوتاوي. وخلوة طرة سلاطين وخلوة جديد السيل التي كان يدرس فيها الشيخ «الحافظ» حمد بن محمد الجامعي.

كما كانت هنالك خلوة جديد رأس الفيل، وخلوة «ازقرقا» التي خرجت

---

(١) تشحيذ الأذهان ـ تأليف محمد عمر التونسي.

فيمن خرجت «الحافظ» عبد القادر بن مالك الجامعي والذي كان مشـهوراً بنسـخ المصاحف بخط جميل على رواية أبي عمر الدوري وإهدائها إلى العلمـاء بجديـد السيل وغيرها من مراكز تعليم القرآن.

هذا وقد اشتهرت بعض الخلاوي بمدينة الفاشر على عهد السلطان علي دينـار نذكر منها خلوة الفكي أبو سنين والفكي عثمان دي، بحلة الواحية وخلـوة الفكـي زكريا عبد الله بحي تكارير وخلوة الفكي يوسف بالطريفية.

أما في عهد الاستعمار فقـد كان هنـاك عـدد مـن الخـلاوي بمدينـة الفاشـر كخلوة الفكي حسن محمد عثمان «بالوكالة».

أشهر الخلاوي اليوم بدارفور

تركزت الخلاوي في الوقـت الحـاضر بـالريف وأشـهر هـذه الخـلاوي خلـوة كبكابية والتي تأسست في السبعينات وتضم حوالي ٥٤٠ دارساً ودارسـة ويلتحـق خريجوها بمعهد علوم القرآن الكريم بالفاشر.

أما المشائخ الذين يدرسون القرآن فهم القوني عبد الكريم يوسف والقوني عبـد الله آدم والقوني صالح حلاب والقوني حسـن ابكـر محمـد والقونـي حسـين عبـد الكريم والقوني عبد العزيز قاسم والقوني برمة شلتوت صالح وهو «أستاذ البنـات» والقوني حرن يوسف والقوني أحمد إدريس[١].

وكل هؤلاء يعيشون هم وأسرهم على نفقـة الشيخ أحمـد حنفـي صـالح. أمـا معنى كلمة قوني فهـي تعنـي المعرفـة التامـة بـالقرآن الكريـم فيمـا يتعلـق بـالحفظ والتجويد ولو على رواية واحدة. وكلمة قوني في الأصل أتت من تشاد.

---

(١) قوني أظنها كلمة المحمية وتطلق على الفقيه المتبحر في تجويد القرآن.

مظاهر الإقبال على تعليم القرآن بدارفور

إن سكان دارفور قد عرفوا قديماً بإقبالهم الشديد على تعلم القرآن الكريم ومن مظاهر هذا الإقبال الخلاوي الكثيرة التي ذكرناها آنفاً والعدد الوفير من المصاحف المخطوطة التي لا زال بعضها موجوداً اليوم، بل هناك من يكتب هذه المصاحف المخطوطة إلى اليوم، والإصرار على تعلم القرآن مع ما تلاقيه بعض القبائل من صعوبة لأن لهجتها غير عربية ومع ذلك فقد تحايلوا على الحفظ بما يعرف عندهم «بالحبال والنظم».

وإليك مثلين أحدهما للحبال والآخر للنظم.

لما كانت آيات سورة الرحمن متشابهة وخاصة مع تكرار قوله تعالى ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فقد استنبطوا الحبل الآتي وهو مجموعة من حروف الهجاء تمثل أوائل الآيات التي بعد كل آية ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ وتتحرك بنفس حركاتها والحبل هو:

«خرميوكى سبي ففى ذففى مف كهو مففى حملت».

أما مثال النظم فإنهم عندما أرادوا ضبط مواضع السجدات في القرآن على مذهب مالك وعلى رواية أبي عمر الدوري التي تتمشى مع مذهب الإمام مالك ذكروا النظم الآتي.

أولها يسجدون في الأعراف	والآصال في الرعد لا خلاف
وفي النمل أتاك يؤمرون	وفي إسراء خشوعاً يسجدون
يشاء الحج بكيا لمريم	نفوراً للفرقان معلومة
في النمل رب العرش العظيم	وفي السجدة وهم لا يستكبرون

وفي حبال أخرى كثيرة يضبطون بها المتشابهات في القرآن الكريم ليسهل عليهم حفظه. وكذلك من مظاهر الاهتمام بالقرآن أن الطفل إذا وصل إلى سورة

«البينة» رسمت له شرافة في لوحه وقدمت له الهدايا وهكذا دواليك إلى أن يختم وهناك يقام له احتفال كبير يكرم فيه أيما تكريم.

أما في مدن الإقليم فإنه وإن قل الإقبال من الصغار على الخلاوي إلا أن إقبال الكبار على تلاوة القرآن في المساجد والجوامع والبيوت في تزايد مستمر ومن أشهر الخلاوي في الفاشر اليوم خلوة الشيخ إبراهيم سيدي محمد. وقد استخدم في بعض جوانبها كمنزلة للمتشردين ومدرسة لتعليمهم.. وهي تعد نموذجاً حقيقياً لربط التعليم بالعمل.

حمام الحمى

حمام الحرم المشهور «بحمام الحمى» يملأ سطوح المسجد الحرام ومنافذه وطاقاته. فتجده معششاً هنا وهناك، ويجتمع زرافات في جهات كثيرة من صحن الحرم وعلى الخصوص في الجهة الشرقية، وله فيها مكان مخصوص، فيه أحواض لشربه، وبجواره مكان يلقى فيه حب القمح المرتب له من أوقاف مخصوصة، وكثيراً ما تراه في الجهة الغربية، حيث يوجد غير واحدة من فقراء القوم يبعن حب القمح للحجاج والزوار بقصد إلقائه إلى جيوش هذه الحمامات المستأنسة، التي تكاد تحط على رؤوس الناس، لأنها لم تعرف منها في حياتها إلا كل لطف وأنس. وليست هذه الخصيصة قاصرةً على نوع الحمام، بل كل حيوان دخل الحرم فهو آمن، حتى ذهب بعضهم إلى عدم قتل الحية أو العقرب في الحرم، احتراماً له وإكراماً لها فيه وانفراد الحمام بوجوده في الحرم لا أظنه إلا لسهولة أنسه وقلة جفائه. ومن أغرب ما يروى عنه أنه مع كثرته في الحرم لم يشاهد منه شيء على الكعبة إلا نادراً جداً. وفي الجهة الشرقية من مكة تحت جبل أبي قبيس بئر يقال لها بئر «الحمام» يجتمع عندها كثير منه ليشرب بحريته ثم يذهب إلى حيث أراد. وهذه البئر قديمة جداً وأظنها من زمن الجاهلية. كما إني أظن أن

احترام الحمام هنا من زمن بعيد وعلى كل حال مكرم في البيت سواء بل الإسلام وبعده. والقول بأنه من نسل تلك الحمامة التي عششت في الغار على النبي ﷺ إنما يزيد في احترامه وإعظامه.

وليس الحمام بمحترم فقط بل هذه عادة قديمة جداً فبنو نوح كانوا يكرمونه لأنه أول من بشرهم بظهور اليابسة مدة الطوفان. واحترامه عند النصارى يقرب من درجة التقديس، لأنه يمثل عندهم روح القدس، ويقولون إنه عندما كانوا يغسلون المسيح في نهر الأردن وهو صغير جاءت حمامة وحطت على رأسه، لذلك يرسمونها بكنائسهم وصورهم الدينية بكثرة. ومن هذا ترى الحمام قد أطلقت له الحرية في كنائس القوم في أوربا وخصوصاً في كنائس إيطاليا والنمسا وبعض كنائس فرنسا، وقد تعدى هذه الكنائس إلى منافذ المساكن وكرانيشها وأسطحتها وأشجار الشوارع العمومية وبساتينها: فإذا ذهبت إلى فينّا أو روما مثلاً وجده هنا وهناك في كل مكان من غير أن يؤذيه أي إنسان. وأثر هذه العقيدة باق في الحمام الذي لا يزال في مدينة القسطنطينية إلى يومنا هذا، وتراه على الخصوص في مسجد بايزيد ومسجد أبي أيوب الأنصاري، غير أن أهل الآستانة قد بالغوا في إكرامه حتى حرموا ذبحه، فهم لا يأكلونه أبداً سواء في ذلك مسلموهم ونصاراهم ويهودهم. أما ما ذكر من أن المسلمين يعتقدون أن حمام الآستانة من ذرية حمام الغار «الذي يقولون عنه أنه كان يخبر الرسول بجميع ما كان يفعله المشركون» فإنه لا أصل له عندهم، كما لا أصل في دينهم لتلك المأمورية التي كان يؤديها حمام الغار. والشيعة من العجم يعتقدون مثل هذا الاعتقاد في حمام الحرم، ويزعمون أنه هو الذي أخبر أهل المدينة المنورة بقتل الحسين رضي الله عنه. والصينيون يستعملون الحمام من زمن بعيد في استكشاف «بختهم» على مثل ما يستعمله بعض الأروام الآن في طرقات مصر؛ فيأتون للحمام بطبق فيه جملة أوراق مطوية مكتوب فيها شيء من الخير والشر، فتأتي الحمامة وتستخرج

بمنقارها واحدة يكون منها فألهم، ويسمون هذه الحمامة باك ـ كوب ـ بن - Pak) (Pko - Pin يعني الحمامة ذات الورقة البيضاء.

ولقد كان الحمام عند الساميين هو الحيوان المقدس للإله عشطورت (Astrate) وكان عند الفينيقيين واليونانيين والسوريين يمثل السماء والنجوم. ولذلك كانوا يضعون تمثال حمامة داخل الكعبة بجوار تمثال هبل ولقد ورد في سيرة ابن هشام عن صفية بنت شيبة، أن النبي ﷺ لما نزل مكة بعد الفتح وطاف البيت دعا عثمان بن طلحة وأمره بفتح الكعبة فلما دخلها وجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها.

على أنا لو صرفنا النظر عن كون الحمام لطيفاً في شكله أنيساً في نوعه جميلاً في صورته نظيفاً في لباسه، يمثل في عائلته المحبة الحقيقية والشفقة الحسية فإنا نرى فيه درساً عائلياً كبيراً: نرى الذكر مع أنثاه يعملان لحياتهما الزوجية: فتراهما بين توافق وتعاشق وتعانق لا ينفصلان إلا ليتصلا، ولا يفترقان إلا ليجتمعا، في جلابيب جمال وأساليب دلال، مما لا يرى له مثال، في زوجين من غير نوعهما على كل حال.

على أن الحمام له على الإنسان أفضال تذكر فتشكر: فقد كان من القرن الثامن من قبل المسيح إلى منتصف القرن التاسع عشر يؤدي وظيفة التلغراف بين الأمم المختلفة، حتى أعلن مرس ووطسون سنة ١٨٤٤م تلغرافهما الكهربائي، الذي لا يشك أحد في أنه أفاد العالم بأسره فائدة جسيمة، وكان من أكبر الأشياء التي ساعدت على التمدن العصري وانتشاره بسرعة. ولكن هل الفوائد الجسام تنسينا ذلك الحمام! ولتكملة الفائدة نقول لك أن أول من استعمل الحمام الزاجل هو رجل من جزيرة أوجين «من جزر اليونان» أتى في سنة ٧٧٦ قبل المسيح إلى أثينا ليحضر الألعاب الأولمبية واستحضر معه حمامة كانت عنده أخذها من بين أفراخها فلما برز في هذه الألعاب أرسل الحمامة فذهبت إلى عشها، ومن قدومها

علم أهل الرجل بنجاحه في مأموريته. ومن ثم استعمله الرومان واليونان والعرب والمصريون في مراسلاتهم. وكان لمصر وخصوصاً زمن الأيوبيين والفاطميين مصلحة للرسائل وكان بها في كل جهة بيت للحمام وكله قريب من جهات متعددة: فكانوا إذا أرادوا إرسال مكتوب إلى أي مكان أرسلوه على جناح حمامة مأخوذة من هذه الجهة. إلا أنهم كانوا يرسلون الخبر من صورتين على حمامتين بعد الذي حصل في حصار الفرنجة «لعكا» ذلك أن المسلمين في عكا أرسلوا رسالة إلى صلاح الدين الأيوبي بواسطة حمامة من حمامهم فاتبعها طير جارح وضربها فسقطت في معسكر العدو الذي عرف منها موقع الضعف من عدوه ولعلك تذكر لما نزل لويس التاسع ملك فرنسا إلى دمياط سنة ١٢٧٠م وسار بجنده إلى المنصورة، أخذ ملك مصر الملك «الكامل» خبره بواسطة الحمام الزاجل فسير إليه جيوشه لوقته فأوقفته عند حده، وكان ما كان من انهزام جنوده عند المنصورة وأسر لويس وسجن بها إلى أن تم الصلح بينه وبين ملك مصر فأطلقه وسافر إلى تونس ومات بها وفي حبسه يقول بعضهم:

قل للفرنسيس وإن أنكروا	حبس لويس في مقال صحيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

والحمامة تقطع في طيرها من سبعين إلى ثمانين كيلومتراً في الساعة، ولها صبر على الجوع جملة أيام لكنها لا تصبر على العطش.

وكان لهذا الحمام في حصار ألمانيا لباريس بين سنتي ١٨٧٩ - ١٨٧١م أكبر فضل في ربط المملكة الفرنساوية بعاصمتها.

وربما كانت هذه الحكومات قد قضت أن لا يمس جنس الحمام بسوء حتى لا يكون نوع الزاجل منه عرضة لأذى الصيادين وخلافهم فيؤدي مأمورياته وهو في غاية الهدوء والطمأنينة.

ولقد كان عباس باشا الأول والي مصر رجع إلى تربية هذا الحمام واستكثر من أنواعه. لكنه مات رحمه الله قبل أن يتم غرضه. وأخذ بعض ذاوات القاهرة عنه هذه «الغية» لكنهم اختصروا على تربيته وتطييره في محيط ديارهم وقد يعلمه بعضهم الصبر على الطيران حتى إذا التحم بحمام غريب طار معه إلى أن تنفذ قواه ثم يرجع به إلى صاحبه الذي يكون فرحه به لا يقدر. وللحمام عندهم أسماء مختلفة فمنها الجزغندي ـ والريحاني ـ والمزرزر ـ والقزازي ـ والأبلق ـ والعنبري ـ والغزار ـ والقشاشي ـ وغيرها، إلا أن هذه «الغية» لم تقف عند أفنية الأغنياء بل تعدتهم إلى الفقراء وهم إلى الآن يضيِّعون فيها وقتهم الذي هم وعيالهم في حاجة إليه لعمل حيوي مفيد. ولقد شاهدت في بستان سراي يلدز الداخلي، بعد خلع السلطان عبد الحميد، داراً كبيرة من السلك وفيها ما لا يحصى من أنواع الحمام وهو من جمال الخلقة بمكان عظيم، وربما كان يتسلى به في سجنه الذي قضى على نفسه به طول حياته سامحه الله[1] .

المسيد في كردفان

إقليم كردفان يحسب من أكبر أقاليم السودان وله حدود مع أقاليم شتى فهو من جهة الشرق يتاخم الخرطوم والإقليم الأوسط، وشمالاً الإقليم الشمالي وغرباً يحده إقليم دارفور وجنوبه يلامس إقليمي بحر الغزال وأعالي النيل ويمتاز إقليم كردفان بثروات طبيعية ضخمة مطمورة في جوفه أشهرها البترول الذي وجد في منطقة «المجلد»..

الجزء الجنوبي من الإقليم وعلى ثراه تسعى ملايين الحيوانات، كالبقر والغنم والخيل إلخ.. وأرضه الخصبة تعطي محاصيل كثيرة أهمها الصمغ العربي،

---

(١) الرحلة الحجازية محمد لبيب البتنوني الناشر مكتبة المعارف. الطائف شارع الكمال. النسخة موجودة عند الفكي سماعين بنيالا ـ ويطلع عليها كبار المهاجرين. لذا لزم التنويه.

والسمسم، الفول السوداني، الكركدي، الذرة بأنواعها وحب البطيخ إلخ..

وضرب الفصحاء في المجتمع السوداني المثل بخيرات هذا الإقليم فقالوا عنه، «كردفان الغرا ـ أم خيرا برا..» أثنوا على كردفان وجعلوها غراء وخيرها على وجه الأرض «برا» لا يحتاج لجهد كبير.

وتقطن كردفان قبائل شتى[1] النوبة في جنوبها والمجموعات العربية في الشمال والوسط وشبه العربية في أطرافها الشاسعة وعلى رأس القبائل المجموعة الجُهينية[2] ويعرفون محلياً «بالبقارة» نسبة لتربيتهم البقر فنسبوا لمهنة رعاة البقر «بقارة» وفي شماله تنتشر القبائل العربية شبه الخالصة ـ دار حامد ـ الكبابيش ـ الحمر ـ الكواهلة ـ بني جرار[3] ـ المجانين إلخ. وتعرف هذه المجموعة بـ«الابالة» ـ نسبة لتربيتهم الإبل ـ التي برعوا في توليدها وتنسيلها وسياستها.

العباسية:ـ

ويسكن هذا الإقليم شطر كبير من المجموعة العباسية التي تعرف «بالجعليين» وهم موزعون بين الرعي والزراعة والتجارة ولاسيما في عاصمة الإقليم الأبيض وشرقها وشمالها بارا ـ الرهد أم روابة ـ تندلتي تتبع لمحافظة كوستى.. إلخ وهذه المجموعة تنسب لجدهم سمرة ولسمرة أربعة أولاد هم:

١/ بدير ـ جد البديرية.

٢/ طريف ـ جد الطريفية.

٣/ عبد الرحمن أبو شيح ـ جد الشويحات.

---

(١) الراوي ـ الأستاذ الشيخ موسى عبد المجيد العالم الموسوعي بكردفان الأبيض وهو صاحب أكبر مكتبة خاصة في كردفان.

(٢) من أكبر القبائل العربية في السودان.

(٣) تسكن هذه القبيلة الآن شمال غرب مدينة تندلتى وهي تتبع لمحافظة كوستي ـ الولاية الوسطى.

٤/ محمد أبوديس ـ أولاده متفرقون.

وسمرة جد هذه البطون له شقيقان هما سمير ومسمار والثلاثة من أهم عمد المجموعة العباسية الجعلية في كردفان وفي مديرية النيل وغيرها من الأماكن، وسمرة كما أشرت جد البديرية والطريفية والشويحات إلخ. سمير جد الشايقية والجموعية والجوامعة والماجدية وغيرهم ـ مسمار جد الجعليين وهم المجموعة التي تقطن بين شلال السبلوقة ومقرن «نهر اتبرا» مع النيل ويطلق عليهم المؤرخون المحدثون جعل الصغرى[١].

دخول الإسلام:

شق الإسلام كما هو معلوم طريقه لبلاد النوبة والبجاة «السودان» في مطلع القرن الأول الهجري ثم توالت الهجرات في موجات متتالية عبر البحر الأحمر والصحراء الشرقية «العتمور» والصحراء الغربية ومن طريق النيل.

ويظن بعض المؤرخين[٢] أن المجموعة الجعلية العباسية دخل جزء منها عبر الصحراء الغربية بمحاذاة النيل واستقرت في شمال كردفان، في المنطقة المعروفة بدار الريح وأهمها الجزء المسمى جغرافياً «بالقيزان والخيران» وهي منطقة تتكون من التلال الرملية العالية ويسمى مفردها «قوز» وهو التل الرملي، أما الخيران فمفردها «خور» وهو مجرى السيل بين التلال «القيزان» وكانت الحياة رغدة ميسورة وعلى ظهور الكثبان الرملية..والقيزان ينبت الكلأ وفي بطن الأودية يسهل

(١) جعل الصغرى ـ تعني المجموعة التي تعرف باسم الجعليين ويقطنون بين مقرن أتبرا والفاضلاب شمالاً إلى الحقنة والمسيكتاب جنوباً راجع بروفيسور يوسف فضل حسن المورخ المعروف ومدير جامعة الخرطوم سابقاً. أي كتاب من كتبه؟

(٢) المؤرخين منهم اللواء حامد صالح الملك رحمه الله كتب كتاباً عن أنساب الجعليين في نهاية الستينات عندما كون «حزب بني العباس» ثم الشيخ الفحل الفكي الطاهر صاحب كتاب «أصول وتاريخ العرب في السودان» دار الطابع العربي الخرطوم ١٣٩٦هـ الموافق ١٩٧٦م.

الماء والسقيا فعاشت هذه المجموعة دهراً طويلاً في هذا المكان.

وزعموا أنهم انحدروا من القيزان والخيران إلى مشارف النيل عند جبل «العرشكول»[1] غربي مدينة الدويم لدواع اقتصادية وأمنية وتدلل الروايات الشفهية وما كتبه الشيخ الفحل الفكي الطاهر أن من آثار هذه المجموعة الجعلية المنطقة المعروفة باسم بئر «سرار» جدهم الكبير وهو ابن «كردم» الذي سميت باسمه كردفان ويزعمون أن «كردم» كان حاكماً وكان كثير الغضب والانفعال وعندما يغضب يقولون «كردم فار» بمعنى أن في صدره حمية هكذا خرجها «العامة» ويقول الشيخ الفحل أن هذه المجموعة دخلت بلاد كردفان سنة ٦٥٨هـ وكان قائدها عصرئذ الأمير إدريس بن قيس وفيما يلي مقتطفات من حديث الشيخ الفحل.

نسب الأمير إدريس:

الأمير إدريس ابن الأمير قيس بن الأمير يمن بن الأمير عدي بن الأمير قصاص بن الأمير كرب بن الأمير محمد هاطل بن الأمير أحمد باطل بن الأمير ذي الكلاع بن الأمير سعد بن الأمير الفضل ابن الأمير العباس بن السيد الإمام محمد بن السيد الإمام علي السجاد ابن السيد حبر الأمة وترجمان القرآن السيد عبد الله بن السيد العباس عم رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.

كردم الفوار:

هو السلطان حسن بن الأمير أبو الديس بن الأمير قضاعة بن الأمير عبد الله حرقان بن الأمير مسروق بن الأمير أحمد بن الأمير إبراهيم جعل جد قبائل الجعليين بن الأمير إدريس، أخبرني الباقر ولد القاضي عربي يوم كان قاضي

---

(١) العرشكول ـ أو عرشكول جبل كبير غربي مدينة الدويم.

أبودليق[1] أنه سمع من والده قال سمعت الشيخ الكتاني ولد ابصفيه البديري يقول في بلد البديرية جبل كان يستقر به «كردم الفوار» العباسي وكان شديد البطش فيقولون كردم فار فاشتهر البلد بدار كردم الفوار ثم مزجوا وقالوا دار كردفان وأن كردم دفن في سفح الجبل وأنه كان ملكاً قوياً سمى نفسه السلطان واتخذ وزيراً وجمع جيوشاً وملك كردفان كلها وقوي أمره وملك ساحل النيل الأبيض وملك ثلاثين سنة وتوفي وترك ابنه سرار وأنه دفن بسفح الجبل في بلد البديرية اليوم.

الأمير سرار بن الأمير السلطان حسن كردم الفوار

تولى الأمير سرار الملك بعد أبيه وساس سياسة حسنة وانتقل إلى مقر أسلافه الأولين في الجهات المسماة بارا وخرسى اليوم وحفر بئر سرار «المشهورة» وعدل في أحكامه وأطاعه كل الساكنين إلى غرب النيل الأبيض وكان يتوق إلى الارتحال إلى النيل وقضى ربنا أنه توفي ودفن مع أحفاده في مقبرتهم العتيقة بين بارا وخرسى ومدة ملكه عشرون سنة وترك أولاده سمرة وسميرة ومسمار.

والأمير مسمار بن الأمير سرار بن السلطان حسن كردم الفوار بن الأمير أبو الديس بن الأمير قضاعة بن الأمير عبد الله حرقان بن الأمير مسروق بن الأمير أحمد بن الأمير إبراهيم جعل وذلك أن الأمير مسمار تولى بعد أبيه فنقل مقر ملكه إلى جبل «العرشكول» المطل على النيل الأبيض لأن مياهه عذبة وكان كثير الخيول استعداداً للحروب ووجد الترعة الخضراء[2] تمتلىء في الفيضان وبعد نزول الماء يصبح مرعاها محجوزاً للخيل طول السنة لأنه دائم الخضرة وإن الأمير مسمار جد واجتهد وجمع كثيراً من الرجال والخيول وكان همه ضم كلمة العرب من قضاعة وقحطان وعدنان وأخذ البلاد من العنج وذلك أن قدماء المصريين

---

(١) أبو دليق عاصمة البطاحين شرق مديرية الخرطوم.

(٢) الترعة الخضراء بالقرب من العرشكول وكان قبل قيام الخزان يصلها النيل وذلك في منتصف الثلاثين.

يسمون البلاد «نوب» أي أرض الذهب وسموا سكانها النوبة أو نوباوين أي سكان «أرض الذهب» ومن اجتهاد الأمير مسمار تم بعض اتفاق القبائل وجمع كلمتها ولم تسعفه المقادير بل توفي ودفن على رأس جبل العرشكول ومدة ملكه عشرون سنة.. ولمسمار شقيقان سمير وسمرة والثلاثة من عمد هذه المجموعة الجعلية ومن أبنائهم.

١/ أحمد أبو ريش.

٢/ طريف.

٣/ عبد الرحمن أبو شيح.

الرياشية

وأحمد أبو إدريس ولد سمرة ولد السلطان حسن كردم الفوار ويقال لهم الرياشية ويسكنون بجهات الأبيض مزارعون ورعاة ومندمجون في البديرية نسباً وسكناً وذلك لأنهم أقلية.

أولاد طريف

وطريف هذا ولد سمرة ولد الأمير سرار ولد السلطان حسن كردم الفوار وأولاد طريف يقال لهم الطريفية منهم مزارعون مع البديرية والبعض أرباب ماشية مع الجميع.

الشويحات

عبد الرحمن أبو شيح جد قبيلة الشويحات ولد سمرة سرار ولد السلطان حسن كردم الفوار وهم سكان الأبيض منهم العمدة سليمان ولد الزاكي وبعضهم في دار الجعليين في حلة [المطمر] ومنهم في الأبيض أولاد الشيخ الضو أهل دين وبعضهم مع البَديرية لصلة النسب وقديماً كانوا يسكنون جبل «التويس» وجبل

شويح وهناك هاجمهم ملك الفونج وقتلهم في بارا وتفرقت البقية وجزء رجع إلى جبل شويح بقيادة الفكي «ساق» ويقال أن ابن الفكي ساق قتل أحد الطريفية الذين كانوا يسكنون «الحمراء» فهرب الفكي ساق واحتمى بالماجدية والكرتان، وأهم فروع الشويحات المعيناب وأولاد موسى وأولاد عتيق.

بدير جد قبيلة البديرية

وبدير ولد سمرة ولد الأمير سرار ولد السلطان حسن كردم الفوار ولد الأمير أبو الديس ولد الأمير قضاعة ولد الأمير عبد الله حرقان ولد الأمير مسروق ولد الأمير أحمد ولد إبراهيم جعل، البديرية قبيلة عظيمة كانوا في دنقلا قديماً بين الشايقية والدناقلة ولهم مملكة في الخندق[1] يتوارثها أولاد الملك صلاح إلى مجيء الأتراك ولهم جزائر ومزارع ومنهم «غبش بربر» ومنهم الشيخ حمد ولد الترابي والشيخ عيسى الطالب وفي كردفان لهم نظرة خاصة وأملاك ومنهم بدنقلا الشيخ محمد سوار الدهب ومنهم في كردفان العالم العلامة الشيخ بدوي أبو صفية وابنه الكناني فإنهما كانا يقودانتلامذتهماوينازلان أي جبل ويدعوان إلى الإسلام وبدوي هو العالم العلامة الشجاع المجاهد في سبيل الله ولد في بلدة الأبيض سنة ١١٨٠ هجرية وطلب القرآن وتعلمه ببدلة الأبيض والتحق بالعلامة الفقيه «أحمد ولد عيسى» وتفقه في علوم الدين والأصول وارتحل إلى وطنه فجاءت إليه طلاب العلم وكثروا عنده ولما رأى كثرة الرجال قام في حَلاّل البديرية داعياً ولما كثرت لديه الجموع من الرجال نازل المجوس وكان يراسل الجبل ويدعوهم إلى دين الإسلام فإن أطاعوا ترك لهم من يعلمهم وذهب لآخر ولما جاءت حكومة الأتراك رمي من أعدائه بالخروج على الحكومة فأبى ذلك فاعتقل في الخرطوم ثم أفرج عنه فرجع إلى وطنه وتوفي في الأبيض سنة ١٢٥٦هـ وفيما يلي نسب البديرية إلى السيد العباس عم رسول الله ﷺ.

---

(١) ومملكة الدّفّار تنسب إلى البديرية وعاصمتها العفاض.

الجوامعة

وهم من المجموعات العباسية التي استوطنت شرق كردفان بين البديرية والجِمِعْ وساهمت قبيلة الجوامعة قديماً وحديثاً في تنمية الحياة الاجتماعية ومن أشهر أبناء الجوامعة الذين يذكرهم التاريخ كمعلمين الشيخ بحر أبو أم كلثوم والشيخ غانم أبو شمال وغيرهما والجوامعة من المجموعة العباسية الجعلية.

وهم جامع ـ وجمع ـ وحامد.

وجامع هو جامع ولد فهيد ولد أحمد ولد سعد الفريد ولد الأمير مسمار ولد الأمير سرار ولد السلطان حسن كردم الفوار «صاحب كردفان» وتتصل سلسلة النسب إلى الأمير إبراهيم جعل الجد الأعلى لهذه المجموعة الكردفانية.

أقدم الخلاوي:

يجمع الرواة أن أول خلوة عرفت في كردفان في العهد الباكر لدخول الإسلام والمسلمين هي خلوة «القفلة» موقعها شرق مدينة بارا[1] المعروفة وشمال قرية «أم دم»[2] وهي أعرق الخلاوي وأقدمها بلا ريب والناس في ذلك العهد المبكر يقبلون على كتابة التاريخ كما نفعل اليوم وأمور العلم والتعليم كانت لا تتعدى حفظ القرآن الكريم وبعض أبواب الفقه.

وحسبهم في ذلك العهد صدق النية والعمل الخالص ومن «القَفَلَة» انطلقت شرارة التعليم في أنحاء كردفان ورغم أن تاريخ خلوة «القفلة» القديم اندثر مع المعلمين الأبكار وما بقي منه في الصحف قضى عليه حريق شب في مبنى خلوة «القفلة» فضاع ذلك الأثر العظيم كما حدثنا الشيخ مشاور[3].

---

(١) بارا ـ مدينة عريقة تقع شمال الأبيض وتحسب من أهم المدن في كردفان ولها دور في التاريخ.

(٢) أم دم قرية مشهورة في كردفان.

(٣) الشيخ الفقيه مشاور جمعة حافظ ومجود وهو القيم على إدارة الخلاوي في إقليم كردفان رحمه الله.

مونس ومنصور

والتاريخ المتداول عند المشايخ المعاصرين يبدأ بالشيخ مونس والشيخ منصور ويعتبر الشيخان من أقدم المشايخ في هذا الإقليم وهم من نسل مؤسسي القفلة[1].

والتعليم في إقليم كردفان اجتاز أطواراً كثيرة البداية كانت في عهد الهمج ثم عهد الفونج ٩١٠هـ ـ ١٢٢٧هـ الفترة الثالثة العهد التركي من ١٢٢٧هـ إلى ١٢٩٧هـ الفترة الرابعة من ١٢٤٣هـ إلى نهاية المهدية والفترة الأخيرة من بعد المهدية إلى يومنا هذا.

التعليم في عهد الفونج

في ذلك العهد أو قبله كانت البداية وقد اشتهر في ذلك العهد جماعة من الرجال المجاهدين ذكرنا منهم الشيخين مونس ومنصور ثم تلاهما الشيخ سليمان منصور.

ومن ضمن المجاهدين الأوائل الذين ذكرهم الشيخ ود ضيف الله[2] الشيخ مختار ولد أبو عناية وشقيقه الشيخ أخرش أبو عناية. وقد تنقلا في إقليم كردفان وكان جهاد الشيخ مختار أكبر من أخيه إذ توغل في جنوب كردفان «جبال النوبة» وهي منطقة وعرة في ذلك الزمان والوصول إليها ضرب من المشقة وظل الشيخ مختار يطوف في جنوب كردفان داعياً ومعلماً إلى أن وافاه الأجل في منطقة جبال النوبة.

ثم تلاهما الشيخ غانم أبو شمال الجامعي وترجم له الشيخ ود ضيف الله قال بعد تعليمه القرآن شرح السنوسية شرحاً مفيداً وقال في شرحه لها قرأنا التوحيد

(١) القفلة بلدة والقفل ضرب من الشجر المعروف في السودان وكان كثيراً في تلك الجهات.

(٢) راجع ود ضيف الله (حرف الميم).

عند الفقيه علي بن بري وأدركنا وفاته. وبعده بدأنا القراءة عند الفقيه أرباب[1] وبعدنا بقيت مدرسة عظيمة يذكر أيضاً في هذا المقام الشيخ بحر بن أم كلثوم الجامعي من أولاد مرج على عهد سلطنة الفونج وكانت نفحاته في قرية أم دايوك.

آل البرد

من الأسر التي ساهمت في نشر المعرفة وأشاعتها آل البرد وهم أجداد الأستاذ الشيخ المؤرخ محمد عبد الرحيم.

ذكرهم عندما تحدث عن والدته فاطمة قال أمي فاطمة بنت سليمان بن آدم بن بحر بن هارون بن بشير بن موسى البرِد وموسى هو أحد أولاد البرد السبعة المشهورين بالعلم والصلاح.

ويضعهم الرواة من الأبكار الذين نشروا القرآن في ربوع كردفان ويرجع تاريخهم إلى حوالي ١٠٥٠هـ.

الدواليب

بيت الدواليب بمنطقة البديرية «دنقلا» بيت معروف وهم أسرة مجاهدة يعرفها جميع الأهل بالسودان قديماً وحديثاً وقد ترجم المشايخ لجدهم الأكبر ود دوليب قال والده محمد الضرير ابن إدريس بن دوليب الركابي أمه اسمها زينب ولد «بالدبة» ونشأ بها وكان خيراً فاضلاً جمع بين العلم والعمل واشتغل بالتدريس وكانت له «مكتبة»[2] عظيمة تناقلت الركبان أخبارها وكان ورعاً تقياً لا تأخذه في الله لومة لائم. غير مكترث بالملوك. وذات مرة أرسل له الملك «أونسة ولد ناصر» يطلب أحد تلاميذه في جنحة ارتكبها فقال له الشيخ محمد ود دوليب أنا

---

(١) أرباب هو أحمد المشهور بأرباب العقائد سبق الإشارة إليه في الحديث عن المحس.

(٢) المكتبات كانت نادرة والإشارة إليها هنا دليل على عظمتها.

غير الله والرسول وكتبي هذه لا أعرف أحداً، ورفض الوساطة.

ومن نسل هذا الشيخ اشتهر الشيخ عبد الهادي ود دوليب وفي زمنه وقع شجار بين أبناء الشيخ عبد الهادي وأولاد ملك الشايقية وضرب أولاد الشيخ أبناء ملك الشايقية فجرد ملك الشايقية حملة على أولاد عبد الهادي.

فخرج الشيخ عبد الهادي وأولاده وتلاميذه فارين بدينهم خوفاً من بطش الملك. فتبعهم الملك وجنده إلى كردفان حيث لحقوهم في جبل الحرازة[1] بشمال كردفان وكانت قوة الملك أكبر من أن يحاربها الشيخ عبد الهادي وتلاميذه «القلة». وكما تعبر لغة العصر فقد لجأ للحرب النفسية وأشاع أنه سيحارب أعداءه بالجن وانتشر هذا الخبر وبلغ كل الجهات. خاصة الجيش المغير وأدخل الزعم الخوف في قلوب رجال ملك الشايقية وأخذوا يترقبون، وأما الشيخ عبد الهادي ود دوليب فقد جمع النوبة وتلاميذه وشرح لهم خطته وقال الحرب خَدْعَة وسنخدعهم بالحمير وجمع أهل الجبل كل الحمير الموجودة وفي المساء ربطوا على ظهر كل حمار حزم من «القش» [الكلأ] الجاف وساقوا الحمير نحو أعدائهم في أسفل الجبل ولما دنوا منهم أشعلوا النار في «القش» على ظهور الحمير فهاجت الحمير وصارت تعدوا من شدة الذعر نحو معسكر الأعداء في أسفل الجبل والنوبة.

والنوبة يزعجونها نحو المعسكر فاندفعت الحمير المزعجة تعدو وتصيح وتنفر بأصوات مزعجة، ودخلت إلى المعسكر من كل اتجاه فأصاب الجند الهلع وتذكروا توعد الشيخ عبد الهادي لهم بأنه سيحاربهم «بالجن» ففزعوا وانكسروا وتشتتوا وتركوا متاعهم وسلاحهم فغنمته النوبة وتلاميذ الشيخ، هذه الحادثة طار خبرها في جميع أرجاء المنطقة وتسامع الناس بود دوليب وأقبلوا نحوه.

كان ذلك في أواخر القرن التاسع الهجري ثم استقر الشيخ عبد الهادي في

---

(١) جبل الحرازة ـ شمال كردفان جهة حمرة الوز ويعرف بجبل الحرازة أم قد.

حبل الحرازة وأوقد نار القرآن وصار يعلم الناس إلى أن وافته المنية.

بداية خُرسي

وخلف الشيخ عبد الهادي ود دوليب ابنه الأكبر الشيخ يسن وبعد برهة نقل نار القرآن والمسيد لمنطقة «خُرْسِي» ولذا يرجع تأسيس خرسي لشيخ يسن «١٢٠٠»هـ ثم شاع اسم خرسي وعمت بركتها جميع أنحاء كردفان ودارفور.

وتلى الشيخ يسن ابنه الشيخ إدريس ثم الشيخ محمد ود دوليب ثم الشيخ جعفر ثم الشيخ الدرديري ثم الشيخ الدسوقي والخليفة الحالي الأستاذ الشيخ الدرديري.

وخرَّج مسيد خرسي آلافاً مؤلفة من الحفظة خلال القرون المنصرمة وانتشروا في أنحاء كثيرة من كردفان ودارفور وقد التحق كثير من الدواليب في خدمة الدولة الفوراوية قضاة ومعلمين وكتبة.. وما زالت آثارهم باقية ومدارسهم تؤدي رسالتها العلمية في خرسي وغيرها ولهم خريجون منتشرون في كثير من أنحاء البلاد.

ويواصل الشيخ مشاور حديثه عن مدارس القرآن الخلاوي فيذكر خلوة الشيخ ود حليب في «البيضة» شرق الأبيض والشيخ كباشي الكناني في شمال الأبيض في «البُقُل» والشيخ سلامة في البنيَة والشيخ موسى أبُو بن الشيخ بدوي في عهد السلطنة الزرقاء.

والشيخ أحمد بيوضة تلميذ الشيخ غريب من المليحة والشيخ البرير جد الشيخ القرشي ود الزين والقرشي من مشايخ الإمام المهدي..

وفي الأبيض الشيخ إسماعيل بن عبد الله بن صالح البديري الدهمشي الذي نزح من دنقلا واستقر في الأبيض وهو المشهور «بالشيخ اسماعيل الولي»..

وهناك خلوة الشيخ يونس بن إسماعيل «المجنوني» وهي خلوة مشهورة منذ التركية والمهدية أما عن خلاوي شرق كردفان فنجد خلوة الشيخ بابكر أبو عزة

«الحوش» وذلك بعد أن انتقل من «التيارة» ومن أشهر الخلاوي خلوة الشيخ محمد أحمد «أبو عزة» بحلة العشرة وهو جامعي من الشويحات وهي أكبر خلوة في شرق كردفان اليوم.

وخلوة الشيخ عبد الرحيم البرعي في الزريبة وهو ابن الشيخ محمد وقيع الله ويعتبر مسيده من أهم المسايد وأكبرها وينفق عليه الشيخ من حر ماله وقد بلغ به شأواً عظيماً حيث أدخل النور الكهربائي وأسباب الصناعة وطلبة هذا المسيد بجانب حفظ القرآن يتعلمون مبادىء التربية والحرف وقد زرتها أوائل السبعينات ووجدته ينبض بالحركة والذكر والتلاوة.

ويواصل الشيخ مشاور الحديث الذي بدأه الشيخ موسى ويقول الشيخ مشاور أن الخلاوي هنا في كردفان ذات تاريخ قديم مثلاً خلوة الشيخ محمد ود كدام ١٣٢١هـ وخلوة ود دوليب تاريخها ١١٢٠هـ أما خلوة الشيخ إسماعيل ١٢٣١هـ وخلوة المزروب الشيخ حامد ود عبد الحفيظ فقديمة جداً..

وأصحابها مسلمية يكنون «بالمجانين» وخلوة الشيخ حامد بن عبد الحفيظ بها عدد من المشايخ وكان ذلك في عهد الفونج وأخيراً انتهت المشيخة إلى الشيخ حامد بن عبد الحفيظ وتوفي عن عمر جاوز الخامسة والتسعين عاماً.

وتوجد أيضاً خلوة أبو عزة التي سبق أن ذكرناها وبها ٤٠٠ طالب وبدأت في الستينات واحتفلت العام الماضي بعشرة من الحفظة أما الآن ففيها ثلاثة عشر حافظاً.

وهناك أيضاً خلوة «الحاج أمين» غرب بارا وهي من عهد الأتراك وكان الحاكم التركي أعفى أهلها من الضرائب وقدم لهم الإعانات، وبيدهم وثيقة الإعفاء حتى اليوم.

وهناك مناطق توجد بها خلاوي قديمة مثلاً قرية «الفور» جنوب أبوكرشولة أما في الجبال الشرقية ففي كل قرية توجد خلوة قد يكون عمرها بين سبعين إلى ثمانين سنة..

وهناك خلوة قديمة في «اميدى» منذ عهد المهدية وخلاوي في البرداي

أسسها ـ الفلاتة وهي خلاوى قبل عهد الانجليز وكذلك خلوة في الدميك.«تاريخ الشيخ مختار» وخلوة في لقلوة تاريخها غير قديم لكنها عامرة وبنيت بالحجر أما السنجكاية ففيها خلوة الشيخ السنوسي وهي قديمة جداً.

وبالدلنج «خلوة قعر الحجر» يرجع تاريخها إلى أواخر المهدية أما منطقة الفولة فبها ستة خلاوي وتاريخها من الخمسينيات أما النهود فبها خلاوى مثل خلوة المسجد للشيخ «كرسي» والشيخ جديد وهم من مؤسسي القرآن هنا إلا أن نشاطها قل بسبب المدارس ولكنها انتعشت أخيراً.

وخلوة الشيخ عبد الله محمد الأمين الشنقيطي وخلوته من الخلاوي التي بها إنتاج عظيم.

بدوي ود أبي صفية ١٨٠٠ ـ ١٢٥٦هـ

هو أحمد البدوي بن عبد الرحمن بن عبد الصمد بن بدوي الرقيق «الحجازي» وأمه صفية بنت موسى البديري الدهمشي فهو حسيني أباً بديري أماً اشتهر بكنية جده أبو صفية وأيضاً بدوي ود أبي صفية يكنى «بأبي شنب» ولد بالأبيض ١١٨٠هـ قرأ القرآن على جده موسى أبو صفية.. ثم هاجر إلى معهد «كترانج» حيث درس العلم نحو ١٦ سنة على الشيخ أحمد عيسى الأنصاري ثم رجع إلى كردفان بعلم وفير وتحقيق وورع وزهد.

مجاهداته:

اجتهد في تدريس القرآن الكريم وفتح خلوة لتدريس القرآن وأخرى للعلم فكان يدرس القرآن ستة شهور ثم يذهب لجنوب كردفان داعياً ومبشراً وكان يعلمهم الضروري من أمور الدين وكان ينتقل بين الجبال داعياً ومنافحاً عن الدين وبعد أن توطدت صلاته بالجبال أرسل أخاه محمد شرف الدين إلى جبال تقلى لينوب عنه في التبشير ونشر القرآن وركز على جبل «طاشين» حيث الملوك وبعد

برهة زوجه الملك ابنته أم كلثوم وولدت له البنين والبنات ووقف معه أهل تقلى لما لقوه منه من خير ولقبوه «بالشرح الدين» وفتح عدداً كبيراً من الخلاوي بمنطقة «المنزفه» غرب الأبيض، وعكف على الخلاوي حتى علا ذكرها وارتفع اسمها وكان يؤمها عدد ضخم من الطلاب وكان هذا العدد الكبير يقوم بزراعة الأرض المطرية ذات العائد الكبير فكانوا يخزنون ما يكفي «الخلوات» ويرسلون الفائض لطلبة القرآن والعلم بالأبيض.

النساء:

وأنشأ عدة خلاوي خاصة بالنساء لدراسة القرآن والفقه ونجحت نساء كثيرات وأن بناته السبع يعرفن القرآن فبرعن في التدريس خاصة بنته المجاهدة «زينب» التي قتلت غيلة ومصحفها بيدها بإيعاز من «الزبالعة»[1] والسبب في قتلها أنه لما دخل «الزبالعة» كردفان تصدى لهم وداب صفية واستأصلهم من كردفان..

ولما جاءت الحكومة التركية أعطته جاهاً وكسوة وبنت له مسجداً بالطوب الأحمر فلم يقبل ودفع الكسوة لبعض الفقراء ولم يدخل المسجد بل كان يصلي في «الراكوبة» ولما سألوه قال شكي كبير في هذا البناء.

أثره في أم درمان:

لما فتح المهدي الأبيض وجد أولاده بالأبيض منهم أحمد الكناني وكان رجلاً كبيراً فقال للمهدي هؤلاء أولادي يؤيدونك أما أنا فقد مسني الكبر وأوشكت على الهلاك.

وجاءوا معه إلى أم درمان وسكنوا «العباسية» جنوب بالقرب من خور أبو عنجة وتزوج المهدي ـ أم هاني بنت الكناني.

---

(١) الزبالعة مجموعة مفارقة للجماعة وينعتهم المجتمع القديم باسم الخامسية بمعنى الذين أحدثوا أمراً فوق المذاهب الأربعة المعروفة عند عامة المسلمين.

الباب الثامن

المرأة وتدريس القرآن

ساهمت المرأة السودانية في مجال التعليم من غير شك، ولكن المؤرخين ورواة التراجم المحليين بل المجتمع السوداني كله ظل يغمط المرأة حقها، لا ازدراء لها ولا تبخيساً لقدرها، وفي رأيي أن المجتمع يفعل ذلك حرصاً عليها وصوناً لذاتها، ولذلك يتخطاها الكاتب ورواة الأخبار بحسن نية. وحسبي أن أشير لمكانة المرأة في المجتمع التقليدي، فهي بلا ريب صاحبة كلمة نافذة على الرجال وعلى المجتمع كله، فكلمة منها تورد الناس الهلاك وأخرى ترفع للقمة الاجتماعية، ولنا مثل في الشاعرات المغنيات اللائي يسميهن المجتمع «الحكامات» مفرده حكامة ـ وهي التي تحكم على سلوك الرجال وعلى أخلاق الجماعة بكلمة من طرف لسانها.

ومهما يفعل الرجال في المجتمع القروي والبدوي فلا قيمة لعملهم إن لم ترض عنه المرأة وتقومه وتجيزه وأكبر يمين عرفية وأغلظها أن يقسم الرجل باسم أمه أو نسيبته. وللنسيبة حظ من الاحترام لم ينله أحد قط. فهي المطاعة إن أشارت وإن أمرت. وأكبر إساءة للرجل «ابن البلد» أن تذكر نسيبته أمامه أو خلف ظهره وهذا في العرف أمر خطير. ولا يغسل هذا الطعن في عرض النسيبة إلا الدم، ومن شدة إعزازهم للمرأة «أحياناً» يرجحون العرف على الشرع، والعادة على العبادة في سبيل احترام المرأة. وبعض القبائل في بلادنا إن نشب بينهم شجار «دام» لا يستطيع فضه الرجال مهما أوتوا من الحنكة والوجاهة. ولكن حسبهم أن تقف

بينهم امرأة واحدة من ذوات السلوك الحميد وتحسر ثوبها عن رأسها وإن وقفت مثل هذه المرأة بينهم يتقهقر الفريقان في الحال. ويرجع كل فريق إلى حيه احتراماً لقدرها.

المرأة والتعليم

في كل فج انتشرت فيه خلاوي القرآن ومسايده درست البنت بجنب الولد ولكنهم حينما يكتبون التاريخ يتجاوزون المرأة، لا تهميشاً لدورها ولكن ضناً بها وبذكر اسمها كما ذكرت آنفاً. وكثير من القبائل لا ينادون المرأة باسمها صوناً «لعرضها» ولكنهم ينادونها بالكنية أم علي، أم أحمد، أو يكنونها باسم أبيها بنت حامد، بنت الحسن إلخ ومجرد ذكر اسم الأم سبة عند قبائل شرق السودان كأن ينادي أحدهم باسم اسمه، والرجل منهم قد يتجاوز ويحلم إن سب أبوه أو سبت عشيرته ولكنه لا يغفر البتة إن لحق اسم أمه إهانة والمرأة معلوم أنها كانت في الجاهلية العربية تعاني من الظلم الاجتماعي ولما أشرق نور الإسلام ارتفع عنها الإصر وسما بها الإسلام لمشارف عالية وقارن بينها وبين الرجل في مواقف عديدة والرسول الكريم ﷺ أعلى من قدرها أمّاً وزوجاً وأختاً وبنتاً وهذه المعاني الرفيعة استوعب روحها وجدان المسلم العادي عندنا، فتكريم المرأة وإعزازها فوق العرف له أساس ديني متين ومن معاني الدين وسلطان العرف جعل مجتمعنا مكانة مرموقة للمرأة، فإن أخفى المؤرخ أو الكاتب بعض أخبار النساء فتقديري أنه من باب الإعزاز لهن.

واللائي وصلتنا أخبارهن لابد أن يكن من النابغات المحمودات كل في ميدانها وحينما تحدثت عن تعليم القرآن في شرق السودان ذكرت نساء قبيلة الأشراف البجاوية وقلت أنهن اضطلعن بتعليم الصبيان والصبايا منذ أن عرف مجتمع شرق السودان خلوة القرآن، وظللن يؤدين رسالتهن حتى يومنا هذا وذكرت أسماء بعضهن كالشيخة فاطمة طويل والشيخة بخيتة من سواكن.

النساء المعلمات

ذكرت أن الشيخات اللائي وصلت أخبارهن إلى جيلنا الحاضر وما قبله لابد أن يكن من المبرزات اللائي شققن طريقهن بين الرجال، وأسوق هنا أمثلة ممن وردت أسماؤهن في بعض المخطوطات ثم من يليهن من اللائي تسقطت أخبارهن مشافهة، وبعض من المعاصرات.

فاطمة بنت جابر

هي الشيخة الحافظة المعلمة فاطمة بنت جابر بن عون بن سليم، من نسل الشيخ المعلم الرائد غلام الله بن عائد. ولدت الشيخة فاطمة مطلع القرن الحادي عشر الهجري في دار الشايقية في جزيرة «ترنج»[1] وحفظت القرآن فيها وقد جعلها ود ضيف الله[2] نظيرة لإخوانها في العلم وهم من أبرز علماء ذلك العصر وتزوجها الشيخ سرحان وأنجب منها العالم الفقيه محمد بن سرحان المشهور باسم «صغيرون» وكانت لها مدرسة قرآن خلوة تشرف على الدراسة فيها وتنفق على طلابها ثم حجت مع شقيقها الفقيه المعلم إسماعيل بن جابر وكان في صحبتها ابنها محمد صغيرون، ولم يتوسع ود ضيف الله أو غيره في الترجمة لشخصيتها الفذة، واستأثر إخوانها أولاد جابر ـ كما جرى العرف عندنا ـ بالترجمة دونها.

عائشة بنت القدال

جاء ذكرها عرضاً ولم تكن مقصودة بالترجمة إذ كان الشيخ ود ضيف الله يترجم للشيخ خوجلي بن عبد الرحمن المشهور بـ«خوجلي أبو الجاز».

قال ود ضيف الله ولد الشيخ خوجلي بالجزيرة توتي[3] وبدأ الكتاب عند

(١) الجزيرة ترنج «أشش» تقع جنوب نوري حوالي ١٥ كيلو على خطي ١٨,٤٠ شمالاً و٣١,٥٦ شرقاً.

(٢) طبقات ود ضيف الله، تحقيق د. يوسف فضل حسن، ص٤٦.

(٣) أولاد جابر: إبراهيم، عبد الرحمن، عبد الرحيم، إسماعيل.

«عائشة الفقيرة» بنت ولد قدال ويقول الرواة أن خلاوي الفقيرة «الفقيهة» عائشة[1] كانت جنوبي الخرطوم في المنطقة المعروفة بجبل «أُولى» حيث خزان النيل الأبيض الآن، ولم يذكروا شيئاً ذا بال عن هذه الشيخة المعلمة.

بتول الغبشة

ورد اسمها عند ود ضيف الله أيضاً حينما ترحم لابنها هجو، قال هجو بن بتول الغبشة وأبوه اسمه حماد وحماد من مشايخ اليعقوباب بمنطقة سنار وهو مشهور على زمانه وكانت له مكانة رفيعة.

ولكن اسم الشيخة بتول الغبشة كان أكبر من اسم زوجها الشيخ حماد ولذلك نسبوا ابنها إليها فقالوا هَجُو بن بتول. زرت مكانها في منطقة الحاج عبد الله شمال سنار وحكى الرواة أنها حافظة مجودة ومعلمة، وفي سنينها الأخيرة مالت للتقشف والانقطاع عن الناس وكانت تخط المصاحف وتقتات من ريعها، ومن شدة زهدها وتقشفها سموها بتول الغبشة والغبشة في القاموس السوداني المحلي: ألا يمس جسد المرء شيء من الدهن أو الزيت أو ما يماثله من أسباب الترف والزينة وكثرة استعمال الماء تجعل الجسم جافاً أو أغبشَ . إذن فالغبشة ضرب من الزهد.

أمونة بنت عبود

في بحثي المتواصل عن شيخات القرآن سمعت عرضاً اسم الشيخة أمونة بنت عبود ولم أعرها بادىء الأمر اهتماماً لجهلي بها. وذات مرة كنت أقرأ كتاب «التربية[2] في السودان» وقع بصري على حديث عن الشيخة أمونة نقلاً عن كتاب «نزهة الألباب» ولم أعثر على الكتاب المذكور ولكني وجدت عوضاً عنه كتابي

(١) عائشة شيخة معروفة سبق الإشارة إليها.

(٢) التربية في السودان ـ د. عبد العزيز أمين عبد المجيد ـ المطبعة الأميرية في القاهرة ١٩٤٩م. نزهة الألباب ـ تأليف رفاعة رافع.

«الثقافة العربية في السودان» «ورفاعة رافع الطهطاوي في السودان» وأثبت ههنا ما كتبه رفاعة الطهطاوي قال: وقد رأيت في طريقي ببلاد الشايقية بمديرية دنقلة حرم «سنجق»[1] يدعى الملك الأزيرق تسمى السيدة أمونة، تقرأ القرآن الشريف ومؤسسة مكتبين أحدهما للغلمان والثاني للبنات، كل منهما لقراءة القرآن وحفظ المتون، وتنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحلجه وغزله وتشغيله، ولا ترضى أن يشوبه شيء من مال زوجها، وبجانب المكتبين خلوات لمن يختلي من العباد والزهاد الحاضرين من أقصى البلاد لأداء فريضة الحج الشريف. ومنزلها كالتكية للفقراء وأبناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام. انتهى. وبعد اطلاعي على هذا الحديث قوي عزمي على مواصلة البحث عن سيرة هذه الشيخة التي أهملها الجيل المتقدم. وبدأت أسأل أهل الجهة «الشايقية» الذين أشار إليهم الشيخ رفاعة الطهطاوي فلم يعرفوا كبير شيء عن الشيخة أمونة وواصلت السعي المتواصل عن أخبار تلك السيدة الشيخة ظاناً ما ذكره الشيخ رفاعة هو الحقيقة. وتبين لي بعد حين أن رفاعة ربما وقع في التباس وخطأ بذكره أنه شاهد ببلاد الشايقية بمديرية دنقلة والشاهد أن أمونة وخلاويها ونشاطها التعليمي بمركز شندي مديرية بربر فالتمست للشيخ رفاعة عذراً للسبب التالي، فمنطقة وادي «بُشارة» وأغلب «خط ود حامد»[2] يسكنه الشايقية غرب النيل، وجنوب المتمة والمنطقة الشرقية المقابلة «الباسبير» أيضاً يسكنها الشايقية. ولعل الالتباس نشأ من هنا إذ لم يميز رفاعة بين شايقية مديرية دنقلة وشايقية شندي والله أعلم.

ودلني في البداية على أسرة الشيخة أمونة رجل فاضل[3] من أبناء المنطقة قال

(١) سنجك رتبة عسكرية تركية وشاغلها قائد خمسمائة عسكري.

(٢) خط ود حامد ـ منطقة إدارية تابعة لنظارة الجعليين.

(٣) السيد أحمد الشيخ حاد الله من أهالي المعرفة في المنطقة.

أنهم يسكنون وادي بشارة جنوب غرب شندي وشمال شلال السبلوقة[1] فحزمت حقيبتي من غير توان وخرجت من أمدرمان حتى وادي بشارة وكان ذلك في السابع من رمضان سنة ١٣٩٥هـ الموافق ١٩٧٥/٩/١٢م عبر طريق مليء بالرمال والأوحال، والعربة المتهالكة تئن وتقف وتمشي بسبب وبلا سبب إلى أن وصلنا عصراً قرية وادي بشارة ووقفت العربة في صدر القرية عند دار الشيخ الحسن، شيخ قرية وادي بشارة وهو من أسرة الشيخة أمونة ونزلت في دار الشيخ من غير إذنه كعادة الزائر في بلادنا وبعد الترحيب بي أرسلوا من يخبره أن ضيفاً حل بالدار فعاد من الجزيرة[2] عاجلاً واستقبلني هاشاً باشاً وبالغ في الترحيب وحسن الضيافة وكنت عجلاً قلقاً فسقته بعد برهة للحديث عن أمونة فتهللت أسارير الشيخ وأشرق وجهه.

كما لقيت في قرية مديسيسة شمال وادي بشارة الحاج الحسن علي موسى من وجهاء البلد ومن رواة تاريخ المنطقة كما زرت العمدة فضل الله الشريف في قرية «ود حامد» وهو من أحفاد الشيخة أمونة ثم عدت لألتقي بالشيخ عبد الرحمن يوسف محمد يوسف الأزيرق ومن حديثي ومحاورتي لهما خرجت بمعلومات أوجزها في الملخّص التالي، وفي تقديري أن الرواة رغم صلتهم بالشيخة أمونة لم يبالغوا في إخبارهم عنها، فهم على جانب من العقل والفضل ولاسيما العمدة فضل الله الشريف.

والدها الشيخ عبود وأخواتها مهيرة بنت عبود الشاعرة المشهورة التي شاركت في واقعة كورتي عام ١٨٢٠ وبقية شقيقاتها هن غوالي ـ مرار ـ فاطمة الزرقاء وجب وماكنة ومن نسلها الملك «أصول» والد العطا ود«أصول» القائد المعروف والفريق إبراهيم عبود رحمه الله وغيرهم.

---

(١) السبلوقة شلال ومضيق على النيل الكبير.

(٢) الجزيرة تعني هنا ـ الأرض الزراعية في النيل أو عليه.

واختلف رواتي حول مكان ميلادتها هل كان في «أسلى» مركز مروي أم في كبوشية ولكن اتفقوا على أن نشاطها وخلاويها كانت في وادي بشارة وبعد حفظها القرآن تزوجت جدنا محمد الأزيرق الذي صار سنحكاً في التركية.

وأمونة بجانب بيتها فقد اهتمت بالتعليم وبدأت بأبناء الأسرة ثم أبناء القرى المجاورة وما عتم أن تسامع بها أهل المنطقة وصاروا يحضرون أبناءهم وبناتهم. فلما تكاثر العدد فصلت عن البنين والبنات وجعلت للبنات فصولاً دراسية وسكناً خاصاً كما جعلت مثل ذلك للبنين واستعانت بمشايخ معلمين من خارج المنطقة وطار اسمها بعدئذ وحمله الغادي والرائح وعرفها الناس شرقاً وغرباً لا سيما حجيج غرب أفريقيا الذين كانوا يقدمون عبر دارفور وكردفان ثم ينزلون النيل ناحية أمدرمان ومنها ينحدرون شمالاً حتى بربر ثم ميناء سواكن.

والحجيج الأفريقي السوداني كانوا يقطعون المراحل بالإبل وعلى أرجلهم ولهم في كل مرحلة منزلة معلومة يجدون فيها الطعام والأمن. ومن محطات الحجيج القديمة الجموعية أمدرمان ـ السروراب المتمة إلخ ولما ظهرت خلاوي أمونة صارت دارها منزلاً للحجيج الأفريقي السوداني وكل الذين يسافرون بالضفة الغربية للنيل، أما اعتناؤها بالدارسين فقد كان عظيماً إذ كانت تنفق عليهم من زرعها وكانت تملك أرضاً واسعة على النيل ولديها نفر ممن يحسنون العمل الزراعي وقد خصصت «ساقيتين»[1] لزراعة القطن وبعد حصاده تغزله نساء الحي وطالبات القرآن. واستقدمت نساجين من جهات المتُمة والجبلاب، وبعد النساجة توزعه كساء للطلبة والطالبات وما زاد تتصدق به على الحجيج وغيرهم. كما كانت تقوم بنفقة واسعة وذكروا أنها كانت تجمع جلود ذبائح النفقة وتصنع منها النعال المعروفة «الشقيانة»[2] وتوزعها أيضاً على الطلبة والحجاج الذين يعبرون من

---

(١) الساقية تكون على النيل وهي وحدة زراعية متفق عليها مقدارها اثني عشر فداناً.

(٢) الشقيانة نعل معروف يلبسه البدو والرعاة.

تلك الجهة المشار إليها. وكان اهتمامها بالحجيج كبيراً وهم الذين نشروا اسمها في أماكن عديدة من بلادنا وغيرها.

وبعد نجاحها هذا تنازل لها كثير من الأهالي عن جزء من أراضيهم، فصارت أراضيها الزراعية واسعة واستغلتها رحمها الله، في الإنفاق على التعليم.

وبعد زمان صار كل شيء باسمها فالقرية سميت «حِلّة» أمونة والجزيرة جزيرة أمونة. السواقي سواقي أمونة والنخيل نخيل أمونة وما زالت بقية النخيل وفسائله شاهداً على فضلها. وحتى المقبرة المعروفة بمقبرة «رية» والتي دفنت فيها الشيخة أمونة تعرف عند بعضهم باسم «ترب أمونة».

وزرت سواقي أمونة ونخيلها وقبرها، وعلمت من الشيخ الحسن أن أراضي أمونة لم تورث. ولكنها سجلت على الشيوع في زمن المستر «بل»[1] وقفاً على الضعفاء والذرية شرط ألاّ تباع ولا ترهن وسجلت الأرض على النمرة ٥ ومساحتها ٥٠ فدان يحدها من الجنوب أولاد إبراهيم البشير، ومن الشمال بابكر عثمان الشيخ، ومن الغرب «الفاسد»[2] ومن الشرق الجزيرة «مِرْكي».

هذا . وكانت الشيخة تعيش عيشاً متقشفاً، كما عرف عنها الورع وكانت لا تقابل الرجال إلا من وراء ستر، وظلت حتى أخريات أيامها تجاهد في خدمة كتاب الله ونشر المعرفة ورغم أني استقيت هذه المعلومات من أقرب الناس إليها فإنهم لم يؤرخوا لوفاتها ولا ميلادها[3] شأنهم في ذلك شأن أهل السودان في عدم توثيق أخبار النساء حتى لو كن من ذوات المكانة كالشيخة البرة أمونة بنت عبود.

كما أفادني الرواة الذي عولت عليهم بأن زوجها محمد آغا الأزيرق بعد

(١) بل ـ إداري انجليزي.

(٢) الفاسد ـ ظل الشتاء.

(٣) لست أدري ولماذا ـ ألكونها امرأة.

تقاعده من الوظيفة التركية طلب منها أن يشاركها في النفقة، فلم تقبل خشية عـدم نقاء ماله الذي جمعه من رتبته العسكرية «سنجك» وهذا يؤكد ورعها وإخلاصها وصدقها.. رحمها الله.

مريم بنت حاج عطوة

الشيخة الحافظة المعلمة الواعظة مريم بنت الحاج عطوة أصلها من المغاربة الذين استوطنوا بربر جهة «المكايلاب» نبتت الشيخة مريم تحت رعاية والدها الفقيه عطوة المغربي وتعلمت في بيت والدها القرآن حتى صارت من أفقه أهل زمانها وشاع ذكرها في أرجاء الأقاليم وخطبها بعض من الرجال وأخيراً ظفر بها العالم المفوه الشيخ محمد بن أحمد بن جلال الدين المجذوب وأنجب منها أولاداً أشهرهم العلامة الشيخ مجذوب جلال الدين وهو معروف جداً لأبناء الجيل المتقدمين إذ كان يعمل مدرساً في كلية غردون التذكارية وفوق هذا فالشيخة جدة شاعرنا الفذ محمد المهدي المجذوب.. وكان نشاطها العلمي في الدامر إذ كانت تدرس القرآن والفقه لكافة الناس وتخصص وقتها لوعظ النساء ولما صارت امرأة نصفاً بدأت تنسخ المصاحف وعند ذريتها مصحف من خطها كذلك كتبت راتب الإمام المهدي وغير ذلك من الكتب والأدعية والصلوات.. وقد تركت أثراً محموداً من علم ومخطوطات وتلاميذ.

فاطمة بنت أسد

من منطقة الجعليين قرية «المطمر» الواقعة بين أم علي والمحمية، اشتهرت بالحفظ الجيد والفقه الواسع وبين الفينة والأخرى كان يتقدم لها الخطاب وكانت ترفضهم فقد فضلت عليهم الدراسة والعلم ولما تقدم بها العمر وصارت أقرب إلى العنس نصحها تلاميذها وأهلها بالزواج.

وتسامع بها رجلان عظيمان من أهل القرآن والفقه هما الشيخ القلوباوي جد القلوباب بمنطقة بربر الشمالية والشيخ عبد الوهاب جد الوهاهيب بربر.

وسافرا سوياً لخطبتها ونزلا في الدامر عند الشيخ الفكي حمد ود المجذوب ولما سألهما عن حالهما أخبراه بقصدهما ونيتهما فأثنى عليهما ودعى لهما بالتوفيق وكان الفكي محمد المجذوب يعرف أحوال الشيخة فاطمة بنت أسد فأوصاهما وهم يودعانه إن لم يوفقا في قبول أحدهم زوجاً لها أن يذكراه خطيباً ثالثاً.

ولما وصلا المطمر قوبلا بالترحاب والإكرام ثم عرض كل واحد نفسه طالباً يد الشيخة فاطمة فلم تستجب لهما ولما يئسا منها ذكرا لها طلب حمد ود المجذوب وكان حمد وقتها في سن الشيخوخة المتقدمة فرحبت وقبلته زوجاً ورفضت من هم في سن الشباب وقمة الوجاهة ورضيت بهذا الشيخ الكبير وأنجبت منه الفكي منصور جد المناصير وهم بيت من المجاذيب وأشهر أفراد هذا البيت خليفة المجاذيب وحامل راية المهدية الذي قتله الانجليزي كتشنر بعد فتح بربر والدامر وسبقت الإشارة إليه في حديثنا عن الدامر.

والسيدة فاطمة بنت أسد كان والدها على جانب كبير من الورع والفقه وأطلق عليها اسم فاطمة بنت أسد تيمناً بالسيدة فاطمة بنت أسد أم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وما زالت بلدة المطمر تعرف بمطمر بنت أسد[1].

أم كلثوم بنت القرشي[2]

والدها الشيخ العالم القرشي ود الزين وبلغ الشيخ القرشي درجة عالية من السمو الروحي جعلته مقصداً لكثير من طلاب المعرفة. ومن ضمن من قصدوه

(١) رواية أبونا ـ الشيخ الفكي البشير ـ وهو أعلم الناس بأخبار الدامر وعلى رأس ذوي الفضل فيها.

(٢) رواية القاضي الشيخ محمد الأمين.

لاستكمال المعرفة الحقة الإمام محمد أحمد المهدي حتى أصبح المهدي من أشهر تلاميذه وفي بيت القرشي ود الزين فتاتان حافظتان ماهرتان هما أم كلثوم والنعمة.

الشيخة أم كلثوم

التزمت أم كلثوم منذ فجر شبابها التدريس وبدأت بتعليم البنات والبنين إلا أنها بعد انتشار خلاوي البنين التي قام عليها تدريساً ورعاية جماعة من الحلاويين تعرف بـ المديداب اشتغلت أم كلثوم بتدريس البنات وصارت لها سمعة كبيرة داخل وخارج المنطقة وتوسعت في بناء الخلاوي الدراسية والسكنية بعد أن توافدت عليها البنات من كل جهات الجزيرة.

وثبت أنها كانت تعلم وتحفّظ الماهرات من طالباتها ولا تدعهن يخرجن إلا في حالات الزواج حرصاً منها عليهن وتزوجت كثيرات من طالباتها في دارها وكانت تزفهن إلى منزل الزوجية من خلوتها. ويصحب العروس الطالبات وهن يهزجن بالدعاء والابتهالات وبعض الأغاني الخفيفة المعروفة في وسط السودان.

قراءة البنين

وبجانب تدريس البنات كانت تهتم بتدريس أبناء الأسرة الأقربين. وحفظ عليها وتحت إشرافها ورقابتها ابن ابنها القاضي محمد الأمين القرشي وهو راوي خبر هذه السيدة ومما ذكره إعجاب الإمام المهدي بهذه الشيخة وكثير العطف عليها ولم يكتب الله له أن يتزوجها ولكنه استعاض عنها بشقيقتها الحافظة النعمة بنت القرشي وأنجب منها الإمام المهدي ابنه المعروف بالسيد علي المهدي.

الشيخة عائشة

الشيخ أبو دليق خلّف من الأبناء حسين وعائشة ولما قربت وفاته قيل له من

الخليفة بعدك قال عائشة بنتي وتزوجها الشيخ بدوي ابن أخيه وولد منها أبناءه. النقر ومضوى وعبد الله وتاج الدين وياسين. ونار الشيخ بدوي متوقفة على زوجته عائشة بنت الشيخ علي أبو دليق كان ذلك في أواسط عهد السلطنة الزرقاء.

الشيخة خديجة

نزحت الشيخة خديجة مع أسرتها لأمدرمان أيام المهدية ولما استقرت الأسرة في أمدرمان فتحت الشيخة فاطمة أم النصر بنت أبي رجالة خلوة واستمرت قيمة عليها بمساعدة ابنتها خديجة ولما توفيت خلفتها ابنتها خديجة فصارت تدرس بهمة ونشاط ثم صارت تدرس بنات المهدي وبنات بنات المهدي ومن معهن من بنات الأنصار وغيرهن وصارت تبذل جهداً كبيراً في التعليم رغم تقدم السن وكانت مكرمة معززة من قبل الإمام عبد الرحمن المهدي وحجت أربعة مرات بمساعدة الإمام عبد الرحمن المهدي.. وتوفيت رحمها الله في ١٩٤٦م ودفنت في أمدرمان.

الشيخة فرَّح

الشيخة البرة أم الفقراء الحافظة القانتة المتفقهة فَرَّح بنت بيتاي وهي شقيقة سيدنا علي بيتاي والقائمة فيما يتصل بأمر النساء الدارسات والطالبات وقد وهبها الله الصبر على المكاره وكانت وما زالت متفانية في خدمة مسيد سيدنا علي بيتاي فهي المعلمة الأكبر بالنسبة لمعلمات القرآن والمستشارة للشيخ في عموم شؤون المسيد وما برحت رغم تقدم العمر تعمل بهمة لا يعوقها الكسل ولا يمسها الفتر وفقها الله وأعانها ونفع بها وبارك في أيامها.

الشريفة مريم:

هي السيدة مريم المرغنية بنت السيد هاشم الميرغني زوجها السيد تاج السر

الميرغني وهي من الحافظات اللاتي واظبن على التلاوة والذكر وكان اهتمامها كثيراً بمدارس القرآن ولها خلاوي في أماكن متفرقة بالإقليم الشرقي خاصة في مقرها «سنكات» حيث مسيدها الأكبر وله سمعة كبيرة جعلت الناس يقصدونه من جميع الجهات من الشمالية وشرق السودان وأرتيريا والحبشة والصومال إلخ وقد تخرج فيه حفظة كثيرون كما عرفت السيدة مريم بالإنفاق على الطلبة وأبناء السبيل وجميع المحتاجين والقيم الآن على مسيدها ودائرتها اليوم السيد محمد سر الختم الميرغني رحمهما الله وأجزل لهما الثواب.

الباب التاسع

رجع الحديث[1]

إلى ذكر الخلوة ونار القرآن المتوهجة من حولها الألواح المنحرفات لكي يعمهن الضياء.

هذا صوت العليابي رحمه الله يردد.. والنار مثوى لهم.. وكأين من قرية.. وهذا الطاهر «المشكُوِت» رحمه الله قد أصلح النار ويردد ولوحه بيده.. وحمى الحيران شيئاً فشيئاً.. وعلت الأصوات في صخب لكن في جد.. قراءة الظهر القرآنية فيها حيوية انفعال الصغار وصياحهم مع الحر وبعض ازدحام الأنفاس.. لكن قراءة الليل، ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً، وأقوم قيلا﴾ صدق الله العظيم. هذه ترنيمة صوت نقي: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة.. وتلاشى الصوت في الجمع القارىء وهذه هدرة مقتدرة ﴿نبىء عبادي أنّي أنا الغفور الرحيم﴾ وجعل الصوت يعد عند ﴿وأنّ عذابي هو العذاب الأليم﴾.. ﴿وقتل داود جالوت﴾.. ﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون﴾.. ﴿قال ألم أقل لك﴾.. ﴿قل من كان في الضلالة﴾.. ﴿واذكر أخا عاد﴾.. جمهرة أصوات منسجمة من حدر ذي حيوية واجتهاد واستشعار أدب من جو الخشوع عند قراءة القرآن. واستقام جرس التلاوة المجتمعة بهدير منهمر، يدوي كدوي النحل.. هكذا وصفوا القرآن في تلاوة العصور الأوائل كانوا إنما يذكرون بالكراهة أن يهذّ القرآن هذّاً كالشعر. والهذ كان طريقة من الإنشاد السريع المندفع في الأراجيز والأشعار الذي ربما تخفى معه

---

(١) رجع الحديث العلامة البروفسير عبد الله الطيب ـ حقيبة الذكريات صفحة ١١٠ وزارة التربية والتعليم.

الألفاظ والمعاني. لعل طريقة العرب «البقارة» عندنا حين ينشدون ويندفعون في أخريات الأبيات بأداء يحاكون به ركض الخيل مما يشبه الهذ. حدر القرآن وإسراعه وإدراجه أي المضي بقراءته ليس من الهذ ولكن من صميم الترتيل.

دوي كدوي النحل. هذا هو القرآن كلام الله المحكم القديم، كتاب الله المنزل المحروس بحفظ الصدور والسطور وتجويد التعليم.

قراءة المدرسة لطيفة، لكنها كأنها تلحين بحت. هل ينقصها عنصر الخشوع حيوية تلاوة الخلوة وأصالتها لصغار المدارس خشوع عند القرآن ولكن يصحبه رنين صياح غناء غريب.. ينقصها عنصر الانسجام الذي ينشأ من حرية أداء أنواع الأصوات والمقدرات والمواهب المختلفة كلهن معاً وعلى انفراد.. وينقصها عنصر العتق ومنشأ تواتر سند التلقي شفاهاً عن الأشياخ جيلاً بعد جيل. وينقصها عنصر البساطة والترابية.. قراءة المدرسة مع قصد الخشوع بالقلب المسلم المؤمن مما يهيمن عليها شيء من أسلوب النظام المدرسي حيث نرى التلاميذ متشابهين قاعدين على مقاعد المدرسة وأمامهم قماطرهم المتشابهة.. ناظرين بانتباه واحد إلى أجزاء مطبوعة متشابهة وإلى المدرس والسبورة..

أصوات التلاميذ الصغار في المدرسة حلوة جزلة الروح لطيفة على كل حال. جزالة الروح مصدرها البراءة والاندفاع. مقرر منهج المدرسة الأولية جزء عم. جزء تبارك. جزء قد سمع. مطبوعة برواية حفص عن عاصم تعلم بعض المدرسين قراءة هذه الأجزاء الثلاثة في المدرسة ولم يعرف بالخلوة قراءته ينقصها التواتر. بعض المدرسين قرأ في الخلوة واختلطت عنده الرواية المطبوعة بالتي تعلمها من اللوح..

عم يتساءلون... ون

عن النبأ العظيم... ايم

قم الليل إلا قليلا.. ايلا

ذرني ومن خلقت وحيدا.. ايدا

وجعلت له مالاً ممدوداً.. دودا

قراءة المدرس أستحسنها وتعجبني بتكلف. في نغمها نظام.. رتابة.. وتلحين بلا ترتيل خاشع أصيل الأصول.. وتحزين كأنه جزء من النظام، نظام برجوازية الأفندية وعسكرية الضبط والربط.. تلحين ليس فيه عنصر الشجو والتهزم المطرد الذي يخالط أوتار القلوب..

بعد حين وآخر رنة متقنة. الشيخ مصغ سامع بصير.. نار القرآن ساطعة عيدان سلمها وتنضبها مشتبكة حول ثاقبات يفوح ويضطرب ويصخب حولهن أوار شعلات اللهيب.. والكل.. حيران وشيخهم قعود حول النار على تراب المسجد.. ﴿قل آلذكرين حرم أم الأنثيين﴾ ﴿من صلصال كالفخار﴾ ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ هذا العليابي رحمه الله قبل أن يصل إلى سورة محمد.. ﴿لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات والأرض﴾.

كنت فوضوياً أستعجل قبل زمان العرضة وشيخنا يشير علي أن أقعد كانوا يعطفون علي في حياة الوالد وبعد وفاته. كان شيخنا كله صبر وتسامح وبركة. وقفت مرة للعرضة عجلاً بها وكنت قد محوت لوحي مرتين في نفس اليوم. وقفت مستحفزاً بسمت العرضة وقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بمد اللسان في أعوذ وبيان فتحة الشين وسكون الياء.. أحاكي الحفاظ البارعين.

كان الشيخ ودتكرون رحمه الله ربما استعاذ في مجامع تلاوات الحفاظ الكبار في الختمات التي يعنون بها.. «أعوذ بالله من الشرك والكبر والشيطان الرجيم».

ويستحسن بعض القراء الآن أن يقولوا في الاستعاذة أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

وكل هذا حسن. والاستعاذة المختارة عند القراء هي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهي المستفادة من ظاهر آية النحل: فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

قالوا وكان الشيخ تكرون الكبير، رحمه الله، حافظاً معروفاً بجودة الحفظ وصحته وقعد فوق «العنقريب» بحضرة السيد الحسن رضي الله عنه، لأنه ـ كما ذكروا أنه احتج به على بعض من أرادوا ألا يقعد على العنقريب في حضرة السيد ـ كمصحف لحفظه فلا يوضع على الأرض. قالوا وكان صوته كبيراً أجش وكذلك كان صوت الشيخ ابنه رحمهم الله جميعاً.

وكررت الاستعاذة.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وذهب اللوح الذي حفظته من ذاكرتي مرة واحدة. وجدت أني نسيت. وذكرت ذلك لشيخنا فزجرني مع عطف عريض.. أحسبه قال «بسْ» اقعد الله يهديك يا ولدي.

هكذا كان يقول الوالد رحمه الله.

مراس الحيران ـ أجيال من الحيران ـ حفظ أثمان القرآن أكسبهم معرفة بما هو منها أسهل حفظاً وما هو أصعب. وكلها قد يسرها الله سبحانه وتعالى للذكر ﴿فهل من مدكر﴾.

هذا وكان بعض الحيران في بلدنا يجيدون العرضة ويعرفون بذلك ومن هؤلاء يكون من بعد الحفاظ وحملة القرآن. وكان من بين خلوات القرآن روح تنافس طيب في طلب التبريز. وكانت خلوات الدامر والجعليين شرقاً وغرباً وبربر شرقاً وغرباً والغبش والشايقية وخلوات الصعيد بينهن في الحفظة والدارس تبادل مستمراً في الزمان القديم. كان ذلك كله حياً منذ نحو أربعين سنة. وقد زال الآن كله أو قد أوشكت بقاياه أن تزول إلا ما شاء ربك إنه عليم قدير.

قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ صدق الله العظيم.

وكانت الشرافة مما يهيء لصاحبها سؤال الشيخ إطلاق سراح الحيران قبل الأوان، والشرافة إظهار وإعلام أن الحوار أدرك كذا وكذا حفظاً من سور القرآن ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ أولى الشرافات الكبيرة يصلها الحوار وهو صاعد من «الناس» إلى «البقرة» على النحو الذي قدمنا ذكره.. «الفاتحة» يبتدأ بها للبركة و«الناس» آخر الكتاب الكريم يبتدأ بها من بعد لتيسير القراءة والكتابة والحفظ. ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ مرحلة تشريف صغير إذا بلغها الحوار صنع أهله شيئاً ظريفاً جاء به إلى الخلوة ولذلك قالوا:

أصل الشرف في اللغة الارتفاع وفي العامية تقول فلان يتشرّف لكذا أي يمد رأسه تطلعاً إليه وفي اللغة العربية الفصيحة شرف فلان منزله أي يجعل له شرفة أ شرفات والشرفة «وهي التي يقال لها البلكونة الآن» مرتفعة ومزينة.

هذا وكان صغار الحيران ينطلقون بالشرافة ليرى الناس أنهم حصلوا كذا وكذا من كتاب الله. وكان الحيران في طوافهم بالشرافة يسألون الناس الجوائز عليها فكل يعطيهم ما يقدر عليه. لم نحضر زمان كان للحيران سلطان بسؤال الشرافة. لا يخفى ما في ذلك من ربط محكم للمجتمع بمعاهد التعليم. لا بل مصدر ذلك من صنيع الحيران إنما كان من حقيقة الارتباط الروحي القوي بين التعليم في الخلوة والمجتمع أمر طبيعي لا تكلف فيه.

شاهدت في مدينة كنو بعض الصبية بأيديهم الألواح يطوفون بها ويتغنون أغاني حلوة جداً ذات نغم حي، سريع متلاحق، ولكنه بلغة هوسا.

وسمعت نفس النغمة أو نغمة مقاربة لها جداً بمدينة الرسول ﷺ من أصيبية صغار بناحية أُحد يدعون للزوار.

هذا وكان مما يزيد فن الشرافة الجميل جمالاً أنه أمر عتيق ذو أصول عريقة

وأنه عفوي الروح بسيطها غير متكلف وأنه فوق ذلك بركة.

الشرافة بركة. ثم مع الشرافة التمر والطعام والشاي أحياناً واللقيمات أحياناً كثيرة. لما شرّف الطيب النقر ذبح خروفاً أو عجلاً لا أذكر جيداً فأطعم نعم الطعام وأطلق الحيران في وقت واسع، أول العصر، أذكر قراءته ليلاً بعد ذلك في ألواح البقرة ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ وهي أول الجزء الثاني، ويغلو في تحري صحة النطق بالقاف يقارب بها الكاف جداً والغالب على نطق الخلاوي مقاربة الغين وبعض ناس الخلاوي يخلصها غيناً. وقال لي شيخ محمد ود الحلال رحمه الله عمدة الدامر وكانت له بعلوم الأدب والعربية دراية وذوق دقيق، إن الكتياب وفيهم علم وفضل كثير ـ كانوا يحرصون على «القلقلة» ويمتحنون الحيران الكبار فيها بسورة اقتربت وبقوله تعالى فيها ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ وعن أستاذنا الشيخ حلال أن بعض فقراء الخلاوي في الماضي يمدون اللسان في الغين ليفرقوا بينها وبين القاف في نحو ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ مع ملاحظة أن رواية الدوري على المشهور من إدغام الراء في اللام ـ استغفلهم أو لا تستغفلهم».

حاشية: نطق القاف عندنا مقارب للكاف وليس بكاف وهذا النطق فاش في معظم البلاد العربية ويقرأ به القرآن في بعضها كاليمن. ونطق الغين عندنا من مخرجها وقد يجاء بها ضعيفة مقاربة لمخرج القاف. هذا في العامية الدارجة. وفي قراءة القرآن وأداء النطق الفصيح ما قدمناه من مخالطة القاف مخرج الغين ولا يخطئون في أداء الغين. فالذين يخلطون نطق الحرفين في القراءة ويخافون الالتباس هم الذين يمدون اللسان. وليت المدرسين الآن يفعل بعضهم شيئاً من هذا القبيل. إذ أن نطق الغين والقاف في المدارس جعل يختلط اختلاطاً قبيحاً حتى أن الكلمات التي كان ينطقها الناس غيناً فلا يخطئون قد جعل ينطقها التلاميذ قافاً فيخطئون والخطأ من التدريس في هذه الحالة مثل كلمة صغير التي ينطقها بالعجمة المدرسية صقير ـ خطأ جديداً جداً.

نطق الجيم عندنا من سقف الفم حرف شديد أخو الياء لا يخالطه الانتشار الشيني الطابع كما في جيم أهل الشام ولا مشابهة ما بين الكاف والقاف كما في جيم أهل مصر. وفي كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد أن بني عمك من اليمن كانوا ينطقون الجيم كافاً فيقولون الكمل للجمل. وزعم أبو العلاء المعري في رسالة الغفران أن العباديين هم رهط عدي بن زيد الشاعر، كذلك يفعلون، والله تعالى أعلم.

من الأشياء المدرسية ذات الشبه شيئاً ما بالشرافة شجرة الحمام. الحمام، بتشديد الميم الأولى، وكلمة الحمام كان معناها عندنا الحر الشديد، تماماً كما في قول الشاعر القديم:

نذق برد نجد بعدما لعبت بنا ** تهامة في حمامها المتوقد

أي في حرها المتوقد

وكنا نقول «البرود» بفتح الباء. «وأنا ماشي أتبرد» أي ابترد يعني أستحم كما نقول الآن. وما كنا نقوله أصح وعليه قول ابن أبي ربيعة:

زعموها سألت جارتها ** وتعرت ذات يوم تبترد

أي تتبرد.. أصح لأنه أفصح ثم هو أشبه بأحوال جو بلادنا لأنا لم نكن نسخن الماء ولكن نصبه على أجسامنا بارداً.

وحكايات الحيران في الخلوة لعمري أظرف من حكايات تلاميذ المدارس لسذاجتها وخلوها من روح المنافسة في الوظيفة والتحكم الإداري والجاه الدنيوي البرجوازي الغريب الجليب. يحكون أن أحد الحيران أخبر شيخه بأن هدية طعام جيد قد جاءت وكان ذلك الشيخ يريد أن يستأثر وحده بالهدية.

الحوار: كأنه يطلب من شيخه ـ الرمية ـ سيدنا العمة مدينة جابت قدحاً كبيراً قالت نأكلوه.!!

وحكى الزميل الفاضل عبد القادر زمامه أستاذ الأدب بالمغرب أن أسلوب الرمية المعمول به عندنا له مشابه في طريقة تعليم القرآن «بالفتيا» التي كانت متبعة عندهم. يقول التلميذ مثلاً نعماس ـ نعم يا سيدي ـ تبارك الذي بيده الملك.

الشيخ: وهو على كل شيء قدير.

ومما يجري مجرى الفكاهة أن شيخاً كانت تخاط عنده الملابس فجاءه رجل لم تكن عنده إلا جلابية «حلة» واحدة ليخيط مواضع منها فأعطاها تلميذاً له فعكف عليها فلما فرغ منها جاء فقال على أسلوب التعليم.

التلميذ: نعماس ـ الجلابية وجدت هل أردها لمولاها.

الشيخ: اسكت «بعد ضمه الكاف» لعله ينساها أي هل أرد الحلة لصاحبها فأمره الشيخ أن يسكت أملاً أن ينساها صاحبها، وكيف ينساها ولا حلة عنده غيرها.

مثل هذه النتف على عدم جديتها المطلق مما يصح أن يرد به على ابن خلدون في الذي زعمه. أن حفظ القرآن لا تنشأ عنه ملكة البيان في الغالب لأن الناس مصروفون على الإتيان بمثله بالمعجزة. هذه من أضعف النقط في «المقدمة» لما فيها من السفسطة ولها مشابه ليت ابن خلدون قد أعفى قلمه وقراءه منها، وقد كان رحمه الله مزيجاً فذاً من إصابة الحجة وتدليسها بعض الأحيان ولله در الحريري إذ يقول:

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

خلوة الفقيه الكراس[1]

أدخلوني خلوة القاضي الطيب لأنها بجوارنا ولم أستفد منها شيئاً لإهمال الفقيه بها أو لصغر سني التي هي أول السادسة حتى قالت المغنية حين ختاني في

---

(١) خلوة الفقيه الكراس الشيخ بابكر بدري حياتي الجزء الأول ١٩٥٩ صفحة ١٩.

آخر البيت «الكسَّر سنينات اللبن في الخلوة» ثم نقلت لخلوة الرجل الصالح اليقظ المخلص في عمله الفقيه أحمد حامد الشهير بالكراس سنة ١٢٨٨ واستمرينا عنده إلى أن توفي ١٢٩٥ حيث أمرني بتمريضه وأظنه كان مصاباً بالحمى السوداء لأنه يتبول دماً ويأمرني بدفنه بعيداً عن الناس في حفرة عميقة.

اسمحوا لي أن أذكر عن هذا الرجل ما أعرفه عنه. أداء لواجبه علي. كان رحمه الله فوق السبعين من عمره على أنه قوي البنية يمكث بخلوته إلى الساعة ١١ مساء حيث يتم تلاميذه سُبع القرآن فيتوجه لإحدى زوجتيه ويرجع للخلوة في أو قبل الرابعة صباحاً افرنجياً أو الساعة ١٠ مساء عربياً «على الاستواء» فيثيرنا فنوقد النار ونشرع في القراءة للعرضة وهو يدخل في مخزن الخلوة يستحم يومياً ومعه تلميذان يقرآن عليه لوحيهما ليمحياهما بعد هذه القراءة ويكتبا غيرهما فتستمر العرضة «قراءة الألواح حفظاً» عليه تلميذين تلميذين حتى يفرغ من اغتساله ـ فيخرج فيجلس في عنقريبه «سريره» حتى تفرغ العرضة ومن سمَّعوا منا يمحون ألواحهم ويكتبون غيرها من رؤوسهم لأنهم قد سبق فحفظوه عصر اليوم الماضي وبعد الكتابة يصححون عليه ما كتبوه مثنى مثنى هؤلاء الكبار أما المتوسطون فأنه يجلس أمامهم ويملي عليهم ما يكتبون في يومهم هذا غيباً من رأسه والصغار يكتب لهم ألواحهم «بنوى التمر» ليكتبوا عليه تعوداً على الكتابة وتحسيناً للخط وكل هذا يجري يومياً لا يشغله عمل عن عمل لا في النظام وفي الصحة ـ ومما أذكر أني تساهلت يوماً في حفظ لوحي وكان «ولما فتحوا متاعهم» في سورة يوسف عليه السلام في وقت العشاء فلما حضر الفقيه سحراً واجتهدت في حفظه حتى جاءت نوبة تسميعي ظننت أنه لا ينتبه لي فمحوته وكتبت «فلما دخلوا» وعندما قرأته عليه ضحى الغد للصحة سكت إلى أن ختمته بقولي «إنه هو العليم الحكيم» قال لي تعالى يا العليم الحكيم ـ أنت عرضت على من؟. فقلت له: عليك يا سيدنا. فقال متى. قلت وأنت تستحم في المخزن ـ قال: أنا دخلت للاستحمام

وكان يقرأ فلان وفلان ثم بعدهما فلان وفلان وبعدهما فلان وفلان وخرجت وهما يقرآن فبين لي أي هذه الدفع أنت عرضت لوحك ومن كان معك. فقلت يا سيدنا يموت الفكي ويموت أبوي أنا عرضت فقال لي تموت أنت امشي امحي وتعال ـ اكتب ما محوته فذهبت ومحوته وكتبت سطرين مما محوت فافتضح أمري فضربني على الكذب وأملاني لوح «ولما فتحوا» وحكم عليّ ألا أبرح الخلوة حتى أسمعه إياه غيابياً أي أعرضه عليه وفعلاً حصل ذلك. ومع أن حيران الخلوة يفيضون على الأربعمائة طالب ليس له منهم ساعد ولا من غيرهم. كان رحمه الله لا يبالي بأهل المال ولا أهل الجاه ولا يقبل هدية من أحد ولا يسمح لأحد أن يخدّم تلاميذه في «بلاده»[1] ولا منزله كغيره ولا يستخدمهم هو، وقد رأيت الشيخ عوض الكريم أبو سن وهو ناظر الشكرية جاءه زائراً وكان راكباً حصاناً فوقف عند باب زريبة الخلوة فقابله الفقيه إبراهيم وقيع الله فقال الشيخ عوض الكريم أي زائر الفقيه أحمد الكراس فجاء الفقيه وقيع الله العالم لشيخنا والحيران يصحون ويكتبون فقال الفقيه إبراهيم وقيع الله يا فقيه أحمد الشيخ عوض الكريم جاء يزورك فلم يلتفت له فلما رأى الشيخ عوض الكريم عدم قيام الفقيه أحمد من عنقريبه ترجل من حصانه ودخل المسيد.

الدكتور طه حسين[2]

ولكنه لا يعرف كيف يحفظ القرآن ولا يذكر كيف بدأه ولا كيف أعاده وإن كان يذكرمن حياته في الكتاب مواقف كثيرة منها ما يضحكه الآن ومنها ما يحزنه، يذكر أوقاتاً كان يذهب فيها إلى الكتاب محمولاً على كتف أحد إخوانه لأن الكُتّاب كان بعيداً ولأنه كان أضعف من أن يقطع ماشياً تلك المسافة ثم

---

(١) بلاده ـ البلاد الأراضي الزراعية المطرية.

(٢) حديث الأربعاء ـ دكتور طه حسين.

لا يذكر متى بدأ يسعى إلى الكتاب ويرى نفسه في ضحى يوم جالساً على الأرض بين يدي «سيدنا» ومن حوله طائفة من النعال كان يعبث ببعضها وهو يذكر ما كان قد ألصق بها من الرقع وكان «سيدنا» جالساً على دكة من الخشب صغيرة ليست بالعالية ولا بالمنخفضة وقد وضعت على يمين الداخل من باب الكتاب بحيث يمر كل داخل «بسيدنا» وكان «سيدنا» قد تعود متى دخل الكتاب أن يخلع عباءته أو بعبارة أدق «دفيته» ويلفها لفاً يجعلها في شكل المخدة ويضعها عن يمينه ثم يخلع نعله ويتربع على دكته ويشعل سيجارته ويبدأ في نداء الأسماء وكان «سيدنا» لا يعفي إلا إذا لم يجد من ذلك بداً كان يرقعهما من اليمين ومن الشمال ومن فوق ومن تحت وكان إذا أخلَت به إحدى نعليه دعا أحد صبيان الكتاب وأخذ النعل بيده وقال له تذهب إلى «الحزين» وهو هنا قريب فتقول له «يقول لك سيدنا أن هذه النعل في حاجة إلى لوزة من الناحية اليمنى» انظر أترى هنا حيث أضع اصبعي فيقول لك «الحزين» «نعم سأضع هذه اللوزة» فتقول له «يقول لك سيدنا» يجب أن تتخير الجلد متيناً غليظاً جديداً وأن تحسن الرقع بحيث لا يظهر أو يكاد يظهر فيقول نعم سأفعل هذا، فتقول له ويقول لك سيدنا إنه عميلك منذ زمن طويل فاستوصي بالأجر خيراً ومهما يقل لك فلا تقبل منه أكثر من قرش ثم عد إلي مسافة ما أغمض عيني ثم أفتحها وينطلق الصبي ويلهو عنه سيدنا ثم يعود وقد أغمض عينه وفتحها عدة مرات.

على أن الرجل كان يستطيع أن يغمض عينه ويفتحها دون أن يرى أو يكاد يرى شيئاً فقد كان ضريراً إلا بصيصاً ضئيلاً جداً من النور في إحدى عينه يمثل له الأشباح دون أن يمكنه أن يتميزها وكان الرجل سعيداً بهذا البصيص الضئيل.. وكان يخدع نفسه ويظن من المبصرين.. ولكن ذلك لم يكن يمنعه من أن يعتمد في طريقه إلى الكتاب وإلى البيت على اثنين من تلاميذه، يبسط ذراعيه على كتفي كل واحد منهما ويمشي الثلاثة في الطريق هكذا قد أخذوها على المارة حتى إنهم

ليتنحون لهم عنها وكان منظر سيدنا عجباً في طريقه إلى الكتاب وإلى البيت صباحاً ومساءً كان ضخماً بادناً وكانت دفيته تزيد في ضخامته وكان كما قدمنا يبسط ذراعيه على كتفي رفيقيه وكانوا ثلاثتهم يمشون وإنهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضرباً وكان سيدنا يتخير من تلاميذه لهذه المهمة أنجبهم وأحسنهم صوتاً وذلك أنه كان يحب الغناء وكان يحب أن يعلم تلاميذه الغناء وكان يتخير الطريق لهذا الدرس فكان يغني ويأخذ رفيقيه بمصاحبته حيناً والاستماع له حيناً آخر أو يأخذ واحداً منهما بالغناء على أن يصاحبه هو والرفيق الآخر وكان سيدنا لا يغني بصوته ولسانه وحدهما وإنما يغني برأسه وبدنه أيضاً فكان رأسه يهبط ويصعد وكان رأسه يلتفت يميناً وشمالاً وكان سيدنا يغني بيديه أيضاً فكان يوقع الأنغام على صدر رفيقه بأصابعه وكان سيدنا يعجبه «الدور» أحياناً ويرى أن المشي لا يلائمه فيقف حتى يتمه وأبدع من هذا كله أن سيدنا كان يرى صوته جميلاً وما يظن صاحبنا أن الله خلق صوتاً أقبح من صوته وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ إلا ذكر سيدنا وهو يوقع أبياتاً من «البردة» في طريقه إلى الجامع منطلقاً لصلاة الظهر أو في طريقه إلى البيت منصرفاً من الكتاب يرى صاحبنا نفسه كما قدمنا جالساً على الأرض يعبث بالنعال من حوله وسيدنا يقرئه سورة الرحمن ولكنه لا يذكر أكان يقرؤها بادئاً أم معيداً.

وكأنه يرى نفسه مرة أخرى جالساً على الأرض ولا بين النعال بل عن يمين سيدنا على دكة أخرى طويلة، وسيدنا يقرئه ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وأكبر ظنه أن كان قد أتم القرآن بداء وأخذ يعيده وليس غريباً أن ينسى صاحبنا كيف حفظ القرآن فقد أتم حفظه ولم يتم التاسعة من عمره وهو يذكر في وضوح وجلاء ذلك اليوم الذي ختم فيه القرآن. وذلك أن سيدنا كان يتحدث إليه قبل هذا اليوم بأيام عن ختم القرآن أن أباه سيبتهج به وكان يضع لذلك شروطاً ويطالب بحقوقه ألم يكن قد علّم قبل صاحبنا

أربعة من إخوته ذهب واحد منهم إلى الأزهر والآخرون إلى المدارس وصاحبنا هو الخامس فكم لسيدنا على الأسرة من حوق، وحقوق سيدنا على الأسرة كانت تمثل دائماً طعاماً وشراباً وثياباً ومالاً فأما الحقوق التي كان يقتضيها إذا ختم صاحبنا القرآن فعشوة دسمة قبل كل شيء ثم جبة وقفطان وزوج من الأحذية وطربوش مغربي وطاقية من هذا القماش الذي تتخذ منه العمائم وجنيه أحمر لا يرضى بشيء دون ذلك فإذا لم يؤدى إليه هذا كله فهو لا يعرف الأسرة ولا يقبل منها شيئاً ولا صلة بينه وبينها وهو يقسم على ذلك بمحرجات الأيمان وكان هذا اليوم [أربعاء] وكان سيدنا قد أنبأ في الصباح بأن صاحبنا سيختم القرآن في هذا اليوم وأقبلوا في العصر يمشي سيدنا معتمداً على رفيقيه ويمشي صاحبنا من ورائه يقوده يتيم من أيتام القرية حتى إذا بلغوا البيت دفع سيدنا الباب دفعاً وصاح صيحته المعتادة «يا ستار» واتجه إلى المنظرة فإذا فيها الشيخ قد انفتل من صلاة العصر وهو يقرأ من الأدعية كعادته فاستقبلهم مبتسماً مطمئناً وكان صوته هادئاً وكان صوت سيدنا عالياً وكان صاحبنا لا يقول شيئاً وكان اليتيم مبتهجاً أجلس الشيخ سيدنا ورفيقيه ووضع في يد اليتيم قطعة من فضة ودعا الخادم وأمره أن يأخذ هذا اليتيم إلى حيث يصيب شيئاً من الطعام ومسح على رأس ابنه وقال «فتح الله عليك انصرف إلى أمك وقل لها أن سيدنا هنا».

وكانت أمه قد سمعت صوت سيدنا وكانت قد أعدت له ما لا بد منه في مثل هذا الوقت وهو كوز ضخم طويل من السكر المذاب لا شيء عليه أُخرِج إلى سيدنا هذا الكوز فعبه عباً وشرب رفيقاه كوبين من السكر المذاب أيضاً ثم أخرجت القهوة فشربها سيدنا مع الشيخ وكان سيدنا يلح على الشيخ في أن يمتحن الصبي فيما حفظ من القرآن وكان الشيخ يجيب «دعه يلعب إنه صغير» ثم نهض سيدنا لينصرف فقال له الشيخ «نصلي المغرب معاً إن شاء الله» وكانت هذه هي الدعوة إلى العشاء وما أحسب أن سيدنا نال شيئاً آخر أجراً على ختم

صاحبنا للقرآن فقد كان يعرف الأسرة منذ عشرين سنة وكان له فيها عادات غير مقطوعة وكانت الكلفة بينه وبينها مرفوعة وكان واثقاً أن الحظ إن يخطئه معها هذه المرة فلن يخطئه مرة أخرى.. منذ هذا اليوم أصبح صبياً شيخاً وإن لم يتجاوز التاسعة لأنه حفظ القرآن ومن حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن سنه دعاه أبوه شيخاً ودعته أمه شيخاً وتعود سيدنا أن يدعوه شيخاً أمام أبويه أو حين يرضى عنه أو حين يريد أن يترضاه لأمر من الأمور. فأما فيما عدا ذلك فقد كان يدعوه باسمه وربما دعاه «بالواد» وكان شيخنا الصبي قصيراً نحيفاً شاحباً زري الهيئة على نحو ما ليس له من وقار الشيوخ ولا من حسن طلعتهم حظ قليل أو أكثر وكان أبواه يكتفيان منه تمجيده وتكبيره بهذا اللفظ الذي أضافاه إلى اسمه كبراً منهما وعجباً لا تلطفاً به ولا تحبباً إليه، أما هو فقد أعجبه مظاهر اللفظ في أول مرة.

ولكنه كان ينتظر شيئاً آخر من مظاهر المكافأة والتشجيع كان ينتظر أن يكون شيخاً حقاً فيتخذ العمة ويلبس الجبة والقفطان وكان من العسير إقناعه بأنه أصغر من أن يدخل في القفطان وكيف السبيل إلى إقناعه بذلك وهو شيخ قد حفظ القرآن وكيف يكون الصغير شيخاً وكيف يكون من حفظ القرآن صغيراً وهو إذن مظلوم وأي ظلم أشد من أن يحال بينه وبين حقه في العمة والجبة والقفطان.

وما هي إلا أيام حتى سئم لقب الشيخ وكره أن يدعى به وأحس أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب وأن الإنسان يظلمه حتى أبواه والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع ثم لم يلبث شعوره هذا أن استحال إلى ازدراء للقب الشيخ وإحساس بما كان يملأ نفس أبيه وأمه من الغرور والعجب ثم لم يلبث أن ينسى هذا كله فيما نسي من الأشياء على أنه في حقيقة الأمر لم يكن خليقاً أن يدعى شيخاً وإنما كان خليقاً رغم حفظه للقرآن أن يذهب للكتاب كما كان يذهب مهمل الهيئة على رأسه طاقيته التي تنظف يوماً في الأسبوع وفي رجله حذاء يجدد مرة في السنة ولا يدعه حتى لا يحتمل شيئاً فإذا تركه فليمش حافياً

أسبوعاً أو أسابيع حتى يأذن الله له بحذاء جديد كان خليقاً بهذا كله لأن حفظه القرآن لم يدم طويلاً.. أكان وحده ملوماً في ذلك. أم كان اللوم مشتركاً بينه وبين سيدنا. الحق أن سيدنا أهمله حيناً وعني غيره من الذين لم يختموا القرآن أهمله ليستريح وأهمله لأنه لم يتقاضى أجراً على ختمه للقرآن واستراح صاحبنا إلى هذا الإهمال وأخذ يذهب إلى الكتاب يقضي فيه طوال النهار في راحة مطلقة ولعب متصل ينتظر أن تنتهي السنة ويأتي أخوه الأزهري من القاهرة حتى إذا انتهت الإجازة وعاد إلى القاهرة استصحبه ليصبح شيخاً حقاً وليجاور في الأزهر.

ومضى على هذا شهر وشهر وشهر يذهب صاحبنا إلى الكتاب ويعود منه في غير عمل وهو واثق بأنه قد حفظ القرآن وسيدنا مطمئن إلى أنه حفظ القرآن إلى أن كان اليوم المشئوم.. كان هذا اليوم مشئوماً حقاً ذاق فيه صاحبنا لأول مرة مرارة الخزي والذلة والضعة وكره الحياة.. عاد أبوه بلقب الشيخ، فأقبل عليه ومعه صديقان له فتلقاه أبوه مبتهجاً وأجلسه في رفق وسأله أسئلة عادية ثم طلب إليه أن يقرأ «سورة الشعراء» وما هي إلا أن وقع عليه هذا السؤال وقع الصاعقة ففكر وقدر وتحفز واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وبسمى الله الرحمن الرحيم ولكنه لم يذكر من سورة الشعراء إلا أنها إحدى سور ثلاث أولها «طسم» فأخذ يردد «طسم» مرة ومرة ومرة دون أن يستطيع الانتقال إلى ما بعدها وفتح عليه أبوه بما يلي هذه الكلمة من سورة الشعراء فلم يستطع أن يتقدم خطوة. قال أبوه فاقرأ سورة النمل فذكر أن أول سورة كأول سورة الشعراء «طسم» وأخذ يردد هذا اللفظ وفتح عليه أبوه فلم يستطع أن يتقدم خطوة أخرى.. وقال فاقرأ سورة القصص فذكر أنها الثالثة وأخذ يردد «طسم» ولم يفتح عليه أبوه هذه المرة ولكنه قال له في هدوء قم فقد كنت أحسب أنك حفظت القرآن فقام خاجلاً يتصبب عرقاً وأخذ الرجلان يعتذران عنه بالخجل وصغر السن ولكنه مضى لا يدري أيلوم نفسه لأنه نسي القرآن أم يلوم سيدنا لأنه أهمله أم يلوم أباه لأنه امتحنه.

ومهما يكن من شيء فقد أمسى هذا اليوم مساء ولم يظهر على مائدة العشاء ولم يسأل عنه أبوه في إعراض ودعته أمه إلى أن يتعشى معها فأبى فانصرفت عنه نام ولكن هذا المساء المنكر كان في جملته خيراً من الغد ذهب إلى الكتاب فإذا سيدنا يدعوه في جفوة ماذا حصل بالأمس. وكيف عجزت عن أن تقرأ سورة الشعراء. وهل نسيتها حقاً. اتلها علي فأخذ صاحبنا يردد «طسم» وكانت له مع سيدنا قصة كقصته مع أبيه قال سيدنا عوضني الله خيراً فيما أنفقت معك من وقت وما بذلت في تعليمك من جهد فقد نسيت القرآن ويجب أن تعيده ولكن الذنب ليس عليك ولا علي وإنما هو على أبيك فلو أنه أعطاني أجري يوم ختمت القرآن لبارك الله له في حفظك ولكنه منعني حقي فمحا الله القرآن من صدرك.

الباب العاشر

اليمن وغلام الله

بعدما ذهبت في هذه الدراسة جرني البحث إلى أول مؤسس لمدرسة القرآن «الخلوة» في شمال السودان الأدنى وأشارت الروايات الشفهية والمكتوبة أنه في أوائل القرن العاشر الهجري دخل أرض دنقلا وهي يومئذ قصبة البلاد رجل يماني اسمه أحمد بن عايد المشهور بغلام الله جد السادة الركابية. فيما بعد. فتتبعت أثر الرجل بعدما وقفت على ما ذكره المستر هارولد ماكمايكل في المجلة الدورية التي تصدر باللغة الانجليزية SUDAN NOTES AND RECORDS.

السودان في رسائل ومدونات وماكمايكل من الإداريين الذين كانوا يحكمون البلاد أبان الحكم الثنائي وقد اهتم الرجل بالثقافة العربية والإسلامية في السودان وله مؤلفات ذكر فيها أن غلام الله قدم من اليمن بلدة «اللحية» إلى دنقلا واستقر بها ووجدت الناس في حيرة وضلال من عدم معرفتهم بالقرآن والعلم فشرع يعلم الناس القرآن.

فمسكت هذا الخيط وذهبت إلى اليمن في سنة ١٣٩٥هـ الموافق يوليو ١٩٧٥م متطلعاً أخبار الرجل وأمضيت شهراً كاملاً بالجمهورية اليمنية زرت خلاله الأماكن المشهود لها بتدريس القرآن عليّ أجد أثراً أو أصلاً لهذا الرجل. زرت صنعاء ونواحيها وتعز وبيت الفقيه وزبيد إلخ.

وأعانني على تلك السياحة الشاعر الأديب عبد الله حمران[1] كما أفدت من

---

(١) عبد الله حمران ـ كان سفيراً لليمن في السودان ثم عينه الرئيس الحمدي مستشاراً لرئيس الجمهورية وله صلات بأهل الفكر والثقافة في السودان.

صحبة الأديب الكبير والعالم المحقق القاضي اسماعيل الأكوع[1] الذي استقبلني في المطار وذهب بي لقلب العاصمة ووضع لي برنامجاً عن أسماء وأماكن مدارس القرآن في مدينة صنعاء وغيرها وكان يصحبني دليل من مكتب القاضي إسماعيل صحبني في تلك الرحلات خارج وداخل مدينة صنعاء ودلني القاضي إسماعيل على المنطقة التي «يظن» أنها خرجت حفاظاً كثراً في ماضي السنين واسمها قريب من اسم «اللحية» التي ذكرها ماكمايكل[2].

ورغم تحفظ القاضي الأكوع، الذي قال لا علم لي ببلدة «اللحية» بل في بلادنا ـ حليلتان ـ حليلة صنعاء وحليلة بني مطر ورجح أن الشيخ غلام الله ربما درس في حليلة بني مطر باعتبارها «هاجرة» قرآنية قديمة واسم «الهاجرة» عند أهل اليمن اسم مكان دراسة القرآن.

وحليلة بني مطر من الأماكن التي اشتهرت بتدريس القرآن دهراً طويلاً ولذلك سميت بهاجرة بني مطر وهي أقرب الحليلتان في تقديري، ولكني بدأت أولاً بصنعاء المسجد الكبير. المعروف باسم مسجد «الملكة أروى» وهو مسجد عتيق ضخم وهندسته تشبه هندسة الحرم المكي بل يكاد يشبه الحرم المكي في كل شيء البناء المعقود والمسقوف على جميع جدر المسجد كما في بنيان الحرم المكي القديم ويتوسط صحن مسجد «الملكة أروى» بيت «السليط» ويشبه وضعه وضع الكعبة من حيث الموضع وشكل البناء وأحسبهم بنوه هكذا من باب التيمن والتفاؤل بشكل الكعبة المشرفة[3].

---

(١) القاضي اسماعيل الأكوع كان سفيراً بالخارجية اليمنية ثم وزيراً وهو أحد كبار العلماء باليمن وله مخطوط باسم «معاقل العلم ودور الهجر» والآن هو المسؤول الأول عن وزارة الآثار والكتب.

(٢) ماكمايكل ـ المجلد التاسع صفحة ٣٥.

(٣) وفي صنعاء بنى أبرهة الحبشي بيتاً يحاكي به الكعبة المشرفة وهو الآن مكان يقصده الزوار والسياح.

الملكة أروى

هي أروى بنت أحمد بن يعفر بن موسى الصليحي والصليحيون من الأسر التي حكمت اليمن عام ٤٣٩هـ.

وكفلها بعد أن توفي أبوها الملك الصليحي وربتها زوجة الصليحي أسماء بنت شهاب ثم زوجها الصليحي بابنه المكرم ويقال أنه جعل صداقها خراج ولاية «عدن» وحكم زوجها صنعاء ثم مرض بالفالج وانتقل إلى مدينة جبل «لواء إب» وعهد إليها تدبير الملك فبانت جدارتها ورجاحة عقلها حتى لقبوها ببلقيس الصغرى.

وبعد وفاة زوجها المكرم ٤٨٤هـ قبضت على أزمّة الأمور بيد من حديد قرابة الخمسين سنة من ٤٨٤ هـ ـ ٥٣٣ هـ وضربت مثلاً رائعاً في الحزم والثبات والحكمة والعدل وكانت على جانب كبير من الأدب والمعرفة والدهاء ولها أعمال جليلة كبناء «المسجد الجامع» بصنعاء خاصة منارة الجناح الشرقي كما بنت مساجد أخرى ودور العلم ورتبت للعلماء ومدرسي القرآن الرواتب.

هذا وتوفيت الملكة أروى رحمها الله بمدينة «جبلة» عام ٥٣٣هـ ودفنت بجامعها الشهير وأكمل من بعدها الحكام المتعاقبون تزيين المسجد الكبير وسقف جنباته التي أشرنا إليها وجعلوها سقفان « دورين ».

كما بنت أروى بنت أحمد المكتبة الأثرية الشهيرة التي تفخر بها الجمهورية العربية اليمنية والعالم العربي كله وهي من أندر مكتبات العالم وقد جمعت النفائس السبئية والحميرية والمعينية وأخيراً الإسلامية إلخ.

بدأت بحثي متيمناً بهذا المسجد العتيق. ووجدت بضع حلقات تدريس القرآن الكريم وهي ليست بالكثرة التي تواكب حجم هذا المسجد العظيم وقد أفادني المشايخ الذين يقومون بتدريس القرآن بأماكن المدارس القرآنية التي تعرف في بلاد اليمن بالمِعْلاَمة.

تجوالي في صنعاء

تجولت في أرجاء مدينة صنعاء صحبت مرافقي الأستاذ «علي» من مكتب الآثار على مسجد «النهرين» وبدأنا بمدرسة مسجد النهرين وهي معلامة كبيرة يقوم على التدريس فيها ثلاثة من المشايخ هم:

سيدنا أحمد الثور.

سيدنا يحيى العلوفي.

سيدنا عبد الله.

وزرت بعدها معلامة ـ قبة المهدي ـ ويرعاها ثلاثة من المعلمين أيضاً هم:

سيبدنا عبد الله التهامي.

سيدنا محمد دلال.

سيدنا أحمد الخولانى.

والتعليم في معلامة «قبة المهدي» يجمع بين البنين والبنات وأجمع هؤلاء المشايخ وغيرهم أن المدرسة القرآنية تسمى «المِعلامة» ويسمون اللوح «الرَّنقاش» ويقرأون القرآن على رواية نافع.

ونظام الدراسة التقليدي كما هو في جميع مدارس القرآن في البلدان الأخرى إذ تبدأ الدراسة منذ بزوغ الفجر وتستمر إلى ما بعد العشاء والدراسة في بلاد اليمن مثل غيرها تركز على حفظ القرآن في المقام الأول باعتباره المادة الأساسية وحفظه غاية يجزئون اليوم ليله ونهاره للقراءة والحفظ.

وقبول الطلبة الجدد يوم الأربعاء وعندهم من ضحوة الخميس إلى نهاية الجمعة عطلة أسبوعية وفي يوم الخميس يدفع الطلبة الهدية المعروفة بـ«الخميسية» مما يتيسر «لمعلمهم» الذي يطلقون عليه اسم «سيدنا» مثل كثير من البلاد الإسلامية.

والمعلامة التقليدية لا يعرف مشائخها الرواتب ولكن الأجر يأتيهم مضاعفاً من المواطنين. كل على قدر طاقته.

ولهم جعل من الزكاة عيناً ونقداً ومن الثمار والبقول وكل المحاصيل ولسيدنا مكانة رفيعة في المجتمع هو جدير بها.

العقاب

تطبق المعلامة العقاب المعروف «الفلقة» وقد شرحتها حينما تحدثت عن العقاب في خلاوي السودان ومن وسائل العقاب ضرب «القيد» على بعض الطلبة برضاء أولياء أمرهم وقد رأيت أحد الطلبة يرسف في القيد ويدعى ذلك الطالب «القُمَّلي» وذلك في معلامة «طلحة» بمدينة صنعاء وعلى جدار المعلامة سلاسل أخرى معلقة تنذر بالشر كل طالب عابث وبعد مدرسة طلحة ذهبت لمعلامة «الفليحي» الأهلية ولقيت المعلم سيدنا محمد مساعد ولفت نظري شعار مثبت عند مدخل معلامته.

«إخواني لا تحرجوني ممنوع الدخول مع عدم المنحل المخلص لله ثم الوطن» محمد مساعد.

هذا وبعد تجوالي في مدينة صنعاء خرجت ومرافقي إلى حليلة بني مطر حوالي ٦٠ كيلومتراً غربي صنعاء مرجحاً رأي القاضي الأكوع بأن حليلة بني مطر هي المعنية وهي هاجرة قرآنية ووصلناها بعد مشقة لأنها تقع بعيداً عن الطريق المرصوف والمعبد وبعد أن خرجنا من الطريق لم تستطع السيارة أن تمشي بضعة أمتار فتركناها وذهبنا راجلين ودخلناها تحت رذاذ من الغيث الخفيف.

وأمضينا بها وقتاً مناسباً وبالفعل تأكد عندي أن الحليلة كانت «هاجرة» ومقر لدراسة القرآن ولكني جئت وقد انفض سامر مدارس القرآن فيها وأضحت قرية عادية إذ تفرق أكثر أبنائها في أنحاء البلاد ولم أجد من أبنائها من اهتم بتاريخ

مدارسها.

ووجدت بعض الشيوخ وليس في يدهم مخطوط ولا وثيقة أعول عليها ولم أجد عندهم روايات شفهية.

وكل من سألته لا يعرف شيئاً عن «غلام الله» وحتى العلماء الدارسون كالقاضي إسماعيل الأكوع استبعد اسم غلام الله فهو ليس من الأسماء التي يطلقها أهل اليمن. وذكرت له اسم الرجل أحمد بن عايد. فصوب اسم عايد قال لعل أصله عايذ[1] والشاهد أن غلام الله اسم أطلقه الدناقلة على الشيخ أحمد بن عائد والدناقلة يقولون لـ ـعبد الله ـ نقد الله وتقاس كلمة غلام الله على هذا الغرار والله أعلم. وجاء في كتاب أعلام التربية في السودان.

أما فيما يتعلق بكنية غلام الله فيشير المخطوط إلى أنه عندما كان طفلاً صغيراً اشتعلت النار في المنزل وهو بداخله فهرعت أمه لإنقاذه وسط اللهيب ولكن زوجها أمسكها ومنعها من اقتحام النار المشتعل. وقال لها إذا كان الطفل ابني فعلاً فلن تمسه النار.

ويقال أنه عندما أخمدت النار اندفعوا لمعرفة مصير طفلهم وجدوه سليماً بل كان يلهو ويلعب. ولم يمسه أذى ما خلا أثر الدخان على ثيابه ومن ثم أطلق عليه «الغلام المحمر» وأخيراً اشتهرت بغلام الله ويقول صاحب أعلام التربية في السودان[2] ولقد تعددت الروايات حول نسب غلام الله فهناك من يرى أنه قدم من قرية [اللحية] وهي من قرى جزيرة ـ تواوة ـ التابعة لبلاد اليمن وسكن بجزيرة من جزر البحر المالح [البحر الأحمر] اسمها «ساكية» ومنها اتجه إلى دنقلا حيث أقام. فلما قدم غلام الله عمر المساجد وبدأ يعلم الناس القرآن فعلم أبناءه وأبناء المسلمين.

---

(١) هل هو ـ عائد ـ عايذ؟!! وفي بلاد اليمن يحولون الذال ضاداً فيصير عائض.

(٢) أعلام التربية في السودان ـ الدكتور سر الختم عثمان أحمد ـ الأمانة العامة للشئون الدينية والأوقاف.

شيخ القراء

وبعد زيارتي لحليلة بني مطر أقمت يوماً ثم ذهبت لمسجد الروضة حيث يقيم شيخ القراءات في اليمن سيدي «يحيى محمد الكبسي» وهو من أسرة معروفة بالعلم ولهم صلة واشجة بالنسب الشريف.

وتقع مدينة الروضة شمال مدينة صنعاء حوالي ثلاثين كيلومتراً.

وخرجت وصاحبي مساء الخميس الثامن من جمادى الآخرة ١٣٩٦هـ صوب مدينة الروضة مقر آل الكبسي ولقينا العلامة سيدي يحيى الكبسي. وبعد أن قدمني مرافقي للشيخ يحيى هش الرجل وانفرجت أساريره.

ثم أجلسنا في صالون مكتبته بالقرب من صحن مسجد الروضة وأثنى على رحلتي وحثني على الصبر وأوصاني بالحرص على مواصلة هذا البحث ثم طلبت منه أن يحدثني على المسجل الذي أحمله والمسجل يوفر الزمن ويدع المتحدث يسترسل في الكلام من غير أن أقاطعه ولما سمع الرجل اسم المسجل وشريط الكاسيت نفر نفوراً شديداً واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم.

وقال مثلي لا يتحدث في هذه الآلة الشيطانية التي تحور الأحاديث وبعد مراجعة وافق على شرط أن يسجل آيات من القرآن ثم يبقي المسجل والشريط عنده إلى يوم آخر ثم أحضر أنا ومرافقي ونفتح المسجل وكما عبر مولانا الشيخ يحيى الكبسي فإن رد القرآن كما تلوته فبها ونعمت وإن حورت آلة المسجل أعفي نفسي من الحديث.

ولما عدنا يوم السبت أمر غلامه بإحضار المسجل وطلب مني أن أسمعه قراءته التي سجلها بالأمس وسيدنا يحيى «كفيف» لذلك يسمع بجميع حواسه، وطلب إعادة الشريط مرة ثانية ولما لم يخط المسجل ولم يحور انفرج فمه عن ابتسامة رضا عريضة وحمد الله وأثنى عليه وحوقل وسبح وقال أنا قليل الاطمئنان ومع أن آلة

لا تحور فإني أتحدث حديثاً قصيراً وأنقل حديث سيدنا يحيى الكبسى كما هو.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد «أنا يحيى بن محمد الكبسي والكبسي بلدة في [خولان] وميلادي في [الطويلة] [قرية] في الثاني عشر من جمادى الآخر سنة اثني عشر بعد الثلاثمائة والألف درست القرآن في بلدة عمران ـ على سيدنا محمد الحليلي وأنا ابن سبع سنين وحفظته في ثلاثة سنين وكنا نقرأ على رواية الدوري والآن نقرأ برواية نافع».

وذكر الشيخ القارىء يحيى الكبسي أن القرآن أنزل على سبعة أحرف وقال هي وجوه القراءات بأيهما قرأت سلمت وكتب لك الأجر والثواب ثم سألته عن القاف اليمانية وهم ينطقونها كما ننطقها نحن في السودان وكما ينطقها أهل صعيد مصر.

فقال لها القاف وجه في اللغة وإمالة الغين نحو القاف أيضاً لها وجه والصواب أن تحسن النية والله أعلم بمن اتقى.

المعلامة في اليمن

وخرجت من العاصمة صنعاء إلى مدينة تعز صحبة الأخ علي بن أحمد سائق العربة ومكثنا في مدينة «ذمار» ثم منها إلى لواء ـ إب حيث زرنا مسجد الملكة أروى بنت أحمد في مدينة «جبلة» وزرنا بعض مدارس القرآن هناك.

ومنها انطلقنا إلى مدينة تعز ودخلناها ليلاً وفي الصباح طفنا على معالم المدينة وقصور الإمام يحيى والمتاحف ثم ذهبت ومرافقي لزيارة مدارس القرآن.

والاختلاف يسير جداً في جهات صنعاء وأحوازها وفي تعز وأنحائها وبعد أن أقمت ثلاثة أيام خرجت لبلاد تهامة اليمن حيث زرت بعض القرى والمدن الصغيرة وأقمت بضع أيام بين الحديدة والمخا.

وخرجت منها شمالاً إلى زبيد وبيت الفقية وهما مدينتسان تاريخيتسان عامرتسان بأهل العلم بالأخص مدينة زبيد.

القرآن في زبيد

بلغت الدعوة الإسلامية بلاد اليمن في نهاية السنة السابعة وأول السنة الثامنة من الهجرة.

وكان أول من قدم على رسول الله ﷺ من أهل اليمن الأشعريون أهل زبيد والسبب في وفادة الأشاعرة إلى رسول الله ﷺ أن «منقذ بن حيان» قدم المدينة تاجراً فمر به النبي ﷺ يوماً فنهض إليه منقذ وسمع كلامه فسأله النبي ﷺ عن أشراف قومه رجلاً رجلاً بأسمائهم فأسلم منقذ، وتعلم الفاتحة وسورة إقرأ وكتب معه النبي ﷺ كتاباً لقومه فلما قدم منقذ على قومه كتمهم الكتاب فطفق يصلي ويقرأ فقالت زوجته وهي بنت الأشج. إني أنكرت بعلي منذ قدم من يثرب. إنه يغسل أطرافه ويستقبل الجهة فيحني ظهره مرة ويضع جبينه مرة ديدنه منذ قدم.

فتلاقيا الأشج ومنقذ، فأخبره الخبر فأسلم ثم سار على قومه بكتاب رسول الله «ﷺ» فأسلم من أسلم ثم تجهزوا وافدين وذلك قبل الفتح ولما دنوا من المدينة وفيهم عبد القيس «أبو» أبو موسى الأشعري وبرفقته أربعة عشر راكباً منهم الأشج العصري رئيس الوفد آنذاك. قال النبي ﷺ «أتاكم وفد عبد القيس خير أهل المشرق وفيهم الأشج العصري» وقال رسول الله ﷺ عندما دخل «الوفيد» عليه قال: «مرحباً بالقوم الغير الخزايا ولا الندامى» وقال النبي ﷺ قبل قدوم الأشعريين «يقدم قوم هم أرق منكم قلوباً».

ثم قال رسول الله لوفد زبيد من أين جئتم قالوا: من زبيد قال: بارك الله في زبيد «ورمع» في الثالثة وهذا الدعاء كما يظهر جاء بعد ترحيبه بالقوم لما لمس من حسن إسلامهم ودعى لهم بالخير والبركة لما وجد فيهم من كرم أخلاق

وحسن عشرة وتعاون وإخاء بقوله عليه الصلاة والسلام «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في إناء واحد ثم اقتسموا فيما بينهم بالسوية فهم مني وأنا منهم» رواه الشيخان.

تلاوة القرآن

والأشعريون لإيمانهم الصادق وهبهم الله حلاوة الإخلاص والصدق وطهارة القلب فمن ذلك ما قاله صاحب الرسالة «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حيث يدخلون بالليل.. وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن في الليل وإن كنت لم أر منازلهم حيث نزلوا بالنهار».

وروي عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قوله في أبي موسى الأشعري حين سمع صوته وهو يقرأ القرآن ـ قال ـ «لقد أعطي هذا مزماراً من مزامير آل داود» قال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته تحبيراً «أي لحسنته تحسيناً».

وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن أبي موسى الأشعري فقال «صنع في العلم صنعة» أي خلق للعلم وهذا يدل على أن أبا موسى كان علماً بالقراءة.

ثم قدم أبو موسى الأشعري أيضاً الأشاعر إلى وادي زبيد فنشر الدعوة الإسلامية ووضع أساس المدرسة القرآنية.. وكان المكان غيظة أي «هيجة» وكانت مدينة زبيد قبل تخطيطها ـ عقدة ـ طرفاء وأراك ـ وحولها قصور وقرى وإن رعاء الأشاعرة يرعون هناك ويسقون دوابهم من هذه البئر الموجودة غرب المسجد فكان عندها أحواض ماء كثيرة وإلى جانبها مسجد منصب بحجارة أحدثه الرعاء هنالك وكانوا إذا سقوا دوابهم توضأوا وصلوا في ذلك المصلى.

الفقهاء

أبرزهم أبو الفتح بن أبي عقامة الثعلبي فكان عالماً ومجوداً ومؤلفاً والحسن

أبي عقامة خطيب الجمعة بزبيد وإليه تنسب الخطب «العقامية» التي كان يرتجلها.

من أشهر من اهتموا بالقراءات المنصور عمر بن علي بن رسول مؤسس الدولة الرسولية.

وفي عهد الأفضل العباسي بن الملك المجاهد الرسولي قدم العالم الشهير الفيروزابادي مؤلف «القاموس المحيط في العربية» واستوطن زبيد وتولى القضاء بها وتوفي بها ولا يزال يعرف قبره بقبر «صاحب القاموس».

ومن علمائها أبو الحسن عبد الله بن المبارك الزبيدي مؤلف «تجريد صحيح البخاري».

وعالم زبيد الكبير محمد بن عبد الله الريمي مؤلف كتاب «التفقية في شرح التفقية» في أربعة مجلدات قدمه للملك المجاهد. فأجازه بأربعة شخوص ذهبية مكتوب على كل شخص.

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها   على الناس طراً قبل أن تتفلت
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت   ولا البخل يقيها إذا هي ولت

وعلى الشيخ الريمي تلقى شيخ الإسلام إسماعيل بن أبي بكر المقري الشاري الذي يعتبر معجزة هذا العصر بعلمه ومؤلفاته الشهيرة منها كتاب الإرشاد في الفقه وكتاب «عنوان الشرف الوافي في علم الفقه والتاريخ والنحو والعروض والقوافي» فإذا قرأناه على النمط المألوف يشمل الفقه ووضع فيه أربعة أنهر كل نهر استخرج من أول حروفه فناً فالنهر الأول عروض والنهر الثاني تاريخ دولة بني رسول والنهر الثالث نحو والنهر الرابع قوافي.

ومن أدبه الرفيع قصيدته المشهورة التي تحتوي على عشرين بيتاً. شرحها الخزرجي بعنوان «مخلعة المقري» قال أنها تحتوي على ستة صور وتقرأ بالتقديم

والتأخير والوسط وكل صورة تحتوي على عشرات الآلاف من الصور ومطلعها:

ملك سما ذو الكمال زانه	الورى من كريم الطبع والشيم
بي الغنا ورده تصفو مشاربه	العلا في يديه وابل الديم
له نما طال من في فرعه شمم	ترى فاق كل العرب والعجم
حلو الجنا قد توالت مواهبه	علا وهو في العليا كالعلم
يروي الظمأ بأياد كلها نعم	سامي الذرى عنده الأملاك كالخدم

والمقري بلا شك معجزة العصر الذهبي الذي أنجب فطاحل العلماء كما وفد إليها كبار العلماء من العالم العربي والإسلامي ومنهم الرحالة ابن بطوطة الذي زارها في منتصف القرن الثامن في عهد الملك المجاهد الرسول وتحدث عنها بكل فخر واعتزاز.

المساجد والمدارس القرآنية

وفي عهد الملك الأشرف الثاني إسماعيل الرسول بلغت المدارس والمساجد بزبيد ستة وثلاثين وثلاثمائة ومجموع الفتيات العالمات أربعة آلاف فتاة والدارسات لكتاب «الإرشاد» للمقري بلغن خمسة آلاف فتاة ، منهن فتيات حمزة الناشري ومن أبرزهن أسماء بنت موسى الضجاعي.

زبيد والعالم الخارجي

بلغت شهرة زبيد أرجاء العالم الإسلامي وصارت منافسة لكبريات المدن العلمية الإسلامية وجذبت شهرتها أكبر العلماء المؤلفين وقد وصلها علماء الأزهر، وطلب علماء الأزهر تبادل مؤلفات علماء زبيد وقال سفراء الأزهر لقد عرفنا المكانة العلمية التي بلغتها زبيد. غير أنا لم نقرأ مؤلفات رغم الشهرة العلمية الكبيرة على أثر ذلك بعث شيخ الإسلام إسماعيل المقري مؤلفه «الإرشاد» فتناوله

الأزهر بقلب مفتوح وعكف على دراسة مادته الغزيرة ومحتواه العلمي، فأعجب بها علماء الأزهر وكتبوا في أول صفحاته عبارة تمثل قوة الكتاب وعدم تذليل الصعاب لا لمؤلفه بقوله «مشى جملك» إذ أنهم شبهوه بالجمل الهائج الذي لا ينقاد إلا لصاحبه.

تسلم الكتاب المقري وعكف على شرحه فأسماه «تمشية الجمل» وبعث به إلى الأزهر ومن ثم أصبح مادة يدرسها الأزهر بعد تحليل عباراته كما قام بشرحها ابن حجر العسقلاني. وأسماه «الإسعاد» ثم لخصه وأسماه «فتح الجواد على شرح الإرشاد».

السودان وزبيد

أشرت من قبل أن شهرة زبيد بلغت العالم العربي والإسلامي والأفريقي وقد بلغت سمعة زبيد الأماكن العامرة ببلادنا ولاسيما المناطق التي تهتم بدراسة القرآن والفقه وقد زارها للدراسة نفر من سواكن وبربر والدامر وعلمت من العم حسن ملين اليماني[1] أنه سمع من الشيخ محمد الجلال عمدة الدامر[2] أن والده الجلال والشيخ ود الشيخ الطاهر والشيخ حسيب والد آل علي حسيب مجذوب ومنصور كما درس فيها الشيخ عبد الباقي جد قبيلة البطاحين.

زبيد اليوم

زرت زبيد باعتبارها من الأماكن التي توهج فيها ضوء نار القرآن قبل المدن اليمانية الأخرى، كما أفادني أهل المعرفة من أبناء اليمن ووجدت آثار القرآن في مسجد الأشعريين وغيره من المساجد الكبيرة وما زالت «المعلامة» مدرسة القرآن

---

(١) حسن مليم يماني يقيم في الدامر ومن قبل كان بأتبرا وله في السودان سبعون سنة متوالية.

(٢) الشيخ محمد الجلال عمدة الدامر ورئيس المحكمة ومن الحفظة الفقهاء رحمه الله.

تودي رسالتها وطفت على بعضها وعلق بذهني معلامة سيدنا النهاري المقامة وسط سوق زبيد وهي سوق أثرية مظللة كالأسواق التقليدية في جدة ودمشق والقاهرة وتونس وفاس وفي السودان كانت مثلها ـ سوقاً ـ سواكن وبربر ومعلم القرآن الذي لقيته كان بجانب تدريسه للطلبة له تجارة فهو يبيع ـ التمباك ـ وهو صفق عريض يضرب لونه للحمرة المشربة باللون البني ويشبه تماماً لون التبغ المعروف. الذي نشاهده في كثير من البلدان.

بيت الفقيه

ومدينة بيت الفقيه عامرة «بالمعلامة» والمشائخ المتبحرين في تدريس القرآن وهي مدينة عظيمة ولها سمعة حسنة وتقرن دائماً بمدينة زبيد واكتفيت بزبيد وحسبي أني قدمت نموذجاً للمعلامة ـ من منطقتين ـ صنعاء وأطرافها وزبيد وفي تقديري أنهما تعطيان المثل لوضع مدرسة القرآن المعلامة في هذا القطر العامر وأحسبهما مثلاً لبقية المدن التي تضطلع بتدريس القرآن.

الحليلة في مخطوط

جاء في كتاب «معاقل العلم ودور الهجر»[1] كانت الحليلة هجرة وتقع في «مخلاف» البرورية من ناحية بني مطر. ذكرها ابن أبي الرجال في ترجمة المفضل بن منصور قال أن الحليلة ووقش وكانت الهجرتان مشحونتين بالعلماء الأفاضل.

وينسب إليها الفقهاء بنو الحليلي ومن فضلائهم الحاج محمد بن يحيى حميد الدين ومنهم سيدنا محمد الحليلي والحاج محسن بن لطف الحليلي مولده ١٢٧١هـ كان فقيهاً فاضلاً وقد أجازه عدد من العلماء ومنهم السيد العلامة

---

(١) معاقل العلم ودور الهجر» تأليف القاضي إسماعيل الأكوع وقد أطلعني على المخطوط بداره في صنعاء.

داود بن عبد الرحمن حجر القديمي والسيد العلامة محمد بن عبد الرحمن الشرفي الزبيدي توفي بصنعاء ١٣٤٧هـ.

والفقيه الفاضل الكامل أحمد بن سليمان صاحب الحليلة كان عالماً فاضلاً وكان معاصراً للإمام أحمد بن الحسين وسكن بها عمرو بن منصور بن جبر العنسي العباصري أحد العلماء المشهورين انتهى حديث القاضي الأكوع».

المسجد الأول

مسجد [الزلام] كان للرجال ثم خصص للنساء وهو مسجد قديم به أربع طاقات تضاء فيها السرج أيضاً به حجران مربعان عليهما نقوش «حميرية» ويروى أن المسجد بني على عهد الصحابة.

جامع الحليلة

يقدر تاريخ بنائه للإمام الهادي حوالي ٨٢٠هـ وهو مسجد مستطيل الشكل به محراب مزين بالنقوش وليس له منبر وحول المحراب نقشت آيات من القرآن الكريم آية الكرسي وبعض آيات أخرى وكلها من غير نقط.

ويقوم المسجد على اثني عشر عاموداً من الحجر المعروف بـ«حبش» وأربعة أبواب وعدة طاقات وهي طاقات «غير نافذة» وسقفه من شجر الطنب وطريقة السقف تشبه السقف البلدي في السودان.

وفي الركن الجنوبي الغربي ضريح منصور بن نصر العباصري وملحقة به غرفة للضيوف وأخرى تسمى المغسل بها لوح عريض يشبه «النقالة» يغسلون عليه الجنائز.

وفي ساحة المسجد نبع حارٍ ويسمى عندهم «الغيل» وماؤه عذب صافٍ يتدفق من أعالي جبل الحليلة وفي وسط قرية الحليلة غسيل تستقي منه البلدة كلها..

الثالثة «غِنَى» أبوي الشيخ حسن ود حسونة.

وكان الرجال الثلاثة من ألمع مشايخ السلف الصالح وقد سبقوا الشيخ العبيد بحوالي قرنين من الزمان وعرف الشيخ فرح بسماحة الأخلاق وطراوة اللسان وصياغة الحكمة التي يستسيغها العامة والخاصة وكثير من أقوال الشيخ فرح تنسب للشيخ العبيد كما تنسب أقوال الشيخ العبيد للشيخ فرح للتقارب الشديد بينهما في النهج والأسلوب.

أما الشيخ إدريس ود الأرباب فقد بز أهل عصره في السخاء والكرم وهو أمر معروف عند كل الناس أما الغنى «الثراء» فقد وقع على الشيخ حسن ود حسونة وقد استجاب الله بفضله ومنه وحقق له دعوتين أما الثراء فلم يتحقق للشيخ فكل درهم يقع في يده كان ينفقه في التو والحين فلم يدخر مالاً ليحسب نفسه من الأغنياء «ويحسبه الناس».

طائفة من أقواله وحكمه:

كان أحد الحكام الأتراك يميل نحو التدين وكان يزور الشيخ العبيد الفينة بعد الأخرى وبعد ظهور المهدي أرسل الحاكم التركي رسولاً يسأل الشيخ العبيد عن رأيه في المهدي فرد الشيخ بطريقته المعروفة:

كان مهدي جيدْ لِينا

واكان ما مهدي شِينْ لِينا

سمع الشيخ العبيد أن رجلاً متحمساً قاوم الجيش التركي فتصدت له قوة جيش الحكومة وقتلته وأنصاره فلما سمع الشيخ العبيد الخبر تأسف وترحم على الرجل وقال قولته المشهورة:

أخونا فلان أذّن قبل دخول الوقت

وفي رواية ـ صلى قبل دخول الوقت

ومن أقواله:ـ

نعمة الأمير إن زار الفقير

وبئس الفقير إن زار الأمير

***

القادر ما تقادرو

الاضِينَة ما تعاذروا

وما تشهد على الماك حاضروا

***

العنده حَبَّهْ من الرئاسة

ما تكمل معاه الفراسة

***

الماعنده ضهر

وما بحمل السهر

ووشو مافيه قهر

هو اليَجِزْ ومرتو التّهِزْ

***

توضا صحيح

صل صحيح

وإن سألوك قول قولاً نصيح

خلاصة القول لم أجد أثراً مباشراً لغلام الله وظني أنه درس القرآن ههنا في حليلة بني مطر ومنها خرج إلى «زيلع» فجزر البحر الأحمر الأخرى حتى دخل السودان والله أعلم.

الأمر في النهاية مع الاتجاه والموضوع والشيخ الذي يلائم استعداده وميوله كل هذه المزايا جعلت المسجد يخرج القادة والعباقرة.

حلقات تحفيظ القرآن:

تعود فكرة إنشاء هذه الحلقات في العصر الحديث إلى أحد تجار باكستان هو فضيلة الشيخ محمد يوسف سيتي فقد أنشأ في باكستان مئات المدارس التي يرتادها الطلاب بعد الفراغ من دراستهم الرسمية وقد عرض الفكرة على العلماء فلقيت ترحيباً تاماً. وتشكلت في مكة جماعة تشرف على تنفيذ هذا المشروع وعرفت باسم «جماعة تحفيظ القرآن» وعين الشيخ محمد يوسف سيتي رئيساً. أما الأعضاء فهم:

الشيخ علوي عباس مالكي	نائب رئيس
الشيخ عبد الله بن عقلا	عضواً
الدكتور غلام مصطفى	عضواً
الشيخ محمد صالح قزاز	عضواً
الشيخ عبد الله الساسي	عضواً
الشيخ محمد عبد الهادي عقيل	عضواً
الشيخ صالح باخطمه	

أما الأموال اللازمة لهذا المشروع الخيري فقد جاءت من عدة مصادر نذكر منها.

تبرع صاحب الفكرة بتسديد ثلث رواتب المدرسين وفي عام ١٣٨٧ توقف عن المساعدة لظروف مالية قاهرة فتعهد صاحب المعالي حسن الشربتلي بدفع راتب شهري قدره ٥٤٠٠ ريال.

الكتاتيب:

ظهر الكتاب كمؤسسة تعليمية منذ أوائل العهد الإسلامي والكتاب هو المؤسسة التعليمية التي وجدت في المجتمع الإسلامي لتقوم بتربية صغار المتعلمين سمي الكتاب بهذا الاسم نظراً لأن الطفل كان يتعلم فيه الكتابة والقراءة ثم عم هذا الاسم بحيث أصبح يشمل كل مؤسسة تعليمية تعنى بتربية الصغار حتى ولو لم تكن القراءة والكتابة مادتها الدراسية الوحيدة فقد أطلق هذا الاسم على مؤسسات تعليمية كان همها الأول تعليم الطفل وتحفيظه القرآن الكريم.

تعليم القرآن

ينسب إلى GOIDZINET مقالاً مهماً في دائرة «معارف الأديان والأخلاق» عن التعليم الأولي عند المسلمين وقد حاول فيه أن يثبت أن كتاب تعليم القرآن ومبادىء الدين الإسلامي قد أنشىء في عهد مبكر وأنه يرجع إلى صدر الإسلام وقد دعم رأيه بالأسانيد الآتية:

أرسلت أم سلمة إحدى زوجات الرسول ﷺ مرة إلى معلم كُتّاب. تطلب منه أن يرسل لها بعض تلاميذ كتابه ليساعدوها في ندف الصوف وغزله.

٢ـ كان اللوح المخصص للكتابة موجوداً في وقت مبكر جداً فلقد روى عن أم الدرداء أنها كتبت على لوح من هذا النوع عبارات في الحكمة ليقلدها تلميذ كانت تعلمه الكتابة والقراءة صفحة ٤٩ و٥٣ و١٩.

وذكر ياقوت في معجم الأدباء عن كُتّاب أبو القاسم البلخي من أنه يتعلم به ٣٠٠٠ تلميذ ومثل هذا العدد الضخم يوحي بأن هذا النوع من الكتاتيب كان في نهاية القرن الأول ومطلع الثاني.

أما عن المكان الذي كان يوجد به الكتاب من هذا النوع فقد وردت توصيات

كثيرة بأن لا يكون في المسجد، ومن ذلك ما قاله الإمام مالك حينما سئل عن ذلك لا أدري ذلك يجوز لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة.

وقد ورد في كتاب الحسبة ما يؤيد ذلك فقد نصت على أنه لا يجوز تعليم الأطفال في المسجد لأن النبي ﷺ أمر بتنزيه المسجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسة بل يتخذ لتعليمهم «حوانيت» في الدروب وأطراف الأسواق.

وهناك من يرى أن الكتاب كان معروفاً عند العرب. وخاصة في مكة. بدليل وجود سبعة عشر رجلاً من قريش كانوا يعرفون القراءة والكتابة عند مجيء الإسلام.

والواقع أن هذا الاستنتاج غير قطعي فالقريشيون كانوا على اتصال بالأمم المجاورة لاشتغالهم بالتجارة فهناك احتمال كبير بأنهم أخذوا القراءة والكتابة عمن اتصلوا بهم على أن الأمر الذي لا جدال فيه أن عدد الكتاتيب قد ازداد بمجيء الإسلام نتيجة للعوامل الآتية:ـ

١/ أن الدين الإسلامي يحث على القراءة والكتابة فأول كلمة نزل بها الوحي على محمد ﷺ هي كلمة «اقرأ» كما أن الرسول كان بحاجة لكتاب يكتبون ما ينزل عليه حفظاً له من الضياع أو التبديل.

٢/ اتساع الدولة الإسلامية فهذا العامل أدى إلى نشر الدواوين لتنظيم إدارة الدولة على أسس سليمة فكان لا بد لكل من أراد الانخراط في الخدمة بها أن يكون ذا إلمام بمبادىء القراءة والكتابة.

وقد ظهرت في المجتمع الإسلامي أنواع متعددة من الكتاتيب. فهناك كتاتيب تعنى بتعليم مبادىء القراءة والكتابة كما كانت هناك كتاتيب لا تعلم إلا الخط وأخرى معنية بتعليم القرآن الكريم. يقول ابن بطوطة «ومعلم الخط غير معلم

القرآن يعلمهم بكتب الأشعار وسواها. ولا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً له فيصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب لأن معلم الخط لا يعلم غيره.

ويؤكد ابن خلدون هذا إذ يقول عند وصفه لحالة التعليم في بلاد المشرق الإسلامي.. ولا يخلطون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان. وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة. وقد اختلف في الوقت الذي ظهرت فيه الكتاتيب المتخصصة في تعليم القرآن الكريم. فيرى «جولدزيهر» مثلاً أنها ظهرت في وقت مبكر من تاريخ الإسلام حينما يرى الدكتور أحمد شلبي أن مثل هذا النوع من الكتاب لم يظهر إلا في نهاية القرن الأول أو القرن الثاني للهجرة. فأقدم أنواع الكتاتيب هي تلك التي كانت تعلم مبادىء القراءة والكتابة ويدلل على صحة رأيه هذا بالحجج التالية:

١/ قلة حفظ القرآن. ويستشهد بهذا الصدد بقول ابن العربي من أن غالبية الأئمة لا يحفظون القرآن الكريم. والواقع أن هذا السبب غير مقبول إذ لا يشترط فيمن أراد تعليم القرآن أن يكون من حفظته ولا يوجد في تاريخ التربية الإسلامية شاهد يؤكد ذلك الرأي. فالصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعلمون غيرهم ما يحفظونه من القرآن الكريم[١].

٢/ لقد كانت هناك مهام وأعمال ضخمة تنتظر حفظة القرآن لذا لا يعقل أن ينصرفوا عنها إلى تعليم الأطفال. ونرد على هذا بقولنا أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. وما الآيات والأحاديث والأقوال المأثورة التي وردت في بداية هذا الفصل إلا دليل على مدى حرص الإسلام على العلم ونشره.

---

(١) التعليم في مكة والمدينة ـ الدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ ـ دار العلوم الرياض صفحة ١٢ ـ ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

بل إن الفتوحات الإسلامية وخروج المسلمين لنشر الإسلام كانت تحتم قيام مؤسسات تعليمية تعلم أبناء المسلمين دينهم الحنيف كي يقوموا بنشره في الخارج.

٣/ يستشهد بأقوال ابن بطوطة وابن خلدون التي وردت قبل قليل «أحمد شلبي» وإذا تفحصنا تلك الأقوال وجدنا أنها تنص على انفصال كتاب الخط عن كتاب القرآن الكريم ولا يوجد ما يشير إلى أنها جاءت متأخرة بل إن ابن بطوطة يذكر أ÷ن الصبي ينقل بعد الانتهاء من الدراسة في كتاب القرآن إلى كتاب الخط.

وهذا نابع من حرص المسلمين على تعليم أبنائهم القرآن الكريم في وقت مبكر.

من هنا نرى أن حاجة المجتمع الإسلامي كانت تدعو منذ البداية إلى قيام الكتاتيب التي تعلم القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة.

لقد وجد الكتاب جنباً إلى جنب جوار المسجد يسهم في نشر نور العلم والمعرفة وكان الكتاب يتخذ من المسجد مقراً له في بعض الأحيان.

وينطبق هذا القول على الكتاتيب في مكة المكرمة إذ أن بعض معلمي الأطفال كانوا يقومون بتأدية رسالتهم في المسجد الحرام. وهذا يتضح من حديث الناس عن أحمد بن أبي الخير القسطلاني إذ يقول وصار يكتب الوثائق ويسجل على الحكام مع تأديبه للأطفال بالمسجد الحرام تحت مأذنة باب علي.

كتاتيب مكة

كانت الكتاتيب القاعدة الأولى للتعليم الأهلي. وكانت هذه الكتاتيب منتشرة آنذاك في أحياء مكة.

وقد تحدث سنوك هرجرونجة الذي زار في أواخر القرن التاسع عشر عدة كتاتيب.

ووصف تقاليدهم العلمية وصفاً دقيقاً مفصلاً. كما تحدث الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاروي عن كتاتيب مكة ومناهجها في مطلع القرن العشرين قال:

كانت الكتاتيب في مكة المكرمة أول معرفتي بالحياة أكثر من أن تحصى وأشهر كتّاب كان كتّاب الشيخ عبد المعطي النور في الشبيكة وكتاب الشيخ فودة في أجياد وكتاب الشيخ أحمد حمام في حارة الباب ولا تخلو محلة من كتاب أو أكثر طول أم القرى وعرضها وكان من أهم الكتاتيب في حدود عام ١٣٢٦ و١٣٣٠هـ.

كتاب الشيخ عبد الله السناري «حَمَّدو»[1] وكان من عرفائه الشيخ مصطفى يغمر وكان جملة أساتذة الكتاب الشيخ أحمد السوركتي[2] الداعية الإسلامي الكبير بجاوا. والسيد أحمد مجاهد وغيرهما من رجال التعليم المخلصين. وكان المنهج في أكثره تحفيظ القرآن والإملاء والخط والحساب.

وكانت هناك مواسم وأعياد للكتاتيب. فإذا ما ختم أحد التلاميذ من بنين وبنات القرآن غيباً أو نظراً أو وصل إلى حد محدود من ذلك في المصحف الشريف أقام له أهله حفلاً عظيماً سواء كان ذكراً أو أنثى. وطاف به أو بها في موكب شعبي يطوف شوارع البلد في نسق جميل وعرض شائق وتكون الألواح مرفوعة فوق الرؤوس احتراماً وإعظاماً لما تضمنته من آيات الذكر الحكيم.

وكانت معاشر الحلوى ـ الباستا أو السمسمية أو الانبوتة أو البنات الحموي أو هما معاً تقدم للعرض.

وأصوات المنشدين تردد الدعوات الصالحات والابتهالات المشجية وكما

---

(١) عبد الله السناري المشهور بـ «حمدو» مواطن سوداني وله عقب في مكة المكرمة وكان من شيوخ القرآن في الحرم ويرجع أصله إلى بلدة دنقلا.

(٢) أحمد سوركتي داعية إسلامي مشهور في أندونيسيا من أهالي دنقلا.

كانت تقام للأولاد فهي للبنات وكن مع الفقيهة أو العريفة والخادمات والوصيفات ينتظمن صفوفاً في مربعات أو مسدسات ويجلسن ما اتسع لهن الوقت في الطرقات من الكتاب إلى الكتاب. تماماً كما كانت الحال في القرافات والاملاكات وفي الزفاف والصرارات وربما صحب ذلك في الأولاد خاصة بعض الدفوف أو ما يسمى بالطاسة والزير، ويعقب ذلك دعوة عامة للطلبة أو الطالبات في دار الفائز الناجح.

الكتاتيب بمكة في القرن الحالي

كانت الكتاتيب في أوائل القرن الهجري الحالي منتشرة في كل حارة ومهمتها ختم القرآن مجوداً وتعليم التلميذ القليل من مبادىء القراءة والكتابة وهناك كتاتيب خاصة بتعليم الخط والحساب وأشهر تلك الكتاتيب كتاب الشيخ فرج غزاوي وكتاتيب أولاده عبد الله غزاوي وسليمان غزاوي وتاج الدين غزاوي.

ويجلس الطلاب جميعاً أرضاً وغالباً ما يكون هؤلاء متفاوتين في السن فيهم الكبير والصغير. ويقسم المعلم ـ وكان يدعى «الفقيه» ـ التلاميذ إلى مجموعات ويختار من بينهم العرفاء ليساعدوه في التخطيط ويمكن إيجاز حال الكتاتيب في النقاط التالية:

١/ لم تكن الكتاتيب تراعي مبادىء الصحة العامة كما أن الأثاث الذي يضمه الكتاب في جنباته جد بسيط ويصف الأستاذ عمر عبد الجبار الكتاتيب بقوله وكان الكتاب في ذلك العهد عبارة عن حجرة مفروشة بحصر بالية وأزيار مكشوفة يشربُ منها الأطفال وفيهم الصحيح والمريض وقد يكون المرض معدياً. فينشرون العدوى بين الأصحاء باختلاطهم في الجلوس على الحصر والشرب من إناء واحد.

٢/ لم تكن ذات مستوى دراسي جيد فقد يقضي الطالب وقتاً طويلاً ومع هذا تبقى حصيلة معرفته محصورة في الحروف الهجائية ولعل ذلك راجع لعدة عوامل منها جمود أساليب التدريس ثم استغلال التلميذ وتكليفه بأعمال كثيرة خدمة

للفقيه. فالتلاميذ مكلفون بالمحافظة على شربته أو شراء كل ما يحتاج إليه من السوق ويصف المؤرخ أحمد السباعي حالة الكتاتيب وصفاً دقيقاً. ومما قاله بهذا الصدد وكنت أشارك في بعض هذه الخدمات أو أكثرها لأن «سيدنا» كان لا يدين كثيراً بمبدأ التخصص. وكان يميزني ويختصني برعاية بالغة في بعض الأحيان فيسلمني نعاله أمضي بها إلى العم «جابر الخراز في رأس المدعي» أو يبعث بي إلى أمه في دارها أحمل إليها زنبيل المقاضي وأقضي عندها وقتاً غير يسير أعاونها في غسل الصحون والأطباق.

٣/ أهم ما كان يفرح التلاميذ ويدخل البهجة إلى نفوسهم الاحتفالات التي تقيمها الكتاب والاحتفالات نوعان:

الأصرافة

وهي احتفال بسيط يقام في الكتاب إذ يأتي أهل التلميذ إلى الكتاب ليستمعوا السورة التي بلغها ابنهم من القرآن الكريم.

وحينما ينتهي التلميذ من قراءتها من اللوحة يقدم أهله بعض الهدايا للفقيه وتوزع الحلوى على التلاميذ ثم يعلن ذلك اليوم إجازة للجميع ابتهاجاً بالتحصيل العلمي الذي وصله أحد تلاميذ الكتاب.

الأقلابة(١)

ينقلب الكتاب في هذا الاحتفال رأساً على عقب إذ يلبس التلاميذ أبهى الملابس ويقفون في صف واحد بحيث يأتي أصحاب الملابس اللامعة والنظيفة في المقدمة. ويسيرون وهم ينشدون حتى يصلوا بيت زميلهم فيستقبلهم ممتطياً جواداً.

---

(١) أيام الأصرافة والأقلابة ـ جريدة قريش عدد ٢٠٥ ـ ١٣٨٣/٧/١٠هـ ـ ١٩٦٣/١١/٢٧م. القزاوي ـ التعليم في مكة والمدينة ومحمد عبد الرحمن الشامخ ـ دار العلوم.

ثم يسير الموكب في شوارع مكة يتقدمهم المحتفى بـه حـاملاً لوحـه وقـد كتـب عليها السورة التي بلغها ومما يجدر ذكره أن وصوله إلى تلـك السـورة هـو سـبب الاحتفال الكبير.

ثم يعود الموكب إلى بيت المحتفـى بـه حيـث يتنـاول الجميـع الطعـام.. لقـد دارت عجلـة الزمـن وحلـت ريـاض الأطفـال والمـدارس الابتدائيـة الحديثـة محــل الكتاتيب ولكن هناك من يرى أنه ما زال بإمكان الكتاتيب أن تلعب دوراً في تنشئة الأطفال شـريطة أن يعـاد النظـر فيهـا مـن الأسـاس وينطلـق الدكتـور عبـد الحميـد الهاضمي في دعوته هذه من ثلاثة حقائق:

١/ انتشار الأمية والتخلف في أرجاء العالم الإسلامي.

٢/ التزايد المطرد لعدد السكان وهذا يعني تزايداً مسـتمراً فـي إعـداد مـن هـم بحاجة للالتحاق بالمدارس.

٣/ على الرغم من اهتمام الدول الإسـلامية بنشـر العلـم فـإن قسـماً كبيراً مـن دخولها يتجه نحو أمور أخرى كنفقات الدفاع.

إن تطوير الكتاب قد ينتج عنه أحد احتمالين. أن يبقى الكتاب القديـم محافظاً على خصائصه الرئيسية وفي مثل هذه الحالات فإنه يفي بحاجات الفرد والمجتمع. فالكل يعلم أن القراءة والكتابة ليست هي كل ما تصبو إليـه التربيـة وأمـا أن يكـون التطوير جذرياً بحيث ندخل في حسابنا تنمية القيـم والاتجاهـات واتبـاع الوسـائل التربوية الحديثة. وإذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أنشأنا مدرسة ابتدائية حديثة.

التعليم والتقاليد[1]

ومن التقاليد الاجتماعية التي تتصل بالتعليم في المملكـة العربيـة السـعودية أنـه

---

(١) المهرجان الوطني للتراث والثقافة ـ الجنادرية ـ مطبعة الحرس الوطني ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

كان في فترة ما مقصوراً على حلق التعليم في المساجد وفي المدارس «الكتـاتيب» وقد كان في مدينة الرياض أكثر من خمس وعشرين مدرسة في أنحاء المدينة قبيـل نصف القرن الرابع عشر الهجري.

والمدرسة أو «الكتاب» عبارة عن غرفـة واسـعة تكـون غالبـاً قـرب المسـجد ويتلقى الأطفال فيها أصول التعليم ويقوم بعبء التعليم فيهـا شـخص واحـد يدعـى «المطوع» وفترة التعليم اليومي في هذه المدارس ثلاث ساعات فـي فـترة الصبـاح وساعة واحدة بعد الظهر وساعة واحدة بعد العصر وتستمر هذه المـدارس فـي أداء وظيفتها شتاء وصيفاً وتلك المـدارس حرزهـا النظافـة وهـي مفروشـة بالحصبـاء أو الحصر أحياناً.

ومنهج تعليم الهجاء في تلك الكتاتيب معقد للغاية حيث يبدأ التلميذ بـالتعرف على حروف الهجاء حرفاً حرفاً عن طريـق التلقيـن ثـم الكتابـة فـي اللـوح ومحـوه وكتابته مرة ثانية مع مزيد من الحروف الهجائية.

وعملية تعليم المطوع قاصرة على كتابة الحروف ثم امتحـان التلميـذ فـي مـدى إتقانه بواسطة خطها على الأرض مع «استظهار وحفظ» اللـوح لمعرفـة مـا إذا كـان أتقن كتابة الحرف وبعد ذلك ينتقل التلميذ إلى قاعدة تعليـم الحـرف مـع الحركـات والتنوين «بدون شد» أو الحركة مـع الشـد وتقلـب هـذه القـاعدة «بالشـد القصـير» و«الشد الطويل» وبعد ذلك يظل التلميذ يكرر هذا المستوى إلى أن ينتقل إلى قـاعدة أشد تعقيـداً وهـي تعليـم الحـروف بجميـع صورهـا الحركيـة وتدعـى تلـك القـاعدة «العبيبة» وهذه القواعد الهجائية ليست من السهولة إتقانها لذا فإنها تعتبر أزمة في لغة الطفل آنذاك ولابد من اجتيازها وبعد فترة من الزمن أو بعد إتقان تلك القواعد ينتقـل التلميذ إلى تعلم الكلمات في شكل أسماء وتدعى هذه العمليـة «الأسـاس» ومـن ثـم يبدأ الطالب في تعلم القرآن مبتدئاً بقصار السور ويطلق علـى المرحلـة الأولـى وهـي تعلم قواعد الحروف والكلمات عملية «الهجرة» أو «الألف».

ويتم تعليم القرآن بالتدريب على نسخ قصار السور من القرآن الكريم على اللوح الخشبي الذي يحمله معه وهو عبارة عن لوح من الخشب مستطيل الشكل بما يقرب من «٤٠ سم» وعرض «٢٠ سم» وله مقبض في أعلاه وعندما يمتلىء اللوح يغسل ويبيض بالجير أو الحجر الرملي.

أما المواد التي تستخدم في الكتابة في هذا اللوح فهي غالباً مواد محلية بسيطة فالحبر يصنع من قشور ثمر الرمان مع [الزاج الأسود] مضافاً إليهما شيء من الصمغ «والهباب» الأسود أما الأقلام إنها من قصب الذرة وأغصان شجرة التين.

وأجرة المعلم في هذه الكتاتيب عبارة عما يناله من الصدقة والزكاة وهبات أولياء أمور الطلاب من النقود أو المنتجات الزراعية. وبعضهم يأخذ أجراً نقدياً مرتبطاً بفترات زمنية محدودة مثل فترة «القيظ» و«الصيف» و«الخريف» و«الشتاء» ومناسبة الأعياد ومناسبة الانتقال من فترة تعليمية إلى أخرى مثل الانتقال من الهجاء إلى تعلم الكلمات ثم البدء في قصار السور ثم بعد ختم جزء عم وجزء تبارك وجزء من قد سمع ثم ينتقل إلى تعلم القرآن كله حتى حفلة الزفاف التي تعقد عند انتهاء القرآن وتسمى تلك المناسبة الزفة.

وفي فصل الشتاء يحضر الطلاب معهم ما يستطيعون حمله من الحطب يومياً يوقدون جزءاً منه في المدرسة للتدفئة أما بقية الحطب فيستحوذ عليه المطوع.

ومن التقاليد المعروفة والتي لها ذكريات في نفوس الأطفال حفلة القرآن الكريم وتدعى «الختمة» حيث يقدم للمعلم هدية كبيرة في ذلك الزمان وهي عبارة عن عشرين ريالاً نقداً وبعض الأغنياء وكبار الفلاحين يقدمون للمعلم كمية من الطعام والإنتاج المحلي ويبدأ الأهل في الإعداد «للختمة» حيث يعدون وليمة دسمة في الصباح الباكر ويحضر طلاب المدرسة وأولاد الجيران وربما تلاميذ وطلاب مدارس أخرى يشاركون في حفلة «الخاتمة» وهي عبارة عن دعاء ختم

القرآن الكريم يلقن للطالب كلمة كلمة والطلاب وولي الأمر يُؤَمِّنون.

أما حفلة يوم «الزفة» وغالباً ما تكون يوم السبت فإن ولي الأمر يحضر بعض الخيول وبعض السيوف وكل طالب يحضر سيفه أو سيف والده أو السلاح الذي يمتلكه والده، ويلبس الطلاب أحسن ثيابهم وربما اعتجروا العقل ولبسوا الثياب ولبسوا الثياب الفضفاضة ذات الأكمام الطويلة المسماة «المردون» فيركب من حفظ القرآن إحدى تلك الخيول ومعه من يتقن ركوب الخيل كما يركب أقاربه بقية الخيول ويعبر الطلاب وفي مقدمتهم الخيل الشوارع والأحياء ويصطف الناس في جنبات الطريق وبعضهم يجهش بالبكاء فرحاً بهذه المناسبة ويشارك الجيران والد حافظ القرآن الفرحة، وقبيل الظهر يذهب حافظ القرآن على فرسه ويتجه مع الصغار إلى قصر الإمارة وبالذات إلى الملك.

أهزوجة الختمة:

صومعيــــــة لومعيــــــة.	حافظ حافظ كـل الثلاثين
حـافظ حـافظ جــزء عــم	يــا فــرس لا تجدعيينــه
مــــــع ياســــــين	يــا فــرس تــوَّه صغــير

الحياة العلمية والثقافية والفكرية(١)
في المنطقة الشرقية

كان التعليم بمفهومه التقليدي معروفاً وسائداً في واحتي الأحساء والقطيف واللتين كانتا من المراكز التعليمية القليلة والمتميزة في جزيرة العرب.

وكان وسائل التعليم وطرقه في المنطقة قبل بدء التعليم الرسمي في العهد السعودي متعددة ومختلفة ومن أهمها:

«أ» الكتاب

كان السكان يرسلون أبناءهم إلى الكتاب عندما يقتربون من سن السابعة من أعمارهم. وكان يطلق على معلم الصبيان لقب «المطوع» أو «مُلاّ» وهو لقب عثماني. ولم يكن في الكتاب مستويات دراسية متميزة أو مستقلة. وكان [المطوع] هو المعلم الوحيد في الكتاب ويقوم بتدريس جميع المواد وإن كان يستعين في بعض الأحيان ببعض طلابه المبرزين بتدريس المستجدين والضعفاء من طلابه. وكان المكان المعد للتدريس عبارة عن غرفة من غرف منزل «المطوع» يخصصها لهذا العمل. إلا أن بعض المعلمين المشهورين والذين يكثر طلابهم كانوا يقومون أحياناً باستئجار مبنى يستخدم خصيصاً للتدريس، وأول من فعل ذلك هو الشيخ عبد اللطيف بن عبد العزيز آل مبارك إذ استأجر داراً وجعلها كتاباً لتعليم الخط والحساب والإملاء عام ١٣٥٥هـ.

وكان الكتاب عبارة عن غرفة تفرش أرضيتها بحصيرة يجلس عليها الصبيان ويواجهون «المطوع» الذي يتميز في الغالب بالهيبة والشدة حيث كان يحمل باستمرار عصا لا يبخل في استخدامها عند الحاجة إليها، بل ويستخدم أيضاً الفلقة

(١) الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المنطقة الشرقية تأليف الدكتور عبد الناصر السبيعي.

«الجحيشة» ولذا كان المطوع ذا شخصية وقورة ومهابة.

ولا تستخدم في الكتاتيب كتب أو دفاتر خاصة في المراحل الأولى من الدراسة فقد كان التدريس عموماً يركز على تعليم قراءة القرآن الكريم والتجويد وحفظ القرآن الكريم ومعرفة قراءته دون سواه من النصوص المكتوبة، وكان كل ما يلزم الملتحق بالكتاب إحضار لوح خشبي يعده النجارون خصيصاً لهذا الغرض، يقوم المطوع بحفر حروف الهجاء عليها ليقوم الصبي بتهجيتها باستمرار، حيث يحمله يومياً إلى منزله وإذا أجاد الصبي معرفة قراءة الحروف الهجائية طلب منه المطوع أن يحضر جزء عمّ، ومن ثم يتدرج في تعلم حفظ القرآن الكريم كاملاً، وكان الطريقة المتبعة في تدريس القرآن الكريم أن يتلو «المطوع» الآية كلمة كلمة ثم يرددها الصبية حتى يحفظوها. فإذا ختم الصبي السورة عادة وتلاها مرات إلى أن يتأكد «المطوع» أن الصبي قد حفظها. وغالباً كان يمكث الصبي في الكتاب ما بين سنة وأربع سنوات كل حسب قدرته.

وتنقسم الكتاتيب في المنطقة إلى ثلاثة أنواع رئيسية:

١/ كتاب خاص بتدريس القرآن الكريم وحفظه وتجويده.

٢/ كتاب يقوم المطوع فيه بتدريس القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة.

٣/ كتاب خاص بتدريس الحساب والقراءة والكتابة ومسك الدفاتر.

وكان في الأحساء وحدها ما يزيد على ثلاثين كتاباً من تلك االأنواع مجتمعة كما كان هناك عدد كبير من الكتاتيب في القطيف والدمام والجبيل والخبر والعيون تقوم بالدور نفسه.

وكان من المعتاد أن يستمر الصبي الذي يختم القرآن الكريم إذا كانت ظروف والده ورغبته مشجعة، في تعلم القراءة والكتابة في نفس الكتاب إذا كان «المطوع» قادراً على ذلك، أو أن ينتقل إلى الكتاب المتخصص في تعليم القراءة

والكتابة. وكان الورق المستخدم آنذاك يعرف باسم «الكاغد» أما الحبر فكان يصنع محلياً من الشب الأسود وندى الخوخ «العنكيش» بعد سحقه جيداً. وكان أدوات التعليم ووسائلها تحفظ في الصندوق بعد انتهاء الدراسة ويظل الصندوق في الكتاب حتى يتخرج الطالب منه.

وكانت مناسبة الاحتفال بختم القرآن الكريم وحفظه تعد مناسبة اجتماعية كبرى للابتهاج والفرح. فبعد أن يتأكد المطوع من إجادة تلميذه لقراءة القرآن وحفظه وترديده له سبع مرات متتالية «وهو ما يسمى بالتحويدة» تبدأ مراسم الاحتفالات بأن يلبس جميع الدارسين في الكتاب ملابس جديدة ويتحلى القادرون منهم بالسيوف والخناجر ويقومون بارتداء العباءات والعقل. ويبدأ الموكب في التحرك من الكتاب يتقدمه خاتم القرآن ومعلمه «المطوع» ويبدأ الجمع في التطواف على بيوت تجار البلد وأعيانها ويقومون بتأدية رقصة العرض المشهورة وترديد التحميدة عند كل بيت يمرون به، وكان البعض يبالغ في حمل مباخر العود ومراش العطور[1] وكان المتعارف عليه أن يحضر والد خاتم القرآن المحتفى به شخصاً متخصصا بحفظ الأناشيد والأهازيج الدينية متقناً لأدائها خاصة التحميدة التي تردد طيلة طواف الموكب في الأحياء وأمام المنازل. وكان التلميذ المحتفى به وصحبه ينتقلون من بيوت زملائهم حسب الدعوات الموجهة للاحتفاء بهم، مخترقين الأحياء والطرقات أما التحميدة التي تردد في تلك المناسبة فقد سميت بذلك لأنها تبدأ بحمد الله.

وكانت عادة الاحتفال بخاتم القرآن الكريم تعد ظاهرة اجتماعية متميزة ففي نهاية الاحتفالات يقيم والد المحتفى به مأدبة غداء كبرى يحضرها معلم الصبي وزملاؤه وأفراد عائلته. وفي تلك المناسبة السعيدة يقوم والد خاتم القرآن الكريم بإهداء المعلم هدية خاصة غالباً ما تكون مبلغاً من المال، وهذه تعتبر مكرمة خاصة

---

(١) المهرجان الوطني للتراث والثقافة ـ الرياض مطبعة الحرس الوطني ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦.

ولا علاقة لها بالمكافأة المتفق عليها مسبقاً.

وكان دور الكتاب التعليمي ينحصر في إجادة الصبيان لقراءة القرآن الكريم وتجويده والإلمام بمعرفة مبادىء القراءة والكتابة والحساب.

ولم يكن خريجو الكتاب يحصلون على شهادات أو وثائق أو توصيات علمية تثبت المستوى الذي وصلوا إليه، أو تدل على مدى إتقانهم وإجادتهم لما درسوا في الكتاب.. وسبب ذلك أن أصحاب الكتاتيب لم يكونوا مؤهلين لإصدار تلك الوثائق الدراسية.

صورة من الماضي «الطاسة والزير»

كان لا بد من الاحتفال بـ«الأصرافة» إذا أتم الغلام جزءاً من القرآن تجويداً على الأقل.. أو حفظاً أو بـ«الأقلابة» إذا ختم القرآن كله.. وكذلك الفتاة الصغيرة التي كان لها حظ في هذا المجال عند من يسمونهن «الفقيه» وقد أدركنا عدداً منهن قبل الثلاثين من هذا القرن.

وقرأنا عندهن أطفالاً وهن ملء الصون وقاراً وحشمة وعفة وهيبة وقد يجمع «الكتاب» الفقيهات من الجنسين فيما دون البلوغ معاً، وأكثرهم من ذوي الأسنان التي لا تتجاوز العشرة أو الاثني عشر عاماً.. كما أن من الكتاتيب «الأولاد» من يشتمل على «فتيات» لمجرد الحفظ والقراءة والكتابة أيضاً على اللوح من الخشب.. يكتب فيها «بالحبر الأسود وجمزية» وبالأقلام المبرية وتمحى الألواح في مركن من الماء باليد غسلاً.. ثم تبيض بما يسمى «المضر» من الوضر أو السودان وتعرض في الشمس حتى تجف.

وكانت «الطاسة والزير» تتقدم المواكب والاحتفالات بقدوم «الصرارات» في ركوب الزوار وأيضاً في الزفافات والختانات ولاسيما في هذا الاحتفال الذي يتصدره «الفقيه أو الفقي» أو سيدنا المفضال، وإلى يمينه «العريف» وهم يرددون

الأناشيد المناسبة فرحاً بنبوغ المحتفل به. أو بها ويختارون الشوارع الخاصة.. والعامة والخاصة في عرض مهرجاني رائع.. وصدى الطبلين «الطاسة والزير» يدوي بين «الأخشبين».

الغدفة والقفة

كانت الفتاة الصغيرة ـ منذ عرفنا الحياة ـ تأخذ بنصيبها من التعليم الأولي في «الكتاب» بضم الكاف وتشديد التاء وتقوم بالتدريس فيه امرأة حازمة مهيبة، ذات سمعة حسنة وفتوح وتوفيق، ويطلق عليها «الفقيهة» وكان من حق الطفل الصغير أن يشارك البنات مع أخته في التلقي إذا كان فيما دون العاشرة من عمره، وكانت الكتاتيب من هذا القبيل لا تكاد تخلو منها محلة في مكة أو جدة أو المدينة أو الطائف، وكل ما يدرس بها ينحصر أولاً وقبل كل شيء في «فك الحروف» ويبدأ بالتهجي ويتطور إلى القراءة والحفظ ومعرفة ما لا غنى عنه من أمور الدين والعبادات مع الخط والإملاء ومبادىء الحساب.

وكنا نرى أسرابهن مغدفات بما يسمى «الغدفة» التي تحجب الوجه كله ويبدو من الصبية والفتاة حتى أطراف يدها فإنها تستره بالملاءة أو الملاية.. وتحمل في يدها صباح كل يوم «القفة» المزركشة التي تصنع محلياً وتحلى بألوان من الأخضر والأصفر والأحمر ولها «دنادش» وشرافات، وتحتوي على ما تزود الأم ابنتها به من غذاء أو «تصبيرة» أو حلوى أو فاكهة... وبشيء من «دقة الملح المبزر» وكسرة من الخبز أو «الشريك» بضم الشين وهي بدورها لا تبخل على لداتها بما توفر لها وتغذر عليهن من نعمة الرغد أو الكفاف وربما أثرت بشيء من ذلك أو بأغلاه «الفقيهة والعريفة» جلباً لرضائها واستزادة من عنايتها ورعايتها ومع الإغداف عليها بالأسبوعية التي تسمى «الخميسية» وهو ما يدفع مقابل ما تبذل من جهد ومال لاستئجار المنزل وتحضير المال واحتمال أعباء التربية والتفرغ لها حتى

إذا بلغت التلميذة الحد الذي تتمكن معه من أداء فروضها أو استطاعت أن تختم سوراً من القرآن غيباً أو نظراً وفاقت قريناتها.. منحت من أهلها «الاصرافة» أو «الاقلابة» وأقيمت لها حفلة كبرى.. وطافت بها «مغذية» ومقنعة صاحبة الشأن الأولى والعريفات والطالبات في مظاهرة أو مسيرة عامة يرددون فيها أناشيد الفرحة والغبطة بتخرجها ونجاحها... وتوزع فيها «الحلاوة النبات» ذات الأكاليل الفضية والذهبية والسمسمية أو «الانبوتة» واللوزية كل في نطاق مقدرته واستطاعته ويتقدم هذا الموكب بزميرة من جملة المعاشر والمباخر والند والعود من إحاطته بالحراسة التامة، فإذا انتهى الحفل.. رجعت إلى أهلها لتجد أمامها «المنسيج» وقد شد أواخيه وتولى تعليمها التطريز فيه كبيرات السن من ذويها اللواتي يجدن الحياكة والحبك والتفصيل والخياطة مع مباشرة الأعمال المنزلية من كنس ومسح ونظافة وطهي واستقبلت عهداً جديداً يؤهلها لتكون ربة دار تستقل بها فلا تجهل شيئاً مما عرفته قبلها الأم والعمة والخالة والجدة لتنهض بهذه الأعباء حال تزف إلى عريسها المقبل... بالإضافة إلى الآداب العالية والأخلاق الفاضلة والصفات الجميلة التي تجعلها محل التمني لكل خاطبة تود لابنها الحياة الهنيئة الراضية.

ولقد افتقدنا منذ حين هذه الغدفات والقفات وأغنى عنها ما عمت به الغوارف وفاضت به المعارف، وما تحب أن نبخسها حقها من التقدير والتشجيع وقد برهن على مواهبهن وشغفهن بالعلم والثقافة في أرقى المستويات، وإنما هي مجرد ذكريات تدون في سجلهن الماضي.

في مدينة جدة

الاحتفال بختم القرآن

الاحتفال بختم القرآن عادة موروثة في جدة. إذا ختمه الطفل وكان يحضر هذا الاحتفال جمهور من الأهليين في بيت من حظي بختم القرآن المجيد، سواء

أكان طفلاً أم طفلة، ويحضر معهم شيخهما أو شيختهما اللـذان حفظاهمـا كتـاب الله تعالى، وأصدقاء وصديقات الجانبين.

ومن تقاليد هذا الاحتفال أن يعرض به «لوح» هندي مزخرف منقوش بالألوان من خشب هندي مدهون، كتبت فيه بخط جميل كبير بعض آيات الذكر الحكيـم ويقرأ الطفل أو الطفلة فـي الحفـل مـا تيسـر مـن كـلام اللـه جـل جلالـه، ليستمع الحاضرون إلى قراءتهما فإذا أتما القراءة بادر المحتفلون إلـى إلقـاء النقـود الفضيـة على اللوح المعروض. والحاصل من ذلك يعود بطبيعة الحال إلـى شـيخ التلميـذ أو شيخة التلميذة.

ويكثر الحاصل أو يقل بحسب يسر أو عسر ذوي الطفـل أو الطفلـة. وأهلهمـا وأقاربهما أو أصدقائهما الذين يحضرون الاحتفال.

ويحدثنا الشيخ محمد بن حسين نصيف بهـذه المناسـبة أن والـده كـان يتـم القرآن على يد الشيخ محمد علي جميل. وقد ألقى المحتفلون بختمـه علـى اللـوح المعروض عليهم «ألفي ريال» صارت كلها من نصيب محمد علي جميل، وإنه قد اشترى من ذلك المبلغ الضخم بالنسبة لزمانه داراً. فقد كانت قوة الشراء في النقود إذ ذاك كبيرة وكانوا يحضرون في حفل الختـم مـن ينشـد لهـم بـأصوات مشـجية وألحان عذبة قصائد مناسبة في التهنئة بهذا النجاح الميمون.

وكان من المنشدين في هذه الاحتفـال الشـيخ محمـد القمـري «بضـم القـاف وسكون الميم بعدها راء مكسورة فياء النسب» وأبنــاء هـذا الشـيخ منهـم مؤذنـون اليوم.

فإذا انتهت هذه المراسم المعتادة قدمــت إلـى الحـاضرين موائـد الإفطـار فقـد كانت هذه الحفلات لا تقام إلا في وقت الصباح. فيطعم الناس ويشربون ويتناولون الحلوى وينصرفون مثنين.

وقد أدركنا الحلقات في المسجد الحرام ـ كما كانت في المدينة المنورة بالمسجد النبوي الشريف تغص بالطلاب الكبار والصغار ليلاً ونهاراً وفي جميع الأوقات حتى منتصف الليل وفي تباكير الصباح وبعد كل فرض يؤدى. ولا أبالغ إن قلت أن عددها أكثر من مائة بين الأروقة و«الحصاوي» وفي المدارس المجاورة و«الخلاوي».

وكانت الدوافع إلى ذلك ترتفع إلى طلب الأجر من الله العلي القدير وتتوسط إلى الجمع بين الحسنيين في الدنيا والآخرة[1].

---

(١) «موسوعة تاريخ جدة ـ المجلد الأول تأليف عبد القدوس الأنصاري ـ الطبعة الرابعة القاهرة دار مصر للطباعة.

تاريخ التعليم الشعبي في قطر[1]

منذ نهاية القرن التاسع عشر

إلى منتصف القرن العشرين

إبان فترة الاستعمار البريطاني لم تتح بريطانيا أي فرصة للتعليم بل اتبعت سياسة التجهيل لأبناء الخليج العربي تلك السياسة التي كانت سائدة إبان الحكم التركي.

أما بالنسبة لدولة قطر لم تفكر بريطانيا في فتح مدرسة واحدة فيها وأدرك أبناء المنطقة ذلك وفكروا في إنقاذ ما يمكن إنقاذه. وتأمين القدر الضروري من التعليم فبرز بذلك التعليم الشعبي الذي انحصر في الكتاتيب المحلية والمدارس الأثرية ومجالس العلم.

أولاً : الكتاتيب

١/ تعريف[2]:

«الكتّاب» هو عبارة عن مدرسة مصغرة ذات غرفة واحدة، ومعلم واحد، لا يشترط في الغرفة أية مواصفات، كما لا يشترط في المعلم حصوله على أية مؤهلات علمية أكاديمية، ويحشد في هذه الغرفة عدد من الطلاب في أعمار مختلفة ومستويات متباينة، ليعلمهم هذا المعلم الذي كان يسمى في قطر «مطوعاً» وغالباً ما يكون هو نفسه إمام مسجد الحي وخطيبه.

---

(١) اتحاد المورخين العرب لجنة تدوين تاريخ قطر البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية.

(٢) الجزء الثاني الدوحة قطر - ٢١ - ٢٨ مارس ١٩٧٦ د. كمال ناجي مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر والتوزيع - مدير وزارة التربية والتعليم.

٢/ نظام القبول:

يقبل في الكتاب كل راغب في التعليم، ويقسم الطلاب في داخل قاعة الدرس بحسب أعمارهم من ناحية وتحصيلهم من ناحية أخرى.

٣/ مواد الدراسة:

مواد الدراسة في الكتاب ثلاثة فقط هي: العلوم الشرعية، واللغة العربية ومبادىء الحساب.

«أ» العلوم الشرعية ـ ويتناول:

حفظ القرآن الكريم وتلاوته وتجويده.

الفقه الإسلامي:

الفقه الإسلامي: ويتركز في تعليم الفقه «العبادات» ولا يتعداها إلى «المعاملات» وحتى «فقه العبادات» يعطى في أضيق الحدود وعلى مذهب واحد هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

السيرة النبوية:

السيرة النبوية: وتعطى السيرة النبوية التي تشمل مولد النبي ﷺ وبعثته وهجرته وجهاده لنشر الدعوة وغزواته وحروبه بشكل مبسط.

القصص الديني:

القصص الديني: ويشمل قصصاً عن الأنبياء والمرسلين وجهادهم في الحق والخير.. كما يشمل توضيحاً لبعض أيام الإسلام المشهورة.

«ب» اللغة العربية وتشمل:

١/ مبادىء القراءة والكتابة والإملاء العربي.

٢/ بعض مبادىء قواعد اللغة العربية بشكل مبسط.

٣/ حفظ الشعر العربي وبخاصة القديم منه مع حفظ بعض الخطب الشهيرة.

«ج» مبادىء الحساب وتشمل:

١/ تعليم العمليات الأربع للأعداد الصحيحة مع التدقيق العملي عليها.

٢/ تعليم العمليات الأربع للكسور الاعتيادية البسيطة.

٤/ قاعة الدرس:

وقاعة الدرس عبارة عن غرفة واحدة كبيرة لا تشترط فيها مواصفات معينة كما أسلفنا - ولا تحتوي من الأثاث إلا على سجادة صغيرة توضع في صدر القاعة ليجلس عليها «المطوع» وحصير كبير يجلس عليه الطلاب في صفوف متراصة وفي أحد أركان القاعة زير ماء «حب» يشرب منه التلاميذ وربما احتوت القاعة على لوح أسود «سبورة» وبعض ألواح الاردواز التي يتعلم عليها المبتدئون.

٥. نظام التعليم:

يسير التعليم في الكتاب طبقاً للخطوات التالية:

[أ] يقسم المطوع تلاميذه إلى مجموعات بحسب مستوياتهم الدراسية. فمنهم المبدىء، ومنهم المتوسط، ومنهم الجيد الذي شارف على ختم القرآن الكريم «تلاوة» والأجزاء الثلاثة الأخيرة «حفظاً»، ويراعى في التقسيم أن يجلس المتقاربون أعماراً متجاورين.

[ب] يختار المطوع أذكى الطلاب في كل مجموعة وأقواهم شخصية وأكثرهم تحصيلاً ليعينه «عريفاً» على المجموعة اللاحقة لمجموعته، فيكون لكل مجموعة «عريف» من المجموعة التي تعلوها مستوى ويعتبر مسئولاً مسئولية مباشرة عن هذه المجموعة، كما يعتبر المطوع مسئولاً مسئولية مباشرة عن المجموعة الأعلى، ومسئولية غير مباشرة عن المجموعات الأدنى.

[ج] يلقي المطوع درسه على المجموعة الأعلى أولاً ثم على المجموعات الأخرى مجموعة مجموعة معطياً فرصة للمجموعة الأعلى بأن تذاكر ما أعطيته في حين درسه للمجموعات الأخرى، ويحرص على أن ينوع الدرس بين المجموعات فإذا أعطى الأولى حساباً أعطى الثانية قراءة والثالثة كتابة وهكذا.

[د] بعد أن ينتهي المطوع من إعطاء الدروس لجميع المجموعات ينتقل كل عريف إلى مجموعته ويوالي متابعة تلاميذ المجموعة حتى إذا أكملوا واجبهم أبلغ المطوع الذي يبدأ في السماع منهم وتصحيح أخطائهم.

٦/ نفقات الكتاب:

تتمثل نفقات التعليم في الكتاب فيما يلي:

أ- راتب المطوع الشهري.

ب - إيجار قاعة الدرس.

ج - بعض الكتب والأدوات المدرسية والقرطاسية القليلة كألواح الاردواز والكراسات والأقلام والأحبار وغيرها.

٧/ أهم الكتاتيب:

وكان من أهم الكتاتيب التي أثبتت جدارتها في قطر في بداية القرن العشرين ثلاثة كتاتيب سميت مدارس تجاوزاً وهي:

أ/ مدرسة الشيخ الرحباني والشيخ ابن حمدان وقد قدما من نجد وافتتحا كتابهما في الدوحة لتعليم القرآن الكريم.

ب / مدرسة الشيخ محمد الجابر وهو من أهالي قطر وقد أسس كتابه سنة ١٩٠٠.

ج/ مدرسة الشيخ الأنصاري، وهو من أهالي قطر أيضاً وقد أسس كتابه في نفس العام.

وقد جذبت هذه الكتاتيب الثلاثة بالإضافة إلى أبناء قطر كثيراً من أبناء الإمارات المجاورة الذين كان يتحمل نفقات تعليمهم وإقامتهم في قطر بعض المحسنين الأثرياء من أهالي إماراتهم.

وكان يتبرع بهذه النفقات عادة أحد الشيوخ أو الأثرياء وقد يتعاون أكثر من واحد في تكاليف كتاب واحد فيدفع أحدهم أجر المطوع ويقدم الثاني قاعة الدرس والكتب التي يستوردها من البلدان المجاورة كما فعل السيد خليل الباكر الذي كان يستورد الكتب من البحرين.

التعليم في بلاد البترول[1]

فقد كان التعليم أو المتعلم أو الإنسان الذي يعرف القراءة والكتابة إنساناً عزيزاً على مجتمع الخليج التقليدي ينظر إليه باحترام ويكون لرأيه التقدير وربما جاء ذلك نتيجة جملة من العوامل أهمها في نظرنا أن من يقرأ ويكتب مرتبط في معظم الأحوال بالمراكز الدينية في المجتمع التقليدي بالخليج.

فالمطوع معلم الصبيان أو القاضي الشرعي وإمام المسجد كل هؤلاء تربط أعمالهم ومراكزهم بالقيام بالشعائر الدينية وحتى المطوع كان يعلم الصبية حفظ القرآن. كما أن العامل الاقتصادي كانت له أهمية لا تنكر حيث كانت القراءة والكتابة من مستلزمات التاجر الناجح.

لذلك فإن هذه المجتمعات بالفطرة تحترم المعلم حتى بمعناه الضيق وحاولت أن تتبنى أشكالاً من التعليم الحديث حتى قبل ظهور البترول أما الشكل التقليدي للتعليم فكان هو المطوع والمطوعة معلم ومعلمة الصبيان والبنات وفي بعض المناطق كان يطلق على القائم بهذا النشاط «المُلاّ».

هذا التعليم كان سائداً في الخليج وربما لقرون عديدة حيث يجتمع الصبية أو البنات في بيت أو طرف المسجد في كل حي أو قرية يتلقون على يد المطوع الذي يكون هو إمام المسجد أو المؤذن أو القاضي الشرعي للقرية أو الحي يتلقون درساً في قراءة القرآن عن طريق الحفظ والتلقين حتى يتعلموا قراءته.

من مظاهر الاهتمام بهذا النوع من التعليم ظاهرة الاحتفال بإنهاء المرحلة بعد حفظ القرآن.

---

(١) مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع - البترول والتغيير الاجتماعي في الخليج العربي ١٩٧٥ الدكتور محمد غانم الرميحي.

فيقوم أهل الطفل أو اليافع وفي بعض الأحيان يقوم أبناء حيه بإلباسه الملابس الجديدة الكاملة من العباءة حتى النعال ويطوفون به شوارع الحي فيما يسمى بالختمة أي اختتام مرحلة قراءة القرآن ومعرفة شيء من الكتابة ويردد دعاء يحمدون فيه هذا الإنجاز. وهذا يمكن أن ينظر إليه على أنه إعلان يظهر النتيجة واستعداد هذا اليافع إلى الدخول في قوة العمل وأن لديه شيئاً.

هذا الاحتفال يبين الأهمية التي يضيفها المجتمع على هذا النوع ومدى حاجته إليه إلا أن الوضع الاقتصادي آنذاك لم يكن يتيح له التوسع في التعليم.

كما أن الظاهرة الأخرى في هذا النوع من التعليم أنه يقوم على مستوى الحي أو القرية الصغيرة وبالتالي فإن المنضمين تحت لواء «المطوع» هم غالباً من أبناء الجيران الذين يعرفون بعضهم بعضاً معرفة جيدة، فلا يختلف مجتمع الحيرة عن مجتمع «المطوع» أو الكتاب، كما أنه في العادة لا يترك «المطوع» تعليم هؤلاء الصبية قراءة القرآن وبعضاً من الكتابة والحساب فقط وإنما يترك له حرية تأديبهم أيضاً بالوسيلة التي يراها ناجحة. ولذلك فإن المجتمع الصغير ينظر إلى سلطة المطوع على أنها موازية ومشابهة لسلطة الأب في الأسرة فهو بالتالي «والد الجميع ومعلم الأولاد» وربما هو الرجل الذي يلجأ إليه أبناء الحي في مشكلاتهم.

ويبدو اهتمام أبناء الخليج بالتعليم في أنهم قبل النفط حاولوا في أكثر من مكان إنشاء مدارس على النمط الحديث، وعلى الخط الذي رآه بعضهم في العراق أو في مصر أو ربما في الهند، في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن إلا أن هذه المحاولات تعثرت في بعض الجهات وتراوحت بين التعثر والاستمرار في جهات أخرى حتى جاءت الدولة ـ بفائض مالها النفطي وأخذت على عاتقها هذه المهمة.

التعليم في الكويت والخليج أيام زمان[1]

وهناك العديد من المدارس منتشرة في مختلف أحياء الكويت وتقتصر هذه المدارس على تعليم القرآن الكريم وتعليم الحروف الهجائية ومبادىء مبسطة من الحساب وتحسين كتابة الخط العربي.

كيف يحصل الملا على أتعابه من التلاميذ؟

هناك طرق عديدة لتحصيل الأجور وكان معظمها يدفع في المناسبات الدينية والأعياد ولكل مناسبة نوع من الأجور وأما الطرق فكانت كالآتي:

١/ الدخلة

يدفع ولي الأمر مبلغاً من المال كرسم دخول ويعتمد المبلغ على إمكانية ولي الأمر المالية.

٢/ اجور الخميسية

يدفع الطالب مبلغاً من المال في كل خميس يذهب فيه إلى المدرسة ويعتمد أيضاً على استطاعة ولي الأمر.

٣/ اجور النافلة

يدفع الطالب مبلغاً من المال أو ما تيسر من قليل من القمح أو الأرز أو التمر في المناسبات الدينية.

(١) تاريخ التعليم في الكويت والخليج «أيام زمان» وحكايات يرويها صالح جاسم شهاب الجزء الأول.

٤/ أجور العيدية

يدفع الطالب مبلغاً من المال حسب استطاعة ولي أمره وتكون إما قبل العيد أو بعده بأيام.

٥/ أجور الفطرة

يدفع الطالب مبلغاً من المال يعادل ما قيمته ستة أرطال من القمح أو من الأرز أو من التمر.

٦/ الجزء

يحتوي القرآن الكريم على ٣٠ جزءاً، إلا أن هناك شيئاً متعارفاً عليه بأن اختير ثلاثة عشر جزءاً من القرآن وكلما اجتاز الطالب جزءاً من الأجزاء يدفع مبلغاً من المال لا يتجاوز ٧٥ فلساً.

٧/ الختمة

بعد أن يختم الطالب جميع أجزاء القرآن الكريم البالغة ثلاثين جزءاً يدفع الطالب حسب حالة والده المالية ما بين ٢٠ روبية إلى ٤٠ روبية في حالة عدم استطاعة الطالب دفع مثل هذا المبلغ ينظم للطالب جولة لزيارة بعض البيوت الكويتية وخاصة التجار.

وهناك بعض الموسرين الذين يتفقون مع الملا أنه في نهاية تعلم أبنائهم القرآن الكريم بأكمله يدفعون مبلغاً من المال عندما يختم القرآن بجميع أجزائه الثلاثين وفي هذه الحالة لا يدفع ولي الأمر أي شيءٍ من الأجور التي ذكرتها سابقاً في مختلف المناسبات.

كتاتيب تعليم القرآن

التعليم في جزيرة فيلكا[1]

كان التعليم في الجزيرة عبارة عن كتاتيب يقوم أصحابها بتحفيظ القرآن الكريم للأولاد والبنات، كما كانت هناك نسوة يطلق عليهن اسم «مطوعات» يقمن بتحفيظ القرآن الكريم للبنات.

وقد تنفرد بعض هذه الكتاتيب بتعليم الأولاد مبادىء القراءة والكتابة والحساب بالإضافة إلى دروس النحو والتجويد. ويختلف المستوى الفكري للطلاب في هذه الكتاتيب فالبعض تمتد فترة تحفيظه إلى سنتين أو أكثر وقد يختتم البعض القرآن في ستة أشهر.

طريقة التدريس:

يجلس الأولاد على شكل حلقة دائرية ويبدؤون الدرس بترديد ما حفظوه من السور بصوت جماعي مع تحريك أجسامهم إلى الأمام والخلف أثناء التلاوة ثم يقوم الملا بعد ذلك بالاستماع إليهم واحداً واحداً.

العقاب:

كان المعلم يعاقب الأولاد الدارسين عقاباً شديداً في بعض الأحيان يسعى إلى الضرب «بالخيزرانة» في معظم الأوقات كان يستعمل «الفلقة» في تأديب كل من يقصر أو يحاول أن يتهرب من الدرس أو يشاغب.

ختم القرآن

وعند ختم أحد الدارسين للقرآن الكريم يحتفى به من قبل معلمه وزملائه

---

(١) التعليم في جزيرة فيلكا ـ خالد سالم محمد ـ الكويت الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

يدورون به على منازل الجزيرة وهو في كامل زينته.

أشهر كتاتيب الجزيرة

أهم الكتاتيب التي كانت موجودة في الجزيرة في بداية القرن هي:

أولاً كتاتيب الأولاد:

١/ كتاب الملا عبد القادر حسن السرحان والد الملا معروف كان يدرس القرآن الكريم فقط.

٢/ كتاب الملا محمد عبد القادر حسن السرحان والد الملا عبد القادر يدرس إلى جانب القرآن الكريم مبادىء القراءة والكتابة.

٣/ كتاب الملا معروف عبد القادر يدرس القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة.

٤/ كتاب الملا عبد القادر محمد عبد القادر يدرس القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة.

٥/ كتاب الملا محمد عبد الرحمن التركيب يدرس القرآن الكريم.

٦/ كتاب الملا إدريس اسماعيل إدريس يدرس القرآن الكريم.

٧/ كتاب الملا عبد الرحمن البهبهي يدرس القرآن الكريم.

ثانياً ـ كتاتيب البنات «المطوعات»:

١/ زوجة الملا عبد الرحمن البهبهي وابنته.

٢/ زوجة الملا علي طالب.

٣/ زوجة سلطان سنكيس وأخته أمينة.

٤/ المطوعة أم سلامة.

اقتراح

الأسلوب الذي اتبعه أسلافنا في إشاعة التعليم في تقديري أسلوب فريد يستحق كل اهتمام ويتلخص في أن المجتمع هو المتكفل بحمل أعباء التعليم في الخلاوي. وقد ظل حفيظاً على حمل هذه الأمانة العظمى عبر القرون وإلى يومنا هذا، وإن ضعف ذلك بعض الشيء بفعل الكثير من سلبيات العصر.

لقد هبط المستعمر ديارنا وهو يحمل مدارسه التي أسماها النظامية والرسمية ووضعها بيننا وأحاطها بأعلى قدر من الرعاية والحظوة وشمل خريجيها بالعناية أثناء الدراسة وبالوظيفة ذات الدخل الثابت والمكانة الاجتماعية المرموقة، الأمر الذي جعل النظرة إلى تعليمنا الأساسي الذي يقوم في بيوت الله لدراسة كتاب الله نظرة دونية كلها تحقير وتهميش، وبالرغم من ذلك ظل تعليمنا بالخلوة سائراً، وظل مجتمعنا حاملاً جل أعبائه المادية وأعني تلك الرعاية التي يجدها طالب الخلوة الذي هجر أهله ودياره وهو لا يملك إلا الرغبة الصادقة والعزيمة القوية في مواصلة الجهد لاستكمال حفظ كتاب الله، وينطق متوكلاً على الله ومعتمداً عليه، ويسخر الله من بين أفراد المجتمع نفراً ممن حباهم الله حب المساجد والخلاوي فيحمل العبء ويتكفل بأمر طعامه وشرابه وسكنه ورعايته ويكفل له بذلك الاستقرار الدراسي والنفسي..

أم درمان

وذلك ما كان يجري في أم درمان النابضة أبداً بالوطنية والعراقة السودانية فيها قامت الخلاوي والمعاهد العلمية وفي طليعتها معهد أم درمان العلمي العتيق والذي كان من ثمراته الجامعة الإسلامية التي حملت اسم مدينة أم درمان التي حمل أهلها عبء التعليم الديني ثم تلتها الجامعة الأهلية وظلت بعض بيوت مفتوحة لإيواء الطلبة لعشرات السنين يقصدها الطالب بثبات ويقين فيجد فيها الترحاب والمأوى

والمأكل والملبس ونذكر من هذه البيوت على سبيل المثال:

١/ بيت الإمام عبد الرحمن المهدي ـ ودنوباوي.

٢/ بيت السيد علي الميرغني ـ بيت المال.

٣/ بيت السيد الحسن الإدريسي ـ الموردة.

٤/ بيت عثمان صالح ـ ودنوباوي.

٥/ بيت الخليفة حسن سوار الذهب ـ السوراراب.

٦/ بيت الشيخ قريب الله ـ ود نوباوي.

٧/ بيت الشيخ الجزولي التلب ـ أبي روف.

٨/ بيت الشيخ محمد ود عبد الماجد ـ فريق ود الماجد.

٩/ بيت الشيخ البنا ـ ود البناء.

١٠/ بيت الشيخ عمر الإمام ـ القلعة.

١١/ بيت الشيخ أحمد باعبود ـ الموردة.

١٢/ بيت الشيخ بابكر بدري ـ البوستة.

١٣/ بيت السيدة أم الكرام الخليفة شريف ـ ودنوباوي.

١٤/ بيت السيدة زينب عبد القادر «حنينة» ـ العباسية.

١٥/ بيت آل الأمير نقد الله ـ ودنوباوي.

١٦/ السيدة زهراء السيد عبد الرحمن ـ فريق الأمراء.

١٧/ بيت آل طلب ـ القلعة ودنوباوي.

١٨/ بيت آل إسحق ـ بيت المال.

١٩/ بيت الشيخ دفع الله ـ فريق الشيخ دفع الله.

٢٠/ بيت الشيخ مصطفى الشيخ الدسوقي حي العرب.

وعذراً لمن لم تشملهم هذه القائمة المختصرة من الذين ساهموا في هذا المبدأ وما زالوا.

نموذج لأفعال هؤلاء الكرام

وتجديداً لهذا العمل الوطني المجيد أتقدم بالاقتراح الآتي:-

أن تتكون في الأحياء والمساجد لجان لحصر الطلبة الذين هم في حاجة إلى رعاية، وحصر الفضلاء الذين يتقدمون لحمل أعباء رعاية من يستطيعون إيواءهم من الطلبة «إقامة، وإعاشة، ورعاية» ثم القيام بتوزيع الطلبة عليهم ومتابعة ما يتم من إنجاز.

وفي تقديري أن الفضلاء بأمدرمان الآن يستطيعون إيواء كل الطلبة الذين يفدون من الأقاليم ولا سيما بعد أن امتصت جلهم الجامعات الجديدة «ولا سيما البنات اللائي هن أحق بالرعاية».

بهذا الأسلوب الذي سار عليه أسلافنا ستنشأ علاقة حميمة بين هؤلاء الطلبة وأسرهم الجديدة. وإنها لعلاقة محبة وود وتقدير، إننا نجد كما أسلافنا نماذج لهذا في شرق السودان وغربه ووسطه وشماله، وإذا ما برز هذا العمل الجليل في ثوب حديث فإنه سيجذب بلا شك الكثيرين للمساهمة فيه، ولا يخالجني أدنى شك في أن المدن الأخرى وعلى اتساع القطر ستحذو حذو أمدرمان، بهذا سيصبح إيواء الطلبة عادة جارية تتناقلها الأجيال عن رغبة وطواعية، هذا فضلاً عن ثوابها عند الله وإن تحقق هذا نكون قد أحيينا سنة اجتماعية كادت تندرس.

الاقتراح الثاني:

أن تضع الدولة هيكلاً وظيفياً خاصاً بحفظة القرآن الذين يتخرجون في

المعاهد العليا والجامعات كأن تمنحهم درجة أو درجتين فوق رصفائهم تكريماً وتشجيعاً. ونسأل الله التوفيق.

صور وخط وزخرفة

ضمن هذا الباب صور لبعض المشاهد في المسيد أملي أن تتآزر الصورة مع مضمون الكتاب وهي صور لا تحتاج لشرح. ثم أوردت نماذج للخط وهو خط الخلوة المعروف في بلادنا كما عثرت على خط الناسخ المشهور إبراهيم ود دليل «من أهالي المتمة» ونماذج من الزخارف حتى كان بعضها على مخطوطاته واشتهر الرجل في المهدية وبعدها وكان يخط المصحف وراتب الإمام المهدي إلخ وخطه لفت أنظار أهل حذاقة هذا الفن فقد كان يخط خطاً بارعاً أقرب إلى الفارسي ومن حسن حظي أن عثرت على توقيعه وقد وقعه في نهاية كتابته لراتب الإمام المهدي. وكان شعراء الغزل والنسيب يشبهون حاجب الحسناء بخط ود الدليل. قال الشاعر ود الطاش وهو من شعراء الدارجة والفصحي:-

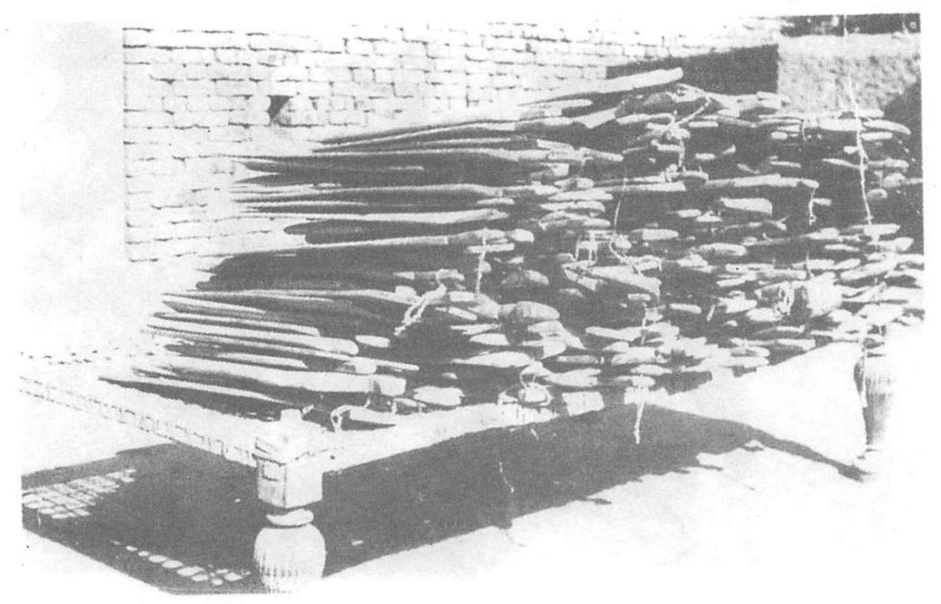
احترت حار بيَّ الدّليلْ
كسْ للماك ما لقيت دليلْ
كاتْلاني عندك عليك دليلْ
حاجبيك صادْ ودّ الدليل

كذلك سقت ما تيسر لي من الزخرفة وهو فن مشهور في العالم الإسلامي وعند خطاطي المصاحف، وأغلب الزخارف لها دلالات ورموز يعرفها أهل هذا الفن وبعض القراء الحذاق، وعموماً فهي شيء جميل يدركه من له أدنى قدر من الذوق. أرجو أن ينتبه أهل فن الخط لهذه الأشياء وهي كثيرة حبيسة المكتبات والأضابير في المسيد.



بعض طلاب المسيد يمحون ألواحهم في حجر المحاية

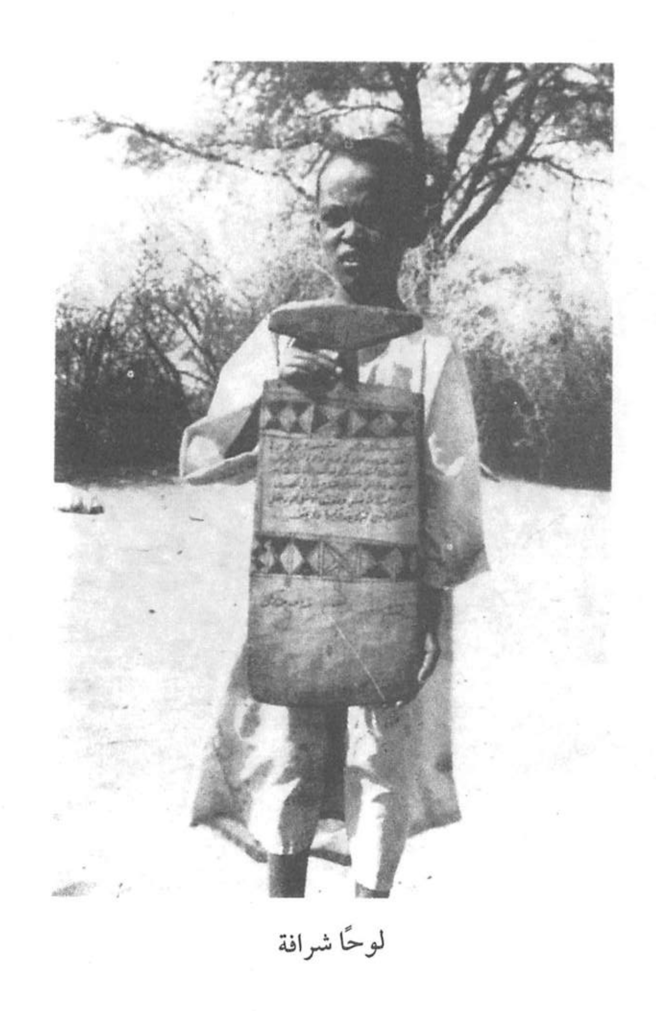
طالب من مسيد ود الفادنى



حفظ الألواح على سرير القده ويقوم مقام «الكَبَسْ»



شيخ القرآن يراجع مع الطالب



لوحًا شرافة



صورة لطالبات مسيد همشكوريب وهن عدد كبير ولا يسمح المسيد
بأخذ الصورة من الأمام أخذت الصورة من الخلف

مجموعة من طلاب المسيد تحت ظل شجرة ضخمة



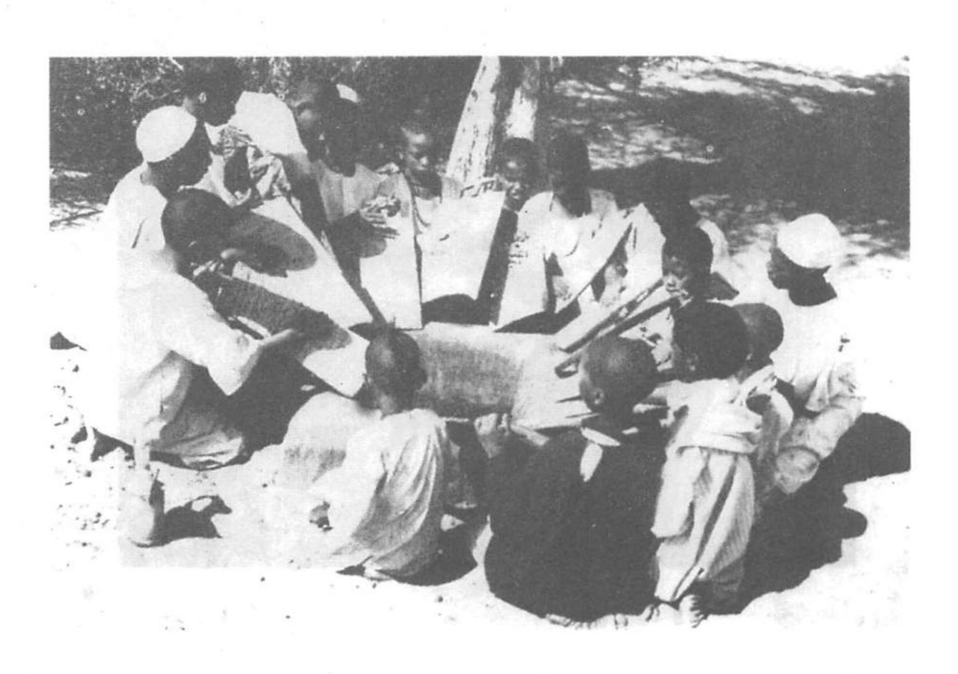
مشهد لخلوة بالنيل الأبيض دار محارب



مشهد لطالب مضروب عليه القيد



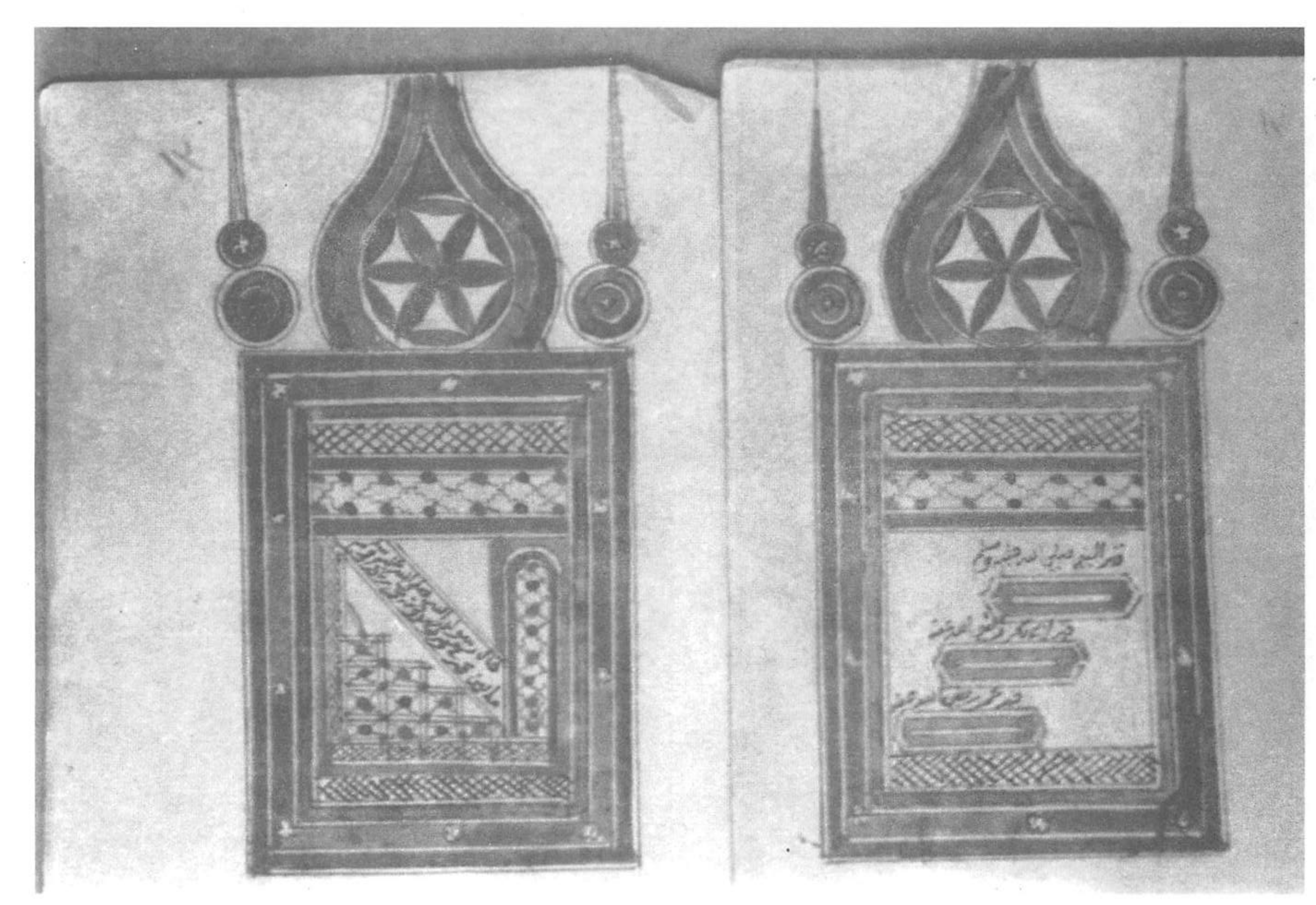
طلبة مقيدون



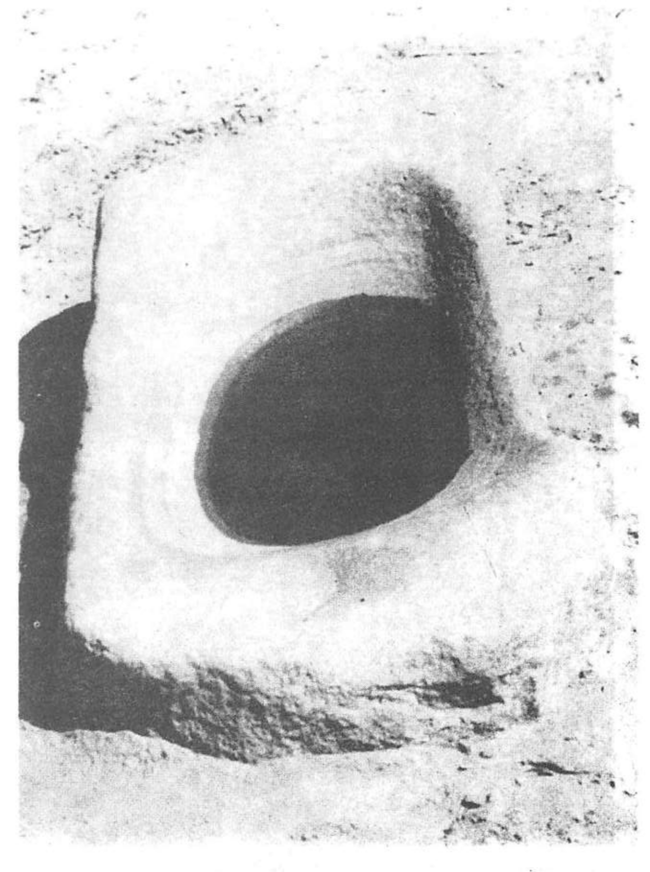
محو الألواح في حجر المحاية



حلقة قرآن حول النار



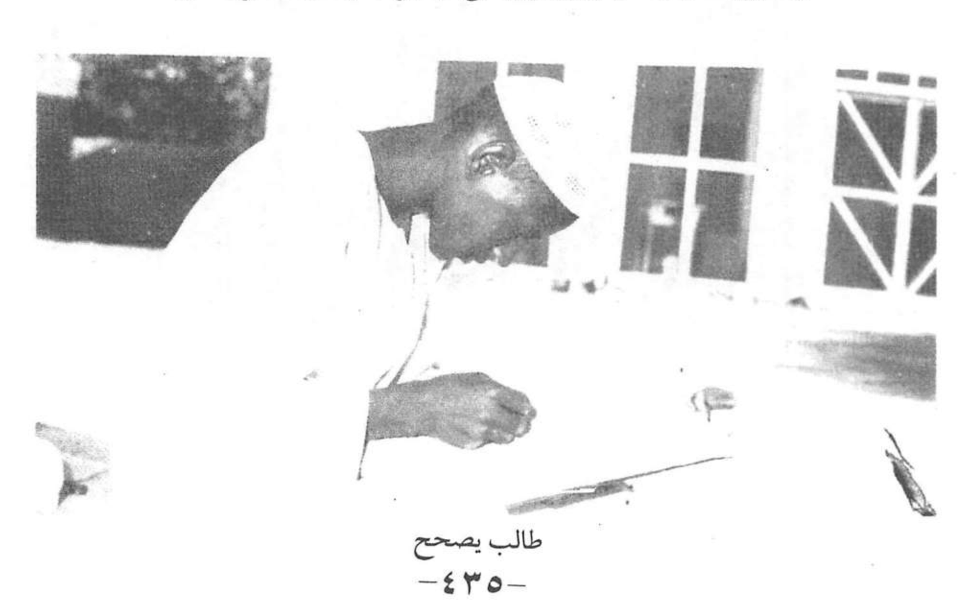
زخرفة الخط فى المسيد وهو فن خاص



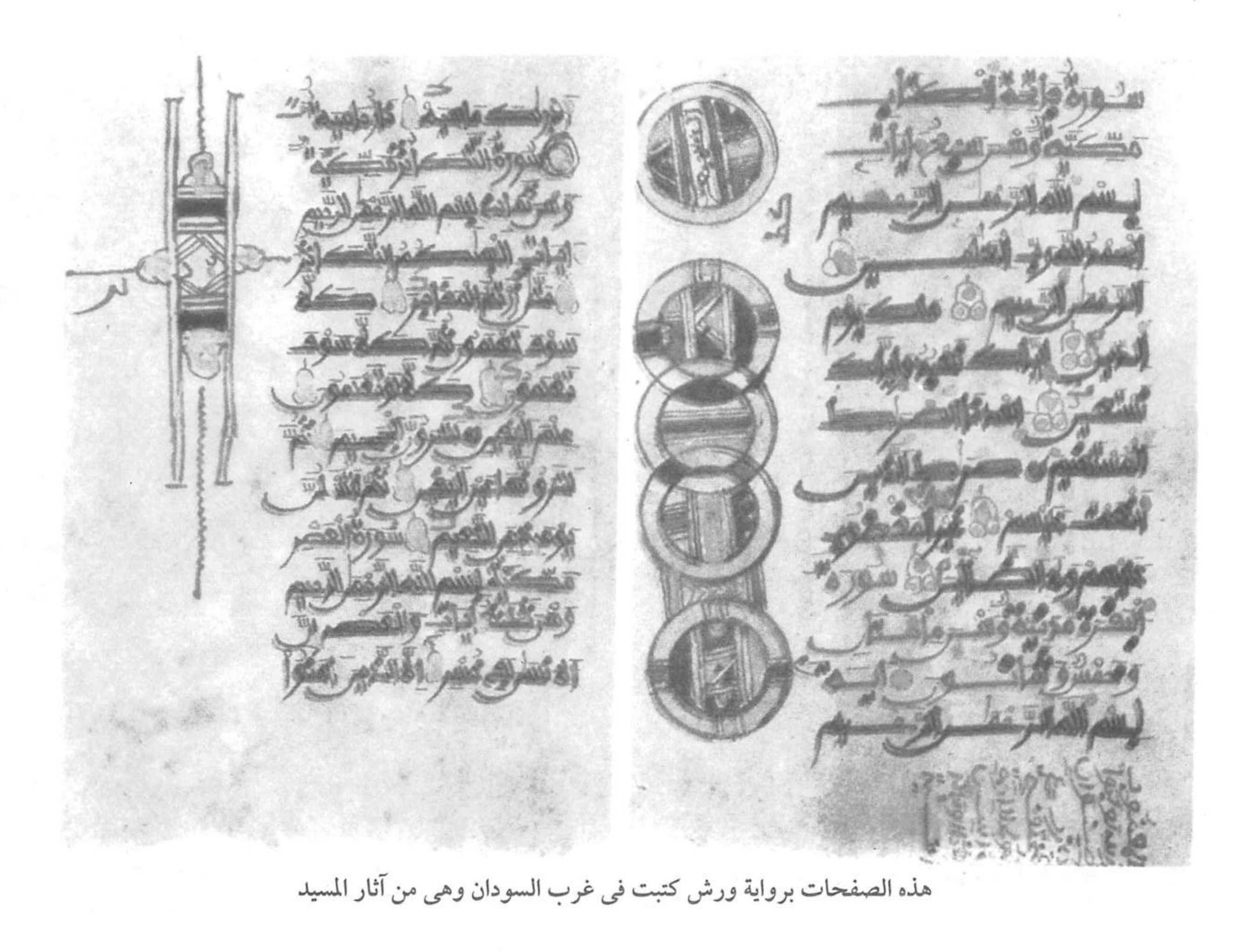
حجر المحاية فى مسيد الدامر العتيق



هذه اللقطة من مسيد ود نعمان ريفى الحوش الطلبة
حول نار القرآن وخلفهم شجرة ظليلة من (الآراك) وهى شجرة (واحدة)
ولكنها تمددت وطالت وترمى ظلالها علي أطراف المسيد السيقان التى تلاحظ
فى الصورة هى أعواد يابسة جعلوها سنداً لفروع الشجرة الأم حتى لا تزحف على الأرض
وتضيق المكان والطلبة يأوون إليها فى الهاجرة فسبحان مسخر الأشياء



طالب يصحح



هذه الصفحات برواية ورش كتبت فى غرب السودان وهى من آثار المسيد



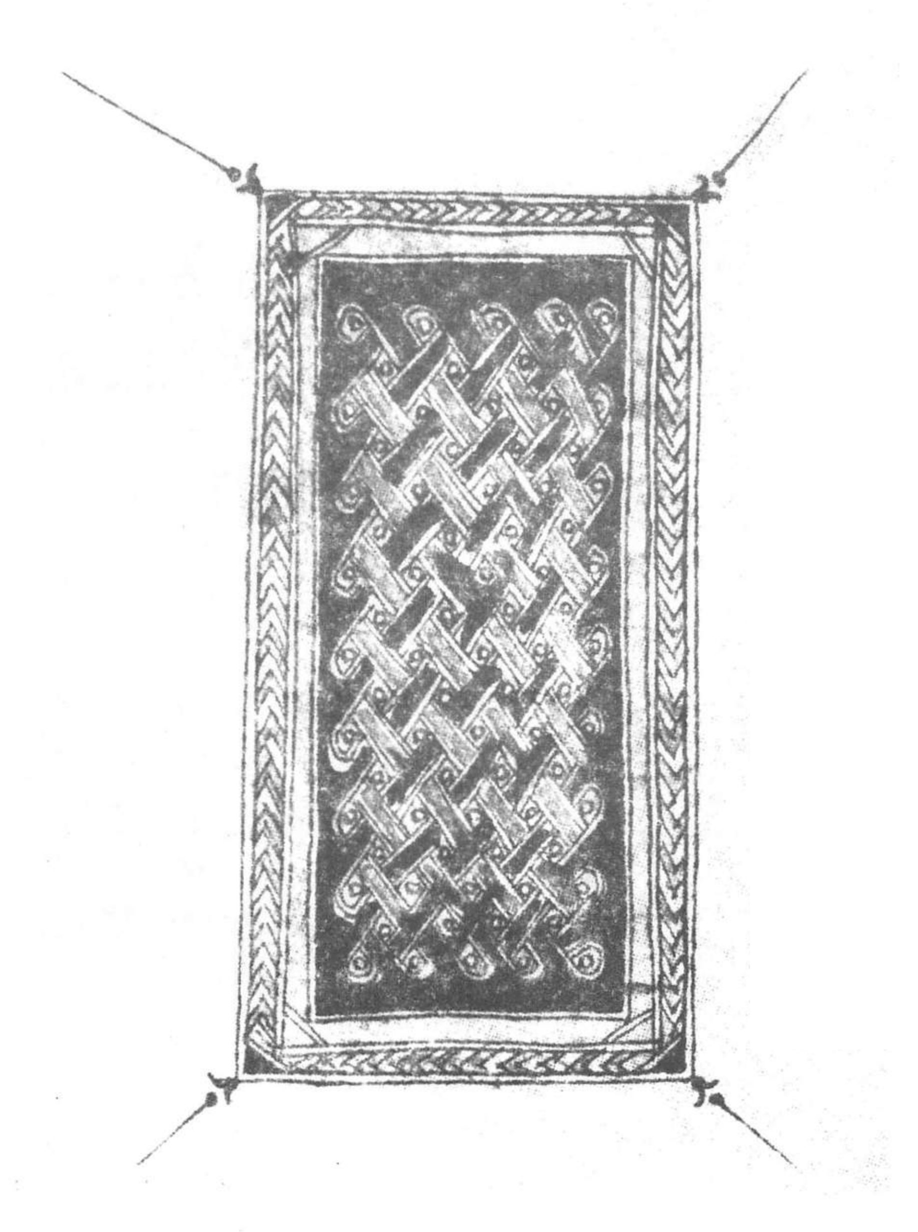
طالبان يحملان لوحيهما وعليها الزخرفة المعروفة بالشراقة



طريقة خاصة للحفظ «ركن الألواح على بعضها»



لوح الشرافة



زخرفة من مصحف أثرى

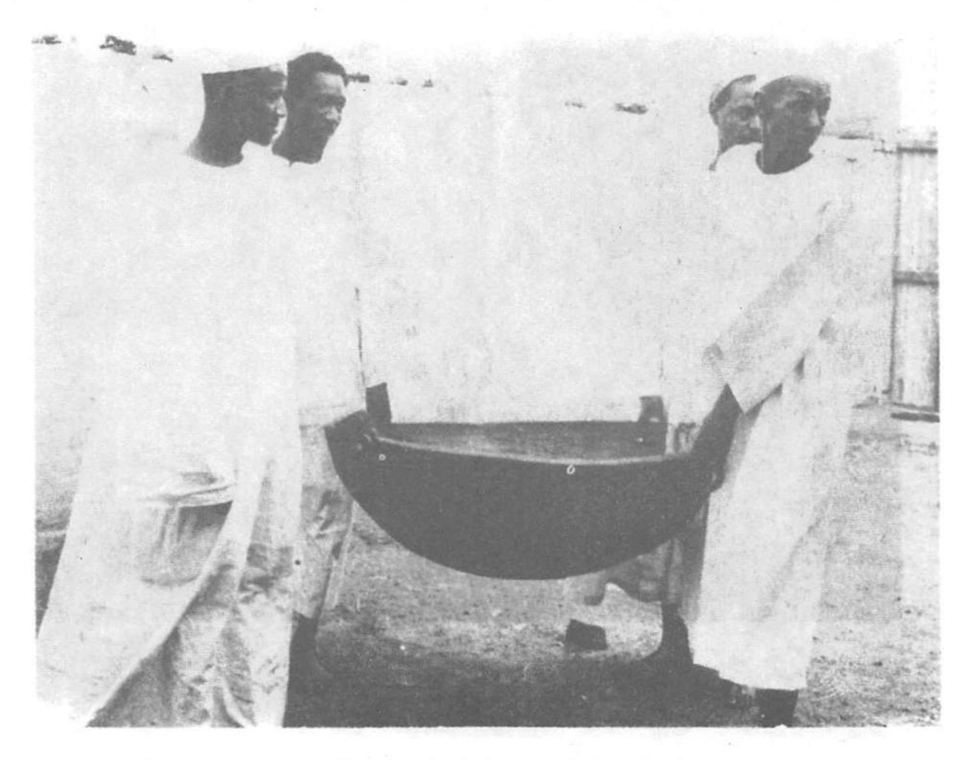




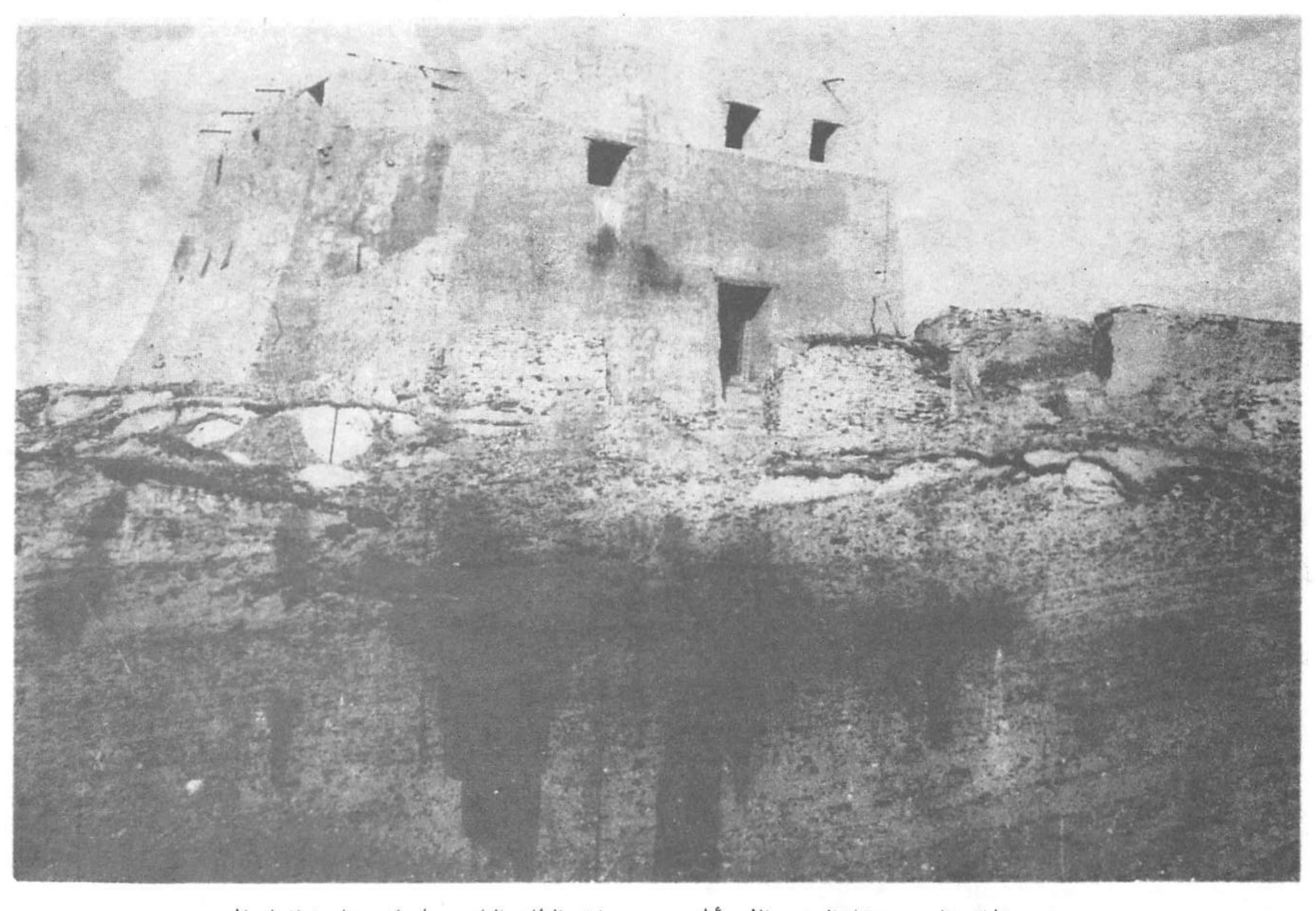
خط وزخرفة ١٣٠٧ هـ



الشيخ الريح خليفة مسيد ود الفادنى يوزع الشاي على الطلبة



جفنة وجرى العرف أن يأكل الطلبة فى الجفان (القدح) الكبير وهى من تراث المسيد



قصر الحاكم النوبي بدنقلا العجوز الذي ألحق به مسجدا في الطابق الثاني وعليه كتب تاريخ افتتاح المسجد

كتاب الطرازي في شرح ضبط الخرازي

هذا الشرح المسمي شرح الضبط والاصح انه شرح الضبط الخاص برسم القرآن العظيم للامام الاعظم محمد بن عبد الله التنسي رحمه الله تعالى ورضي عنه آمين

نافع بالمدينة — قالون، ورش
عبد الله ابن كثير بمكة — قنبل، البزي

ابو عمرو بالبصرة — السوسي، الدوري

عبد الله ابن عامر بالشام — ابن ذكوان، هشام

عاصم بالكوفة — حفص، شعبة
حمزة بالكوفة — خلاد، خلف

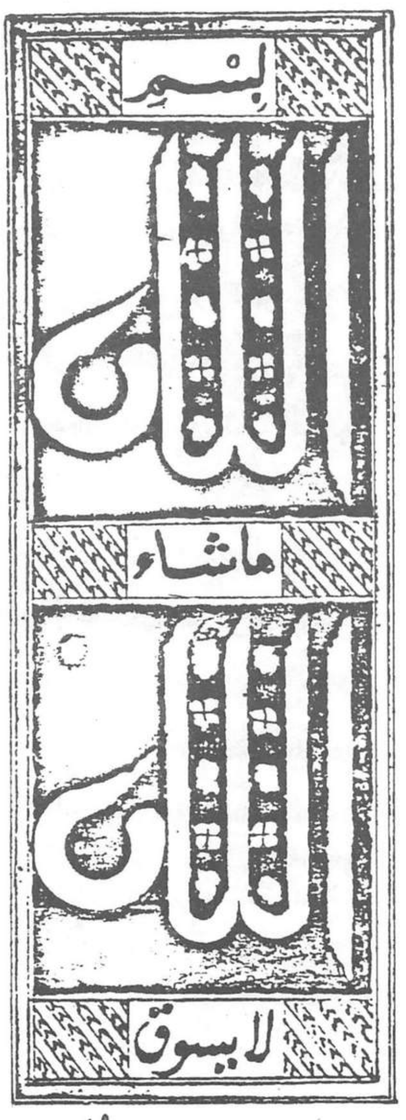
علي الكسائي بالكوفة — الدوري، الليث

أنموذج لكتاب الطرازى الذى ينقلون عنه طريقة الرواية والتجويد

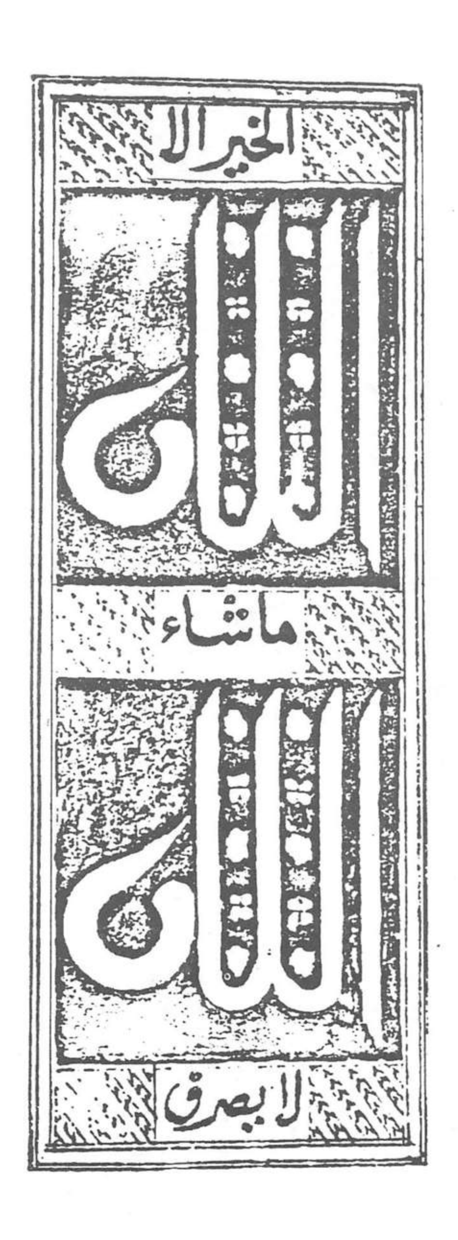
ولا ينشد لهم شمه ولا يتعرض لشيء من صيد البر في الحرم
ولا يخبره ولا يذبح صيدا صادا ومحلا لا وحرام وله ذبح
الطير الذي لا يطير كالاوز والدجاج فان قتل شيا من
الصيد فعليه جزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم
هديا بالغ الكعبة او كفارة طعام مساكين او عدل ذلك
صياما ومن فعل شيا من الممنوعات التي لا تفسد الحج كلبس
ثيابه او تغطية راسه او حلقه او نحو ذلك فعليه الفد
ية وتتكرر بتكرر الفعل الا في اربع مسايل احدها
ان يظن ان فعل ذلك مباحا الثانية ان يفعل المتعدد
في فور واحد كان يلبس ويغطي راسه ويقلم اظفاره
ويقتل القملة ونحو ذلك دفعة واحدة من غير تراخي
الثالث ان ينوي التكرار فان نواه فلا تكرار في الفدية

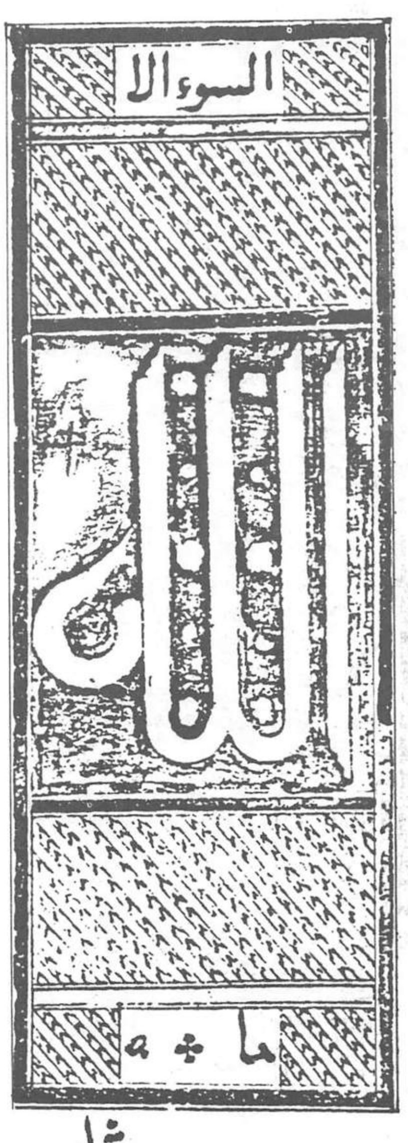
انموذج للخط في المسيد

فن الخط فى المسيد



الخير

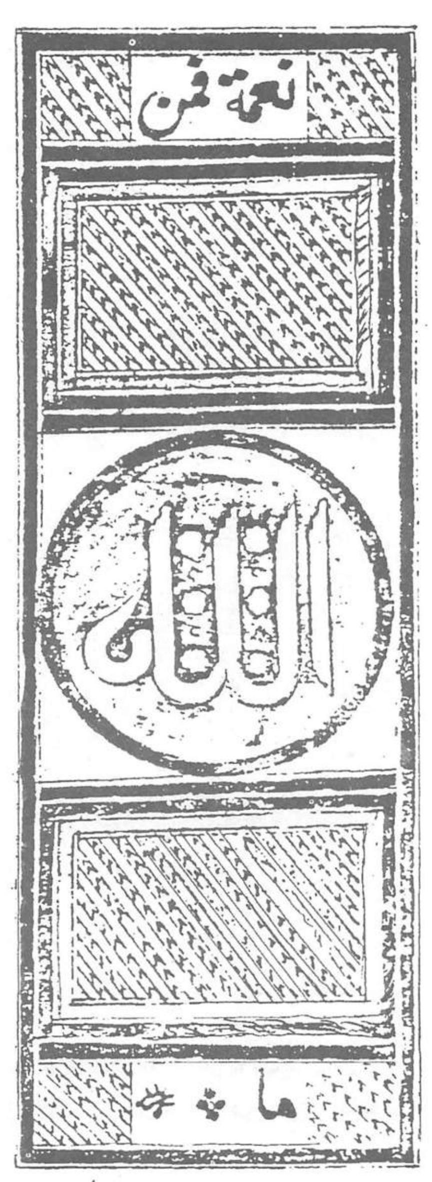




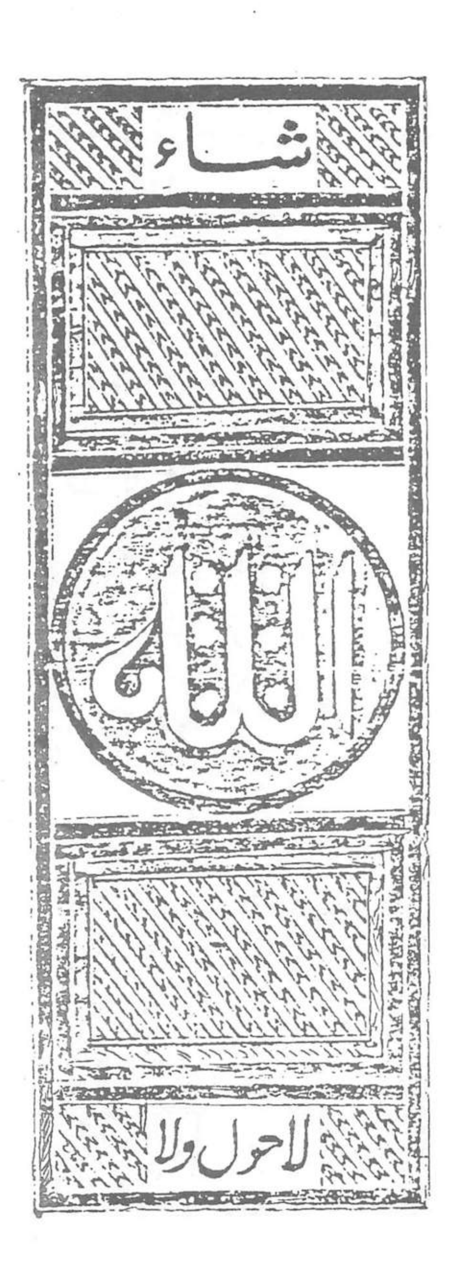
السوء الا
ما ✢ ه
شاء

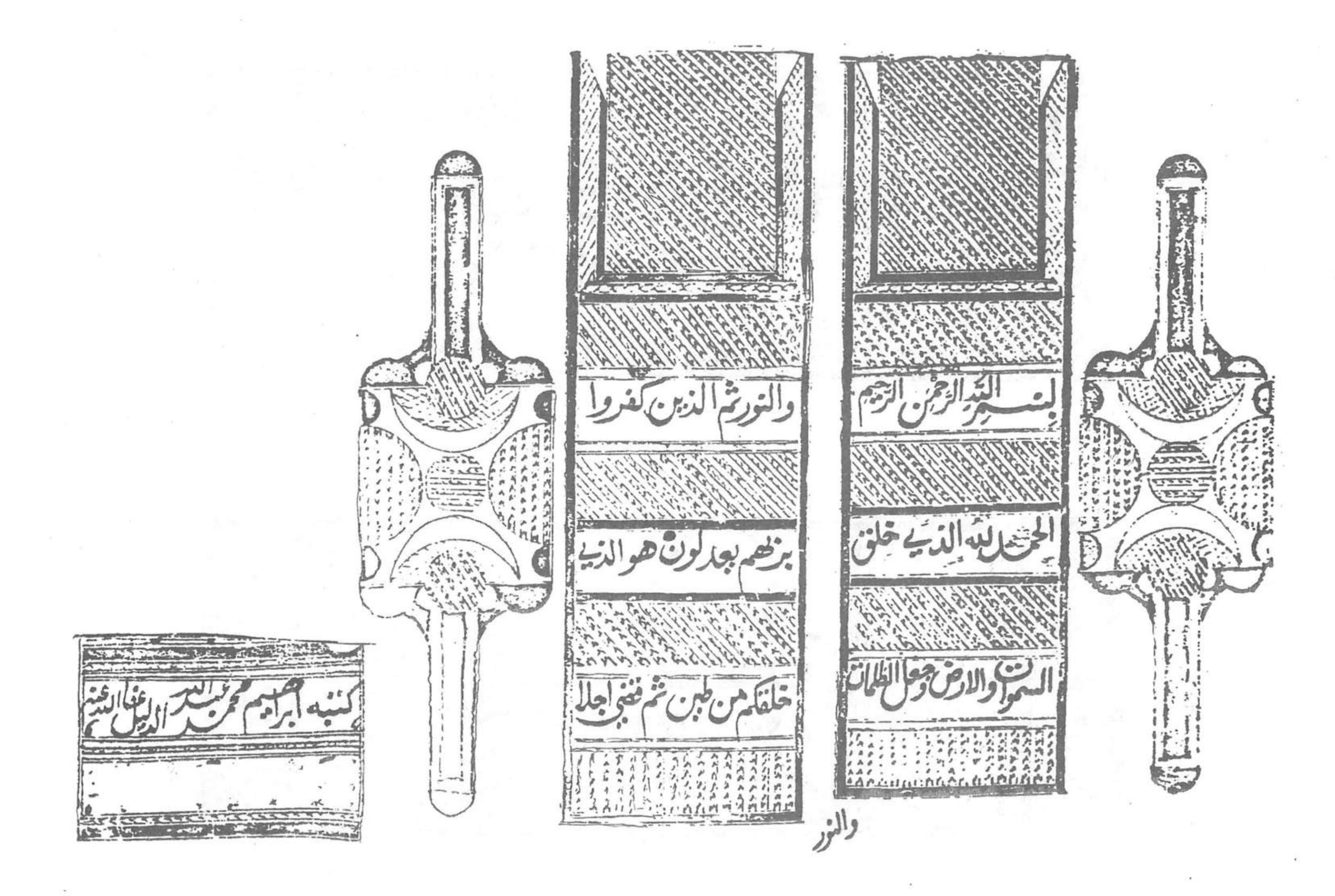


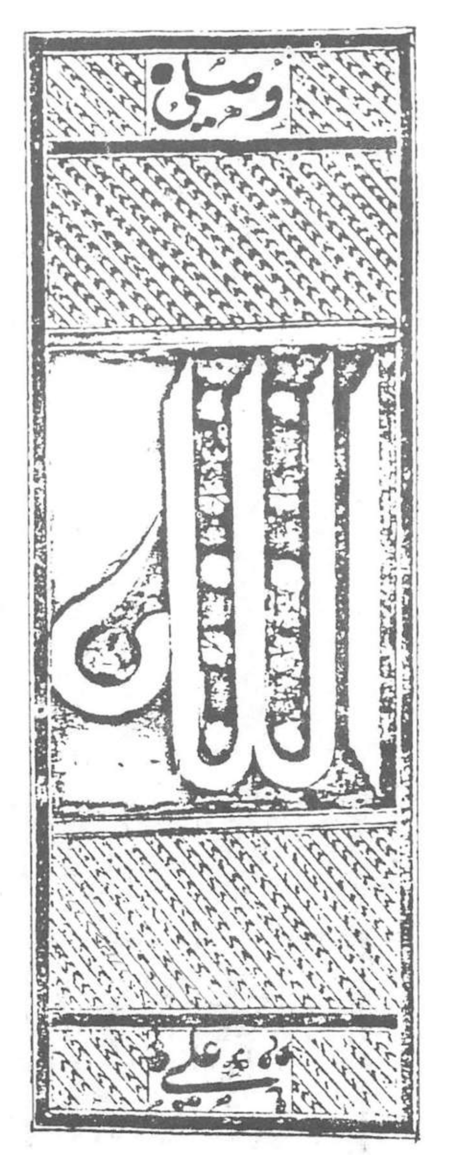
شاء
ما كان من



شاء




بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي خلق
السموات والارض وجعل الظلمات
والنور ثم الذين كفروا
بربهم يعدلون هو الذي
خلقكم من طين ثم قضى اجلا
والنور
كتبه ابراهيم محمد



سيدنا



طلائع الدعاة[1]

مَن الذي يزرع الفيافي ... مغبراً جسد في المسير

يذوب من رقة ولكن ... تحفه هالة الجسور

وقد نضا للهجير وجهاً ... فلاحه لافح الهجير

يعاند الصخر مستذلاً ... بعزمه جبرة الصخور

له رفيقان من عصاه ... وحزمة من سطور نور

وتارة فاخر السجايا ... وكبرياء الفتى الفقير

وإن في ناظريه عمقاً ... يشف عن مقصد كبير

أقام في موحش قصي ... قد انتحى في الجبال غارا

تكاتفت فوقه الليالي ... وهيمنت حوله الصحارا

غدا له صخره أنيساً ... فعاد لا يذكر الديارا

يرود آفاق مهلكات ... بحيث لا يأمن العثارا

تراه وهو اليقين صرفاً ... لدى بواكيره تمارا

وربما لاح منه كون ... يساقط الظل والثمارا

وربما أزعجته خيل ... نشرن من حوله الغبارا

وشاقه الفجر وهو نبع ... يحور عند الشروق نارا

وهدأة الغاب في الدياجي ... ووحشة الشمس إذ توارى

وأرغن للرعاة غنى ... فهاج في نفسه ادكارا

---

(١) قصيدة طلائع الدعاة للشاعر الفذ الأستاذ عبد الله الشيخ البشير رحمه الله فقد درس في المسيد ودَرّس فيه.

وأتــــرع الســــر جانبيـــه وهــب مـــن غـــاره وســـارا

يحــوس بيـــن الربـــا مصيخـــاً عليـــه إطراقـــه الحيـــارا

أفـــاض مـــن روحـــه عليهـــم فـــأرث العـــزم فـــي الكســـالى

وصـــاح فيهـــم إلـــى المعـــالي فـــأقبلوا نحـــوه عجـــالى

وكـــان مـــا كـــان فاســـتفاقوا علـــى الـــدَّوِي الـــذي توالـــى

فمـــد آراءهـــم بشـــورى ورد أقوالهـــم فعـــالا

فشـــيدوا «للمســـيد» داراً بهيـــة فاســـتوى جـــلالا

وراء أهـــل القـــرى منـــاراً علـــى الهضـــاب العـــلا تـــلالا

وفجـــروا فـــي الفـــلاة نهـــراً تجيـــش أمواجـــه زلالا

* * *

الخلوة

هب من نومه يدغدغ عينيه مشيحاً بوجهه في الصباح
ساخطاً يلعن السماء وما في الأرض من عالم ومن أشباح
حنقت نفسه وضاقت به الحيلة واهتاجه بغيض الرواح
وأهابت به الظلال وقد نشرن في جلوة القرى والبطاح
طوفت في خياله ذكريات الروع واعتاده مطيف الجماع
ومشى بارماً يدفع رجليه ويبكي بقلبه الملتاح
ضمخت ثوبه الندواة وروت رأسه من عبيرها الفواح
ثورة صورت خوافي ما بين حنايا صبينا من رياح

* * *

ورمى نظرة إلى شيخه الجبار مستبطناً خفي المناحي
نظرة فسرت منازع عينيه ونمت عما به من جراح
حبذا «خلوة» الصبي ومرحى بالصبا وعبقري وشاح
وظلال من الضحى ظفرت منها بعقد من الصباح لماح

* * *

زهرات شتى منوعة الألوان من سوسن الربى والأقاحي
متعت شمسها فعاودها ألف هو يستقيدها للمراح
ونفوس سجى الكرى في حواشيها ودب الفتور في الأرواح
فأرجحت مهومات ما تبرح مركوزة على «الألواح»

كلمـــا لفهـــا النعــــاس وأضفـــى فوقهـــا عالمـــاً نــــدي الجنــــاح
قصـــف الرعـــد فـــي المكــــان ودوى مرزماً صاخباً قوي الصياح
فاســـتفاقت وهيمنـــــت بعـــض أشياء وعـادت وعـاد قصـف الريـاح

* * *

صـــــور للصبـــــا الأغـــــر موشـاة بأحلامـه وضـوء الصبــاح
يدفــــق البشـــــر مـــــن مفاتن دنياها ويفتر عن سناً وضاح[1]

(١)قصيدة للشاعر النابغة التحاني يوسف بشير رحل عن دنيانا وهو في نضارة الشباب وعمره ٢٧ سنة وقد خبر الخلوة والدراسة فيها وأسرته من أهم الأسر التي مارست تدريب القرآن.

قصيدة الشيخ فرح ود تكتوك

بعنوان الحكمة

يـا واقفـاً عند أبـواب السـلاطين ... ارفـق بنفسـك مـن هـم وتحزيـن

تـأتي بنفسـك فـي ذل ومسـكنة ... وكسـر نفـس وتخفيـض وتهويـن

من يطلب الخلق في جلب لمصلحة ... أو دفـع ضـر فهـذا فـي المجـانين

وكمـا يحـاكي لمسجون يـدوم لـه ... وكم من السجن في أيدي المسـاجين

إن كنـت تطلـب عـزاً لا فنـاء لـه ... فـلا تقـف عنـد أبـواب السـلاطين

ولا تصـاحب غنيـاً تسـتعز بـه ... وكـن عفيفـاً وراعـي حرمـة الديـن

فـالطمع يرميك فـي ذلّ ومهلـكة ... ومـا يفيـدك إلا كـل تهويـن

والقـانع نـام قريـراً لا كصاحبـة ... كمـا تنـام غصـون فـي البسـاتين

فثـق بربـك لا تبقـى سـواه حمـى ... والـرزق منزلـة فـي ختـم يسـن

وكم جرى طامعـاً في البيـد مغترباً ... ولم يجد قصده في الشـام والصيـن

كم دودة في عميق الأرض في حجر ... يـأتي لها رزقهـا في التـو والحيـن

ألا الـزم العلـم والتقـوى مـا نتجـت ... مـن الثمـار تفـز بـالخرد العيـن

خـل الملـوك بدنيـاهم ومـا جمعـوا ... وقـم بدينـك مـن فـرض ومسـنون

واستغن بالله عن دنيـا الملوك كمـا ... استغنى الملـوك بدنيـاهم عـن الديـن

واعلـم بـأن الـذي ترجـو شـفاعته ... عـن البريـة مسـكين بـن مسـكين

لا يقـدر العبـد أن يعطيـك خردلـة ... إلا بـإذن الـذي أنشـاك مـن طيـن

مـا لـي أذل لمخلـوق وأسـأله ... وإن سـألت الـذي أعطـاه يعطيـن

الديـن كـنز عظيـم لا فنـاء لـه والمـال عاريـة واللـه يغنيـن

مـن بـاع دينـاً بدنيـا واستعز بهـا كأنمـا بـاع فـردوس بسـجّين

فلقمـة مـن طعـام البُرّ تُشْبِعُنِ وجرعـة مـن قليـل المـاء ترويـنِ

وقطعـة من قليـل الثـوب تسـترني إن مت تكفنني أو عشت تكسينِ

الحمـد للـه قـد تمت قصيدتنـا ونشـكر اللـه فـي سـر وتعليـن

فـرح الفقـير كثـير الذنـب ألفهـا منظومـة لعبيـد فـي البطـاحين[1]

---

(١) الشيخ فرح من شيوخ المسيد ومن المعلمين الحكماء انظر «حلال المشبوك» للمؤلف.

أهل القرآن

ـ احمد ود سعد الشاعر المادح وهو من صغره من مادحي المصطفى ﷺ والقصيدة متراوحة بين العامي والفصيح.

هنيئــاً لكــم أيهــا الســكان ... بي دار الولى المشـحونة بـالقرآن

عام سبع وعشر خرج مـن أمدرمان ... أخذني الله واختـار لي خير مكان

أجـاب دعوتـي المنعـم الرحمـن ... بسكان الولي وجوار أهل القـرآن

نحمد ونشكرك يـا مكون الأكـوان ... حمداً بعد مـا يكون وقـد ما كـان

خصيتنـا بهـم صـاروا لنـا إخـوان ... كمـا قـال النبـي المؤمنيـن إخـوان

أولهـم محمـد نـور ولـد أحمـد ... ود همـزة الـبرتل دائمـاً سـرمد

بيـن فضلهـم كالشمس لـم يخمـد ... يا مولاي بهـم هـب لنا منك مـدد

بـابكر الفكـي كـم فـك متشـبكين ... دائماً سـاع في إصلاح ذات البيـن

إبراهيـم تقـى وصـافي مـن تدويـن ... شيلي الله بهـم وزن الدقـون آميـن

عبد الله الخليفة وأخيه ذوي الآداب ... شـباناً نشـوا فـي طاعـة الوهـاب

ثـالثهم الجنيـد الشـربوا من ميزاب ... والجـد نـور الدين يوسف النشـاب

إبراهيـم سـمي خليلك يـا رحمـن ... ذو القلب النقي من الصـدى والـران

بـه اقتبـس وأكرمتـه بـالقرآن ... فـي سره اقتبس الرشـد والعرفـان

الولـد المـبر لينـا وللوالديـن ... ذو القـدر النمـا سـموه محمديـنْ

الناس ليهـم حـظ وهـو لـه حظيـن ... يقضـي للحوائج ويعفـي مـن الديـن

أحمد بن الشيخ فيه العفـة مطبوعـة ... برم ايدو النفس ما جاهـا في طوعـا

السنة كلها شهورها واسبوعها ما بكل ما بمل من عطشة أو جوعة
محمد الامين بن الفقيه علي بالدين قد تحلى وبه قدروا علي
أمره بالبلاغة والشجاعة حلى يوم ساقوا العوين اشتد بنا الوحل
عاجبنا عجيب بسي سجيته واطباعه في الليل البهيم برتل اسباعه
ما يبغر من الناس الاشتروا وباعوا القرآن خزينتوا وبيه طال باعوا

* * * * *

عبد الله بن الخالة والحنفي والسيد أخيه رأينا الخير فيه
حليماً رؤوف ما جافى وما جوفي صادق بالوداد في العهود وفي
الحفظة الكرام يا صاحبي افهم أربع عشر ها هم عددهم تم
يا مولاي بهم أرجوك اكشف الهم واحفظنا الجميع من ذوات السم

الخــط

وهذه منظومة ابن البواب في الخط وقد اهتم بها كثيراً، طلبة القرآن وهـي من المنظومات المتداولة بينهم وقد صور فيها المؤلـف القلم والحبر وأدوات الخـط. والمنظومة لا تحتاج لشرح أو تنويه. قال ابن البواب:

يـا مـن يريـد إجـادة التحريـر ... ويـروم حسـن الخـط والتصويـر
إن كان عزمـك في الكتابـة صادقـاً ... فـارغب إلـى مـولاك في التيسير
واعـدد مـن الأقـلام كـل مثقـف ... صلـب يصـوغ صناعـة التحريـر
وإذا عمـدت لبريـه فتوخـه ... عنـد القيـاس بأوسـط التقديـر
انظـر إلـى طرفيـه فـاجعل بريـه ... مـن جـانب التدقيـق والتحضـير
واجعـل لجلفتـه قوامـاً عـادلاً ... يخلـو عـن التطويـل والتقصـير
والشَـقَّ وسِّـطْه ليبقـى بريـه ... مـن جانبـه مشـاكل التقديـر
حتـى إذا أتقنـت ذلـك كلـه ... إتقـان طـب بـالمواد خبـير
فـاصرف لآي القَـطِّ عزمـك كلـه ... فـالقَط فيـه جملـة التدبـير
لا تطمعنـي فـي أن أبـوح بسـره ... إنـي أضـن بسـره المسـتور
لكـن جملـة مـا أقـول بأنـه ... مـا بيـن تحريـف إلـى تدويـر
والـق دواتـك بالدخـان مدبـراً ... بـالخل أو بـالحصرم المعصـور
وأضـف إليـه مَغْـرَةً قـد صولـت ... مـع أصغـر الزرنيـخ والكـافور
حتى إذا مـا خمـرت فـاعمد إلـى ... ورق النقـي النـاعم المخبـور
فاكتبـه بعـد القطـع بالمعصـار كَـيْ ... ينـأى عـن التشـعيث والتغيـير
ثـم اجعـل التمثيـل دأبـك صـابراً ... مـا أدرك المـأمول مثـل صبـور

إبـدأ بـه فـي اللـوح منتضيـاً لـه | عزمـاً تجـرده عـن التشـمير
لا تخجلـن مـن الـرديء تخطـه | فـي أول التمثيـل والتسـطير
فـالأمر يصعـب ثـم يرجـع هينـاً | ولـرُبَّ سـهل جـاد بعـد عسـير
حتـى إذا أدركـت مـا أملتـه | أضحيـت رب مسـرة وصبـور
فاشـكر إلهـك واتبـع رضوانـه | إن الإلـه يحيـب كـل شـكور
وارغـب لكفـك أن تخـط بنانهـا | خـيراً تخلفـه بـدار غـرور
فجميـع فعـل المـرء يلقـاه غـداً | عـن التقـاء كتابـه المنشـور

إحصائية بعدد الخلاوي في جمهورية السودان نقلاً عن الإحصائية الرسمية لمصلحة الشؤون الدينية والأوقاف حتى مطلع ١٤١٠هـ

الإقليم	عدد الخلاوي
كردفان	٩٢٢
دارفور	٢٢٤٠
الأوسط	٤٣١٢
الشرقي	٣٤٢٨
الشمالي	١١٣٥
العاصمة القومية	٢٦١٨
الاستوائية	١٥
بحر الغزال	٦
أعالي النيل	٨
جملة	١٤٦٨٤

وهذه المدارس القرآنية بعضها معان من الدولة وبعضها يتكفل بها المجتمع.

الفهرس